AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥١٠ - السنة ٤٩ - جمادى الأولى ١٤٣١ هـ - أيار ٢٠١٠م

تأسيس علم العمران

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا

وزير الثقافة

كلمة العدد

استانبول عاصمة الثقافة الأوروبية

د. علي القيم رئيس التحرير

الأصول السورية للموسيقا الكنسية

فايز مقدسي

الدور الإنساني للمدرسة في النظام الرأسمالي

د. علي وطفة

الإنسان ومسؤولية اللسان

عبد الباقي يوسف

فلسفة الذكاء الصناعي

وسيم طاهر حسن

رؤية مضللة للتقدم العلمي

ترجمة: موسى ديب الخوري

مع امتداد الطريق

د. عبد الكريم الأشتر

أثر الحكايات العربية في أدب القص الغربي

ترجمة: رافع شاهين



تأملات - للفنانة غادة دهني

الإبداع

حين تغيب / شعر / سليمان العيسى

هو بعض قوتك / شعر / محمود مفلح

بين أمرين ونسيني / قصة / صفية محمد

ذاتيات رجل حاول النهوض / قصة / إبراهيم عواد خلف

بلاد الرافدين وعيلام

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد

مع الأديب حسين الحموي

المعرفة
AL - MARIFA
مجلة ثقافية شهرية
تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية
العدد ٥٦٠ السنة ٤٩ - جمادى الأولى ١٤٣١ هـ - أيار ٢٠١٠ م



دعوة إلى الكتّاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠-٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠-٦٠٠٠ كلمة
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها
- تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها. ولا تُعاد لأصحابها
- يُرجى توجيه المراسلات إلى المجلة على العنوان التالي:

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلة المعرفة - تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي: مطابع وزارة الثقافة

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها

تُضافُ إليها أجرة البريد خارجَ القطر

في هذا العدد

كلمة الوزارة

تأسيس علم العمران

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

استانبول عاصمة الثقافة الأوروبية

د. علي القيّم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

الإبداع

شعر:

قصة:

آفاق المعرفة

حوار العدد

متابعات

كتاب الشهر

آخر الكلام

كلمة الوزارة

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

تأسيس علـم العمـــران

لم تكن الدراسات الاجتماعية التي سبقت ظهور مقدمة (ابن خلدون) تستخلص قوانين للظاهرة الاجتماعية، وإنما كانت تكتفي بوصفها على نحو ما فعل (ابن حزم) في كتابه الشهير (الملل والنحل) أو ما فعل ابن مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق) أو الغزّالي في كتابه (الأحكام السلطانية)، أو الطرطوشي في

(سراج الملوك) فمثل هذه الكتب الشهيرة في تراثنا الثقافي تقع ضمن الدراسات التاريخية أو الوعظية بينما نجد علم العمران على النحو الذي أسسه ابن خلدون يدرس الاجتماع الإنساني كما يدرس علماء الطبيعة القوانين الناظمة لحيوية الطبيعة وهذا البحث عن القانون الناظم غائب حتى عن كتب هامة في التاريخ الإنساني مثل جمهورية أفلاطون أو كتاب الأخلاق لأرسطو أو كتاب المدينة الفاضلة للفارابي فهذه الكتب وأمثالها تبحث عما ينبغي أن يكون عليه المجتمع حتى يصير فاضلاً.

لقد كان ابن خلدون أول من اكتشف أن للظاهرة الاجتماعية قانوناً مثل قوانين الطبيعة والرياضيات وكان كل من قبله يظنون أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين، ولا تخضع إلا لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمشرّعين،وقد أدرك ابن خلدون أنه بهذا الاكتشاف يبتكر علماً ولكنه يقول بتواضع شديد (كأن هذا علم مستقل، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني) ويقول في موضوع آخر من المقدمة (كأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة وما أدري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم؟) ويبرز تواضعه الجم في قوله (ولعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا، والحكماء في أمم النوع الإنساني كثيرون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل.

ولقد فهم كل من قرأ المقدمة منذ أن كتبها ابن خلدون أن الرجل يقدم نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه تواضع العلماء وهذا التواضع سمة ظاهرة عند علماء العرب والمسلمين عبر التاريخ. ولقد بدأ ابن خلدون مقدمته بخطبة الكتاب ثم قدم فصلاً عن التاريخ وعمّا وقع فيه المؤرخون من مغالطات، ثم قدَّم بحثاً عن طبيعة العمران فيه ستة بحوث رئيسة تحدث فيها عن البداوة وعن نشأة الدول ثم عن الخلافة والمراتب السلطانية، ثم تحدث عن (البلدان والأمصار وسائر

العمران، وعن المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ثم عن العلوم وأصنافها، وعن التعليم وطرائقه، وسوى ذلك مما يتعلق بحياة المجتمع، وقد عكس بذلك وعيه الدقيق لاتساع الظاهرة الاجتماعية، والظواهر المتصلة بطرق التجمع الإنساني، موضحاً أثر الجغرافيا في تكوين الظاهرة، وهذا ما سمّاه عالم الاجتماع الشهير دوركهايم (المورفولوجيا الاجتماعية) أو علم البنية الاجتماعية، وقد توهم دوركهايم أنه أول من تنبه إلى هذا العلم، ولم يفطن إلى أنّ ابن خلدون سبقه إلى ذلك قبل خمسمئة عام.

ولعلَّ تأمل عناوين فصول المقدمة يكشف تحديد ابن خلدون الدقيق لنواظم القانون الاجتماعي، وحسبنا تأمل مثل هذا العنوان (الظلم مؤذن بخراب العمران) أو (وفور العمران آخر الدولة) أو (الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء) وسوى ذلك كثير مما يجسد خلاصة القانون ولا سيما في حديثه عن الظواهر السياسية أو الاقتصادية أو اللغوية أو الدينية.

وهو في تحذيره للمجتمع من الاستسلام لمن يغلبه، ينذر الأمة المغلوبة بالفناء المادي موضحاً أن خضوع الأمة لغيرها من الأمم، لا يؤثر في حريتها واستقلالها فحسب وإنما يؤدي إلى فناء معنوي ومادي، وهو يبرهن على ذلك بحقائق علم البيولوجيا وبالقياس المنطقي، ويقول: (والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك الغالب أمر الأمة عليها، وصارت بالاستعباد آلة لسواها فيقصر الأمل ويضعف التناسل) فيصير المغلوبون أكلة لكل آكل.

ومن أبرز خصائص مقدمة ابن خلدون فضلاً عن تقديمها علم العمران الجديد تأسيسها لأسلوب جديد في الكتابة العربية وعرضها للعديد من العلوم والفنون وهو لا يمر عليها مروراً عابراً وإنَّما يفصل القول فيها وفي مناهجها وطرائق الانتفاع بها.

وابن خلدون في مقدمته يجسد ظاهرة الحضارة العربية الإسلامية ذاتها،

في كونها استيعاباً لحضارات الأمم التي سبقت وإضافة إبداعية عليها، وفي أنها ليست مجرد نقل لعلوم الآخرين كما يزعم بعض الحاقدين..

ولقد قلت في حديث سابق، إن الناس نسوا كتاب ابن خلدون «العبر، وديوان المبتدأ والخبر» وتوقفوا عند مقدمته الشهيرة. ولكن الكتاب واحد من أهم مراجع التاريخ ومصادره، وفيه دراسة هامة مفصلة لتاريخ العرب والعجم والبربر، وفيه نوع من السيرة الذاتية وهو (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) وهو رواية طريفة لحياة ابن خلدون المليئة بالأحداث وبالتجارب يعرض فيها كل مشاهداته بدقة المؤرخ وأمانة العالم، وقد ألحق ابن خلدون هذه الدراسة بكتاب العبر الذي سيبقى في تراثنا العربي ذا خصوصية متفردة في كونه يقدم ثلاثة كتب، أهمها المقدمة التي حملت ابتكار علم العمران، وثانيهما كتاب التاريخ المفصل، وثالثهما سيرة ابن خلدون.

كلمة العدد



استانبول عاصمة الثقافة الأُوروبية

د. علي القيّم
رئيس التحرير

تعود فكرة اختيار مدن من الدول غير الأَعضاء في الاتحاد الأُوروبي، لتكون على مدى سنة كاملة، عاصمة أُوروبية للثقافة، إلى عام ٢٠٠٠، وقد وقع الاختيار رسمياً على مدينة استانبول التركية في عام ٢٠٠٦، لتكون تلك العاصمة عام ٢٠١٠.. وهكذا انطلقت منذ منتصف شهر كانون الثاني فعاليات ونشاطات هذه السنة الأُوروبية التي تشتمل على نحو /١٧٠/

حدثاً ثقافياً، وأكثر من /٥٠٠/ من المشاريع التراثية والحضارية والتظاهرات الفنية المتعددة..

يتنازع هذا الحدث رغبة تركية تهدف إلى التدليل على طابع المدينة الثقافي الأوروبي، التأكيد على تجذّرها الأوروبي، ولكن أين المهرب فاستانبول شرقية الطابع، في جميع ملامحها التاريخية والعمرانية، ومنذ عقود تدق حكومتها الباب الأوروبي، دون جدوى، ومع ذلك خرج سكان استانبول إلى الشوارع ليدشّنوا مدينتهم كأول عاصمة للثقافة في أوروبة، من خارج الاتحاد الأوروبي.. لقد انطلقت الألعاب النارية بسخاء في سماء المدينة الرائعة التي كانت عاصمة للإمبراطوريتين البيزنطية والعثمانية، وتعالت أصوات الموسيقا ونجوم الغناء التركي، بمشاركة أكثر من خمسة آلاف شخصية محلية وعالمية.

بعيداً عن السياسة وعن رغبة رجب طيب أردوغان: «إن استانبول دليل حي على أوروبيّة تركيا، وأنها جزء طبيعي من أوروبة» فقد استعدت هذه المدينة التاريخية الجميلة لهذا الحدث بترميم آثارها البيزنطية، مثل «آيا صوفيا» و«قصر قوبكابي»، وافتتاح متاحف جديدة، وترميم الآثار الإسلامية، وتجديد معبد يهودي، وتمّ استلهام حفل الافتتاح من الطرق الصوفية، وإيقاعات رقص المولوية.. وكل ذلك تمَّ تحت شعار سوف يرفع عالياً حتى نهاية عامنا الحالي: «ليس هناك مدينة في العالم تثير الإلهام مثل استانبول»، و«استانبول مدينة العناصر الأربعة» في تحية لفلاسفة الإغريق القدامى، الذين عاشوا في شرق تركيا بدءاً من القرن السابع قبل الميلاد، وفسّروا بنية الكون، بالعناصر الأربعة (التراب- الهواء- الماء- النار) والتي أثّرت بالحضارة الغربية والشرقية، وبقيت معتمدة حتى تاريخ بدء الثورة العلمية في القرن الثامن عشر، وقد توزعت الأنشطة الثقافية والفنية على أربعة أقسام، يحمل كل منها اسم عنصر من العناصر الأربعة، وكانت البداية من التراب (من ١كانون الثاني إلى ٢٠ آذار) وحمل هذا القسم شعار «التقاليد والتحوّل» وضمّ ستة معارض، وعدداً متميزاً من العروض

الموسيقية..

القسم الثاني حمل اسم (الهواء) من ٢١ آذار إلى ٢١ حزيران، وقد وضع له شعار «الرسالة السماوية» وسيضم عدداً من المعارض، التي تعرّف بالآثار الدينية التاريخية الإسلامية والمسيحية الموجودة في استانبول، إضافة إلى عدد كبير من الأفلام وعروض الهواء الطلق..

القسم الثالث (الماء) من ٢٢ حزيران إلى ٢٢ أيلول، وسيتم فيه إلقاء الضوء على مدينة استانبول بوصفها جسراً يربط بين آسيا وأوروبة، حيث سيتم إطلاق معرض «أوروبة في البوسفور» وستكون الفرصة متاحة للفنانين من جميع أنحاء أوروبة لعرض إبداعاتهم الفنيّة على عوامات وجسور صغيرة بمحاذاة مضيق البوسفور، وغيرها من النشاطات.

القسم الرابع (النار) من ٢٣ أيلول إلى ٣١ كانون الأول، وسيحمل شعار «صياغة المستقبل» وسيكون من أهم نشاطاته «بينالي استانبول الدولي الحادي عشر» و«البينالي المعماري» وصياغة المستقبل المخصصة للأطفال.

❁ ❁ ❁

زرت استانبول ثلاث مرات بين (٢٠٠٣ و٢٠٠٧) بصفتي عضواً في مجلس إدارة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، المعروف باسم «أرسيكا» التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وقد تمَّ انتخابي في «كوالالامبور» من قبل /٥٤/ دولة عربية وإسلامية، وكان أول ما فكّرت فيه عندما حطّت الطائرة السورية في مطار استانبول، هل ستكون هذه الفرصة كافية للتعرف على مدينة قديمة، حديثة، شرقية، غربيّة، علمانية، وإسلامية.. مدينة بدأ الاستيطان البشري فيها منذ الألف الثاني قبل الميلاد، تحت اسم «بيزنطيوم» واختارها الإمبراطور الروماني «قسطنطين الأكبر» عاصمة للإمبراطورية عام /٣٣٠م/ وأعطاها اسمه لتصبح «القسطنطينية»، وانتقلت إلى السيادة العثمانية

في عهد السلطان محمد الفاتح عام /١٤٥٣م/ وحملت منذ ذلك التاريخ اسمها الحالي استانبول، وأطلق عليها لقب «الأستانة والباب العالي» وأصبحت عاصمة للخلافة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول عام ١٥١٦م..

منذ الوهلة الأولى شعرت أنني أحتاج إلى فرصة أكبر، والوقت ضيّق، واجتماعات المجلس (صباحية ومسائية) ومع ذلك حاولت اغتنام الفرص ما أمكن في ساعات الصباح الأولى، وفي ساعات المساء، التي عرفتني على ساحة «تقسيم» والأزقة المتفرعة من شارع الاستقلال، الأشهر في هذه المدينة التي يلتقي في جنباتها الضوء والعتمة، والجسر الذي يفصل استانبول الآسيوية عن استانبول الأوروبية.. لقد قطعت المسافة مشياً على الأقدام، وهبطت السلالم لأجلس في مطعم أسفل الجسر، يقع بين قارتي آسيا وأوروبة، وكانت لحظات مفعمة بحضور آسر للزمن الذي يتوقف هناك..

في استانبول لا يشعر المرء بالغربة، لأن الحياة تدبّ في شوارعها وأسواقها التجارية ومعالمها التراثية والعمرانية.. اجتماعاتنا كانت تتم في قصر يلدز الشهير، مما جعلنا نعيش حالة من الوجد، والرغبة الشديدة في التعرف على معالمه وروائع التحف والآثار الموجودة في غرفه وخزائنه.. ومنه كان المنطلق للتعرف على مبنى «آيا صوفيا» الذي يعد أول كنيسة شرقية لها صبغة عالمية، وأكبر معبد للعالم المسيحي حتى فتح المدينة من قبل السلطان محمد الفاتح.. لقد جعل منها الإمبراطور «جوستنيان» تحفة معمارية بيزنطية خالدة، أنفق على عمارتها /٣٢٠/ ألف رطل من الذهب، وأصبحت عمارتها الضخمة مصدر إلهام عدد من المعماريين العثمانيين في عمارتهم للمساجد، وقد تحول هذا الصرح الحضاري إلى مسجد، وإلى متحف في زمن مصطفى كمال أتاتورك، ويعد من أهم معالم استانبول التاريخية والعمرانية، التي لايضاهيها جمال آخر..

خلال فترة حكم السلطان محمد الفاتح، التي دامت نحو ثلاثين عاماً، بني في استانبول نحو /٣٠٠/ مسجد، ويعد مجمع الفاتح أول مجمّع معماري يظهر على أراضي الإمبراطورية العثمانية في استانبول، وقد بناه عام ١٤٧٠م، ويتكون من مبانٍ

عديدة، يتوسطها الجامع الضخم..

أما مجمّع السليمانية، الذي بناه السلطان سليمان الأول، فيعكس بقوة وجلاء، عظمة السلطنة العثمانية، حيث ترتفع فيه نحو /٤٠٠/ قبة من أحجام مختلفة، لثمانية عشر بناء تشكّل المجمّع الضخم..

❁ ❁ ❁

من يتجوّل في استانبول القديمة، يجد التشابه الواضح مع عدد من العواصم والمدن العربية التقليدية مثل: دمشق وحلب والقاهرة وتونس والدار البيضاء.. إنه سحر الشرق الذي ما يزال يرخي بظلاله الوارفة على الأبنية والقصور والمساجد والساحات والشوارع والأسواق والحمامات، وأماكن صناعة وبيع الحرف التقليدية التي تجذب الزوار والسياح القادمين من شتى أرجاء العالم، والذين يتوقع أن يصل عددهم إلى أكثر من عشرة ملايين زائر في عام ٢٠١٠ .. وتعد هذه العناصر التقليدية لمدينة استانبول أحد أهم عناصر الدعاية السياحية العالمية، لعاصمة الثقافة الأوروبية.. التي تعاني من اختناقات مرورية، مثلها مثل: دمشق والقاهرة وبيروت وطهران وغيرها..

الجهات المعنية عن المدينة القديمة في استانبول، لم تستكن لهذا الأمر الذي أرهق أصحاب القرار في عواصمنا العربية التقليدية فقد قامت بلدية استانبول بدراسة شاملة لشبكة شوارع المدينة القديمة، وقد وجدت في الزيارة الأخيرة أن الحلول بدأت تأخذ طريقها، فقد منعت حركة مرور المركبات، ورصّفت الشوارع بالحجارة التقليدية، وأدخلت القطارات الكهربائية، صديقة البيئة، بخط طوله/١٢/كم، وتمَّ الاستغناء بشكل كامل عن حافلات النقل العام الأخرى في المدينة القديمة..

استانبول مدينة كبيرة، عدد سكانها يتراوح بين (١٥ و١٧) مليون نسمة، وتعدّ المركز الاقتصادي والتجاري والصناعي والمالي والثقافي والسياحي الرئيس لتركيا.. لذلك ليس غريباً أن تكون مركز الاهتمام والرعاية والتأثير القوي في حياة جيراننا الأتراك، الذين يعدّون مدينتهم دائماً من المدن التي أثرت أيضاً تأثيراً قوياً في حضارة أوروبة

وثقافتها.. ربما طابعها السياحي يضعها في قمم المعالم السياحية، ولكن أوروبة لا تزال -حتى الآن- ترفض الاعتراف بأوروبيتها. واختيارها عاصمة للثقافة الأوروبية، عزز الأمل عند الأتراك بقرب انضمامهم إلى الاتحاد الأوروبي الذي بدأت مفاوضات الانضمام إليه رسمياً منذ عام ٢٠٠٥.

«أورهان باموق» الأديب التركي الحائز على جائزة نوبل للآداب، والذي تحضر استانبول في كثير من أعماله، وخاصة كتابه «الذكريات والمدينة» قد يكون أسعد الناس لأن مدينته أصبحت محط اهتمام عالمي، وهو الذي كشف أسرارها وألغازها، وقدّم عنها صورة بالغة الثراء، عن جوامعها ومآذنها وقبابها وجسورها وشوارعها وأزقتها الخلفية، وحركة المدينة المعاصرة، وقام بتسجيل الوهج الذي يحيط بالروح الخالدة لاستانبول، وأحوالها الملونة والواسعة..

«باموق» من مواليد هذه المدينة في عام ١٩٥٢، وهو الأدرى بشعابها.. لقد كبر وكبرت معه أحلامه وأشواقه وتوقه إلى وسع العالم كله.. في صغره كانت استانبول مدينة بسيطة ومتعبة، يبلغ عدد سكانها مليون نسمة، وبعد أكثر من نصف قرن، تحوّلت حاضرة مساحتها مضاعفة عشر مرات، ومحاطة بأحياء غريبة ومتباعدة، تكبر المدينة مثل الناس، وتكبر روحها، ويبقى الوهج في المدينة القديمة، وفي معالمها الخالدة التي تدلنا على استانبول التاريخ والعمارة والحضارة..

الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث



الدور الإنساني للمدرسة في النظام الرأسمالي الجديد؟

د. علي أسعد وطفة*

تشهد الأنظمة التربوية العالمية، منذ ثمانينات القرن الماضي حتى اليوم، نسقا متواترا من الإصلاحات التربوية التي تشكل في جوهرها استجابة موضوعية لمتطلبات الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي الجديد. وفي ظل هذه الإصلاحات التربوية المتعاقبة وجدت المدرسة نفسها في أحضان السوق الاقتصادي الرأسمالي تخضع لقوانينه وتتفاعل مع معطياته وتستجيب لمتطلباته، وهي في دائرة التجاوب مع النظام الاقتصادي الجديد بدأت تمارس

** باحث وأستاذ في جامعة الكويت.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي

دورها الرأسمالي في نسق فعاليات تربوية ثلاثية الاتجاه، فهي في البداية، تقوم بتزويد السوق الاقتصادية بكفاءات قادرة على التكيف مع مختلف الظروف المتغيرة للحياة الاقتصادية الرأسمالية في عصر العولمة، ثم، تعمل بالتالي، أي في المرحلة الثانية، على بث ثقافة الاستهلاك بين المتعلمين وبناء الإنسان المستهلك بامتياز لتشجيع دورة الإنتاج الرأسمالية، وأخيرا، تعمل في المرحلة الثالثة من تطورها، على تحقيق الاندماج الكلي في آلية السوق الرأسمالية متحولة بذاتها إلى مؤسسة رأسمالية بنيوية بامتياز(١).

لقد كانت العلاقة التاريخية ما بين النظام الرأسمالي والمدرسة في الماضي علاقة إشكالية إذ لطالما حاولت المدرسة أن تنفلت من عقال هذه الرأسمالية المتوحشة لتمارس دورا ثقافيا إنسانيا يتجاوز حدود السوق وآليات اشتغاله، وقد حققت نجاحا كبيرا في مراحل تاريخية معينة وفي مناطق محددة من العالم، ولكن النظام الرأسمالي لم يكف أبدا عن محاصرة المدرسة والعمل على توظيفها في خدمة دورته الرأسمالية، وقد عرفت هذه العلاقة بين المدرسة والنظام الرأسمالي أطوارا عديدة تتصف بطابع التشاكل والتعقيد والتغاير.

أما اليوم فإن النظام الرأسمالي الجديد المزهو بانتصاراته فيما بعد الحداثة يطالب المدرسة بتحقيق هدفين أساسيين: يتمثل الأول في إنتاج أناس مؤهلين جيدا لأداء أدوار رأسمالية تسويقية للنهوض بقدرات النظام الرأسمالي. بينما يتمثل الثاني في إنتاج طبقة عمالية بروليتارية قادرة على الوفاء بمتطلبات هذا النظام وتلبية احتياجاته(٢). ووفقا لهذا الدور الثنائي الجديد للمدرسة، يمكن التمييز بين مرحلتين أساسيتين متضافرتين وظيفيا: في المرحلة الأولى يتم إخضاع المدرسة لمنطق الرأسمال وقانونياته الخاصة، أي، تعليم الأفراد وفقا لمتطلبات الحياة الرأسمالية المتغيرة عبر الزمان والمكان. وفي المرحلة الثانية تُطالب المدرسة بالعمل على إنتاج طبقة عاملة وتزويدها بالقدرة على إعادة إنتاج نفسها رأسماليا. وهذه الفعاليات لا تتم على نحو انسيابي، لقد قاومت المدرسة وما زالت تقاوم، وارتدت هذه المقاومة تاريخيا حلة الصراع الطبقي الذي اتخذ متراسا له بين جدرانها. وما زالت هذه المدرسة تصادم وتناضل للمحافظة على دورها الإنساني، ولكنها اليوم وفي دائرة هذا الصراع الطبقي تجد نفسها تحت قصف ثقيل لعولمة جارفة متوحشة لا تهادن تعمل على تفكيك المدرسة وتفريغها من مضامينها الإنسانية.

وإنه لمن المؤكد أن تاريخ تطور المدرسة لا ينفصل عن الصراع بين القوى الاجتماعية والسياسية، حيث كانت المدرسة ساحا للصراع الشرس بين أيديولوجيات فكرية وسياسية متضاربة متناقضة . وقد عرفت المدرسة تاريخيا ثلاث مراحل تاريخية متعاقبة في ظل النظام الرأسمالي :

في المرحلة الأولى، تمَّ تأسيس المدرسة من قبل البرجوازية كمؤسسة تربوية منفصلة عن وظيفة الإنتاج الرأسمالي لأداء أدوار أيديولوجية ضد الإقطاع والبروليتاريا في آن واحد . حيث قامت بتحويل المدرسة إلى أداة أيديولوجية من أجل فرض هيمنة الثقافة البرجوازية في مجال العمل والحياة والإنتاج. والمدرسة في هذه المرحلة مطالبة إضافة إلى بث المعرفة العلمية بالعمل على بناء «مواطنين صالحين» يتمثلون الأخلاق البرجوازية، ويقاومون احتمال وجود ثقافة عمالية مستقلة.

وفي المرحلة الثانية، عهد إلى المدرسة بعملية تزويد النظام الرأسمالي باليد العاملة المؤهلة والكفاءات والخبرات العلمية الضرورية من أجل تطوير الصناعة وتنمية المؤسسات الرأسمالية. وفي هذه المرحلة لم تعد وظيفة المدرسة قاصرة على بث القيم البرجوازية حيث أصبحت معنية منذ اللحظة -إضافة إلى وظيفتها الأيديولوجية -بتطوير المعرفة العلمية الضرورية في عملية الإنتاج الرأسمالية حيث تؤدي دوراً اقتصادياً رأسمالياً يتميز بدرجة كبيرة من الوضوح.

وفي المرحلة الثالثة، بدأت عملية دمج المدرسة في العملية الإنتاجية وتحويلها إلى مؤسسة رأسمالية ترتبط جوهريا بعجلة الإنتاج الرأسمالي والصناعي. حيث بدأت المؤسسات الرأسمالية نشاطا واسعا لدمج المدرسة كليا في نسق الحياة الوظيفية للمجتمع الرأسمالي الصناعي وتلبية احتياجاته التربوية والاستهلاكية. وبعبارة أخرى بدأت المدرسة تتحول إلى أداة رأسمالية بوظائفها وبنيتها وأدوارها التربوية، وهذا ما يمكننا أن نطلق عليه رأسملة المدرسة[٣].

المتطلبات التربوية الجديدة:

لقد أدت التحولات التكنولوجية والتقانية المتسارعة في ظل العولمة الرأسمالية الجديدة إلى تغير في متطلبات النظام الرأسمالي ،حيث اشتد الطلب الرأسمالي على القوى العاملة المرنة القادرة على التكيف في مختلف الظروف المتغيرة، والقادرة على تلبية حاجات الرأسمالية الجديدة . وقد فرض هذا الاحتياج الجديد



نمطا جديدا من التفاعل بين المدرسة والنظام الرأسمالي، فلم تعد الأولوية لعملية تحويل المعرفة والثقافة كما كان هو الحال في المدرسة التقليدية، حيث بدأ الاهتمام يُعطى لعملية بناء المرونة الوظيفية والقدرة على التكيف مع المستجدات الاقتصادية والتكنولوجية للعصر الجديد عن طريق التأهيل التربوي، وهنا بدأ التركيز على المهارات والمرونة والفاعلية والمبادرة، حيث احتل هذا الجانب مركز الصدارة والأولوية في المدرسة الرأسمالية المعاصرة التي بدأت تستجيب مباشرة للحاجات الاقتصادية والمهنية المباشرة للنظام الرأسمالي الجديد.

فالتحولات التي شهدتها القوى المنتجة أدت إلى تعديل النظام التربوي وفقا للمعايير الجديدة. ومما لا شك فيه أن ظهور التكنولوجيا الجديدة للمعلوماتية ووسائل الاتصال، وتطور إمكانية الفرد للعمل المشترك في الجماعة، فرض على المدرسة العمل على تعزيز القدرات على التكيف والاتصال والفاعلية.

ومما لاشك فيه أن النظام الصناعي القائم على التقسيم التايلوري التقليدي للعمل يمكنه أن يتوافق مع نظام تربوي يعتمد مبدأ الكفاءة والجدارة. ولكن الحال مختلف جدا اليوم عما كان عليه العهد التايلوري حيث يفرض النظام الرأسمالي القائم على النظام المدرسي ويطالبه بأن يحدث في ذاته منظومة من التحولات الجديدة تتوافق مع متطلبات الرأسمال الجديد وطبيعته الحداثية المتجددة. ووفقا لهذه الضرورة الرأسمالية الجديدة يجري الحديث عن عمليات وفعاليات تربوية جديدة تعمل على تزويد النظام الرأسمالي

الجديد باليد العاملة الماهرة المتكيفة والقادرة على التجاوب مع معطيات الإنتاج الرأسمالي والتكيف مع مختلف التحولات المستجدة في هذا النظام، وهذه العملية ليست سوى جزئية واحدة في نظام التغيرات والوظائف الجديدة التي تؤديها المدرسة وفقا للوضعيات الرأسمالية الجديدة[٤].

فالنظام الرأسمالي الجديد يعمل على تحقيق التوازن التربوي بين الوظائف المطلوبة وبين مستوى التأهيل، وهو يرفض تأهيلا تربويا يتجاوز حدود الوظائف المطلوبة في ميدان العمل والحياة الرأسمالية. ولا يأتي هذا الرفض لأن التأهيل العالي مكلف اقتصاديا بل لأن ذلك يؤدي إلى ضجر العمال ونفورهم وعدم ارتياحهم وهذا الأمر يرتبط بوضعية قوة العمل وطموحاتها وفاعليتها في ميدان العمل والإنتاج. ويمكن ملاحظة هذا الوضع في عملية تعميم التعليم في بعض المراحل ومن ثم العمل على تحديده في بعض المستويات لمنع ما يسمى بالتأهيل الزائد.

لقد أدت التحولات الراديكالية التي فرضها الرأسماليون على المدرسة إلى حرمانها من خاصة الاستقلال التربوية وأضعف دورها الإنساني الذي يتعلق ببناء الثقافة والمعايير والقيم، وهنا يمكن القول بأن المدرسة تتصدع تحت الضربات القوية لمعاول الرأسمالية الجديدة، حيث تفصل المدرسة عن سياقها الحضاري والإنساني من أجل التكيف لمتطلبات الرأسمال ومقتضياته. وهذا التحول الجديد في دور المدرسة ووظيفتها يشكل جوهر الإصلاحات التربوية الجارية خلال السنوات الأخيرة المنصرمة فالإصلاحات التربوية القائمة إصلاحات يفرضها النظام الرأسمالي ويعمل على دعمها وتعزيز مسارها. ويمكن القول في هذا السياق بأن فكرة الإصلاح الأساسية تقوم على تحقيق استقلال المدرسة عن السلطة السياسية المركزية وذلك من أجل إفساح المجال للمنطق الرأسمالي بالحضور والتقدم. ويمكن أن يلاحظ هذا الأمر في ولادة فروع دراسية جديدة متعددة الاتجاهات متوافقة مع الحاجات الجديدة للمجتمع الصناعي. لقد شكلت الإصلاحات التربوية في حقيقة الأمر قصفا تمهيديا لعولمة رأسمالية تسعى إلى تفكيك المدرسة وابتلاعها إشباعا لجشع الوحش الرأسمالي إلى القوة والثروة والسلطة، وعلى هذا النحو وفي دائرة هذا القصف الرأسمالي للمدرسة تتموضع الإصلاحات التربوية الجديدة التي تهدف إلى تحقيق مبدأ الإدارة اللامركزية، والاستقلال الذاتي، والتطوير المدرسي،

وتخفيف العبء المدرسي، ودمج المدرسة في سوق العمل والإنتاج، ومن ثم تحقيق مبدأ الدمج التقاني واحتواء التدفق المعلوماتي، وتحفيز التعليم، وتطوير القطاع الخاص، وهذه الإصلاحات جميعها تصب فيما يسمى اليوم برأسملة المدرسة أو تسويقها أو تحريرها وفي كل هذا وذاك يتجلى الوجه الأسطوري لعولمة رأسمالية متوحشة.

فالمدرسة -مدرسة اليوم - تتحول إلى مؤسسة تؤدي دورها ووظيفتها في خدمة الرأسمال الجديد أكثر من أي وقت مضى، وهي في سياق دورتها التربوية هذه تعمل اليوم على إنتاج وإعادة إنتاج رأسمال بشري يوظف في خدمة الحاجات المتنامية للصناعة الرأسمالية، وهي وفقا لهذا الدور بدأت تفقد دورها الثقافي والإنساني بوصفها مؤسسة منتجة للقيم والدلالات والمعاني، حيث يعمل النظام الرأسمالي ومن أجل المحافظة على قوته واستمراره على وضع برامج واستراتيجيات للإصلاح التربوي بالطريقة التي تجعل المدرسة أكثر قدرة على التجاوب والاستجابة مع متطلبات الرأسمالية الجديدة لتحقيق التوازن الرأسمالي المطلوب في العملية التربوية للمدرسة برمتها.

السياق الاقتصادي الجديد:

تشهد الحياة الاقتصادية الجديدة في المجتمعات الرأسمالية تطورات خاطفة وصاعقة في مختلف تجلياتها التربوية والإنسانية ويمكننا أن نميّز نسقا من السمات الأساسية التي تسم الأوضاع الاقتصادية الجديدة.

السمة الأولى، ارتباط الاقتصاد بالتقدم التكنولوجي: يرتبط الاقتصاد الجديد اليوم ارتباطا حيويا بالتقدم التقني والإبداع التكنولوجي، حيث تتراكم المعلومات والمعارف التي تؤدي بدورها إلى تسارع في إيقاعات التطور التكنولوجي، ويلاحظ في هذا السياق تنامي حدة التنافس الاقتصادي الذي يحرض عملية التسارع وزيادة النمو في معدلات الاستهلاك والإنتاج في مجال الحياة الاقتصادية عبر دورات متسارعة للسوق العالمية المتنامية. ويضاف إلى ذلك كله بأن المناخ الاقتصادي الصناعي والتكنولوجي قد تحول إلى مناخ متغير غير مستقر وسديمي بصورة لم يسبق لها مثيلا في تاريخ الحياة الاقتصادية، حيث تقلصت القدرة على التنبؤ إلى حدودها الدنيا.

السمة الثانية: عدم استقرار سوق العمل، حيث يتسم السوق بطابع التغير السريع

وعــدم الاستقــرار في معــدلات التوظيف. فالعمال والموظفون يجدون أنفسهم مكرهين علــى تغيير وظائفهــم ومراكزهم الوظيفية باستمــرار. حيــث تتغــير طبيعــة العمــل وماهيته، فمن جهة، هنــاك تنامي كبير في عدد المتخصصين في المعلوماتية والمهندسين والمتخصصــين في الصيانــة وإدارة شبكات الكمبيوتر. وهذا هــو الجانب الأكثر تطورا في ســوق العمــل. ومن جهة ثانيــة، هناك تنامي كبــير في الوظائــف الثانوية التي لا تحتاج إلى أي تأهيل. ففي إحدى الدراسات التــي أجرتهــا وزارة شــؤون الموظفــين في الولايــات المتحدة الأمريكيــة في الفترة بين ١٩٩٨-٢٠٠٨، تبيّن أن أكثر الوظائف أهمية من حيث العدد كانت وظائف المدى القصير والمتعلقة بالتدريــب المهني. ويلي هذه الفئة وظائــف البائعين، والحراســ، والمساعدين الطبيين، وموزعي المــواد الغذائية (فهناك ٢٥٠٠٠٠ وظيفــة جديدة في هــذا القطاع فحسب). فسوق العمــل هنا لا يتطلب كما يبدو تأهيــلا عاليا يتعلق بهذه الوظائف بل اتساع في الطلب عليها كميا.

السمــة الثالثــة: وتتمثل في تخلي الدولة عــن القيــام بالخدمــات العامــة، فالقوى الاقتصاديــة تضغط علــى الدولة من أجل تقليصــ الضرائــب. وهكذا فــإن القطاع الاقتصــادي يشهد حالة مــن التغاير وعدم الاستقرار وعدم القدرة على التنبؤ وازدواجية التأهيل المهني، وتنامي الأزمات التي تمتص المال العــام (مثل الأزمــة الاقتصادية التي بدأت عام ٢٠٠٨).

هذه الوضعيات الاقتصادية بما تنطوي عليــه مــن أزمــات وتوتــرات وانقطاعات ومفاجآت وتطورات تشكل مقدمات أساسية لإعــادة النظــر في السياسيــات التربويــة القائمة وتوجيه القطاع التعليمي نحو غايات وأهداف وممارســات جديدة تتعلق بالطلب على الكفــاءات والخبرات التــي يقتضيها سوق العمل.

المدرسة في خدمة السوق:

من الطبيعي أن تتأثر المدرسة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة، فالأزمات الاقتصادية المتعاقبة والتحولات الرأسمالية المتواتــرة تنعكــس مباشــرة في وظيفــة المؤسسات التربوية والتعليمية. فهناك اليوم مــن ٥٠٪ إلى ٦٠٪ مــن الوظائــف التي لا تحتــاج إلى تأهيل عال، وهــذا الوضع يعني أنه ليس مجديا اقتصاديا أن تقوم المؤسسات التعليمية بتكثيف التعليم وتقديم تعليم عالي للجميع. وهــذا يعني أن السياسات التربوية بدأت تتجه إلى تقليص نفقات التعليم العام وهذا يــؤدي في الغالب إلى تقليص نوعيته.

لقد بينّ الخبراء (التربويون) في عدد من المؤتمرات بأن البلدان الصناعية قد وصلت إلى الحد الأعلى الممكن من تعميم التعليم وأن عدد الطلاب في المدارس وصل حدّه الأقصى خلال السنوات الثلاثين الماضية.

لقد تغير النظام المدرسي القائم من الداخل والخارج حيث ركزت المدرسة خلال العقود الثلاثة الماضية على أهمية التطوير النوعي للمدرسة. والآن يعمل النظام الاقتصادي بمواصفاته الجديدة على تغيير المدرسة وفقا للمصالح الاقتصادية والحالة الأوروبية تمثل نموذجا واضحا لهذا الجانب الاقتصادي في وظيفة المدرسة.

في عام ١٩٨٩ نشرت المجموعة الاقتصادية الصناعية الأوروبية (ERT، European Round Table) تقريرها الأول حول التعليم وخلاصته الأساسية: أن التربية والتعليم يشكلان استثمارا حيويا واستراتيجيا من أجل نجاح المؤسسات الاقتصادية في المستقبل «ومن هذا المنطلق بدأ التطور التقني والصناعي للشركات والمؤسسات الأوروبية يطالب أنظمة التعليم بتجديد سريع في المناهج وفي مضامين العملية التعليمية في المدارس والمؤسسات. وقد أعلنت هذه المجموعة بأن تأثير الصناعة في التعليم محدود ولاسيما فيما يتعلق بالمناهج والمضامين، وأن المعلمين لا يمتلكون فهما كافيا للأوضاع الاقتصادية ولقطاع الأعمال ولمفهوم الريع الاقتصادي كما أنهم لا يدركون تنامي الحاجات الاقتصادية للمرحلة الجديدة التي تتصف بالتدفق الاقتصادي[٥].

المرونة التربوية:

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن تحقيق المواءمة بين نظام التعليم والتأهيل وبين اقتصاد سديمي متغير غير مستقر يعاني من عدم القدرة على التنبؤ بدرجة لم يسبق لها مثيلا في التاريخ الاقتصادي؟ وغالبا ما تكون الإجابة عن هذا السؤال بالقول: إن النقص في القدرة على ضبط هذه الفوضى يتطلب منا التكيف مع هذه الوضعية. والكلمة المفتاح لهذه الوضعية التوازن بين المؤسسات التعليمية والمؤسسات هي المرونة «flexibilité».

فالعمال والخبراء والعاملون في الحقل الصناعي والإنتاجي مطالبون اليوم بتطوير أنفسهم والتكيف مع أوضاع اقتصادية وإنتاجية متغيرة باستمرار. فالتكنولوجيا تتغير، والإنتاج يتغير، وبالتالي فإن الوظائف والمهمات تتغير أيضا، وهذا التغير يتسم بطابع التسارع والاستمرار، وبالتالي فإن التنافس يجعل الوظائف غير مستقرة ومتغيرة

بصورة دائمة. وهذه الدورات المتعاقبة من التغير والتغاير تقتضي إعادة التأهيل والتدريب والتدوير في الوظائف وهذا يكلف كثيرا من الوقت والمال. ووفقا لهذه الصورة فإن تأهيل العمال وفقا لمتطلبات الإنتاج الجديد وآلياته يمثل استثمارا ثقيل الوطأة وطويل الأمد ويؤخر العملية الإبداعية. إن تضاعف النفقات وزيادتها الناجم عن عملية التدوير في اليد العاملة والتكنولوجيا يجعل من التكاليف باهظة جدا. وينتج عن ذلك أن التكنولوجيا المستخدمة وتعقيدها المتنامي يجعل المعرفة أمرا في غاية الأهمية ويجعل التأهيل المهني مهما بدرجة لم يسبق لها مثيلا.

والسؤال أيضا كيف يمكن إيجاد الحلول لهذه المعضلة؟ هل يمكن حلّ المسألة عن طريق التعليم والتدريب مدى الحياة؟ ذلكم هو الحل الذي تقترحه منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE(٦). وتنطلق هذه الفكرة من أن الإعداد والتدريب للحياة المهنية لا يجب أن يكون نهائيا حيث يجب على العاملين متابعة تأهيلهم المهني مع مستجدات العمل والتطور خلال حياتهم المهنية بكاملها من أجل المحافظة على سوية إنتاجهم وقدرتهم على الاستمرار في وظائفهم. وهذا الأمر يتضمن ثلاثة أشياء: القدرة على التكيف Adaptabilité، والمسؤولية Responsabilisation، والحرية Dérégulation.

القدرة على التكيف:

في البداية يجب إعادة النظر في البرامج والمناهج التعليمية الأساسية من أجل رفع مستوى القدرات عند العمال في مواجهة الوضعيات المهنية المتغيرة راديكاليا. والأمر يتعلق - كما يوصي المجلس الأوروبي الموحد Conseil européen réuni في امستردام عام ١٩٩٧ - بتأكيد وتعزيز القدرات المهنية والاجتماعية وتكييف العمال بصورة أفضل من أجل سوق العمل، ومن هذا المنطلق توضع الأساليب والطرائق التربوية القائمة على تكديس المعارف في قفص الاتهام.

ووفقا لهذه الوضعية فإنه يتوجب على جميع العاملين أن يكونوا قد تعلموا وبصورة مسبقة تطوير قدراتهم وفقا لمعطيات التطور التكنولوجي وأن يكونوا قد تعلموا أيضا مبادئ التفاعل والتواصل بين الإنسان والآلة عبر الشاشات ولوحات التحكم. وهناك أيضا مسألة إدماج الميديا والوسائط التكنولوجية في المؤسسات المدرسية. وهنا يأتي التأكيد على أهمية غرس روح الابتكار المتعلقة بالتكنولوجيا الجديدة وتوظيفها

في خدمة التأهيل المهني على مدى الحياة. وذلك كله من أجل ضمان عملية تدوير وتجديد متسارع للمرونة المهنية القصوى للعاملين، وهؤلاء يتوجب عليهم استخدام الحواسيب والشبكة المعلوماتية من أجل تجديد معلوماتهم وخبراتهم من المهد إلى اللحد du berceau au tombeau. ويغدو من السهل الضغط على العاملين من أجل المحافظة على مستوى تأهيلهم المهني وقدرتهم على المنافسة في مجال اختصاصاتهم حتى أثناء عطلهم الأسبوعية وفي أوقات فراغهم وذلك بحثهم على استخدام الحواسيب والشبكات وهذا كله يؤدي إلى تنمية روح المسؤولية المهنية عند العاملين فيما يتعلق بخبراتهم ومستوى تأهيلهم.

عندما يصبح المواطن مستهلكا:

تمثل مسألة تنمية الاستهلاك وبناء الإنسان المستهلك القضية الأساسية في عصر العولمة والرأسمالية الليبرالية الجديدة، ولأن الطابع الاستهلاكي للمجتمع يمثل ضرورة اقتصادية للرأسمالية الجديدة فإن النظام الرأسمالي يؤكد على ضرورة قيام المؤسسات التعليمية بتنمية الجانب الاستهلاكي في شخصية المتعلمين.

لقد بينت الوقائع بأن الكابح الأساسي لنمو التجارة الإلكترونية عبر الإنترنت هو من طبيعة سيكولوجية أكثر من كونه من طبيعة تقنية. فمنذ التسعينات بدأت اللجنة الأوروبية تشعر بالقلق حيث تبين لها بأن القارة الأوروبية تأخذ مكانا متدنيا جدا في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات TIC قياسا إلى الدول الأخرى النشطة في هذا الميدان، وبينت هذه اللجنة أن الدول الأوروبية ستعاني كثيرا في هذا الميدان ما لم تستطع الأنظمة التربوية والتعليمية أن تواكب ما يحدث من تطورات متسارعة في هذا القطاع. وهذا يعني أنه إذا كان القطاع التربوي لا يوظف هذه التكنولوجيا فإن السوق الأوروبية سيكون متأخرا ومتخلفا في سوق المعلوماتية.

ففي القمة الأوروبية في ليسبون Sommet européen de Lisbonne عام ٢٠٠٠ فرض هذا السؤال نفسه بصورة رئيسية في المؤتمر: كيف يمكن تجاوز التأخر الأوروبي في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات TICكما في مجال التجارة الإلكترونية؟ وفي معرض الإجابة أجمع المؤتمرون على ضرورة الإدماج الشامل لتكنولوجيا المعلوماتية والاتصال في المؤسسات المدرسية والتعليمية.

تحرير المدرسة:

يعرف النظام العالمي الجديد بمفاهيمه الجديدة ولاسيما مفهوم التحرير Dérégulation الذي يأخذ مناحي متعددة أبرزها: تحرير التجارة، تحرير الصناعة، تحرير الاقتصاد، وتعني هذه الكلمة كسر الحواجز والحدود التي تعيق حركة الرأسمال الجديد أفقيا وعموديا ومنحه الحرية المطلقة للحركة والعمل وإفلاته من قبضة الدولة. ويبدو اليوم أن أحد المفاهيم الأكثر جدة يظهر إلى الوجود وهو تحرير المدرسة Dérégulation de l'école وهذا يعني كسر الحواجز والحدود بين السوق والمدرسة ومن ثم فصل المدرسة عن الدولة وعولمتها أي إخضاعها لقوانين السوق العالمية.

عندما يتم وضع الأهداف التربوية وبناؤها اليوم يطرح السؤال التالي نفسه: كيف يمكن تنظيم التعليم وإدارته كي يتم تحقيق هذه الأهداف؟ وبعبارة أخرى كيف يكون العمل من أجل تحقيق هذه الأهداف المحددة وإنجازها؟ ومن جديد سنجد الإجابة (من قبل الذين يهيمنون ويرسمون للمدرسة خططها وأهدافها) بأن هذا يكون بتحقيق مبدأ المرونة والحرية والمسؤولية. وهذا يعني أنه لا يكفي للعاملين أن يكونوا مرنين متكيفين بل يجب على النظام التربوي نفسه أن يكون كذلك وأن يصل إلى درجة أكبر من المرونة والكفاءة والقدرة على التكيف والتجاوب.

فمنذ عام ١٩٨٩ أعلنت المجموعة الصناعية الأوروبية بأن الإدارة المدرسية تعاني من ضغوط وإكراهات وقيود بيروقراطية، وبالتالي فإن الممارسات الإدارية تتميز بالصلابة والتشدد وهذا يعيق الإدارات المدرسية من التكيف مع ضرورات التغير الناجمة عن التطور السريع للتقانة الحديثة وللصناعة العالمية[٧]. وهذا يتوافق مع توصيات منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية Organisation de coopération et de développement économique، التي تؤكد على أهمية تكيف النظام المدرسي مع التقانة والتكنولوجيا، كما تركز على ضرورة توظيف الكفاءات والمهارات الخاصة بالتقانة والتكنولوجيا الاتصالية وامتلاك التجهيزات الضرورية المتعلقة بها. فاستقلال المدارس والمؤسسات التعليمية يسمح لها بأن تعقد شراكة حقيقية مع المؤسسات الإنتاجية. وبالتالي فإن هذه الشراكة تسمح لما يسمى

«بروح المؤسسة الاقتصادية l'esprit d'entreprise» بالدخول إلى هذه المدارس والمؤسسات التعليمية بنجاح وفعالية[^8].

وتجب الإشارة هنا إلى أن المرونة المطلوبة للعمالة لا يمكن أن تقف عند حدود مهنية واضحة المعالم. والمهم في هذا الأمر قبول الأنماط الجديدة التنظيمية للعمل والتي تتمثل في تدفق الإنتاج وانسيابيته، وفي العمل المستمر حتى في الليالي المظلمة وفق دوريات عمالية متعاقبة. وهذا كله يتطلب توليد حس المسؤولية عند العمال أي إقناع العمال بأن مصالحهم تتناغم مع مصالح العمل وأربابه.

استلاب المدرسة:

لقد أفرغت العولمة المؤسسة المدرسية الكلاسيكية من مضامينها وقيمها الإنسانية، وقد عفا الزمن على المدرسة التقليدية فأصبحت خارج السياق التاريخي لدورها الإنساني في عصر العولمة والميديا والاتصال[^9]. فالتربية تتم اليوم بصورة مختلفة عن ذي قبل إذ تحدث غالبا خارج جدران المدرسة والمؤسسات التعليمية الكلاسيكية، وهذا يفرض على المدرسة أن تكون أكثر انفتاحا ومرونة وقدرة على الإبداع والمشاركة في الفعالية الحضارية للمجتمعات الإنسانية في عصر العولمة[^10].

فالتعليم الخاص يمارس دوراً كبيراً في تسويق المدرسة كما يقول الأنكلوساكسون. فالطلب على التأهيل مدى الحياة أصبح اليوم ضرورة عولمية حيث يتم التأكيد على المهارات والكفاءات الاقتصادية للأفراد. فالنفقات العالمية في مجال التربية تصل اليوم إلى أكثر من ٢٠٠ مليار دولار. وهذا يعني أن قطاع التربية يمثل اليوم مجالا اقتصاديا بالغ الخطورة والأهمية ولاسيما في زمن اللاستقرار الاقتصادي والأزمات الاقتصادية التي تواجه الحياة الإنسانية المعاصرة.

تتجه عملية بناء الصناعة التربوية في القرن الحادي والعشرين التي تتمثل في عمليات التوظيف والاستثمار والتسويق إلى ترسيخ وجودها عبر عملية الدمج في المؤسسات المدرسية. وهناك من يؤكد اليوم على وجود حملة واسعة لتخصيص التعليم العام بطريقة تضع هذا التعليم في مضمار السوق الاقتصادية وتخضعه لمبدأ التسويق الرأسمالي. وتتحرك هذه العملية تحت تأثير قناعة الآباء والأمهات اليوم بضعف إمكانية التعليم العام وعدم قدرته على مواكبة معطيات العصر ومتطلباته. ووفقا لذلك فإن الأسر التي تمتلك القدرة على تمويل تعليم أبنائها غالبا ما تتجه نحو المدارس الخاصة

أو ما يمكن أن يطلق عليه اليوم «التربية بيزنس» أي التربية التي تعد الأطفال للقيام بأدوار رجال الأعمال في المجتمع لاحقا.

ويصعب اليوم في حقيقة الأمر الحصول على تقديرات كلية في المستوى العالمي، ولكن من السهل أن نعرف أمورا كثيرة عن تطور الصناعة التربوية في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها حيث قفزت الاستثمارات في التعليم إلى ٨٢ مليار دولار في عام ١٩٩٨ موزعة إلى ٢٤ مليار كمنتجات صناعية مدرسية، و٣٠ مليار خدمات مدرسية وتربوية، وأخيرا ٢٨ مليار دولار أنفقت على ميزانية المدارس[١١]. ويتضح أيضا عبر دراسات وإحصائيات في مختلف البلدان الصناعية أن المؤسسات التعليمية تتحول بطريقة متسارعة وهائلة إلى نوع من السوق الرأسمالية. لقد بينت دراسة إحصائية تزايد أعداد الطلاب الأمريكيين الذين يتابعون دروسهم عبر الإنترنت حيث وصل هذا ٢، ٢ مليون في عام ٢٠٠٢، وهذه النسبة تعادل ١٥ من عدد الطلاب في الجامعات الأمريكية. وتتنبأ هذه الدراسة بأن عدد المسجلين في هذه الدروس سيكون قد وصل إلى ٨٥٪ في اللحظة الراهنة وبالطبع فإن هذه الدروس مأجورة حيث يتم الدفع عبر الإنترنت.

وإنه لمن المفرح حقا أن تكون خزائن المعرفة اليوم في متناول الجميع ولكن يجب ألا ننسى بأن هذه المعلومات ليست دائما مجانية وأن هذه المعلومات تطرح في الأسواق وأن من يريد الحصول عليها يتوجب عليه أن يدفع ثمنها.

وهناك اليوم سوق مهم جدا في حقل التعليم يتمثل في التعليم عن بعد: ويعمل هذا السوق الكبير على تقديم دروس ومحاضرات عبر الإنترنت من أجل التحضير لمختلف الامتحانات، حيث تشير الإحصائيات إلى انفجار في أعداد المنتسبين إلى هذا النوع من التعليم حيث قفزت الأرقام من ٥٠٠ ألف مستفيد إلى ٧٠٠ ألف خلال عقد واحد من الزمن في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها.

عولمة مدرسية:

ومهما يكن الأمر، فإن الفائدة الحقيقية للإنترنت، في مستوى التعليم المسوق، تبقى فعالة في مستوى بث المعلومات وإيصالها في أقصر وقت في مختلف أنحاء المعمورة. وهناك اليوم مؤسسات معنية بتحرير السوق العالمية إزاء الخدمات التربوية مثل منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي.

ويسعى البنك الدولي اليوم إلى فتح أبواب التعليم العالي والثانوي على جشع القطاع الخاص. والحجة التي يتبناها

البنك العالمي هي أن البلدان النامية في أمس الحاجة للعناية بقطاع التعليم ومحو نسبة الأمية الكبيرة المتفشية فيها، وهذا يعني أن البنك لا يعطي لدعم التعليم العالي في هذه البلدان فيتركه لقمة سائغة للقطاع الخاص. ومن جهة أخرى يرفض البنك العالمي إلغاء ديون هذه البلدان المتفاقمة ويعمل على توجيه الإنفاق العام نحو التعليم الأساسي. أما في مستويات التعليم الأخرى غير الأساسية فيفضل البنك أن تكون من نصيب التعليم الخاص حيث يمكن تمويل هذا القطاع للقيام ببناء المؤسسات أو العمل على تحقيق إيرادات إضافية خاصة بهذا القطاع.

ففي يونيو (حزيران) عقد البنك الدولي ندوة في واشنطن في شركة التمويل الدولي (Société de Financement Internationale وكان عنوانها واضحا: فرص الاستثمار في القطاع التربوي الخاص في البلدان النامية Opportunités d'investissement dans l'éducation privée dans les pays en développement. وقد قامت هذه الشركة على الأثر ببناء مؤسسة خاصة متخصصة بالمعلومات والمشاريع والدراسات الخاصة بتطوير الاستثمار الخاص في مجال التعليم في البلدان النامية وفقا لأعلى المستويات الممكنة. ويلاحظ في هذا السياق أن البنك الدولي ومؤسسة التمويل الدولية من أكبر الرعاة للتعليم في فانكوفر في كندا.

خلاصة: إن تكييف التعليم مع التوقعات الجديدة للقوى الصناعية والمالية الكبرى ينطوي على نتيجتين كارثيتين: تحويل المدرسة إلى أداة توضع في خدمة المنافسة الاقتصادية من جهة، وتعميق اللامساواة الاجتماعية في مجال الوصول إلى المعرفة من جهة أخرى.

وكما تدل المعطيات يتطور التعليم الحالي وفقا لمعايير السوق، وهو في سياق تطوره هذا يفقد طابعه المعرفي الإنساني أي التعليم الذي يمكنه أن يقدم رؤية للعالم وأن يمكن رواده من فهم وتمثل الدلالات والمعاني الإنسانية، أي هذا التعليم الذي يمكّن المتعلم من امتلاك المهارات الأساسية للاستمرار في الوجود واتخاذ المواقف الحية في مجال الحياة. فالمؤسسات المدرسية في ظل السوق تتعرض إلى أكبر درجة من درجات الاستغلال الرأسمالي المعاصر، وهي إضافة إلى ذلك تُجرد من أسلحتها وقدراتها التي كانت تعتمدها في النضال الثقافي من أجل تحقيق القيم الإنسانية. فالمدرسة في سياق

هذه الدورة الرأسمالية تتحول إلى مؤسسة منتجة لقيم العالم الرأسمالي وتصوراته الاجتماعية. وهي في صورتها الرأسمالية هذه تمارس دورها المؤلم في حرمان الشرائح الأوسع في المجتمع من إمكانيات التعليم الحقيقي، فهي تقدم تعليما محدود الكفاءة والإمكانية إلى أبناء العمال والمهمشين الذين يجب تحويلهم إلى قوة عاملة منتجة وإلى مادة خام في دورة الإنتاج الصناعي الجديدة للمجتمع الرأسمالي، وهي في الوقت نفسه تشجع بعض روادها من الطبقات العليا في المجتمع على استنفار طاقاتهم وقدراتهم العقلية والذهنية والإبداعية لتوظيفهم في مجال المنافسة العالمية في مستوى الإبداع العلمي في مختلف الاتجاهات.

وفي هذا السياق فإن عملية تحرير التعليم على مبدأ تحرير التجارة أي جعله حرا وخاصا وإخراجه من دائرة التقاليد وخارج سلطة الدولة، والعمل على خصخصة مختلف المؤسسات التعليمية في المجتمع عوامل تشكل التربة الخصبة التي تنمو فيها اللامساواة الاجتماعية والطبقية وتتحول بالتالي إلى نوع من اللامساواة إزاء المعرفة والمدرسة.

ووفقا لهذه التطورات الجديدة فإن المدرسة العامة الحكومية ستقتصر في تعليمها على الجوانب التي تحقق فقط نموا اقتصاديا في السوق العالمية وهذا هو ما تصرح به منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية Organisation de coopération et de développement économique وهذا يعني أيضا بأن التعليم سيركز على الطلاب الذين يستطيعون في المستقبل أن يحققوا نجاحا إبداعيا في مجال الحياة الاقتصادية والعلمية وأنه سيهمل كليا مختلف الجوانب الثقافية والإنسانية التي ترتبط بالإنسان والوجود والمعاني.

الهوامش:

١- علي أسعد وطفة، التسويق الرأسمالي للمدرسة: النموذج الرأسمالي الجديد للتربية في زمن العولمة، التربية القطرية، العدد ١٦٣ السنة السادسة والثلاثون، ديسمبر ٢٠٠٧ (صص ٩٢-١٠٨).

٢- - انظر : علي أسعد وطفة، علم الاجتماع المدرسي: بنيوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها، مكتبة الطالب، الكويت، ٢٠٠٣.

٣- علي أسعد وطفة، التسويق الرأسمالي للمدرسة: النموذج الرأسمالي الجديد للتربية في زمن العولمة، التربية القطرية، العدد ١٦٣ السنة السادسة والثلاثون، ديسمبر ٢٠٠٧ (صص ٩٢-١٠٨).

٤- علـي أسعد وطفة ، سوسيولوجيا المدرسة، مجلـة المعلم العربي، مجلة تربوية فصلية محكمة تصدر عن وزارة التربية في سورية: مركز البحوث التربوية، وزارة التربية في سورية، العدد الثاني ١٩٩٤(صص ٣٠-٤١).

5- OCDE, Politiques du marché du travail: nouveaux défis. Apprendre à tout âge pour rester employable durant toute la vie. Réunion du Comité de l'emploi, du travail et des affaires sociales au Château de la Muette, Paris, 1415- octobre 1997, OCDE/GD(97)162.

6- Organisation de coopération et de développement économique.

7- Table ronde des industriels européens, Education et compétence en Europe, Etude de la Table ronde européenne sur l'éducation et la formation en Europe, février 1989.

٨- علـي أسعد وطفة، المدرسة المدججة بالتكنولوجيـا: أين هو الجانب الإنساني، مجلة الطفولة العربية، المجلد العاشر، العدد ٣٩، يونيو، ٢٠٠٩ت، صص ١٠٩-١٢٣.

9- OCDE, Analyse des politiques d>éducation, Paris ,1998.

10- Commission européenne, Rapport du Groupe de Réflexion sur l'Éducation et la Formation «Accomplir l'Europe par



في مفهوم الثقافة السياسية ووظائفها «من وجهة نظر اجتماعية»

د. حكيمة بوبعيو ❁

توطئة:

في مفهوم الثقافة.

لعلَّ مفهوم الثقافة في بعده العام والشامل يقتضي الوقوف عند مختلف الحقول المعرفية، حيث يخضعه كل حقل إلى العلاقة التي تربط الثقافة بذلك الحقل المعرفي، ومن ثم قد يتعذر الإلمام. بمختلف التعريفات، كما أنه قد يبعدنا عن الغاية المرسومة في مثل هذه المقالة العلمية، لذا حبذنا أن نتناول

❁❁ أستاذة علم الاجتماع بجامعة باجي مختار عنابة.

العمل الفني: الفنان رشيد شمة.

وجهاً من أوجه هذه الثقافة، وذلك في ضوء عدد من التعريفات التي لا تخرج عن النظرة الاجتماعية، وفي مقدمة هذه التعريفات تعريف «إدوارد تيلور» «E. B. Tylor» الذي يجمله في عدد من المعارف المتداخلة والمعتقدات والفن والأخلاق وبعض الآفاق والقيم الإنسانية: «هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع»[1].

والواقع أن هذا التعريف يتسم بشيء من العمومية والزئبقية، صحيح أنه تعريف وصفي وموضوعي بعيد عن المعيارية، ويمكن حصر هذا التعريف في بعدين هامين، البعد الأول يحدد خصائص الثقافة في مجال التعبير عن شمولية الحياة الاجتماعية للإنسان، في حين يتلخص البعد الثاني في كون الثقافة تتحقق بالاكتساب وهي ذات بعد جماعي.

أما «كلوكهورن» «C. kllikhohn» فيراها منحصرة في «وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر التاريخ والمتضمنة العقلي واللاعقلي، التي توجد في وقت معين والتي تكون وسائل إرشاد سلوك الأفراد في المجتمع»[2]

ويبدو هذا التعريف الذي يقسم الثقافة إلى ما توصل إليه الإنسان من وسائل الحياة المختلفة عبر التاريخ بكل ما تحمله من عقلي ولا عقلي، يحاول أن يحدد ذلك المخزون الثقافي بما أنجزه هذا الإنسان من أشياء وما توصل إليه من إنجازات صناعية، في حين يتمثل اللاعقلي فيما تلقنه من علوم نقلية وطقوس ميثولوجية دخلت هي الأخرى في لا شعوره وأضحت جزءاً هاماً من مكوناته الثقافية والمعرفية.

ويتضمن التعريف السابق أيضاً تحديد الأداء الوظيفي للثقافة من حيث كونها الموجه والمرشد في سلوك الفرد ومن ثم العلاقات الاجتماعية.

أما غاي روش «G. Rocher» فيعرفها على أنها «.. مجموعة متداخلة أساليب التفكير والمشاعر والأفعال التي تتشكل بدرجة معينة والتي تكتسب بوساطة العلم والمشاركة من جانب مجموعة الأفراد، وذلك من أجل وحدة هذه الجماعة وارتباطها بصورة جمعية متميزة».[3]

ففي مثل هذا التعريف نلاحظ أن صاحبه ينظر إلى الثقافة على أنها كل ما يتعلق بالإدراك والسلوك والحس، وهو ما يمثل الأبعاد الثلاثة للثقافة.

وما دامت الثقافة لا تخرج عن الأبعاد السابقة، فهي بذلك تمثل مخزون ما يملكه المجتمع من معارف وما يتشربه من مشاعر

وأحاسيس وما يقوم بـه من أفعال وسلوك، تتنوع الثقافة وتتعدد أبعادها لدى كل مجتمع من المجتمعات.

الثقافة السياسية:

قد ينسجـم مصطلح الثقافـة مع ذاته ويأخـذ مفاهيمـه المختلقـة حـين يكون مصطلحـاً عاماً غير مرتبـط بصفة أخرى أو مصطلـح آخـر، غير أن هـذا المصطلح قـد يتداخل مـع مصطلـح السياسة مثلاً. فالثقافة حـين ترتبط بالسياسـة، ويتعالق المصطلحـان معاً فـإن معناها يشق طريقه نحو عـالم من المفاهيم الجانبيـة، فالثقافة السياسية تمثل حقـلاً معرفياً -هو في حد ذاته- جانب من الثقافـة وفي الوقت نفسه هو أحد العناصر الدالة على حقيقة ترابط الظواهـر وتحديداً هنـا الظواهر الثقافية والظواهر السياسية.(٤)

ويعود الاهتمام بهـذا المفهوم إلى نهاية الخمسينيات ومطلـع الستينيات من القرن العشرين حين تصـدره مجال علم السياسة، وعدّ وقتئذ تحولاً جذرياً في دراسة المؤسسات الرسمية إلى دراسـة السلوك غير الرسمي، وأضحـى الاهتمـام منصباً علـى الجانب الحيوي وأساس التفاعل في تلك المؤسسات، وعليه فـإن جهود الباحثـين اعتنت عناية فائقـة بمفهـوم الثقافة السياسيـة ليكون القصد من وراء ذلـك محاولة إدراك البعد الثقافي في السياسة.(٥)

ويبـدو أن الأمـر ليس ببعيـد عن عالم الاجتماع الذي كان اعتماده بمفهوم الثقافة السياسيـة نابعاً من إقراراه بأن كل منظومة سياسية مرتبطـة أصلاً بمنظومة من القيم والتصورات؛ بثقافة المجتمع.

وقد ظهرت مجموعة من التعريفات التي حاولت أن تؤسس مفهومـاً متقارباً للثقافة السياسيـة بصفتـه مصطلحـاً حديثاً جاء نتيجة التفاعلات الثقافية والتداخلات التي عرفها عالم السياسـة في مجتمعنا المعاصر. فكان مـن ضمن هذه التعريفـات ما ذهب إليـه «فيليب برو» بأنهـا (مجموعة معارف ومعتقـدات تسمح للأفـراد بإعطاء معنى للتجربة الروتينيـة لعلاقتهم بالسلطة التي تحكمهم كما تسمح للمجموعات باستخدامها كمراجع لتعريف كل منها بهويتها).(٦)

إنمـا يبدو جديدا هنا ليس كون الثقافة السياسية هي مجموعة معارف ومعتقدات. فذلك تحصيـل حاصل، إنمـا الجديد هو تلك العلاقة التي تمتلكها التجربة الروتينية للأفراد في تعاملهـم مع السلطة الحاكمة. حيت تسمـح تلك الثقافـة بتجديد الأطر، وتحديد القيم التي يتعامل في ضوئها الأفراد مـع السلطة، فيكـون بذلك الفـرد عارفاً بحقيقة حجمه في خضم تلك العلاقة.

وهناك مــن ينظر إلى الثقافة السياسيــة على أنهــا: «مجموعة المعارف والرؤى والقيم والمعتقدات والاتجاهــات والمشاعــر السائدة لــدى أفــراد مجتمــع معــين أو مجموعة معينة تجاه شؤون الحكم والسياسة».(٧)

ويتجلــى مــن التعريفــين السابقــين أن الثقافــة السياسية تجسد الثقافــة المحددة والموجهة لعلاقة الأفراد بشــؤون السياسة وأنظمة الحكم.

وتكاد جــل التعريفــات تتفق مع ما ذهــب إليه المعجم الحديث للتحليــل السياســي، حيث يعرف الثقافة السياسية بأنها: «النموذج الشامــل للاتجاهــات والقيــم والمواقــف والعقائــد التي يتبناهــا الأفراد الذين هم أعضاء مجتمع سياسي».(٨)

عــلاقــة الـثـقـافـة الـسـيـاسـيـة بالأيديولوجيا:

مما يجــدر التنويــه به منذ البــدء أن الثقافة السياســة والأيديولوجيا مفهومان قائمان بذاتهما، إلا أنهما يتماهيان في بعض المنعرجات، ويتداخلان تداخلاً يكاد يصعب



الفصــل بينهما حين يتماســان في المعتقد السياسي والعنف الرمزي.(٩)

فالأيديولوجيــا تعنــي فيمــا تعنيــه: «منظومــة التمثــلات التي تعمــل في مجال المعتقد السياسي والعنف الرمزي، تحدد في حقيقة الأمر على أساس عمل تفكيري نظري ومذهبي كالليبرالية الاقتصادية، الاشتراكية الثورية.. لتسند إلى مؤلفات كبيرة في تاريخ الفكر السياسي، ويجمع الكثير من المفكرين (كارل ماركــس، تالكــوت بارسونز، ريمون

بودان وغيرهم) على أن الأيديولوجيا تمثل أفكاراً خاطئة ومقطوعة من الملموس بل إنها تختص وترتكز على الضلال».(١٠)

ولهذا فهي تغذي، الصراع والمعارضة بين الفاعلين السياسيين وتشحن الملتزمين بها بالعنف الرمزي.(١١)

إن الأيديولوجيا-حسب هذا المنظور- هي في الواقع مجموعة أفكار صادرة عن فلاسفة ومفكرين مثلت رؤى مذهبية صبت في آليات فكرية عملية، وقدمت وجهات نظر اقتصادية سرعان ما تحولت إلى نظريات فكرية مرتبطة بعلاقات الإنتاج، إلا أن سوء تقديراتها للمنعكسات الناتجة عن بعض سلوكاتها ومراميها وعدم اقترابها من الواقع الإنساني في مختلف تعاملاته، ولّد شيئاً من المقت والصراع ضد تلك النظريات المذهبية.

ويبدو أن مصطلح الثقافة السياسية جاء كردة فعل مقابل الأيديولوجيا ليعكس الرغبة في الانتقال من ثقافة الصراع والتصادم إلى ثقافة التوافق والمصالحة»(١٢)، ويطمس بذلك مصطلح الأيديولوجيا السياسية الذي أصبح لا يتماشى والتحولات الاجتماعية والسياسية العالمية الراهنة.

وفي ضوء ما سبق يمكن تحديد الثقافة السياسية وفق المنظور التالي: «مجموعة متداخلة من أساليب التفكير والمشاعر والأفعال التي تمثل نموذجاً يتبناها الأفراد لتمكنهم من إدراك ذواتهم والتعبير عنها وممارسة الاختيارات المحددة لعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

مقاربة الثقافة السياسية:

يمكن النظر إلى الثقافة السياسية على أنها متغير أو عامل وسيط بين النظام العام السائد ومختلف البنى المكونة له، وبين السلوك الفعلي في الحياة اليومية. ومن هنا فإن هذه الثقافة هي النتيجة المباشرة للنظام العام السائد، تستعمل كأدوات تنظم العلاقات فتوسع الواقع وتعمل على إجلائه في صور معينة أو تبحث عن إحلال التغيير فيه، وهي بذلك على صلة بالواقع بل إنها تنبثق منه.(١٣)

و تبدو الثقافة السياسية على شيء من التعقد على أثر ذلك الارتباط الحاصل بين موضوع الثقافة في حد ذاتها والذي يحتاج إلى نظرة شمولية، وبين الظاهرة السياسية المتميزة -هي الأخرى- لتعقدها الخاص، وذلك ما يجعلها مقاربة إلى التحليل العلمي الذي مكن من كشف أبعادها وتفسيرها.(١٤)

تعكس الثقافة السياسية منظومة تفاعل الأفراد بصفتهم وكلاء اجتماعيين يتبادلون التأثر والتأثير فيما بينهم في إطار أوضاع اجتماعية، أو كما يسميها بورديو «الميدان»، أي ميدان التأثير والتفاعل..

وهـــذا التفاعـــل وإن كان في وســـط اجتماعي واحد فهو ينبعث من أنماط حياة مختلفة. وبغض النظر عن المستوى التعليمي أو مستوى التقدم التقني أو حتى نوع النظام السياســـي، فإن هذه الأنمـــاط تأخذ صوراً مختلفة من الثقافـــات السياسية المتنافسة، وتتضـــح في الواقـــع في أنماط مـــن التوجه نحـــو القضايا السياسيـــة والعمل السياسي بما يشـــكل مجموع السلوكيـــات والتوجهات نحـــو السلطة؛ أي ما تفعله أو ما يتوجب أن تفعله.[١٥]

وفي ضوء ما سبق، فـــإن تحليل الثقافة السياسية ينبغي أن ينطلق من النظرة الكلية للميدان حســـب أبعاده الثلاثـــة المتمثلة في الأوضاع -الفاعلين- الممارسات.

أولا/ الأوضـــاع الاجـتـمـاعـيـة والسياسية:

و تحدد هذه الأوضاع مستويات ثلاثة:

أ. مستوى الرهانات:

وينحصر في عدد من المؤشرات المرتبطة بالطابـــع الرمـــزي للأوضـــاع الاجتماعية السياسيـــة، وتساهـــم كل الأطـــراف فيما يتصل بها من معان ومعارف ودلالات حيث تتحدد الأهـــداف المقصودة ولذلك نلاحظ أن الأفراد البعيدين عن النهج الديمقراطي لا يرتقون إلى فهم الجدل والنقاش القائمين أثنـــاء الحملات الانتخابية على سبيل المثال لا الحصر.

ب. مستوى القواعد:

ويتضمـــن القوانين التنظيمية والقواعد الأخلاقية والأعـــراف والمعتقدات، ويتحدد مـــن خلالهـــا ما هـــو شرعي ومـــا هو غير شرعي.

ج. مستوى توزيع موارد السلطة:

ويقصد بـــه مدى التكافؤ بـــين الأفراد مـــن حيـــث الوصـــول إلى المـــوارد المختلفة للسلطة كالأموال ووسائل الاتصال والإعلام وسبله.[١٦]

وفي ظل هذه المستويـــات الثلاثة يتجلّى الوضـــع الاجتماعـــي السياسي في مظهرين أساسيين:

- التنافس والصراع حول تطبيق قواعد وآليات الفعل والمشاركـــة السياسية، خاصة مع وجود متناقضات أيديولوجية عقائدية يصعب في كنفها الاجتماع والتوافق.

- مـــدى المجازفـــة والمبـــادرة في إطار علاقـــات التفاعل والمحدد له هـــو القابلية للتوقـــع والتي لا يمكـــن أن تتحقق ما لم تكن عناصر الوضـــع ومحدداته جليـــة للفاعلين جميعاً.

ثانياً/ الأفراد المتفاعلون:

ويتجلـــى التفاعـــل في خضـــم الحيـــاة السياسيـــة من جـــراء المبـــادلات السلوكية

المتعددة بما فيها السلبية من صمت وامتناع أو جـدل مستمر بين الأفـراد والجماعات حيث يكـون لتلك المبـادلات وذلك الجدل الأثـر الواضح في إحلال أوضـاع وأساليب دون أخرى من التفاوض الاجتماعي.[١٧]

ونجد في هـذا المقـام قضيتـين لهما أهميتهما في التفاعل ونتائجه وهما الحرية والاستعـدادات: أمـا الحريـة فإنها تتعلق بحريـة الفرد ومدى قدرتـه على الاختيار في تفاعلـه وإتيانه لأي سلوك، ويكون بذلك واحداً من مظهرين:

- تقريـر المطالب: ويتـم ذلك بناء على حسـاب واع للتكاليـف والمزايـا وتحديـد استراتيجـي للغايات ولا يتم ذلـك إلا بعد تقييـم المـوارد المتوفرة في الواقـع وترتيبه للأهداف حسب الأولوية. ثم تقريره للمزايا المتاحة والإشباعات المتوقعة.

- ويأتي الخضوع الذي يتمثل لدى الفرد عندمـا تقيد حريتـه في التفاعـل بما يتم وضعه من ضوابط محـددة للأدوار وكابحة للمبـادرة الاختيارية، ممـا يضطره إما إلى الرضوخ والامتثال أو الثورة حيث ينتهك تلك الضوابط والحدود.[١٨]

في حـين أن الاستعـدادات تتضمـن مجموعـة المعارف والمـوارد الفكرية القابلة للتعبئة فضلاً عن مجموعة الميول العاطفية للقيام بسلوك ما، وهي تتشكل من الخبرات المكتسبة بدءاً من الطفولة إلى مرحلة النضج في ظـل التجـارب التي يخوضهـا الأفراد ضمـن جماعتهم حيـث تتدخـل عمليات التكييـف الاجتماعي في صقلهـا وبلورتها في الواقع الاجتماعـي. ولا ريب أن الحرية والاستعدادات يتدخـلان بصفتهما عاملين أساسين في تحديد احتمال الأفراد لمواقفهم في الأوضاع السياسية القائمة، سواء بالمبادرة الاختياريـة المبنية علـى التقدير الواعي أو بالخضوع لمحـددات الـدور المشروطة من قبل. ومـع ذلك يظـل الاحتمـال مرهوناً للواقع الملموس ومـا ينتج عنه لدى الأفراد من إشباعات يتوقعون تغطيتها لحاجاتهم.

ثالثاً/ الممارسة:

تتضمن الممارسة أشكال السلوك الناتجة عن سلسلة من الإجابات والنوايا والتوقعات التـي قد تجد لها انطلاقـاً لما تضفيه على المستويين الإدراكي والحسي محلاً في الواقع يبعث على التفاعل الاجتماعي.

إن أشـكال السلـوك ومختلـف الأفعال الناتجة عن الفاعلـين السياسيين (الدولة، الأحزاب، الشعب) تنتج آثارها على مستوى النشـاط الاجتماعـي ويجـدر التنبيه إلى أن الممارسـة الفردية قد تماثـل الممارسة الجماعية حيث إن النشاط الفردي للبعض قد يخلـق التشييع الاجتماعـي للآخرين؛ ذلـك أن الظاهـرة الاجتماعيـة السياسية

ولئن كانت نتيجة جماعية فهي في الأصل لا تخرج عن كونها أفعال فردية مجتمعية مولدة لدينامية ونشاط تتجلى واقعياً في آثار جماعية ومما يزيد من فاعلية النشاط الفردي ذلك التفاعل الذي تحققه وسائل الإعلام من خلال نشرها للأفكار والوقائع والتمثلات المختلفة.[١٩]

في ماهية الثقافة السياسية ووظائفها:

يمكن النظر إلى الثقافة السياسية على أنها تمثل الجانب السياسي من الثقافة العامة وهي بهذا المعنى جزء لا يتجزأ من تلك الثقافة التي تحمل الخصائص ذاتها تؤثر فيها وتتأثر بها. إنه الجزء المتعلق بالحياة السياسية في علاقتها بالحاكم والمحكوم ومن ثم يمكن تحديد أهم عناصرها ممثلاً في القيم والمعايير والمواقف والاتجاهات.

أولاً/ عناصر الثقافة السياسية:

أ. القيم:

وهي تلك التصورات الإدراكية المميزة للفرد أو الشخصية أو لجماعتها وبوساطتها يتم الاختيار بين البدائل. إن القيم تمثل إطاراً مرجعياً للضبط الاجتماعي في المجتمع وتحدد سلوك الأفراد وردود أفعالهم، كما أنها تحدد التأثير الملائم للمواقف المشتركة لأفراد المجتمع. ثم إن القيم الموجودة لدى الإنسان هي نتاج للثقافة والنظم المجتمعية بمختلف تفاعلاتها مع شخصية الفرد.

أما الأبعاد التي يمكن تحديدها للقيم فهي على التالي:[٢٠]

- إنها مفهوم يحتوي على عنصر معرفي.
- بحكم أنها مرغوب فيها فهي تحتوي على عنصر انفعالي.
- ومن حيث تأثيرها في الانتقاء فهي تحتوي على العنصر النزوعي.

ب. المعايير:

وهي عبارة عن قواعد للسلوك العادي وعناصر أساسية لتحديد الأدوار الاجتماعية من حيث كونها تضع التوقعات والمجال الذي يمارس فيه دوره وهي التي تعكس قيم المجتمع الأساسية.[٢١]

ت. المواقف:

وهي اتجاهات الشخص نحو المؤسسات أو الأشياء أو تقييم ذلك الشخص؛ إنها حياة ذهنية تستنتج من السلوك.

ث. الاتجاهات:

يشير الاتجاه إلى تنظيم عدد من المعتقدات المتعلقة بموضوع معين وهي غالباً ما ترتبط بموقف محدد أو موضوع بالذات ولهذا تجد عددها كبيراً مقارنة بالقيم التي يقل عددها.[٢٢]

ثانياً/ محددات الثقافة السياسية:

يمكن تحديد مضمون الثقافة السياسية في العناصر التالية:

١- الحرية والإكراه:

بما أن الثقافة السياسية تؤكد على قيمة الحرية فإن طاعة الفرد للسلطة الحاكمة تكون على أساس الاقتناع وليس الخوف. ويكون بذلك لدى الفرد إحساس بالقدرة على التأثير في مجريات الحياة السياسية والمشاركة الإيجابية أو قد تؤكد على قيمة الإكراه، وفي مثل هذه الحالة غالباً ما ينصاع الفرد للسلطة بدافع الخوف لا اقتناعاً. ومن هنا يفتقد الإحساس بالقدرة على التأثير السياسي.[٢٣]

٢- الشك والثقة:

يمثل عنصر الشك أو الثقة لدى السلطة الحاكمة عنصراً جوهرياً من عناصر الثقة السياسية ويتوقف مدى ثقة الفرد أو مدى شكه في السلطة على طبيعة سلوك الحكومة إزاء الأفراد ومدى استجابتها لمطالبهم، وكلما انخفضت الثقة بين الأفراد فإن ذلك يقلل من ثقتهم في حكومتهم. وتنتشر الثقة بين الأفراد والجماعات المختلفة مع الخطوط الأولى للاتصال حيث يفضل الفرد مسايرة الآخرين في مجال الحياة السياسية، فيترتب على ذلك تقبل واسع للحوار والتفاوض والحلول الوسطى والمصالح العامة.[٢٤]

٣- المساواة والتدرج:

إما أن تؤكد الثقافة السياسية على المساواة ومراعاة العدالة بين الأفراد وإما أن تميز بينهم لتجعل المعيار في ذلك درجة المشاركة السياسية في المجتمع كلما زاد الإحساس بالمساواة بين أفرادها.[٢٥]

٤- الولاء المحلي والولاء القومي:

يتجه الفرد بولائه نحو الدولة ككل بما يتضمنه ذلك من شعور بالمسؤولية العامة، وإعلاء المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ويلي ذلك الاهتمام بالقضايا القومية التي تتجه نحو المبادئ والأهداف التي تتجاوز الوطن الإقليمي إلى مختلف المشارب والقضايا القومية بما فيها من لغة وثقافة وعناصر الدين والعرق واللغة التي تتجاوز القضايا المحلية للوصول إلى تحقيق الآمال القومية.

ولما كانت الثقافة السياسية هي المحدد لعلاقة الفرد بالعملية السياسية والسلطة الحاكمة تحديداً؛ أي سياسة السلطة الحاكمة وممثليها فهناك من يحدد عناصر الثقافة السياسية انطلاقاً من:

أ. توقعات الأفراد بخصوص القرارات السياسية؛

حيث إن توقعاتهم أو معتقداتهم تنصرف أساساً إلى مخرجات الحكومة في إطار اهتمامها بنشاط هذه الأخيرة من دلالات مبرزة لأهداف وغايات النظام السياسي التي تشكل في حقيقتها أعباء تقابلها مطالب شعبية. ونشاط الحكومة أو

أجهزة السلطة عموماً يتضمن تنظيم سلوك أعضاء المجتمع السياسي واستخراج الموارد المادية منه -مستحقـات ضريبية وغيرها- وهو الجانب من النشـاط الذي لا يرتضيه المواطن بسهولة وهنا تتأكد ضرورة الاعتقاد في شرعيـة الجهـاز السلطـوي في صنـع القـرارات السياسية؛ إذ إنه كلما اتسع مدى الاعتقاد في شرعيـة السلطة وقراراتها زاد تقبل وامتثال أفراد المجتمع لها.(٢٦)

ب. توقعات الأفـراد من عمليات صنع القرار:

إن ما يدركـه الفرد ويعتقده بشأن صنع القـرارات السياسية التـي يتخذها الجهاز السياسي من حيث تقبل المشاركة وتحفيزها يجسد عنصراً هاماً مـن الثقافة السياسية ومحدداً حقيقياً لاتجاهها، فتكون سلبية حين يكون الأفـراد بمعزل عن العملية السياسية أو بعيدين عنها، إما بسبب تجاهلهم لكيفية اتخاذ القرار وأساليب المشاركة في صنعه أو أثناء شعورهم بعدم الجدوى من المشاركة في حد ذاتها، وتكون إيجابية حين يتأكد لديهم جدوى المشاركة ويتمكنون من سبلها.(٢٧)

الهوامش والإحالات:

١- دوني كوشـ (Deny cuche) مفهوم الثقافة في العلـوم الاجتماعية، ترجمة: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق٢٠٠٢، ص٢٠.

٢- المرجع نفسه، ص٢١.

٣- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع السياسي، النشأة التطورية والاتجاهات الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ط١ السنة ٢٠٠١، ص٤٣٥.

٤- دوني كوف، مرجع سابق، ص١١٠.

٥- المرجع نفسه، ص١١١.

٦- إدوارد بانفيلد السلوك الحضاري والمواطنة، ترجمة سمير نصار دار النشر الأردن، ط١، ١٩٩٥، ص٢١٣.

٧- أحمد وهبان، التخلف السياسي والتنمية السياسية، الدار الجامعية مصر، ٢٠٠٢، ص١٣٠.

٨- جـورج روبـرت وأليستر إدوارد، المعجم الحديـث في التحليل السياسي، ترجمة سمير عبـد الرحيم الجلدي، الدار العربية للموسوعات، بيروت ط١، ١٩٩٩، ص٣٢٥،٣٢٦.

٩- إدوارد بانفيلد، مرجع سابق ٢٠٦.

١٠- المرجع نفسه، ص٢٠٦.

١١- عبد الله محمد عبد الرحمن، مرجع سابق ص٤٣٧.

١٢- محمد سبيلا، للسياسة بالسياسة في التشريح السياسي، أفريقيا الشرق المغرب ٢٠٠٠، ص٦٣.

١٣- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، م.و.د.ع. ط٣، ١٩٨٦، ص٣٢٣.
١٤- فيليب برو، علم الاجتماع السياسي، تر.محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص٥٣٩.
١٥- مايكل تومسون، وآخرون، نظرية الثقافة، تر.علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، رقم٢٢٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧.
١٦- فيليب، المرجع السابق، ص٥٤١-٥٤٢.
١٧- ماكل تومسون وآخرون، المرجع السابق.
١٨- فيليب برو، المرجع السابق، ص٥٤٤.
١٩- المرجع نفسه، ص٥٥٠-٥٥١.
٢٠- أحمد مصطفى خاطر، تنمية المجتمعات المحلية المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص٢٠٢.
٢١- المرجع نفسه، ص١٩٣.
٢٢- المرجع نفسه، ص١٣٩.
٢٣- عبد الهادي الجوهري: دراسات في علم الاجتماع السياسي، زهرة الشرق، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٢٩.
٢٤- المرجع نفسه، ص١٣٠.
٢٥- المرجع نفسه، ص١٣٠.
٢٦- المرجع نفسه، ص٣٨
٢٧- المرجع نفسه، ص٣٨-٣٩.



الدراسات والبحوث



وليم شكسبير والسيكولوجية الأخلاقية

❁
د. غالب سمعان

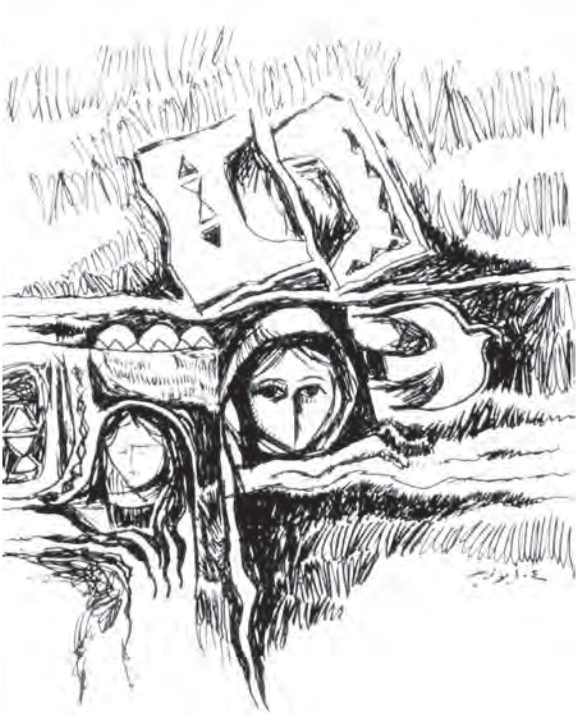
يعرُضُ الكاتـب الإنكليزي وليم شكسبـير William Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦) في مسرحيتـه (الملك لير King Lear) لنوعين من النماذج البشرية، يُغلِّب الأول منهما الاعتبارات الأخلاقية على المنافع الأنانية الفردية، وهـو يضمُّ الملك لير وابنتـه الصغرى كورديليا، إضافـة إلى اللورد جلوستر وابنـه الشرعي إدجار، واللورد كِنْت، ودوق أولباني زوج جونريل الابنة الكبرى للملك، بينما يُغلِّب الثـاني منهما المصالح والمنافع الأنانية اللاأخلاقية على

❁❁ كاتب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان عبد المعطي أبو زيد.

ما عداها، ويضـرب عُرض الحائط بالقيم الأخلاقيـة التقليدية، ويتصـرَّف بطريقة دالة علـى تجاهـل شامل لهـا، وهنا يعثر القـارئ على ابنتي الملـك العاقتين جونريل وريجان، وعلى إدمونـد الابن غير الشرعي للورد جلوستر، إضافة إلى زوج الابنة ريجان دوق كورنوول. والواقـع أن النماذج النفعية تعتنق مبدأ «الغاية تبرِّر الوسيلة» الذي أعلنه المفكر الإيطالي نيقولا ماكيافيلي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٧) في كتابـه (الأمير)، والأكثر صوابا أنها تتصرف بطريقة تلقائية، تدفعها إلى اعتنـاق المبدأ المذكور، سواء أعلنته أو لم تفعل بصورة جليَّة، ويبدو أن نيقولا ماكيافيلي امتلك تكوينا غير أخلاقي تماماً، أو هو على ما يُقال واقعي إلى حدود سافـرة، وعلـى الرغم من هـذه الحقيقة فإنـه لم يتهجَّم على الأخلاقيـة، ويستهزئ بهـا، ويتَّهمها بأنها تعرقـل ارتقاء الإنسان، مثلمـا فعـل الفيلسوف الألمـاني فريدريك نيتشة Friedrich Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠)، وهذا يعني أن هذا الفيلسوف تشبَّع على الأرجح بالأخلاقية، واختبرها، وارتكس ضدَّهـا، كمـن يُحـاول طردها مـن عالمه الجواني، واستطاع تحقيق النجاح في مسعاه، على خلاف النماذج الأخلاقية التي تورَّطت في الانطواء عليهـا، ولم تستطع الفكاك من أسرهـا، على ما هو عليه الحال لدى النبيَّة سيبيل Sibyl التي التقاها الشاعر الروماني الأخلاقي فيرجيل Virgil (٧٠-١٩ ق. م.) في العـالم السفلي. وفي هـذا السياق تجدر الإشارة إلى أن مـن ينطوي على الأخلاقية يستطيـع اكتشاف الأخلاقيـة ومكنوناتها، والارتكاس ضدهـا، إن هو امتلك المقوِّمات اللازمة لهذا الإنجـاز، أما من يُراهن على المُداهنة والملق في ميدان السياسة وغيره من الميادين، كالمفكر الإيطالي نيقولا ماكيافيلي، وابنتي الملك جونريل وريجان، وابن جلوستر غير الشرعـي إدموند، فلن يكون قادرا على إنجاز شيء مما استطـاع إنجازه فريدريك نيتشة، من ناحية نظرية مجرَّدة على الأقل. على أن الشخصيات المسرحية اللاأخلاقية ترتكـس ارتكاسـاً عنيفاً تجـاه الأخلاقية التي يمثلهـا الأب، وتتغير من الداخل تغيرا شامـلا، لتصبـح أفعالهـا الأنانيـة نتيجة طبيعيـة للتحوير الطارئ عليها، أي إن هذه الأنانية ليست أصيلة في تكوينها القبلي، في

حين أن النماذج الأخلاقية تكون غير قادرة علـى الارتكاسـ ضد الأخلاقيـة، بل على الاكتفاء بالتشبُّع بها. وتبقى تنظيرات نيقولا ماكيافيلي أكـثر اتساعاً مـن الدائرة التي انطوت عليها مكنونات النماذج اللاأخلاقية، التي اندفعت وراء السلطـة والمنافع المادية في مسرحيـة (الملك لير)، على الرغم من أن المفكِّر الإيطالي اعتبرهـا من واقع خبراته، الحوافز البشرية الجوهرية، في الوقت الذي داوم فيـه وليم شكسبير علـى اعتبار رجل السياسة والحرب الأجدر بأن يكون على رأس السلطـة أخلاقياً ماورائياً. وفي كل الأحوال يبقى نيقولا ماكيافيلي مفكِّراً سياسياً واقعياً، وليسـ إنساناً أنانياً فردياً، وهناك من دافع عن الأنانية كالسفسطائيين Sophists في الفلسفة اليونانية القديمة، غير أن المفكِّرين من أمثـال جورجياسـ Gorgias (٤٨٣-٣٧٥ ق. م.) وبروتاغوراسـ Protagoras (٤٩٠-٤٢٠ ق. م.) كانـوا دون أدنـى شك، أرفع منزلة بكثير من مجرد أنانيين فرديين، وأيضـاً دافع الفيلسـوف الألماني فريدريك نيتشة عن الأنانية القادرة على تخليق النمط الإنسـاني الأرقى، وانتقـد بطريقة عنيفة، أنانية الإنسان المريضة، أي إنه انتقد أنانية وفرديـة نماذج كإدمونـد وجونريل وريجان ودوق كورنوول. وفي نظامه الأخلاقي اعتبر الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨-١٨٦٠) أن أسوأ البشـر من الناحيـة الأخلاقية، من يتصف بالفظاظة والأنانيـة، وأن الأفضل من هذا أن يكـون الإنسان مالكا القدرة على الإتيان بأفعال العدالـة والإحسـان، والقيام بأداء زهدي أصيل. ويبدو أن إدموند ارتقى قليلاً من الناحية الأخلاقيـة، عندما تراجع عن أدائـه اللاأخلاقي، لدى دنو أجله، واعترف بوجـود العدالـة الإلهية، في حـين تقدَّمت جونريل وريجان إلى أقصى درجات الفظاظة والأنانيـة، ولم تمتلكا القـدرة على التراجع باتجـاه أدنى قدر مـن الأخلاقيـة، وهذا التقدم يعني تلقائياً أن الاعتقاد الماورائي لم يعد موجوداً، وأنهما من الناحية الاعتقادية اندفعتـا باتجاه أداء إلحـادي، مثلما اندفع «ماكبـث Macbeth» في مسرحيـة وليـم شكسبير الأخرى، باتجاه اختبار الإرادة التي تستبطن كيانه، باعتبارها عمياء وغير عاقلة وشريـرة، إلى أن عمَّم خبرته هذه، وأعلن أن



تعميمهـــا يعني أن يأتي الدمار على كل شيء، وأخـــيراً على نفسه، وهو ما يعني فناء العالمين.

وفي المسرحية يقـــرِّر الملك لير، وقـــد تقدَّم بـــه العمـــر، أن يتنازل عن سلطاتـــه لبناته الثلاث، ويعقد اجتماعـــاً في قصره لهـــذه الغاية، ويطلب إليهنَّ أن يتحدثن عن مدى حبِّهـــن، وإعزازهن له، كي يمنحهنَّ أراضي المملكة، وسلطاته، بالتساوي فيمـــا بينهـــنَّ، غـــير أن طبيعتـــه الأخلاقيـــة الغافلـــة عـــن التفكير المنطقي، والبصيرة النافذة، تجعله عاجزاً عن معرفـــة الحقائق، التي تنطوي عليها كل منهـــنَّ، فالبنتان الكبريان جونريل وريجان أنانيتان ونفعيتان وماكرتان، على خلاف كورديليا الصغرى، التي تتصف بأخلاقيَّة كاملة، وبعيدة عن أن تكون ماكرة ومُنافقـــة، وكلٌّ من الفريقـــين يدفع الآخر باتجـــاه التوحُّـــد، أكثر فأكثر، مـــع الطبيعة الجوانيـــة التي يتصف بهـــا، وهي الطبيعة التي تعنـــي الاستعداد القبلي، الذي ينطوي عليه كل فريق. ومما هو معروف عن الكاتب الروســـي الأخلاقـــي ليـــون تولستوي Leo Tolstoy (١٨٢٨-١٩١٠) تهجُّمـــه علـــى وليـــم شكسبير، واعتباره مـــا حدث إمكانية غـــير قائمـــة في الواقع، علـــى أن الحقيقة ليست علـــى هذه الصـــورة، ووليم شكسبير كتب ما كتبه داخل ثنائية الخير والشر، التي انتمـــت إليها كتابات الكاتب الروسي، ويبدو أنه استطـــاع إدراك الجوانب السيكولوجية، وما تنطوي عليه الأخلاقيـــة من إمكانيَّات بأكثر منـــه، وفي هذا السياق تبدو العقلانية الأخلاقيـــة أقـــدر بأشواط مـــن الأخلاقية

المحرومة إلى درجة كبيرة من العقلانية، على كشف الحقائق الإنسانية، فالشاعر أبو العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٨) امتاز بصفات أخلاقية وإرادية، وبقدرات عقلانية كفيلة بالوقوف في وجه أيَّة إمكانيَّات غير طبيعية، على ما هو ظاهر في ديوانه (سقط الزند) وتحديداً في قصائده الرثائية والفخرية، ويبدو أن وليم شكسبير امتلك قدرات عقلية كافية كي يعبِّر عن مكنوناته الأخلاقية، وأن ليون تولستوي افتقدها على ما يبدو. ومن الطبيعي أن يكون الصراع الأخلاقي السيكولوجي المُستتر، بين البنتين الكبريين والبنت الصغرى، خافياً عن الملك لير، ومداركه، والسبب في ذلك هو أخلاقيَّته الغافلة، وتكوينه العاطفي المعنوي، الذي يجتذب العقل والمُخيِّلة إليه، ويمنعهما من رؤية الأشياء على حقيقتها، ومن ثم فإن الاختلافات في الطبائع تتكشف تماماً، وتبتدئ التراجيدية الأليمة بالتوالي، في حلقات موصولة إلى نهاياتها. وإن افتقار البنتين الكبريين جونريل وريجان إلى الأخلاقية الحقيقية، يجعلهما قادرتين على النفاق والرياء ببراعة وسهولة، الأمر الذي يمكِّنهما من التعبير عن حبِّهما الكاذب لوالدهما، تعبيراً ناجحاً، وهو ما يطلبه الوالد الملك، الذي أصبح عاجزاً عن تبيُّن الحقائق التي تتخفَّى وراء الكلمات والتعابير، وما هذه الكلمات والتعابير غير الحقائق ذاتها وفق تقديراته، ومن ثم فإنه يمنح البنتين الماكرتين سلطاته، ويطلب إليهما اقتسام المملكة فيما بينهما، ويطرد ابنته كورديليا، ويلعنها، ويؤنِّبها، لأنها لم تتكلم بالطريقة التي أصبح عاجزا عن تقبُّل أية طريقة أخرى غيرها. وعندما يتدخل اللورد كِنْتْ، ويطلب إليه التروِّي، والاحتفاظ بملكه، وينبِّهه إلى أن ابنته الصغرى هي الأكثر حبًّا له، فإنه يثور ويغضب، ويطرد كِنْتْ من المملكة، ويهدده بالقتل، إن تم ضبطه فيها بعد عشرة أيام، وهكذا فإن كورديليا وكِنْتْ يمثلان الأخلاقية الحقيقيَّة الصادقة، على خلاف الأخلاقية الغافلة للملك لير، والأخلاقية الماكرة للبنتين الكبريين جونريل وريجان.

والواقع أن التباين والصراع بين نوعي الأخلاقية، ليس غريباً من منظور فكري تجريدي، فالنموذج الذي يمثله كل من الطرفين يؤدي إلى الآخر، بطريقة أو

بأخرى، وهكذا فإن الأخلاقية الغافلة التي يمثلهـا الملك لير، تتحول إلى أخلاقية عالمة، يمثلهـا اللورد كِنْتْ، والأخلاقية الماكرة التي تمثلها جونريل وريجان، تتحول إلى أخلاقية صادقة تمثلها كورديليـا، ونحن واقعون في نطاق الأخلاقيـة، ولسنا داخـل أي نطاق آخر، ومـا يحدث من تراجيديـة، إنما هو واقع داخـل نطاق الأخلاقيـة، وناتج عنها مباشرة، فالأخلاقية السلطوية التي يفرضها الملـك لـير باعتباره ملـكاً وأباً، تـؤدي إلى التراجيديـة، ومن الطبيعي أن تدعم كل من أنماط الأخلاقية الموصوفة نقيضها، إلى أن تتحوَّل التراجيدية إلى تراجيدية تكرارية، في السياقات الحياتية المتنوِّعة، ومن الطبيعي أن تتشدَّد كل أخلاقية في مواقفها، وهكذا فإن الملك لير يتخذ قرارا بحرمان ابنته كورديليا من حقوقها، ويلعنها، ويطردها، وهو يطرد اللورد كِنْتْ، ويرفض مطالب أمير بيرجندي الآتي كي يتزوَّجها، الأمر الذي يؤدي إلى فشل المشروع، فالأمير يمثل الأخلاقية التقليدية، وهو غير قادر على فهـم ما يدور حوله، أو على فهم معنى الخلاف التراجيدي القائم، على خلاف ملـك فرنسا، الذي يُقدِّر مزايا كورديليـا، وفضائلها، ويتخذهـا زوجة له. ومع ذلك فإن سـوء التفاهم يظل موجوداً، في العلاقـات القائمة، فالملك لير، غير قادر على رؤية الأشياء، بغـير الطريقة التي يودُّ رؤيتها بها، والبنتـان الكبريان غير قادرتين على رؤية المثال الذي تمثله كورديليا وكِنْتْ، والملـك الفرنسـي. ودائماً نعـثر في الحياة وتجاربها على نمـاذج مشابهة، وما يُميِّزها هو الأخلاقيـة التي تنطوي على النواقص، ففي مسرحية (ماكبـث Macbeth) يكون البطل ماكبـث وزوجته أخلاقيين، من النوع الذي يعتمد النفاق والرياء، وعندما يتحوَّل ماكبث إلى طاغية، ويستبدُّ بالحكم، تتكشف صفاته السيِّئة، على الرغم من إيمانه بالمُثل الأخلاقية الماورائية، وفي الحوار الذي يدور بين ماكـدوف ومالكلم في الفصـل الرابع، يبتدئ مالكلم بتعداد صفات ماكبث السيئة، لكنَّ هنـاك على الدوام مـن يُسامي القيم الأخلاقية الرفيعة، ويجعلها واقعة تحت لواء المُثل الماورائية، كالكاتـب الأخلاقي جبران خليل جـبران (١٨٨٣-١٩٣١) ولكن تحويل القيم الأخلاقية إلى قيم إطلاقية سلطوية، يـؤدي إلى ظاهرة «ماكبث» عندما تعترضها

انتكاســة عنيفة، فالتحويــل المذكور ينكص على أعقابه، أي إن السير بالقيم الأخلاقية على هذا المسار السلطوي الذي ينطوي على إكراه إجباري، هو السبب الناجم وراء الرياء والنفاق، على المستوى الأخلاقي، إضافة إلى استعدادات الأفراد وقدراتهم، وتلك العيوب التي لا تنقطع في الحياة، تجد فلاسفة كابن مسكويه (٩٣٢-١٠٣٠) يحاولون مُعالجتها، دون كلل أو ملل، لكنهم في النتيجة والواقع لا يصلون إلى نتيجة ختامية، فالإصلاح يترافق مع عيوب أخلاقية دائمة، على أن طبيعة ابن مسكويه أخلاقية قبليًا، وهكذا فإنه يستطيع القيام بدور تدعيم القيم الأخلاقية، والإبقاء على الكيفيَّــات التي يتخذهــا الانحطاط الأخلاقــي، دون أن يكــون هادفــاً أبداً إلى الإبقاء عليه. ومن ناحية أخرى، لا يستطيع المــرء أن يتخيَّل لدى الأخلاقيين المحرومين من العقلانيــة تماماً، قــدرة حقيقية على الرؤيــة الموضوعية، والواقــع أن أية عقيدة أخلاقية ماورائيــة قائمة في الواقع، تحتاج إلى قــادة يقومــون على خدمــة تعاليمها، وهــؤلاء في كل الأحوال تقليديــون، ونادرا ما يظهر روَّاد قادرون على إنعاش العقيدة، وإعادة إنشائها، وبث الحياة فيها، كاللبناني جــبران خليل جــبران، والإنكليــزي بيرسي شيلــي Percy Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢) والأفغــاني جمال الديــن الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٨)، وبصــرف النظــر عــن إمكانية أن يكون المرء تقليدياً أو رائدا عظيما، فإن من يمتلكون أهواء أقوى يكونون أسرع إلى ارتكاب المعاصي، والتطهر منهــا، وإدراك الفضيلة والقداسة، ومن الطبيعي أن ينظر التقليدي إلى هذه النوعيــة باعتبارها خاطئة، وتبقى هناك إشــارات استفهــام عندما يمتدحها نمــوذج أخلاقي متفوِّق علــى شاكلة جبران خليل جبران.

ومن منظور تجريــدي يلعب التقليديون وغــير التقليديــين، دوراً هامــاً في حماية العقيدة وتعاليمهــا، أما أن يُقال إن أوسكار وايلــد Oscar Wilde (١٨٥٤-١٩٠٠) أحبَّ كثــيراً، وارتكــب المعاصــي بإفراط، وتطهَّر منهــا، وأدرك مرتبة من الفضيلة لم يستطــع إدراكها من حاكموه بتهمة اللواطة، وأودعوه السجن، فهو مما يدعو إلى التأمل، لأن التقليديين الذين حاكموه، لم يرتكبوا من المعاصــي مثلما ارتكب، والحــال كله يُوحي

بأن الـــروَّاد الأَخلاقيين يفضِّلـــون على ما يبدو، من ينطوي علـــى أهواء عنيفة، تدفع باتجاه انحطـــاط أعظم، وباتجـــاه فضيلة أمكن، وهم على غرار التقليديين، يُحذِّرون في الوقـــت ذاته من الأهـــواء العنيفة، وهذه الحقيقة تعني أن التقليدي يستبطن كيانات من هم غير تقليديين من أمثال جبران خليل جبران، وبيرسي شيلي، ورابندرانات طاغور Rabindranath Tagore (١٨٦١-١٩٤١)، وهذا كله يعنـــي أيضاً، أن النماذج البشريـــة الأَخلاقية السلطوية، تظل عاجزة في تمظهراتهـــا وتجلياتها كافة، عن التفكير المنطقي التحليلي الموضوعي، ويمكن النظر إلى السيكولوجيـــة البشرية التي تتصف بها كل مـــن الشخصيـــات، على أنهـــا تجليات، تؤلف في مجموعهـــا السيكولوجية البشرية الكليَّـــة، ولن يكون بالإمـــكان الفصل تماماً بـــين سيكولوجيـــة الملك لـــير، وسيكولوجية كل مـــن ابنتيـــه العاقتين وابنتـــه الفاضلة، وهو مســـؤول أخلاقياً عـــن تخليق النماذج العاقـــة، وعـــن تخليق نموذج أكـــثر اتصافاً بالفضيلة منـــه، فالأخلاقيـــة التي يتصف بهـــا مسؤولة عن توليـــد طرفيها البعيدين، ولكنه يفشل في رؤيـــة مسؤوليته عن تخليق بناته، ويفشل في معرفة الكيفيَّة التي حدث فيهـــا ما حدث. والصـــراع أهلي، بمعنى أن الطبائع الموجـــودة على المحور السيكولوجي الأَخلاقي ذاتـــه، تتصارع فيمـــا بينها، ولا تختلـــف طبائع إدمونـــد ودوق كورنوول عن طبائع البنتين العاقتين، وعلى خلافهما فإن دوق أولباني وجلوستر وابنه الشرعي إدجار، ينتمـــون إلى الفئة التـــي تتصف بالأَخلاقية الفاضلة. والهام هنـــا أن الأَخلاقية لا تأتي علـــى المنافـــع تمامـــاً، وأن الملك لـــير يبدو أكـــثر اهتمامـــاً بها من النمـــاذج الأَخلاقية الأخرى، كالابنة كورديليا، التي يبدو أداؤها أخلاقيًّـــا، دون أي اهتمام بالمنافع الخاصة، وكإدجار الذي لا يبـــدو راغبا في الاستئثار بالميراث، دون أخيه غـــير الشرعي إدموند. واللافت أن هؤلاء الأَخلاقيين يقدِّرون الملك لـــير، وميزاته الملكيَّة، التـــي تستمد مكانتها وقيمتها، من ميزاته الأَخلاقية، على الرغم مـــن أنهم جميعاً أقدر علـــى الرؤية النافذة منه، وأمتن أخلاقيًّا، على ما يظهر مع تقدُّم الأَحداث، وتواليها. ومما لا يمكن الاعتراف به لدى هـــذه النماذج الأَخلاقيـــة، إمكانية

الفصل بين السلوك الأخلاقي، والوجود اليقيني للأرباب، والعدالة الإلهية، فالإيمان قائم بالإله جوبيتر Jupiter والاعتقاد راسخ بأنه يحكم العالم، حكماً أخلاقياً، وأن الأخيار سوف ينتصرون على الأشرار، في هذه الدنيا، فإن لم يحدث هذا، فإنهم سوف ينتقمون منهم، انتقاما رهيبا، في العالم الماورائي.

وهذه الاعتقادات التي تبنَّاها الناس في الحقبة الوثنية، لا تختلف اختلافاً جوهرياً، عما هو قائم في الفكر الأخلاقي الماورائي، والواقع أنه ما من فارق عظيم الشأن من الناحية الجوانية الأخلاقية، بين نماذج الشاعر اليوناني القديم هيزيود (Lived Hesiod (8th Century BC الذي تلقى إلهام ربَّات الفن في سفح جبل هيليكون Helikon والنماذج النبويَّة، والمعروف أن هذا الشاعر اليوناني القديم كتب في (أصل الآلهة)، وخلَّف وراءه قصيدته التعليمية (الأعمال والأيام)، وفيها أعلن جملة من المبادئ الأخلاقية، كالإصرار على العدالة، والاستقامة والشرف، وأنذر من يُخالفون هذه الوصايا بالعقاب الإلهي، في العالم الماورائي، وبصورة عامة، احتوت مؤلفاته على وصايا أخلاقية، واعتقادات ماورائية إيمانية، وأسطورية وخرافية. وفي أجواء شعبية، كتلك التي تعرُضُ لها مسرحية (الملك لير) ثمة وجود لكل هذه الأشياء، والواقع أن سيطرة الاعتقادات الماورائية، والمبادئ الأخلاقية العرفيَّة، على بيئة معينة، تستدعي وجود اعتقادات أسطورية وخرافية أيضاً، في كثير من الأحيان، وأن التهجُّم على ما يبدو غير طبيعي من أساطير وخرافات، لن يؤدي إلى زوالها، وهذا كله لا ينفي إمكانية التفكير العلمي، فما من تعارض بين التفكير العلمي، وأنماط التفكير الأخرى، وهيزيود ذاته، قدَّم معارف علمية زراعية، وغير زراعية، في قصيدته (الأعمال والأيام)، وما من شيء يمنع النماذج التي احتفت بالتفكير الماورائي، كالكاتبين الصوفيين جبران خليل جبران في لبنان، ووليم بليك William Blake (١٧٥٧-١٨٢٧) في انكلترا، أن تحتفي بالتفكير العلمي أيضاً. ومما يرد في المسرحية، يتضح الاعتقاد ليس فقط بالألوهية، بل وبأشياء أخرى، كالكسوف والخسوف والتنجيم، وما تعنيه هذه الظواهر

مــن معانٍ أو إشارات، ذات طبيعة أخلاقية. وأما التنكــر للمبادئ الأخلاقية، لدى الابن غير الشرعي إدمونــد تحديدا، فيترافق مع رفض المبادئ الماورائيــة، وامتداداتها كلها، وهي حالة تُوحي بأن الكفرة غير أخلاقيين أبداً، على أن انتهاء المسرحية بزوال السلطة من أيــدي غير الأخلاقيين، وهزيمة إدموند في المبــارزة مع أخيــه إدجار، ودنــو أجله، يدفعــه إلى إعلان اعتقــاده بالعدل الإلهي، وهي ظاهرة غير موجــودة بالضرورة، لدى من رفضوا الماورائيــات وأخلاقياتها، وأهم ما في الأمر أن إنكار الماورائيات لدى نماذج كالفيلسوف اليوناني أبيقورس Epicurus (٣٤١-٢٧٠ ق.م) والشاعــر الرومــاني لوكريتيوســ Lucretius (٩٦-٥٥ ق. م.) الذي تبنَّى أفكاره، ترافق مع إنكار الأساطير والخرافــات، والاكتفــاء فقــط بالأفــكار والمُعطيــات العلميــة، أو الواقعية الملموسة، وبالفعــل فإن نماذج طرفة بن العبد (٥٤٣-٥٦٩) في العصــر الجاهلــي، وأبي الطيب المتنبــي (٩١٥-٩٦٥) في العصــر العباسي، اكتفت بصورة عامــة، بالمُعطيات الواقعية، وامتلكت تكوينــاً سيكولوجياً أخلاقيا، أكثر تفوُّقاً مما لدى الملك لير، وأعوانه، وأعدائه أيضاً.

وفي الوقــت الذي لا تقــدر فيه فلسفة أبيقورســ ولوكريتيوســ علــى الإساءة إلى المعايــير الأخلاقيــة، المدعومــة ماورائياً، لكونها فلسفــة حكيمة وزاهدة، على الرغم مــن إعلانهــا أن المتعة خيرا، فــإن تكوين طرفــة بن العبد، وأبي الطيب المتنبي، تقدر بالفعل، على تقديم بديل ما، وهي أعظم من أن تقترف أخطاء، كتلك التي يقترفها الملك لــير، وهيزيود، وأمثالهمــا، وما من إمكانية لديهمــا، للتراجع لــدى دنــو أجلهما، عن المبادئ التي اعتنقاها، فالميزات التي اتصفا بها، أرستقراطية رفيعة، وليست كتلك التي اتصف بها الابن غير الشرعي إدموند. وإنه لمن الخير في مثل هذه الحال، أن يحاول المرء اكتساب ما يفرض علــى الآخرين احترامه وتقديــره، ففــي الوقــت الذي يستــاء فيه إدموند من قــدره، باعتباره ابنا غير شرعي للورد جلوستر، ويبدأ بالتخطيط للاستيلاء على ميراث والــده، وحرمان أخيه الشرعي منه، وينجح في تدبــير مؤامرة، تدفع والده إلى مُطــاردة ابنه إدجــار، وإلى اختفاء هذا

الابن، وتنكُّره في صورة مسكين مجذوب، فإن نموذج عنترة بن شداد العبسي (٥٢٥-٦١٥) الذي أنجبه أبوه من أَمَـة، يحاول جاهدا اكتساب القيم العربية الرفيعة، وإدغامها في تكوينه السيكولوجي الأخلاقي، إلى أن يتمكَّن من انتزاع اعتراف والده به، وإظهار البطولة والكرم والعفة، في ميادين القتال، والمواقف الحياتية المتنوِّعة، وهو ما يفرض احترامه وتقديره، والاعتراف بفضله، وأكثر من هذا، فإن سيرته تصبح على أيدي الناس، سيرة شعبية بطولية، تتوارثها الأجيال، وفي كل الأحوال ما من إمكانية للتعاطف مع النماذج غير الأخلاقية في المسرحية، فاهتمامها بالسلطة والمال، اهتمام غير طبيعي، وغير إنساني، والفلسفة النفعية التي تدافع عن المنافع الفردية، لا تبرِّر سلوكات كتلك التي تصدر عن إدموند، والابنتين العاقتين، ولدى الفيلسوفين الإنكليزيين جيرمي بنتام Jeremy Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢) وجون ستيورات مِل John Stewart Mill (١٨٠٣-١٨٧٣) اعتراف بالمنافع الفردية لدى الأول، واهتمام بالمنفعة الجماعية، إن هي تعارضت مع المنفعة الفردية، لدى الثاني، ومثل هذه الفلسفات النفعية الباحثة عن السعادة، لا تذهب باتجاه تخليق نماذج غير أخلاقية، مثلما هو قائم في مسرحية (الملك لير)، وأخطر ما في الأمر، أن تكون البيئة الأخلاقية الماورائية السلطوية، سبباً كامناً وراء تخليق نماذج، انتكست أخلاقها وانحطت، وربما أصبح من الحقائق المقرَّرة أن أخلاقية الملك لير السلطوية الإطلاقية، تدفع باتجاه تخليق لاأخلاقية من هم غير أخلاقيين، في المملكة التي يحكمها، وهيزيود ذاته على ما تروي الروايات، انحدر أخلاقياً قرب نهاية حياته، وأحب فتاة شابة، حبًّا عارماً، وغير شرعي، فبدا كمن يخالف المبادئ الأخلاقية التي دعا إليها، وعلى الرغم من أن الشاعر الفرنسي ألفرد دو موسيه Alfred de Musset (١٨١٠-١٨٥٧) اكتفى في حياته وأدبه، بالتعبير عن عاطفة الحب، أي إنه اكتفى بالحب، الذي كان في حياته شهويًّا دائماً، وأنه ارتقى من الخلاعة والعلاقات العابرة، باتجاه علاقات أوفر نصيبا من الارتقاء، فإنه يبدو أكثر اتصافا بالأخلاقية من هيزيود، لمجرَّد أنه اعتبر الحب فضيلة في حد ذاته، وأضفى

عليه القداسة والسمو، وأكثر من هذا، فإنه لم يتعرَّض للشهوة بإشارات سلبية تدفع باتجاه التقليل من شأنها ونفيها.

وفي هذا السياق، يبدو الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة أكثر سموًّا، عندما أعلن أن النظرة السلبية للشهوة، سوف تنقلب إلى نظرة إيجابية، عندما يتجاوز الإنسان ثنائية الرذيلة والفضيلة، التي انتمى الملك لير إلى فضاءاتها، انتماء كليًّا. ومن ناحية أخرى، فإن الشاعر الإنكليزي الرومانتيكي الراديكالي بيرسي شيلي أحرز تفوقا أخلاقيًّا أيضا، عندما تحرَّر من الاعتبارات الأخلاقية التقليدية،وعندما حرَّر بروميثيوس Prometheus من طغيان الإله زيوس، وهو ما يعني تحريره من طغيان أمثال الملك لير، والشاعر هيزيود، وهذه الخطوة لم يستطع ألفرد دو موسيه، بحكم تكوينه السيكولوجي الأخلاقي الهش، الإقدام عليها أبدا، على أن فريدريك نيتشة فاق بيرسي شيلي في تحرير الذات الإنسانية، من كل ما يكبِّلها، وأثبت أن تكويناً سيكولوجياً راقياً، يفرض أخلاقيات ومعايير راقية، وهكذا فإن تراث شعراء كطرفة بن العبد، وأبي الطيب المتنبي، إنما هو تراثهما الذي أملاه تكوين سيكولوجي إرادي أخلاقي راقٍ، ويبدو أن في العالم ثمة صراع خفي، بين نماذج أخلاقية على غرار الملك لير، وهيزيود، ونماذج أخلاقية ماورائية، كالكاتبين جبران خليل جبران، ووليم بليك، ونماذج أخلاقية أفلاطونية تحرُّرية، وغير محافظة، كبيرسي شيلي، ونماذج إرادية أرستقراطية كأبي الطيب المتنبي، وفريدريك نيتشة، وغيرها من النماذج، التي يمثلها أدباء وفلاسفة، اختلفت فلسفاتهم، وتباينت آراؤهم. والبادي للعيان أن النماذج الأخلاقية المُحافظة، التي يمثلها الملك لير، تسيطر كثيرا جدا في العالم، وأخطر ما في الأمر، أن ينهار العالم نتيجة تخليق نماذج كإدموند، ودوق كورنوول، دون أن يكون قادراً على تخليق نماذج كطرفة، وأبي الطيب المتنبي. ولربما أمكن افتراض وجود نوع من التداخل السيكولوجي بين سيكولوجية الملك لير الذاتية وسيكولوجية بناته، خاصة وأن السلطة التي يمثلها ليست سلطته كملك فقط، بل سلطته كأبٍ أيضاً، والتداخل ذاته يؤدي إلى افتراق سيكولوجي أخلاقي، وهكذا فإن طبائع البنتين الكبريين

تنحــرف باتجــاه الدوافــع السيكولوجيــة الراغبــة في النيل مــن الأخلاقية، بطريقة أو بأخــرى، على حين تندفــع طبيعة البنت الصغــرى باتجاه الأخلاقيــة الكاملة، التي يعجز عن بلوغها الملك لير نفسه.

وبالمثل يمكن الاعتقــاد بوجود التداخل السيكولوجــي ذاتــه بين الملك لــير واللورد كِنْتّ، الذي يمثــل أخلاقية أكثر اكتمالاً من أخلاقيــة سيِّــده، مما يُمكِّنه مــن اكتشاف حقائق البنات الثلاث مُسبقا، على أن الملك الغافــل لير يرفضــ قبــول النصيحة التي يقدمها اللورد كِنْتّ، ويطرده من بلاطه، ومن المملكــة كلها، ويبدو أن أمد الغفلة قد طال، إلى الحد الذي أصبحت فيه التراجيدية أمراً منتظراً ومتوقعاً تمامــاً، فالملك لا يستطيع إدراك الحقائــق، وهو يتشبَّــث بآرائه كمن يدافع عن أنــاه، دفاعاً مُستميتاً، ولا مهرب منــه، والحدث كله يدل على فشل فاضح في سلطته كملك وكأب، ومن الطبيعي أن يحاول الدفــاع بقدر الإمكان، عما يعتقد أنه نجاح في مشروعه الحياتــي، ولذلك فإنه يرفض النصائــح، ويتصرف بصلف وغرور، ويطرد الفضلاء مــن مملكته، ويستبقــي الأشرار، لكــن الأمــور تتطــور، وتســير إلى خاتمة مطافهــا، ويتأتى للملك لير أخــيراً، إدراك الحقائق التي لم يستطع تبيُّنها طوال حياته. ومرة أخرى، تبدو الأخلاقية السلطوية سبباً كامنــاً وراء الأخطــاء، التــي يقترفها الملك لير، فهي تجعله يحيــا في حالة من الغفلة، وتعرقــل طاقة التخيُّل القــادرة على إدراك النوايا، التي قد تنطوي عليها النماذج التي يتعاطــى معها، وأكثر من هذا فإن الأحداث تُوحي بأنه ممن يتصفون بالسذاجة، وليس من النوع القادر على التفلسف الراقي حول القضايا الإنسانيــة، أو حول أيَّة قضايا في هذا العــالم. وإلى جانب اتصافه بالأخلاقية الزاهــدة، فإن الشاعر العربــي (أبو العلاء المعري) اتصــف بالإراديــة الأرستقراطية، التــي أمكنتــه مــن إدراك كوامــن النفس البشرية، والإمكانيات التــي تنطوي عليها، وأمام العراقيل التــي استُهدفت لها حياته، فإنه اندفع باتجاه التعالي الذاتي، ولم ينحط أو ينحدر مثلما حدث للنماذج البشرية التي انتكست أخلاقيــا في مسرحية (الملك لير)، وفي قصيدته الفخرية (ألا في سبيل المجد) يفخــر بالميزات الأخلاقية التي اتصف بها،

والتي اتخـــذت طابعاً إرادياً أرستقراطياً، أي إنـــه تجاوز نمـــوذج الملك لـــير بأشواط، وفيهـــا أيضاً إشارة إلى أنه قادر على معرفة الطبائـــع البشريـــة، وأمـــام إمكانية حدوث انتكاســـة أخلاقية جماعية، وهـــو ما يتنبأ بـــه اللورد كِنْت، والمُهـــرِّج تحديداً في إحدى تصريحاتـــه، التي تتجلى بانقـــلاب المعايير رأسا على عقب، فإن أبا العلاء المعري الذي يلفت النظر إلى هذه الإمكانية، يعزل نفسه، ويتعالى وجدانيـــاً وفكرياً وأخلاقياً وإرادياً، إلى درجـــة رفيعة، لم يُعبِّر عنها وليم شكسبير أبـــدا، في مسرحية (الملك لير)، وهو ما يعني أنـــه لم يستطع إدراك هذه الخـــبرة بوضوح كافٍ، وأن النمـــاذج الأخلاقيـــة السلطويـــة المغرورة غير قادرة على إدراكها أبدا:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ

عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

أعندي وقد مارست كل خفيَّةٍ

يُصدَّق واشٍ أو يُخيَّب سائلُ

إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ

وعيَّر قسًّا بالفهاهة باقلُ

وقال السُّهى للشمس أنت خفيَّةٌ

وقال الدُّجى يا صبح لونك حائلُ

فيا موت زُرْ إن الحياة ذميمةٌ

ويا نفسُ جدِّي إن دهرك هازلُ

ودائمـــا عندمـــا يكـــون هنـــاك تداخل سيكولوجي، فإن النتائج تكون غير محمودة، في كثـــير مـــن الأحيـــان، إلا عندمـــا يؤدي التداخل الناجم عن حضور السلطة الأبوية، حضـــوراً قوياً، إلى تخليـــق أخلاقية فاضلة تماما. وليس هناك ما يمنع وجود مثل هذا التداخل بـــين عدد من القـــادة التاريخيين وأبنائهم، وفي هذه الحالة، لن يكون بالإمكان تبرئـــة أولئك القادة، من النتائج التي ترتَّبت علـــى طريقتهـــم في التعامـــل مـــع الشؤون العائليـــة، وتلك المتعلقـــة بالدولة والمجتمع والناس، فالإمبراطـــور والفيلسوف الرواقي ماركوســـ أوريليوس Marcus Aurelius (١٢١-١٨٠) أخلاقيـــة حقيقيَّة، وهو يمثل في قراراته النموذج البشـــري، الذي تتمكن لديه الأخلاقية مـــن السيطرة على الدوافع السيكولوجيـــة سيطرة تامـــة، لكن التداخل السيكولوجي مع السيكولوجية الذاتية التي لابنه كومودويـــس Commodus (١٦١-١٩٢) أدى إلى انحراف الابن انحرافا خطيرا، ونحن هنا نتعامل مع واقعة تستحق التأمل،

فالالتصاق بين سيكولوجية الأب وابنه، وتمتُّع الأب بأخلاقيـــة مكتملة، قد يؤدي إلى إلغاء الابن، عن طريق إلغاء دوافعه السيكولوجية، ومـــن الطبيعي أن تدافع هـــذه الدوافع عن وجودهـــا، وتتنكر للأخلاقية تنكراً لا هوادة فيـــه، إن هـــي استشعـــرت الخطـــر الذي تتعرَّضـــ له حياتهـــا. وفي كل الأحوال، فإن قيام دولة على أساســ وجود ملك أخلاقي سلطـــوي فاضل، وعلى وجـــود رعايا تعتبره راعيـــاً وأبـــاً، شأن لن يـــؤدي إلى تقدُّم هذه الدولة، وربما استطاعت إحراز تقدُّم علمي، غـــير أن التقـــدُّم الحقيقي، هـــو ذاك الذي يطـــال المفاهيم الأخلاقية، ويستطيع إدراك الإمكانيـــات البشرية المتنوِّعـــة، والاعتراف بهـــا. ومن ناحيـــة أخرى، فـــإن الإنجازات العلمية لا ينبغي لهـــا أبدا، أن تخدم نظاماً معرفياً أخلاقياً ماورائيـــاً، والأجدر بها أن تكـــون موضوعة في خدمة التقدم الإنساني، وبالطبـــع تبقى إمكانية انهيـــار الدولة التي يحكمها نظام أبوي سلطوي قائمة، في حال حدوث اختلال في التـــوازن القائم داخلها، وهو الانهيار الذي لا يحدث في الدول التي تحكمها أنظمة ديموقراطية، بالمعنى الأكثر أصالة لهـــذه الكلمة، فالواقـــع أن الارتقاء الأخلاقي العقلاني، هو الذي يجعل الإنسان قادراً على تجاوز ثنائية الخير والشر بالمعنى المألـــوف، أي على تخطي الملك لير والشاعر هيزيود.

ومهما يكن مـــن أمر، فإن اللـــورد كِنْتْ والابنـــة الفاضلة كورديليـــا، لا يتخليان عن الملك لـــير، وسلوكهما دال علـــى انطوائهما على الأخلاقية، انطواء غير قابل للارتداد، فالأخلاقيـــة هـــي قدرهمـــا، ولـــن يكـــون بإمكانهما التراجـــع عنه، وهكذا فإن اللورد كِنْتْ يتنكر، ويُعـــاود خدمته للملك، دون أن يكـــون هذا الأخـــير، على درايـــة بحقيقته، ولا يمكـــن الفصل بين الأخلاقيـــة ومَخَايل السلطان التي تُوحـــي بها ملامح الملك لير، علـــى ما يرد في حوارهما، لدى محاولة كنت العودة إلى خدمة سيـــده، فالأخلاقية ذاتها شرط لا بدَّ من توافره لدى الرجل القيادي، كي يكون مؤهلا للقيام بدوره على أتم وجه، وفي تاريخ الفلسفة يُعـــدِّد الفارابي (٨٧٨-٩٥٠) في كتابـــه (آراء أهل المدينة الفاضلة) صفـــات القائـــد الحقيقي، وكلهـــا صفات أخلاقية فاضلة، واللافـــت أن القدرة على

مباشـرة الأعمال الحربيــة باقتدار، واحدة مــن تلــك الصفــات، وفي هــذا تأكيد من الفارابي، على أن الشر موجود على الدوام، وأن المدينة الفاضلة قد تتعرَّض للاعتداءات اللاأخلاقيــة، وبالرغــم مــن أن الفارابي نمــوذج أخلاقي فاضــل، فإنــه يدافع عن القوة الحربية، وفي هــذا تأكيد أيضاً، على رغبة كامنة في امتلاك القوة، وربما كان من الأفضل أن يكون الكائن البشري قويًّا قبليًّا، لا أن يكون أخلاقيــاً وفاضلاً، ويكتشف أن القــوة لازمة في ميقات تــالٍ. وعندما كتب الشاعر لقيط بن يعمر (توفي ٣٨٠) قصيدة (يــا دار عمرة) التي يحــذِّر فيها قبيلة إياد العربيــة، مما انتــواه كسرى حيالهــا، فإنه أشــار إشارة ذات دلالــة، إلى ضرورة توافر الصفات الأخلاقيــة الحميدة لدى القائد، الذي يعتزمون وضع مقدَّراتهم تحت تصرف قيادته الحكيمة:

فقلدوا أمركم، لله درُّكُمُ

رَحْبَ الذراع بأمر الحرب مُضطلعا

لا مُترفا إن رخاء العيش ساعدَهُ

ولا إذا عض مكروهٌ به خشعا

مُسهَّدَ النوم تعنيه ثغورُكُمُ

يروم منها إلى الأعداء مُطَّلَعا

ما انفك يحلب درَّ الدهر أشطُرَهُ

يكون متَّبِعا طورا ومتَّبَعا

وليس يشغله مال يُثمِّرُهُ

عنكم، ولا ولد يبغي له الرِّفعا

وليس من الضــروري للرجل الأخلاقي، الذي تُوحي ملامحه بكونه سلطاناً، أن يكون كذلك بالفعل، فالفيلسوف اليوناني الرواقي زينــون الأكتيومــي Zeno of Citium (٣٣٦-٢٦٤ ق. م.) أخلاقيــة مكتملــة، وملامحه توحــي بأنه سلطــان، وهو ينظر إلى الأخلاقيــة نظرتــه إلى الشرط الواجب توافــره، كي يكون المــرء سلطانــاً بالفعل، ونظرتــه هذه تمكِّنــه مــن الاستعلاء على السلطان الموجود على رأس الحكم في الواقع الفعلي، ونحن دائماً أمــام مشروع أخلاقي ذي طبيعــة مُتعالية، وهــو المشروع الهادف إلى جعل الرجال القياديين، رجالاً مُكتملين من الناحيــة الأخلاقية، وفي نهاية (موعظة الجبــل) التي ألقاهــا السيــد المسيح على مسامع حوارييه وأتباعه، ثمة إشارة إلى أنهم شعــروا بأنه يكلمهم كمن لــه «سلطان» وفي مناسبة أخرى، دخل مدينة أورشليم بتواضع

ترافق مع احتفاء عامة الناس به، واعتبارهم إياه ملكاً حقيقياً، ووفق جبران خليل جبران فإن يهوذا الأسخريوطي Judas Iscariot أراده أن يكون ملكاً زمنياً حقيقياً، غير أن السيد المسيح انتهره، ورفض أن يقلل من شأن نفسه، ويكون ملكا بهذا المعنى، على ما أورده في كتابه (يسوع ابن الإنسان).

وإنه لمَّا يتضح من مسرحية (الملك لير) أن كل تلك المشاريع الفلسفية، تُعاني من أوجه النقصان، ووفق فريدريك نيتشة فإن الأخلاقية تؤدي إلى تقهقر الطاقات الإرادية، وفي هذه الحال، فإن نموذج السلطان يصبح أرستقراطياً إرادياً. واللورد كِنْتَ الذي يتعرض للنفي، يرفض في قراراته، مُغادرة المملكة، ويُعاود خدمته للملك لير حتى النهاية، وأكثر من هذا كله، فإنه يرفض القيام بأي دور قيادي، عندما تتكامل خيوط التراجيدية، وتنتهي فصولها بموت الملك وبناته الثلاث، إضافة إلى الخائنين إدموند ودوق كورنوول، وهو يفضِّل اللحاق بالملك الذي فارق الحياة، على أن يلعب أي دور في تقرير شؤون المملكة، التي قوَّضت أركانها الأحداث التراجيدية المتوالية. واللافت أن من يتقاتلون ويتنازعون فيما بينهم، غير قادرين على رؤية أبعاد ما يعنيه تقاتلهم وتنازعهم، وعادة ما يكون أصحاب العقول المستقلة، والتفكير الحر، قادرين على رؤية ما لا يراه اللاعبون في الميدان، وعلى الرغم من هذا، فإن هؤلاء اللاعبين يتغيَّرون، نتيجة اكتشافهم البطيء لما تنطوي عليه ألعابهم من معانٍ، وربما أمكنهم في وقت من الأوقات، أن يرتقوا قليلاً، وأن يكفوا عن التقاتل والتنازع، ويستهزئوا بما اقترفوه من أعمال، ووفق هذا المنظور فإن أحداث مسرحية (الملك لير) لا ينبغي لها أن تستثير الشفقة أو الرعدة التي أقرَّ دوق أولباني، أنها تستثيرها، فالواقع أن هذه المأساة تبعث على التقليل من شأن النماذج البشرية كافة الموجودة فيها. وإذا كان قارئ (الملك لير) يستهجن أداء إدموند، ودوق كورنوول، والبنتين العاقتين، فإن عليه أن يستهجن أداء الملك لير، وأعوانه أيضاً، فما من قيمة في الواقع للأخلاقيات السلطوية الاستبدادية، وما من إمكانية للارتقاء الإنساني الراقي في ظلها.

وعلى غرار اللورد كِنْتَ، فإن الشاعر

الأخلاقـي البهـاء زهـير (١١٨٥-١٢٥٨) يرتبط ارتباطـاً سيكولوجياً أخلاقياً وثيقاً، بالملك الصالح، ويخدم الناس بإخلاص تام، ويتوسَّط لـدى الملك من أجل نصرة العدالة الاجتماعية، بطريقة خيِّرة تماماً، وإلى ذلك فإنه يرفض القيام بالدور ذاته، عندما تقع الخيانة، ويستولي على الحكم الملك الناصر، لكنـه يعود إلى البـلاط، وإلى سالف عهده، مع عودة الملك العـادل إلى الحكم، وعندما يموت الملك أخيراً، فإن البهاء زهير يعتزل في داره، إلى آخر أيام حياته، وهو ما يدل على أخلاقيـة راغبـة في أداء دورها الأخلاقي، دون تقاعـس أو تـردُّد، وغير قـادرة على هجران الأخلاقية الأخرى، التي ترتبط بها ارتباطهـا الوثيق، وفي أشعاره تظهر بوضوح نفحات إنسانية أصيلة:

أنت الحبيب وما لي عنك سلوانُ
وفيك ضجَّ عليَّ الأنس والجانُ
بيني وبينك أشياء مؤكدةٌ
كما علمتَ وأيمان وإيمانُ
فليت شعري متى تخلو وتُنصتُ لي
حتى أقول فقلبي منك ملآنُ
وقد جعلتُ كتاب العَتْبِ مختصرا
إذا التقينا له شرحٌ وتبيانُ
إياك يدري حديثا بيننا أحدٌ
فهم يقولون للحيطان آذانُ
مولاي رفقا فما أبقيتَ لي جلداً
فإنني أيها الإنسانُ إنسانُ

وإنـه لمن الأفضـل أن يكـون الارتباط السيكولوجـي الأخلاقـي بـين الأفـراد، وتحديـداً بـين الوالديـن وأبنائهمـا، أو الرئيس، ورعايـا الدولة التي يحكمها، غير موجود بالكيفية التي تعرض لها المسرحية، وإذا كانت الانتكاسة الأخلاقية التي يمثلها إدمونـد، ودوق كورنوول، والبنتين العاقتين، تـؤدي في وقـت مـن الأوقـات، إلى قلقلة الارتبـاط المذكور، فإنه لمن الخير أن تحدث انتكاسـات متوالية، إلى أن يتم إحداث شرخ حقيقي في الطبيعـة الأخلاقية السلطوية، وهو ما يفسح المجال أمام إمكانية تجاوزها، وتحقيق الارتقاء البشـري المأمول، الذي لا يعلم عنه شيئا، مـن يمتلك تفكيراً حسابياً، وقـدرات متواضعـة على تخيُّـل الأوضاع الإنسانيـة، كالملك لير، والشاعـر هيزيود، وأمثالهمـا. وفي مسرحية (الملـك لير) ثمة إصرار علـى أن الطبيعـة البشرية الحقة،

طبيعــة أخلاقية حتمــا، وأي سلوك بشري يتنافى مع الأخلاقية، هو سلوك يتنافى مع الطبيعة البشرية ذاتها.

والتصــور ذاته موجــود في المنظومات الفلسفيــة الأخلاقيــة، وهنــاك تأكيد في الفلسفــة الرواقيــة Stoicism علــى أن الأخلاقيــة الفاضلة تمثل الطبيعة البشرية، ولن يمثلها شيء آخــر، والحياة وفق العقل أو الطبيعــة، بالمعنى الكــوني والبشري، هي الحياة التــي تسيِّرها الأخلاقيــة الناجزة، ودائمــا يترافــق الخلــل الذي يطــرأ على الأخلاقية جمعيًّا، مع خلل في النظام الكوني كله، وبالفعل فإن وصول العقوق البنوي إلى ذروتــه، واشتداد معاناة الملــك لير وأعوانه في القفــر، واحتدادهــا، احتــدادا أليمــا، يترافق مع خلل في نظــام الطبيعة والكون، ومــا العاصفة بأمطارهــا وبردها وبروقها ورعودهــا، غير دلالة علــى رفض كوني لما حلَّ بالأخلاقية في دنيا البشر. وفي مسرحية (ماكبث) تتكرر الصورة ذاتها، فاغتيال الملك الأخلاقي الفاضل دانكن، على يدي ماكبث الطامــح إلى تقلــد مقاليد الحكــم، عنوة واغتصابا، ودون أدنــى اعتبار للأخلاقية، يترافق هو الآخر، مــع عاصفة عنيفة، دالة على اختــلال العناصر الكونيــة وغضبها، فالطبيعــة البشرية والطبيعــة التي ينطوي عليها الكون بأكمله، طبيعة أخلاقية كاملة، وينبغي لها أن تكون كذلك على الدوام. وإنه لمن اللافت أن نموذج إدموند، أسوأ أخلاقياً، من نموذج الطاغيــة «ماكبث» الذي اقترف الجرائم المتواليــة، وكان على صلة بالأرواح الماورائية الشيطانيــة المدلهمَّة، لدى التأمل في سلوكهمــا واعتقاداتهمــا الأوليَّة، فلقد أنكر إدموند الماورائيات والتنجيم، وإمكانية وجــود أي ارتباط بين الظواهــر الطبيعية غــير المألوفــة، والانحطــاط الأخلاقي في دنيــا البشر، وترافــق إنكاره لهــا كلها، مع انحطاطه الأخلاقي الكامل، في حين عانى ماكبــث من سيطرة لعنة علــى إرادته، ومن صــراع أخلاقي مريــر بــين قيمتي الخير والشر، وبقي على اعتقاداته بوجود الألوهية والعناية الإلهية، والعدالة في العالم الماورائي، وبالقيــم الأخلاقية المألوفــة، دون أن يكون قادراً على إدغامها في تكوينه السيكولوجي الأخلاقي الذاتي، على أن إدموند أعلن لدى دنو أجله، اعترافه بالعدالة الإلهية، في حين

امتزج ماكبث بالإرادة اللاعقلانية العمياء، وأصبح شريراً تماماً، في الوقت الذي أبدى فيه إدموند سلوكاً خيِّراً. ومن الظواهر التي تميِّز الأخلاقية في مسرحية (الملك لير) ظاهرة الحكمة الأخلاقية، على قلة ورودها في السياق السردي للأحداث، وهي الحكمة التي ينطق بها الملك المظلوم لير وأعوانه في بعض الأحيان، ودائما يكون احتداد الصراع بين الأخلاقية، وبين نقيضها الذي يتنكَّر لها، حافزاً يؤدي إلى إنتاجها، وإخراجها إلى حيِّز الوجود، فالملك لير الذي يدخل في حوار أليم مع ابنتيه الكبريين، لا يتمكن من احتمال عقوقهما، ومحاولتهما تجريده من المظاهر كافة، التي ما زال يحتفظ بها، كرمز لسلطته، وفي سياق الحوار الذي يتبدَّى فيه، إصرارهما على ضرورة تخليه عن فرسانه المئة، تتبدل سريرة الملك تبدلاً فاجعاً، وهو يتودَّد إليهما في البداية، ويقرر أن جونريل أكثر حباً له من ريجان، لمجرد أنها أبدت استعدادها لقبوله إن هو اكتفى بخمسين من فرسانه، على خلاف ريجان التي طالبته بإنقاص عددهم إلى خمسة وعشرين، وهو يقرِّر أن الشرير قد يبدو فاضلاً، إذا كان هناك من يزيد شره عليه، وربما استحق بعض المدح، من لا يكون أسوأ البشر. والأمر اللافت أن طريقة الملك لير في التفكير، تظل على حالها، وهي طريقة تعتمد النظر إلى ظواهر الأشياء، وتعجز عن إدراك ما يتخفى وراءها، ورؤياه الفكرية عقلية حسابية من النوع البسيط، والمخيلة غير قادرة على إسعافها، أو على إمدادها بأي عون، على أن الحكمة التي ينطق بها الملك المفجوع، أخلاقية في جوهرها.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذا الملك يتهاوى باتجاه إبداء تودداته الذليلة، أمام ابنتيه، وإعلان استعداده لإظهارها أمام ملك فرنسا، وابنته كورديليا، التي حرمها من الميراث، ومن البركة الأبوية، على أن انحداره باتجاه الانطواء على الذل، يدفع به إلى الغضب الجامح، وإلى صب لعناته على ابنتيه العاقتين، وربما كانت مشاعر الذل التي عانى منها المفكر الفرنسي جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) سبباً كافيا لدى أنصاره، الذين يشبهونه في تكوينهم، كي يتهوروا في الانتقام من خصومهم، وفي إراقة الدماء،

ومما يقال عن الكاتب المسرحي السويدي أوجست ستريندبيرغ August Strindberg (١٨٤٩-١٩١٢) أنه عانى من مشاعر مشابهة، تركت بصماتها على جملة إبداعاته، وعلى تكوينه، وأدائه الحياتي. على أن تعرُّض أبي الطيب المتنبي، لمواقف باعثة على الرضى أو الألم، أدى به إلى إنتاج الحكمة، وإخراجها من مكامنها، على أن حكمة أبي الطيب المتنبي لا تتنكر لما في الطبيعة البشرية من دوافع سيكولوجية، وهي تتعامل مع الحقائق المرفوضة، بوصفها تلك الحقائق الواقعة، التي يتوجب التعامل معها تعاملا واقعيا، أي إن المتنبي لا يستهدف مبدئيا، إقصاء النوازع المرفوضة، العائدة للطبائع البشرية، وللدوافع السيكولوجية، بقدر ما يستهدف إقرارها، والتصرف إزاءها إجرائياً، دون أن يكون هناك أي ميل طوباوي لنزعها من الوجود البشري، واستئصالها تماماً، ونحن أمام حكمة أكثر اتساعاً، وأمام رؤية فكرية أشمل وأكمل، وأمام تكوين أرفع شأناً من أن يكون أخلاقياً سلطوياً، ومن ناحية أخرى، فإنه ليس من النوع القادر على إبداء أدنى قدر من التوددات أو التذلل أمام أعدائه، وليس ممن يهبون بركة، أو يصبُّون لعنة، وهو ما يعني أنه أعظم من نموذج الملك لير بأشواط. ومرة أخرى، يبدو أن النموذج البشري الأكثر ارتقاء في العالم، ليس ذلك النموذج الأخلاقي العربي، كالعالم والمفكِّر الفرنسي بليز باسكال Blaise Pascal (١٦٢٣-١٦٦٢). على أن الملك لير يتراجع عن تودده وتوسلاته، وينقلب إلى النقمة والغضب، في مواجهة عقوق ابنتيه القاسيتين، وهو يهددهما بالانتقام، ويؤكد أن الصبر هو ملاذه الأخير في ورطته، التي انحدرت به إلى قراراتها، والجرح الذي ألَمَّ به، يجعل موقفه من الناحية الأخلاقية، غير قابل للمداواة والتراجع. وعلى غراره فإن الشاعر الشنفرى (توفي ٥١٠) يجد نفسه في موقف مُشابه، فأبناء قومه يؤذونه، ويحجبون عنه حقوقه، وما من سبيل أمامه غير الانتقام من سلوكاتهم اللاأخلاقية حياله، انتقاماً أخلاقياً، وهو يُشير في قصيدته المشهورة (أقيموا بني أمي) إشارة دالة على تجلده وصبره، وعلى غضبه، الذي هو غضب صرف أو شجاعة حقيقية:

فإني لمولى الصبر اجتاب بزَّهُ
على مثل قلب السمع والحزم أفعلُ
فلا جزعٌ لخلة مُتكشفٌ
ولا مرحٌ تحت الغنى أتخيَّلُ
وليلة نحس يصطلي القوسَ ربُّها
وأقطُعَهُ اللاتي بها يتنبَّلُ
دعستُ على غطشٍ وبغشٍ وصُحبتي
سعارٌ وإرزيز ووَجْرٌ وأفكُلُ
فأيَّمت نسوانا وأيتمت إلدة
وعدتُ كما أبدأتُ والليل أليلُ

وفي خاطرته التي حملت عنوان «المليك السجين» والتي أوردها في كتابه (العواصف) يدعو جبران خليل جبران مليكه ذاك، إلى ضرورة التجلد والصبر، وثمة إشارات في أدبه، تدل على تأذيه السيكولوجي، بطريقة أو بأخرى، فالخاطرة التي حملت عنوان «الحيوان الأبكم» والتي أوردها في كتابه (دمعة وابتسامة) تؤكد شيئاً من هذه الحقيقة، وفيها يتعاطف الكاتب مع هذا الكائن الحي الذي ألم به الأذى إلى درجة غير قابلة للإصلاح، وهو ما بدا ظاهراً في نظرات الحيوان الكئيبة، وجبران خليل جبران يتحدث في أحايين كثيرة، بطريقة غاضبة، في خواطره التي تؤلف في مجموعها كتابه (العواصف) وثمة إشارات تدل على رغبة في الانتقام، إلا أنها ليست تلك الرغبة التي يتم إعلانها، والتصريح بها، على ما هو عليه الحال لدى الملك لير، والشاعر الشنفرى. ومن ناحية أخرى، فإن اعتماد الدعاء، وصب اللعنات على البنتين العاقتين جونريل وريجان، إنما هو نتيجة من نتائج الانضغاط الذي تتعرَّض له الأخلاقية، فالملك لير ينظر إلى مشروعه الحياتي، بوصفه مشروعا أخلاقيا في جوهره، وعقوق ابنتيه ليس عقوقهما المفصول عن أخلاقيته، بل هو العقوق الذي يعني فشل مشروعه الأخلاقي، فشلا ذريعا، وانحطام أناه وغروره وصلفه، انحطاما شاملا، الأمر الذي يؤدي إلى اندفاعه باتجاه الدعاء، وصب اللعنات، في مرحلة أولى، وإلى الجنون في مرحلة لاحقة، وعلى الرغم من انطوائه على الأخلاقية، فإنه ليس ذلك الرجل التقي الورع تماماً، وهو مسؤول عن عقوق ابنتيه، مسؤولية مباشرة، وما من شيء يؤكد إمكانية استجابة الآلهة لأدعيته. وعلى خلافه فإن أدعية ابن النحوي (توفي ١١٣٥) الصوفي

الورع، كانت مُستجابة على الدوام، فلقد دعا على ثلاثة قضاة في أوقات مختلفة، فماتوا، ويبدو أن الاعتقادات الأخلاقية الماورائية تستدعي أن يكون هناك أتقياء ورعين، وأن تكون أدعيتهم مستجابة، ومن يُصدِّق هذه الحقيقة، ويفرضها فرضاً على الذات، ليس العقلانية أو الحقائق الواقعية بالضرورة. وفي قصة (كف السعدان) للكاتب الأمريكي و.و.جاكوب (١٨٦٣-١٩٤٣) يضع قديس رُقية على الكف، فيكتسب قدرة خارقة للطبيعة، وإن استهزاء الفتى الشاب بالفكرة، يؤدي إلى علوقه في الآلة الميكانيكية، وإلى موته بطريقة شنيعة، لأنه تجرأ على القدر، وما يمثله من عناية إلهية، لدى اجترائه على ذلك القديس الورع، واستخفافه بالقدرات الخارقة التي يمثلها «كف السعدان».

ووفق التصنيف الذي أعلنه الفيلسوف اليوناني أبيقورس للحاجات البشرية، فإن الحاجات الدنيوية المتمثلة في مئة من الفرسان، لدى الملك لير الأخلاقي السلطوي، وفي حضور الحاشية والخدم، حضوراً دائماً، بأكثر من إرضاء ساذج لتلك المزايا السيكولوجية، الدالة على وجود غفلة عقلية حقيقية، والملك باعترافه، يعتبر أن تلك الحاجات الدنيوية تميِّز الكائن البشري عن الكائنات الحية الأخرى، ومع ذلك فإنها مرتبطة بأناه، ارتباطاً وثيقا، يبدو على حقيقته عندما تحاول البنتان العاقتان تجريده تماماً منها. وعادة ما تعني هذه الأحوال، شيئاً يقينياً، لمن ينتمي إلى تكوين بشري ينطوي على الاعتقاد بها، ولكنها ليست مما يعني شيئا عندما يكون الإنسان كأبي الطيب المتنبي، أو أبي العلاء المعري، وإنه لمن الممكن الادعاء بأن الافتراضات الأخلاقية القبلية، تجعل الكائن البشري في مرتبة بسيطة الشأن، من الناحية المبدئية، وتفسح المجال أمامه، كي يكون في مرتبة أرقى، فالكائن البشري يتصف بالميل إلى اقتراف الرذيلة، أي إلى تلبية متطلبات شهواته، على أن الأخلاقية ذاتها، تحرِّره، إن امتلك الاستعداد الأخلاقي الكافي، وترفعه إلى الأعالي، بل وإلى التوحد مع الفضيلة والمعرفة، واقتناص الروعة الأبدية، لدى إنصاته لصلوات القديس برنار Saint Bernard على ما أعلنه دانتي أليجييري Dante Alighieri (١٢٦٥-١٣٢١) في

(الكوميديــة الإلهيــة). وإذا كان هناك من يعتقد بــأن الفيلســوف اليونــاني سقراط Socrates (٤٧٠-٣٩٩ ق. م.) يتصــف باتــزان النفــس، فــإن هناك من يــرى أنه يتصــف بالاقتــدار الأخلاقــي والفكري، عندما يكون هادئاً، أمــا عندما تعصف به نوبــات الغضب، فإنه يصبــح قبيحا تماما، ويبــدو أن الملــك لير قــد اتصــف بتكوين مُشابه، والواقع أن الأخلاقية التي تصطدم بأية عراقيــل، تدفع بمن ينطوي عليها، إلى الغضب والطيشــ والنزق، نتيجــة القلقلة التــي تبعثها فيها تلــك العراقيل، ومما هو مأثور عن الشاعــر الأخلاقي زهير بن أبي سلمــى (٥٣٠-٦٢٧) احتكامه إلى العقلانية الأخلاقيــة، وإلى توجيــه الشتائم الفاحشة إلى من يرفضــون نصائحه وتوجيهاته، وفي الوقت الذي تكــون فيه الشتائم لدى نماذج الملك لير، والشاعر زهير بن أبي سلمى، على صلة وثيقة بالأخلاقية التي ترفض الشهوات الطبيعيــة، وتنطوي على القيــم الأخلاقية الكابتة لها، فإن أبا الطيب المتنبي يستخدم في شتائمــه اللغة التي يفهمها الآخر، والتي تعني له شيئا معيَّنــا ومُغايرا، لما قد تعنيه، وفق المتنبي ذاته، على ما هو عليه الحال في القصيدة التي هجا فيها ابن كيغلغ.

وممــا يُميِّز الصلف لدى الملك لير، كونه ارتكاساً سيكولوجيا أخلاقيا، يستعصي على التهذيب الأخلاقي، وهــو لا ينفي نقيضه، الذي يمثلــه التواضع الشامــل، والاعتراف بأن الكائن البشري كأي مخلوق حيواني آخر، وهذه الإشارة ترد على لسان اللورد جلوستر، ويمثلها من الناحية الفعلية، خير تمثيل، ابنه الشرعي إدجــار، الذي يفر هارباً من بطش الأب الأخلاقــي الغافل، الــذي لا يتنبَّه إلى مؤامرة ابنه الآخر إدموند وكيده، وهو الابن الذي أنجبه جلوســتر بطريقة غير شرعية، وإدجــار يلتقي في القفر الملــك الهائم على وجهه، برفقــة صديقه الوفي اللــورد كِنْت، والمهــرِّج ذي الأخلاقية القادرة على الرؤية، بأكــثر مما لدى الملك نفســه من قدرة على الرؤية، فإدجار العاري المجذوب، يمثل نفسه حقيقة الإنسان، وفق رؤية الملك لير الفكرية، ومــا الإنسان غــير ذلك المخلــوق البائس، على الرغم مــن كل ما يحيط به نفسه، من مظاهــر الأبَّهــة والسلطان، وهــو يخاطبه بلقب «الفيلسوف» ومــا من غرابة في هذا،

فالفيلســـوف في بدايات التفكير الفلسفي، لم يكن يختلف كسيكولوجية، عن السيكولوجية الورعة التقيَّة البسيطة، والكلبيُّون Cynics تحديداً، اعترفوا بالفضيلة، وخرقوا القواعد المرعيَّة، واهتموا بالحقيقة الداخلية، وليس بأية حقائق خارجية، ويبدو أن مظهر إدجار العاري ظاهريا، قد عنى تلقائياً أنه فيلسوف في باطنــه، فالحقيقة الداخلية أعلنت ذاتها أمام ناظري الملك لــير. والأخلاقية تنطوي أيضــاً على دعــوة إلى التواضع، وهي تذكِّر الإنســان دائماً وأبــداً، بأنه ذلــك المخلوق البائس، ويبــدو أن الشاعر إيليا أبو ماضي (١٨٨٩-١٩٥٧) يمثــل أخلاقيــة مُكتملــة، على الرغم من آرائــه اللاأدرية، وهو يؤكِّد في قصيدتــه التي حملت عنوان (الطين) أن الكائن البشري بائس، وإن مال إلى التسلط، وإحاطــة نفسه بالأبَّهــة والسلطان، وما هو غــير «طين حقير، صال تيها وعربد» ووجب عليه أن يعترف بحقائقه، وأن يتبنَّى التواضع تبنِّيا شاملاً ومخلصاً، ولا رياء فيه:

نسي الطين ساعة أنه طينٌ
حقيرٌ فصال تيها وعربدْ
وكسا الخزُّ جسمه فتباهى
وحوى المال كيسه فتمردْ
ألك القصر دونه الحرس الشاكي
ومن حوله الجدار المشيَّدْ
ذدتني عنه والعواصف تعدو
في طِلابي والجو أقتم أربدْ
فسمعتُ الحياة تضحك مني
أترجَّى ومنك تأبى وتجحدْ

وفيمــا يتعلــق بالدوافــع السيكولوجية الفرديــة المفصولة عن الأخلاقية، والهادفة إلى تحقيــق المنفعة، فإن انتصاراتها مؤقتة، وهــي انتصــارات شريــرة في جوهرهــا، والانتصــار النهائي لن يكون غــير انتصار الأخلاقيــة عليها، وعلــى آثامها وشرورها، ومنــذ البداية يفشل دوق بيرجندي في قبول كورديليا زوجة له، لأنه يمثل المنافع، وكورديليا ذاتهــا ترفضه، ومــا كان يمكنها قبول ملك فرنسا زوجا لها، لو لم يكن أخلاقية مُكتملة، ولو لم يتقدَّم لطلــب يدها مدفوعاً بإعجابه بفضائلهــا، وميزاتها الأخلاقيــة الرفيعة، وليس بما قد يخلفه لها والدها الملك لير من ميراث. وفي مسرحية (الزوج المثالي) للكاتب الأيرلنــدي أوســكار وايلد تنتصــر الإرادة الأخلاقية الغائية المثالية، التي يمثلها البطل

روبرت تشيلترن وزوجته، على الإرادة النفعية الأنانيــة التي تمثلها مســز تشيفلي، وبالمثل فــإن أخلاقية سقــراط وأفلاطون Plato (٤٢٧-٣٤٧ ق. م.) وأرسطــو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) انتصــرت علــى الــرؤى الفكرية الواقعيَّة النفعيَّــة، التي دافع عنها الفلاسفة السفسطائيون، وأحداث المسرحية بأكملهــا، إنمــا هــي ســيرة الصــراع الذي اندلــع بين الأخلاقية، والرؤيــة الارتكاسية اللاأخلاقيــة الانتقاميــة النفعية، وبالطبع فإنه الصــراع الذي ينتهي بهزيمــة الرؤية النفعية، ومــن يمثلها، وبانتصــار أخلاقية أكثر اكتمــالاً من أخلاقيــة الملك لير، وهي الأخلاقية التي أنجبتها إخفاقات الأخلاقية السالفــة، وتجاربها الأليمــة. ودائما هناك اعتبارات تستحــق أن يُوليها المرء اهتمامه، فالفيلسوف الألمــاني فريدريك نيتشة، يرى لدى السفسطائيــين ما هو أعظم شأناً مما لدى الفلاسفة الأخلاقيين، وفي كل الأحوال ليســت الأخلاقيــة السلطويــة التي يمثلها الملك لــير شأناً عظيماً، ومــن المرفوض أن تواصل التحكم بالأفراد، والعلاقات الدولية بــين أمم الأرضــ، تحكما يجعــل إمكانية فهم الأحــداث الفردية والكونيــة، إمكانية غــير قائمة، وبكلمة أخــرى، فإن اعتقادات الأفراد والجماعــات، وأداءهــم الحياتي، أكــثر اتساعاً وتعقيداً من النظرة الأخلاقية التبسيطيــة، وأكــثر احتياجــاً إلى نظرات تتجــاوز النظرات الأخلاقية العرفية، وما لم يستطع الكائن البشــري امتلاك العقلانية، وتجاوز الأخلاقيــة بأفقها الضيِّق، فإنه لن يكون قادرا أبداً، على تجاوز عائلة الملك لير، ولعله مما ينتمي إلى الخطأ، استخدام الكثير من القــادة السياسيين تصريحات أخلاقية، دون أن يكون في العــالم من يؤمن بأنهم قوم أخلاقيــون، والأكــثر أخلاقية مــن هذا أن يكونوا واقعيين وصادقــين مع ذواتهم، ومع من يحتكُّون بهم من جماعات ودول وأمم.

الهوامش:

١- وليم شكسبير، الملك لير، ترجمة وتقديم: محمد عناني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢- مجموعة من المؤلفين، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، نيقولا ماكيافيلي، جان جاك روسو، الكوميدية الإلهية.
٣- د. عادل العوَّا، المذاهب الفلسفية، فريدريك نيتشة، أبيقورس، الفارابي، الرواقيَّة، أفلاطون، أرسطو، جامعة دمشق.
٤- د. إبراهيم سكَّر، الإنيادة، فيرجيل، تراث الإنسانية.
٥- د. محمد عبدو النجاري، شكسبير والدراما: صورة أدبية نقدية، دار الحصاد، سورية.
٦- أبو العلاء المعري، سقط الزند، دار صادر، بيروت.
٧- وليم شكسبير، ماكبث، ترجمة: خليل مطران، دار مكتبة الحياة.

٨- جبران خليل جبران، المؤلفات الكاملة، تقديم: ميخائيل نعيمة، يسوع ابن الإنسان، العواصف، دمعة وابتسامة، دار صادر، بيروت.
٩- د. حسن شحاتة سعفان، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه، تراث الإنسانية.
١٠- مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي، ترجمة: د. عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد، بيرسي شيلي، وليم بليك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
١١- عبد القادر المغربي، جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث، تقديم: كريم أبو حلاوة، دار البعث.
١٢- الأستاذ رمسيس عوض، صورة دوريان غراي، أوسكار وايلد، تراث الإنسانية.
١٣- رابندرانات طاغور، ديانة الشاعر، ترجمة موسى الخوري وغسان الخوري، دار الغربال، دمشق.
١٤- د. محمد سليم سالم، الأعمال والأيام، هيزيود، تراث الإنسانية.
١٥- د. أحمد عبد الرحيم أبو زيد، عن طبيعة الأشياء، لوكريتيوس، تراث الإنسانية.
١٦- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، طرفة بن العبد، أبو الطيب المتنبي، عنترة بن شداد العبسي، البهاء زهير، الشنفرى، بيروت، لبنان.
١٧- لجنة من العلماء والأكاديميين السوفييت، ترجمة: سمير كرم، جيريمي بنتام، جون ستيوارت مِل، الكلبيُّون، دار الطليعة، بيروت.
١٨- د. علي درويش، الليالي، ألفرد دو موسيه، تراث الإنسانية.
١٩- فريدريك نيتشة، هكذا تكلم زرادشت، الملذات والشهوات، ترجمة: فليكس فارس، دار أسامة.
٢٠- الأستاذ علي أدهم، التأملات، ماركوس أوريليوس، تراث الإنسانية.
٢١- شبكة الإنترنت (باللغة العربية)، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، لقيط بن يعمر، البهاء زهير، الشنفرى، ابن النحوي.
٢٢- مجموعة من المؤلفين، زينون الرواقي، موسوعة المعرفة، المجلد الخامس.
٢٣- القديس متى، إنجيل متى، الاصحاح الخامس والسادس والسابع.
٢٤- إعداد: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، بليز باسكال، سقراط، دار الطليعة، بيروت.
٢٥- شبكة الإنترنت (باللغة الإنكليزية)، و. و. جاكوب، كف السعدان.
٢٦- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتاب العربي.
٢٧- فريدريك نيتشة، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي.
٢٨- إيليا أبو ماضي، الديوان، دار العودة، بيروت.
٢٩- د. عزيز سليمان، الآنسة جوليا، أوجست سترندبيرج، تراث الإنسانية.
٣٠- أوسكار وايلد، الزوج المثالي، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم.
٣١- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية العربية، المدارس والمذاهب والاتجاهات والتيارات، السوفسطائيون.
٣٢- أندريه كريسون، شوبنهاور، ترجمة: أحمد كوَّى، دار بيروت.

الدراسات والبحوث



رؤية مضللة للتقدم العلمي

ستيفن واينبرغ ❋

ترجمة: موسى ديب الخوري ❋❋

لقد شهد مصطلح «النموذج paradigme» الذي ظهر في الستينات نجاحاً خاطفاً، لكنه سرعان ما أصبح شعار تمثيل مؤذ للتقدم العلمي. إن النظريات تتطور بالنسبة لمؤلفه توماس كوهن Thomas Kuhn وفق صيرورة داروينية محرضها الوحيد هو حل مشاكل تنبثق بشكل مفاجئ. فما الذي صنعناه بالحقيقة الموضوعية للطبيعة؟

لقد مضى ربع قرن منذ قرأتُ للمرة الأولى كتاب توماس كوهن الشهير بنية الثورات العلمية١. لقد كنا في بداية الستينات نحن الاثنان، كوهن وأنا، في

❋ حائز على جائزة نوبل في الفيزياء ❋❋ باحث ومترجم سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

جامعة بركلي، لكننا لم نكن قد تعارفنا فعلياً. ولم أقدره وأعجب به إلا فيما بعد عندما وصل إلى Massachusetts Institue of Technology. وقد بدا لي كتابه محرضاً جداً، ولم أكن أنا الوحيد بالتأكيد. لقد أثر في الواقع كتاب بنية الثورات العلمية على تاريخ العلوم أكثر من أي مؤلَّف آخر. وبعد وفاة كوهن عام ١٩٩٦ أشار عالم الاجتماع كليفورد جيرتز Clifford Geertz إلى أن كتاب كوهن كان قد «عمل كمفجِّر لانفجار اجتماعية المعرفة» في دراسة العلم. فقد لعبت أفكار كوهن بالتالي دوراً مركزياً في الجدل الحديث حول العلاقات بين العلم والثقافة، وهو ما سُمي بـ «حرب العلوم».

يصف كوهن في بنية الثورات العلمية تاريخ العلوم كصيرورة دورية. وثمة هكذا فترات «علم عادي»، تتميز بما أسماه حيناً «نموذج» وحيناً «قالب نظامي مشترك». وأياً كانت التسمية المختارة فإنه يستدعي فكرة إجماع وتوافق. وفي الواقع، في فترة علم عادي يميل العلماء إلى الاتفاق حول المسائل الأساسية: ما هي الظاهرات الموافقة، وكيف تُفسَّر، وما هي المسائل التي تستحق عناء العمل على حلها، وما هو حل مسألة؟ وتنتهي فترة علم عادي مع القدوم المفاجئ لأزمة- تجارب تعطي نتائج معارضة للنظريات الموجودة، أو تظهر تعارضات داخلية في هذه النظريات نفسها. وعندها يسود القلق والغموض، وتطبع أفكار غريبة الأدب العلمي. وبعد حين تحدث ثورة: فيهتدي العلماء إلى طريقة جديدة لرؤية الطبيعة، الأمر الذي يولد فترة جديدة من العلم العادي. إذ يكون قد تم تغيير «النموذج».

لنوضح هذه الرؤية من خلال حالة يعلق عليها كتاب «بنية الثورات العلمية» أهمية خاصة. ففي القرن الثامن عشر، وبعد أن كانت النظريات الفيزيائية لنيوتن قد فرضت نفسها بشكل واسع، انفتحت فترة علم عادي في دراسة الحركة والجاذبية. واستخدم العلماء في ذلك الحين النظرية النيوتنية لحساب مدارات الكواكب بشكل أدق فأدق. وقد حصلوا على نجاحات كبيرة، مثل التنبؤ الذي حصل في عام ١٨٤٦ بوجود نبتون وحساب مساره حتى قبل اكتشاف علماء الفلك للكوكب. ونحو نهاية القرن التاسع عشر ولدت أزمة جديدة من العجز في فهم سلوك الضوء.ومن جديد حل تغيير لل «نموذج» المشكلة وذلك بفضل المراجعة الجذرية التي قام بها أينشتين بين عامي ١٩٠٥ و١٩١٥: فالحركة تؤثر في سيلان الزمن، ويمكن للمادة والطاقة أن تتحول إحداهما إلى الأخرى، وأخيراً فإن الجاذبية

هي انحناء للزمكان. لقد أصبحت نظرية النسبية لأينشتين النموذج الجديد، ودخلت دراسة الحركة الجاذبية في مرحلة علم عادي.

ويمكننا أن نتساءل بشكل طبيعي إلى أي حد توافق هذه النظرية الدورية للثورات العلمية ما نعرفه من تاريخ العلوم. لكنها لا تحمل في ذاتها شيئاً مقلقاً جداً. وفي كل حال فإنها ما كانت لتعطي مؤلفها مثل هذه الشهرة. وفي الواقع فإن ما ظهر ضرورياً جداً بالنسبة لبعضهم، وقابلاً للنقاش جداً بالنسبة للآخرين، هو إعادة اختراع كلمة نموذج (أو مثال) على يد كوهن. وفي الإنكليزية الشائعة فإن هذه الكلمة تعني إنجازاً نموذجياً يخصص كنموذج لأعمال مستقبلية. فبهذا المعنى إنما استخدم كوهن الكلمة في مؤلف سابق٢ مخصص للثورة العلمية الكوبرنيكية- وقد استمر من جهة أخرى في استخدامه بالمصادفة بهذا المعنى بعد ذلك.

وكان جيمس بريان كونان James Bryant Conant، رئيس جامعة هارفارد، أول من نقد الاستخدام الجديد لمصطلح نموذج. وكان كوهن قد بدأ مهنته كمؤرخ كمعاون لكونان مكلف بإعطاء دروس لطلاب المرحلة الأولى- وكان كونان قد طلب منه بخاصة أن يحضر دراسات حالات حول تاريخ الميكانيك. وبعد أن قرأ كونان مسودة لـ «بنية الثورات العلمية» لام كوهن قائلاً: «إن كل شيء يجري كما لو أنك وقعت في غرام هذه الكلمة، فكما لو كان الأمر يتعلق بصيغة سحرية قادرة على تفسير كل شيء وأي شيء كان». وبعد عدة سنوات لاحظت مارغاريت ماسترمان Margaret Masterman أن كوهن كان قد استخدم لفظة نموذج في أكثر من عشرين معنى مختلف. وفي العمق يبدو لي هذا الخلاف حول الكلمة فارغاً. فكوهن محق في القول إن التوافق العلمي لا يرتكز فقط على سلسلة من النظريات الواضحة. فإذا كان يجب وضع تسمية لمجمل المواقف والمواريث التي تتماشى مع فترة علم عادي، فإن لفظة نموذج تؤدي المهمة بقدر ما تؤديها لفظة أخرى غيرها.

وبالمقابل فإن أمراً آخر يكدرني عند إعادة قراءة بنية الثورات العلمية وبعض كتابات كوهن اللاحقة. إنها خلاصاته حول إنجازات العلم، وهي علامات ارتيابية عميقة. فقد جعلت هذه الخلاصات منه بطل الفلاسفة والمؤرخين وعلماء الاجتماع ونقاد العلم الذين، بشكهم بالصفة الموضوعية للمعرفة العلمية، يسرّون بوصف النظريات العلمية كتشييدات اجتماعية لا تختلف كثيراً

بشكل جوهري عن الديمقراطية أو عن لعبة البيسبول.

وكما يرى كوهن فإن المرور من نموذج إلى نموذج يشبه أكثر اهتداء دينيـاً منه اختياراً حـراً لمنطقنا. وبرأيه فإن تغيراً في النموذج يقلب نظرياتنـا بحيـث أنـه يصبح من المستحيـل عملياً على عـالِم، بعد إحدى هذه الثـورات، أن يستطيع الوصـول إلى الأمـور بالطريقـة التي كانـت ترى بها تحت النموذج السابـق. ويقارن كوهـن مثل هذا التغـير بالإيهامـات البصرية هذه التي تبدو لنا فيها فجأة سلسلة من الأرانب البيض على خلفية سوداء مثل سلسلـة من الماعز السود على خلفية بيضـاء. ولكن التغير أعمق من ذلـك بكثير بالنسبة له هـو نفسه، لأنه يضيف: «إن العـالِم لا يحافظ على الحرية نفسهـا مثل المتأثر بوهم بصري القادر على المرور بشكل متناوب من طريقة الروية هذه إلى الأخرى».

إضافـة إلى ذلك فإن كوهـن يزعم أنه ليست نظرياتنا فقط التي تتغير في الثورات العلميـة، بل والمعايير نفسهـا التي نقدرها بها. وبالتالي فإن النماذج التي تحكم فترتين



متعاقبتـين مـن العلـم العـادي لا تكونان متقايستـين فيما بينهمـا. ولا يقف كوهن عند هذا الحد: فبمـا أن تغيراً في النموذج يـؤدي إلى الترك الكامل للنمـوذج السابق، طالما أنه لا توجـد معايير مشتركة من أجل الحكم علـى نظريات علميـة طُوِّرت تحت نموذجين مختلفـين، فليس ثمة معنى للقول إذاً إن النظريات المعَدَّة بعد ثورة علمية تُضمُّ مع المعارف المكتسبة قبلاً. فلا يمكن الحكم على نظرية إذا كانت صحيحة أم خاطئة إلا

داخل نموذج معطى. ويخلص كوهن في بنية الثورات العلمية إلى النتيجة التالية- بشكل عابر والحق يقال: «من أجل دقة أكبر، يمكن أن نصل إلى التخلي عن فكرة أن التغيرات في النموذج لا تنفك تقرب العلماء (والذين يتبعونها) من الحقيقة». وبعد فترة أطول أشار كوهن في محاضرة ألقاها في هارفارد عام ١٩٩٢ إنه من الصعب تصور ما الذي يمكن أن يعنيه حقاً التأكيد بأن نظرية علمية ما «تقربنا من الحقيقة».

فإذا كان كوهن يقبل بأن التقدم يمكن أن يوجد في العلوم، لكنه يرفض أن يكون هذا التقدم باتجاه أي هدف مهما كان. وهو يستخدم كثيراً مجاز التطور البيولوجي: فوفقه يشبه التقدم العلمي التطور كما كان يفهمه داروين، أي صيرورة غير موجهة نحو أي هدف. ووفقه فإن ضرورة حل المسائل العلمية تشكل محرك الانتخاب الطبيعي للنظريات. وخلال فترة علم عادي ينتهي الأمر بأن تنبثق مسائل غير قابلة للحل في إطار النظريات الموجودة. ومن هنا يتم تكاثر أفكار جديدة؛ والأكثر تأقلماً من بينها مع حل هذه المسائل هو الذي يبقى. وهكذا بحسب كوهن، كما أنه لم يكن ثمة ما هو محتم في ظهور الثدييات في الكريتاسي، ثم في استمرارها وبقائها بعد سقوط مذنب، كذلك فليس ثمة في الطبيعة ما كان يجعل تطور العلم باتجاه معادلات ماكسويل أو النسبية العامة أمراً محتماً. وبالتأكيد، فإن كوهن يعترف بأن نظريات ماكسويل أو أينشتاين أفضل من التي كانت تسبقها، تماماً كما أن الثدييات أظهرت أنها أكثر مهارة من الديناصورات لتستطيع الاستمرار بعد آثار صدمات المذنبات. ولكن الظهور التالي لمسائل جديدة سيحل محلها نظريات جديدة أكثر توافقاً مع حل هذه المسائل، وهكذا دواليك، دون أن ينتج من ذلك أي تحسين إجمالي.

إن تصديق الكذبة أشد صعوبة على العلماء الذين يعتقدون مثلي أن مهمة العلم هي أن يقربنا من الحقيقة الموضوعية. بالمقابل، فإن القائلين برؤية أكثر تشككية بمزاعم العلم يصفقون لذلك بحرارة. فمن وجهة النظر هذه فإن الاستحالة المفترضة لتقدير نظرية علمية خارج إطار نموذجها الخاص يجعلها على قدم المساواة مع أية رؤية أخرى للعالم، أكانت النجامة astrologie أم نظرية الخلق créationnisme. ويشير غياب المعيار الخارجي الذي يسمح بمحاكمة تغير للنموذج أن الثقافة هي ربما التي تفرض بالأحرى وليست الطبيعة المضمون على النظريات العلمية.

ولم يوافــق كوهــن نفســه دائمــاً على الاستخــدام الذي قام به آخــرون لأعماله. ففــي عــام ١٩٦٥ اعترض علــى الوصف الذي قدمه الفيلســوف بول فييربند Paul Feyerabend لبراهينــه علــى أنها دفاع عن اللاعقلانية في العلــم، الأمر الذي بدا لــه «ليس باطــلاً فقط بل وفاحشــاً بشكل أعمــى». وفي عــام ١٩٩١ ذكــر بحــزن في لقاء أجــراه معه الصحفي جــون هورغان John Horgan هــذه التهاني لطالب في الستينات: «شكراً لأنك حدثتنا عن النماذج، سيــد كوهن. فبمعرفة وجودهــا سنستطيع الآن تجاوزها». كذلك فقد ابتعد عما سمي «البرنامــج القوي» في علــم اجتماع العلوم، والذي يرتبط إعداده بشكل وثيق بمجموعة من فلاسفة وعلماء اجتماع العلوم المتخرجين من جامعة إديمبورغ Edimbourg. وهذا البرنامــج الذي تكمن «قوتــه» في تشككيته الجذريــة يريد أن يبين كيــف أن الرهانات والقوى السياسية والاجتماعية تحدد نجاح أو إخفاق النظريات العلمية. وذلكم ما قاله كوهن حوله في عام ١٩٩١: «إنني أنتمي إلى الذين يجدون لا طائل من تأكيدات البرنامج القوي. فالأمر يتعلق بحالة هدم خرقاء».

ومــع ذلك، فقــد أثبت كوهــن في جزء من نظريتــه للثورات العلميــة، مهما كانت تجاوزات المعجبين به، على راديكالية كافية وخاطئة تماماً برأيي.

فمن غــير الصحيــح بدايــة أن رجال العلــم لا يستطيعــون «المــرور بسهولة من طريقــة رؤية إلى طريقــة الرؤية الأخرى»، ويصبحون بعد ثورة علمية غير قادرين على فهم الحالات السابقة للعلم. فلنستعد حالة حلــول الميكانيك النسبــوي لأينشتاين محل النموذج النيوتــوني. فعندما نعلم فيزيائيين شباباً، يكون أول شيء نعلمهم إياه هو دائماً الميكانيــك النيوتوني الجيد القديم. وهم لن ينسوا أبداً طريقة رؤية الكون بمصطلحات نيوتونيــة، حتى بعــد أن يتعلمــوا النظرية النسبية. والبروفســور كوهن نفسه كان قد علَّم الميكانيك النيوتــوني لطلابه في السنة الأولى في هارفارد.

وللدفاع عن موقفــه، يؤكد كوهن أيضاً أن المصطلحــات المستخدمة في رموزنا وفي معادلاتنا لها معانٍ مختلفة قبل وبعد حصول ثورة علمية ما؛ وبرأيه كان الفيزيائيون مثلاً يفهمون أشياء مختلفة تحت مصطلح الكتلة قبــل وبعد ظهور النسبية. ومن الصحيح أن مفهوم الكتلة أصبح مشكوكاً فيه جداً خلال الثورة الأينشتاينية. وخلال فترة معينة جرى الحديث عن كتل «طولانية» أو «عرضانية»، والتي يعتبر أنها تتعلق بسرعة جسيم وتقاوم

التسارعـات الموازية أو العمودية على اتجاه الحركة. لكن أمكن حل ذلك كله في النهاية. ولم يعد أحد اليوم يتحدث عن كتل عرضانية أو طولانيـة. وفي غالـب الأحيـان، نعنـي بمصطلـح الكتلة «كتلـة في حالة السكون»، الأمر الـذي يشـير إلى خاصيـة جوهرية للجسـم غير مفسدة بالحركـة. وهو معنى قريب جداً من المعنى الذي كان للكلمة قبل أينشتايـن. فمعاني المصطلحـات يمكن أن تتغير إذاً، لكن الأمر يتعلق في غالب الأحيان بإغناء وبزيادة في دقة تعريفها، بحيث لا يتم المساس بقدرتنا على فهم نظريات العصور القديمة للعلم العادي.

فلمـاذا توصل كوهـن إلى الاعتقاد بأن علماء فـترة معطـاة لا يفهمـون نظريات الفترات السابقة؟ ربمـا كان يجب أن نعزو هـذا اليقـين إلى تجربته الخاصـة كمعلم وباحـث في تاريخ العلـوم. وفي الواقع كان عليـه أن يواجـه علـى الأرجـح الطلاب والعلميين الذين كانـوا، بتأثرهم بتمثيلات لاتاريخية، لا يعرفون المصادر الأصلية وكانوا مقتنعين بـأن علماء الماضي كانوا يتصورون نظرياتهم بمصطلحات قليلة الاختلاف عن المصطلحات المستخدمة في كتبنا الدراسية. لقد أقنعني بشكل خاص كتاب كوهن المخصص لولادة النظرية الكمومية٣ أن ذلك بالضبط كان نوع الأخطاء التـي ارتكبتها بمحاولتي فهم الأهداف التي كان ماكس بلانك Max Planck يريد الوصـول إليها عندما أدخل مفهوم الكوانتوم.

كذلك فمن الصحيح أن العلماء المغمورين في فترة علم عادي يختبرون أعظم الصعوبات في فهم الأعمال التي أنتجها أسلافهم خلال الثورات العلميـة السابقة. فنحن في غالب الأحيان غـير قادرين على الشعـور بشكل استدلالي بالانقطاع التصوري الناتج خلال ثورة مـا. فعلى سبيل المثـال، يصعب كثيراً على أحـد الفيزيائيين المعاصريـن أن يقرأ كتاب المبادئ لنيوتن، حتى في ترجمة حديثة عـن اللاتينية. وهكذا فقد لـزم الفيزيائي الفلكي الكبـير سوبراهمانيان شاندراسخار Subrahmanyan Chandrasekhar سنوات عديدة لينقل منطق كتاب المبادئ إلى شكل يمكن لفيزيائـي معاصر أن يستوعبه. وبالمثـل، فـإن المساهمين في ثـورة علمية يعيشـون تقريبـاً في عالمـين مختلفين: فهم ينتمـون في آن واحد إلى الفترة السابقة من العلم العادي، وهي في طريقها إلى الانهيار، وإلى الفترة الجديـدة التي لا يفهمونها بعد تماماً. ولهذا يكون أقل صعوبة بكثير بالنسبة لعلماء يعملون في فترة علم عادي أن يفهموا

نظريــات نموذج قديم بأشكالها المنتهية بعد أن نضجت.

وهـــذا هو السبــب أيضـــاً في اهتمامي أعــلاه بالحديث عــن الميكانيــك النيوتني بالأحرى من الحديــث عن ميكانيك نيوتن. فنيوتن نفسه في الواقع يُعتبر ما قبل نيوتني في جوانب هامة مثــل أسلوب هندسته على سبيل المثــال. لقد قال جــون ماينارد كينز John Maynard Keynes إن نيوتـــن لم يكن أول العلماء الحديثين، بل آخر السحرة. وفي الواقــع، لم تبلغ الفيزياء النيوتنية شكلها الناجــز إلا في بدايـــة القـــرن التاسع عشر بفضل أعمال لابلاس ولاغرانج إلخ. إن هذه الفيزياء الأخيرة -التي تسبق مع ذلك بقرن كامــل ولادة النسبيـــة الخاصـــة- هي التي نعلمها اليوم لطلابنا.

ويمكننـــا أن نقول ذلك أيضاً عن إدراكنا لإلكتروديناميــكا جيمس كلــيرك مكسويل James Clerk Maxwell. فالكتاب الذي نشره ماكسويــل في عام ١٨٧٣ بعنوان بحث حول الكهرباء والمغنطيسية هو أيضاً صعب الولوج بالنسبة لفيزيائي معاصر. فهو يرتكز في الواقــع على فكرة أن الحقول الكهربائية والمغنطيسيـــة تعبر عن توترات في جسم، هو الأثــير، والذي لم نعد نؤمن بـــه اليوم. ومن وجهـــة النظر هذه كان مكسويــل هو أيضاً ما قبل مكسويلــي. وكان أوليفييه هيفيزيد Olivier Heaviside، الــذي أعطــى لنظريـــة مكسويــل شكلها الحديــث، يقول إن مكسويل لم يكن ســوى نصف مكسويلي. ولم تبلــغ النظريـــة المكسويليـــة -أي نظرية الكهرباء والمغنطيسية والضوء المرتكزة على أعمال مكسويل- شكلهـــا المنجَز (المتخلص مـــن مرجعيته الأثيريـــة) إلا في عام ١٩٩٠، وهذه النظرية الأخيرة هي التي نعلمها اليوم لطلابنـــا. وهم يتبعون بعـــد ذلك دروساً في الميكانيك الكمومي، حيث يتعلمون أن الضوء مؤلف من جسيمات تدعـــى الفوتونات وأن معـــادلات مكسويل ليست ســوى تقريبات. ولكـــن ذلك لا يمنعهم أبـــداً من متابعة فهم الإلكتروديناميك المكسويلي ومن اللجوء إليه عند الحاجة.

وباختصار، فإن تقدير النظريات بعد أن تصل إلى نضجها، وليس في لحظة ولادتها، هو الـــذي يسمـــح بتحديد ما هـــو التقدم العلمي. فإذا كان ثمة معنى ما للتساؤل عما إذا كان اجتياح انكلترا من قبل النورمانديين أمـــراً حسنـــاً أم سيئاً، فيمكننـــا أن نحاول الإجابة بمقارنة المجتمعات الأنغلوساكسونية والنورمانديـــة بأشكالها المتطورة- ولنقل في عهـــد إدوار المعترف وهنري الأول. وبالمقابل

فإن دراسة معركة هاستينغز Hastings لن توضح مسألتنا هذه في شيء.

ومن الخاطئ تماماً أيضاً التأكيد على أن الثورات العلمية تقلب بالضرورة طريقتنا في برهان نظرية ما، مما يجر هكذا استحالة قياس النماذج. لقد شاركتُ خلال السنوات الأربعين الأخيرة بتغيرات ثورية في المفهوم الذي كان يشكله الفيزيائيون للمركبات الأساسية للمادة، أي الجسيمات الأولية. أما الثورتان العظميان في قرننا، النسبية والميكانيك الكوانتي، فهما سابقتان لعصري، لكنهما لا تزالان قاعدة لأبحاث فيزيائيي جيلي. لقد تغيرت أفكارنا كثيراً، أما عملياً فإننا لا نزال مستمرين في برهان نظرياتنا بالطريقة نفسها: فيتم الاعتراف بنجاح النظرية إذا ما أُسست على مبادئ عامة بسيطة وتأخذ بعين الاعتبار بطريقة طبيعية المعطيات التجريبية. ومع ذلك، فأنا لا أزعم أننا نملك بين أيدينا مرجعاً من القواعد والدساتير التي تملي علينا كيف نبرهن نظرية ما، ولا حتى أننا نملك فكرة واضحة تماماً لما تعنيه عبارة «مبادئ عامة بسيطة»، أو حتى الصفة «طبيعي». إنما أؤكد فقط وأياً كان الأمر أنه لم تحصل تغيرات مفاجئة في برهان النظريات. وفي كل حال، لم تحصل تغيرات بحيث أصبح من المستحيل مقارنة حقيقة النظريات السابقة والتالية لثورة ما.

وعلى سبيل المثال، كان على الفيزيائيين أن يحلوا في مطلع القرن مسألة الطيف الذري، أي الخطوط اللامعدودة الداكنة واللامعة التي تظهر في الضوء الصادر عن غازات ساخنة، عند سطح الشمس، وذلك عندما يحلل مطياف مختلف ألوانها. وفي عام ١٩١٣، عندما بيّن نيلز بور أنه كان بإمكان النظرية الكمومية أن تشرح طيف الهيدروجين، أدرك جميع الفيزيائيين أن هذه النظرية كانت نظرية واعدة إلى أقصى حد. وعندما تبيّن بعد عام ١٩٢٥ أنها قادرة على تفسير طيف أي ذرة كانت أصبحت هذه النظرية موضوع الدراسة الأول لكل فيزيائي شاب. وبالمثل، فإن نحو اثني عشر قياساً لكتل الإلكترونات والجسيمات المماثلة وعدة أنواع من الكواركات هي التي تشغل الفيزيائيين اليوم. فالقيم التي تم الحصول عليها لا تزال تقاوم أية محاولة لتفسيرها. وهكذا فإن نظرية جديدة ستأخذ بعين الاعتبار هذه الكتل في بنيتها سيتم الاعتراف بها فوراً على أنها تقدم كبير. لقد تغيرت المعطيات التي علينا تفسيرها، لكن أهدافنا ظلت نفسها.

ومع ذلك فالأمر لا يتعلق بتأكيد أن شيئاً ما كان ليتغير في طريقتنا لبرهان النظريات. وفي الواقع فإننا نجد أنه من المقبول أكثر اليوم نظرية فيزيائية ترتكز على مبدأ ثبات ما (مبدأ الثبات يؤكد أن قوانين الطبيعة تظل متطابقة من وجهات نظر مختلفة) من بداية القرن، عندما بدأ أينشتاين يقلق من ثبات القوانين في حالة تغير حركة المراقب. لكن هذه التغيرات تشهد على تطور وليس على ثورة. فكل شيء يتم كما لو أن الطبيعة كانت تؤثر علينا مثل آلة تعليمية. عندما يصل أحد العلماء إلى فهم جديد للوقائع، فإنه يختبر سروراً كبيراً، وقد علمتنا هذه المشاعر على المدى الطويل أن نقدّر النظريات العلمية القابلة لتزويدنا بهذا السرور بفهم الطبيعة.

فإذا كانت استحالة قياس مختلف النماذج مفهوماً جذرياً، فإن ما هو أكثر جذرية فكرة أن التغيرات الثورية للنموذج لا تقربنا من الحقيقة. ومن أجل دعم هذه الفكرة، يقول كوهن إن كافة معتقداتنا السابقة المتعلقة بالطبيعة ظهر في أحد الأيام أنها مغلوطة. فلا شيء يسمح بالتالي بافتراض أن نظرياتنا المعاصرة يجب أن تفلت من هذا المصير نفسه. ومن الطبيعي أن كوهن يعرف أن الفيزيائيين الحاليين يستخدمون النظرية النيوتنية للجاذبية أو النظرية المكسويلية للكهرباء والمغنطيسية على أنها تقريبات جيدة يمكن استنتاجها من النظريات الأصح والأدق. لكننا لا نعتبرها بالتأكيد على أنها ببساطة خاطئة تماماً، بالمعنى الذي نعتبر فيه خطأ نظرية الحركة لأرسطو ومفهومه للنار كعنصر (مصدر اللهب). ويصف كوهن نفسه في كتابه حول الثورة الكوبرنيكية، دون أن يبدو منزعجاً من ذلك، كيف أن بعض العناصر المؤسِّسة للنظريات العلمية تستمر في النظريات التي تحل محلها. ودفاعه عن هذا التعارض في كتابه بنية الثورات العلمية ضعيف للغاية: فوفقه ليس الميكانيك النيوتني والإلكتروديناميكا المكسويلية، كما نستخدمهما اليوم، هما النظريتان نفسهما اللتان كانتا موجودتين قبل ظهور النسبية والميكانيك الكمومي. لماذا؟ لأنه كان غير معروف في حينه أنهما لم تكونا سوى مقاربات. فبالمثل القول إن شريحة اللحم التي تأكلونها ليست تلك التي اشتريتموها وذلك بحجة أنكم كنتم تجهلون أنها كانت مليئة بالأعصاب.

وبشكل أكثر جدية يجب التوصل إلى تمييز واضح بين ما يتغير وما لا يتغير في الثورات العلمية. والحال أن كتاب بنية الثورات العلمية لا يحقق هذا التمييز.

ثمة في النظريات الفيزيائية الحالية جزء «صلب» (ليس بمعنى «الصعوبة» بل بمعنى «الديمومة»، كما هو حال العظام بالنسبة لعلماء الإحاثة أو الفخاريات بالنسبة لعلماء الآثار). ويتألف القسم الرئيسي من هذا الجزء الصلب من معادلات، من الموافق أن نضيف إليها تحديد القيمة العملياتية للرموز وتخصص أنماط الظاهرات التي تُطبَّق عليها هذه المعادلات. وهناك أيضاً جزء «رخو»: إنها رؤية الواقع التي نفسر بها لأنفسنا لماذا تعمل هذه المعادلات. وهذا الجزء الهش والرخو معرض للتغير؛ فنحن لم نعد نؤمن بتأثير مكسويل، ونعرف أن الطبيعة مكونة من أشياء أخرى غير الجسيمات والقوى كما كان ينظر إليها نيوتن، إلخ.

إن هذه التغيرات في الجزء الهش من النظريات العلمية تعدل أيضاً فكرتنا عن الشروط التي وفقها يكون جزؤها الصلب تقريباً جيداً. ولكن الأجزاء الصلبة من نظرياتنا تكون في مرحلة شبابها عبارة عن نتائج صلبة ونهائية. إن موضة القمصان التي تحمل معادلات ماكسويل تجازف حقاً بأن تنتهي يوماً. أما المعادلات نفسها فلا تجازف بأن تصبح خاطئة، وطالما وُجد علماء سيستمرون في تعليم الإلكتروديناميكا المكسويلية. لقد أعملت الفكر طويلاً، لكنني لم أفهم كيف يمكن القول إن ازدياد الدقة والسداد في الأجزاء الصلبة في نظرياتنا لا يقربنا بشكل شامل من الحقيقة الموضوعية.

ويمكن بالتأكيد لنظريتين متنافستين، يختلف جزآهما الصلبان ظاهرياً، أن يعطيا تنبؤات متشابهة. فمثلاً، كان الكثير من الفيزيائيين البريطانيين في القرن التاسع عشر، يحذون حذو ميخائيل فارادي Michael Faraday فيصفون الظاهرات الكهرمغنطيسية بمساعدة معادلات تتضمن الحقلين الكهربائي والمغنطيسي: بالمقابل، كان الفيزيائيون على القارة الأوروبية يتلاعبون بمعادلات -بالفعالية نفسها- تستدعي قوى تؤثر عن بعد. ولكن في هذا النوع من الحالات ينتهي الأمر عموماً بملاحظة أن سلسلتي المعادلتين تكونان رياضياً متكافئتين، حتى وإن كان يمكن لهذه أو للأخرى أن يكون لها نزعة أعم في نظرية لاحقة. وهذا بالضبط ما جرى بالنسبة للحقلين المغنطيسي والكهربائي بعد ظهور النسبية.

إن بعض عناصر تحليل كوهن حول تغيرات النموذج تنطبق في الواقع على الجزء الهش من نظرياتنا. لكن يبدو لي أن كوهن يبالغ في تقدير الدرجة التي يكون العلماء

الذيــن يعيشون في فترة علــم عادي سجناء نموذجهم فيها. فقد ظــل عدد منهم لفترة طويلة متشككاً فيمــا يتعلق بالأجزاء الهشة مــن نظرياتهــم الخاصة. ويبــدو لي، على سبيــل المثال، أن حكمة نيوتــن «أنا لا أطلق الفرضيــات Newton Hypotheses non fingo» كانت تعني، على الأقل جزئياً، أنه لا ينحاز إلى واقعية القوى الثقالية التي يُفترض أنها تؤثر عــن بعد أكثر مما ينحاز إلى صحة التنبؤات الناتجة عن معادلاته.

وأياً كان الأمر، فيمكن أن أقدم شهادتي حول هــذه النقطة: فــإذا كانــت نظريتنا الحالية حول الجسيمــات الأولية (النموذج المعيــاري) قد سجلــت نجاحــات مذهلة، فإن الفيزيائيــين المعاصرين ليسوا متعلقين بشدة برؤيــة الطبيعة التي ترتكز عليها. إن النموذج المعياري هــو نظرية حقول، بحيث أنه يعتبر المركبات الأولية للطبيعة على أنها حقــول -أي شروط للمــكان بمعزل عن أي اعتبار حول المــادة التي يحتويها- بالأحرى من اعتباره لها كجسيمات. وقد لاحظنا في هذه السنوات العشرين الأخيرة أن كل نظرية مؤسســة علــى الميكانيــك الكمومي وعلى النسبية تأخذ مظهــر نظرية حقول عندما تُجرى التجارب في طاقات منخفضة بدرجة كافيــة. ويعتبر معظــم الفيزيائيــين اليوم النموذج المعياري مثل «نظرية فعالة للحقول» تقدم عند سويات الطاقة المنخفضة مقاربة لنظريــة جوهرية لا تزال غير معروفة حتى الآن، والتي لا تستدعي ربما الحقول أبداً.

فــإذا كان هذا النمــوذج المعياري يشكل نموذج العلــم العادي الحــالي، فهو يشتمل على العديد من العناصر المناسبة، من بينها على الأقــل ثمانية عشر ثابتــاً عددياً، مثل كتلة وشحنة الإلكــترون، والتي تطلب الأمر ملاءمتها تعسفياً من أجل مطابقة النظرية مع النتائج. وإضافــة إلى ذلك فإن النموذج المعيــاري لا يضــم الجاذبيــة. فالنظريون يعرفــون بالتالي أن عليهــم اكتشاف نظرية أكثر إقناعاً، لا يكون النموذج المعياري الحالي سوى مقاربة جيدة لهــا. ومن جهتهم يعمل التجريبيون بــلا انقطاع لاكتشاف معطيات تتعارض مــع تنبؤات النموذج المعياري. وقد أُعلنت حديثاً على سبيل المثال نتائج تجربة تمت تحــت الأرض في اليابــان: وبنتيجتها تملك جسيمــات النيوترينو كتلاً، وهو ما لا تأخــذه النسخة الأصليــة للنموذج المعياري بعين الاعتبــار. فــإن كان البحث عن هذه الكتــل قد بدأ منذ سنوات عديدة، فقد كان منطلقــه هو وأبحاث أخــرى الشك التالي: مهما كانت النظرية القادمة المدعوة لتجاوز نموذجنــا المعياري الحــالي، فسيكون لديها

فرص جيدة لتتضمن وجود كتل ضعيفة للنيوترينو.

والأمثولة التي يجب استخلاصها من هذا المثال واضحة: فقد بالغ كوهن فعلاً في التأثير الذي يمارسه نموذجنا علينا، وخاصة الصفة اللاإرادية لاكتشاف اللاتشابهات والشذوذات خلال فترة من العلم العادي. ويخطئ كوهن تماماً عندما يؤكد أن البحث عن أنماط جديدة من الظاهرات هو مهمة ليست من العلم العادي في شيء.

إضافة إلى ذلك، فإن رؤيته للتقدم العلمي تضعنا أمام لغز. ففي الواقع، لماذا نتمسك بالبحث؟ وإذا كانت نظرية علمية لا تتجاوز غيرها إلا بتفوقها في حل مسائل تشغلنا اليوم، فلماذا لم نطرد ببساطة هذه المسائل من فكرنا؟ ذلك أننا لا ندرس الجسيمات الأولية لأهميتها الجوهرية! فهي على عكس الكائنات البشرية مجردة تماماً بحيث أنكم لو كنتم رأيتم إلكتروناً واحداً لكنتم رأيتم الإلكترونات كلها. فما يدفع العلماء في أبحاثهم هو بالضبط الشعور بأنه توجد حقائق يجب اكتشافها، حقائق تضاف بشكل نهائي ما أن يتم اكتشافها إلى المعارف البشرية.

عند قراءتي الأولى لكتاب كوهن، لم يكن وصفه للثورات العلمية هو الذي أدهشني أكثر بل معالجته للعلم العادي. ويبين كوهن في الواقع أن فترة علم عادي ليست مرحلة ركود في شيء، بل تمثل على العكس مرحلة أساسية في التقدم العلمي. وقد بدت لي هذه الفكرة شخصياً هامة في بداية السبعينات، عندما كانت تجري تطورات هامة في فيزياء الجسيمات الأولية وفي الكوزمولوجيا (علم تشكل الكون).

كان غموض رهيب يسود الكوزمولوجيا حتى نهاية الستينات. فكان كل عالم فلك وكل عالم فيزياء فلكية مشاركاً بنسخته الخاصة، وكان يعتبر نسخ الآخرين على أنها مجرد عقيدة صرفة وبسيطة. في إحدى مآدب العشاء في نيويورك عام ١٩٧٠، كان يجلس إلى جواري على الطاولة الفيزيائي السويدي اللامع هانس ألفن Hannes Alfven؛ فاغتنمت الفرصة لكي أسأله إذا كانت بعض الآثار الفيزيائية التي كان خبيراً بها يمكن أن تحصل في بدايات الكون. فسألني عندها إذا كنت أطرح السؤال في إطار نظرية الانفجار الكبير (البيغ بانغ)؛ وعندما أجبته بالإيجاب، رفض بوضوح أن يمضي في النقاش إلى أبعد من ذلك. وكان هذا الانشقاق في الحديث قد بدأ بالتراجع ابتداء من عام ١٩٦٥، وهو التاريخ الذي اكتُشف فيه إشعاع الخلفية الكونية، وهو أثر

مــن الفترة التي كان فيهــا عمر الكون نحو مليــون سنة. وقد أجبر هــذا الاكتشاف كل واحد منــا (على الأقل تقريباً) على التفكير بجدية ببدايات الكون.

وقد أمكــن القيام بقياســات قابلة لأن تثبت أو تنفي الجــدالات الكونية، وسرعان ما اكتست نظرية الانفجار الكبير في أقل من عشر سنوات شكلها الحالي، وانتشرت بشكل واســع جداً بين الباحثين. كنتُ في بحث عن الجاذبيــة وبدايــة الكــون (الكوزمولوجيا) أنهيته في عــام ١٩٧١ أصــف كوزمولوجيا البيــغ بانغ بـ «النموذج المعياري»، وذلك لكي أميــز بوضوح واقع أنني لم أكن أعتبرها مثل عقيدة علــى أي كان أن يقســم بولائه لها، بل مثل قاعدة مشتركة يستطيع الفيزيائيون وعلمــاء الفلــك انطلاقاً منهــا أن يناقشوا حساباتهم وأرصادهــم الكوزمولوجية. وقد ظل بعض الفيزيائيين والفلكيين المحترمين، مثــل هانســ ألففــن وفريد هويــل Fred Hoyle غير متفقين مع الاتجاه الذي أُجمع عليه فأصبح أكثر فأكثر عمومية. وقد هاجم بعضهــم فكــرة الإجماع نفسهــا، مدافعين عــن مثال نوع من الــدرب المضيء للعلم في تطور دائم، حيث يتابــع فيه الباحثون كلهم أفكارهــم الخاصــة ويمضــي كل منهم في اتجاهه الخاص. لكن انقطاع الاتصالات بين العلماء يمثل أخطاراً أكبر بكثير من الاعتماد المبكر لإجماع سيظهر في النهاية أنه خاطئ. فالإجماع وحده يسمــح للعلماء بأن يركزوا على الحسابات والتجــارب القابلة أن تبين لهــم إذا كانوا على صواب أو على خطأ وأن تحدد لهم، عبر الفرضيــة الثانية، الطريق الذي يجــب اتباعه باتجــاه إجماع جديد. وهكــذا يستشهد كوهن محقــاً بقول مأثور لفرنسيس بيكون Francis Bacon يقول: «تنبثق الحقيقة بسهولة أكبر من الخطأ منها من العماء».

وكانت فيزيــاء الجسيمــات الأولية في بداية السبعينــات تدخل هي أيضاً في فترة علم عادي.ولم يكن الشواش الذي كانت توجد فيه قبل ذلك ناجماً عن نقص في المعطيات، بل علــى العكس تمامــاً، من غيــاب إطار نظري مقنع من أجل تفسير هذه المعطيات. وعندها أدى تقــدم نظري وبعض التجارب الجديدة إلى إجماع بين فيزيائيي الجسيمات الدقيقة، والــذي تجسد فيما نسميه اليوم، في هذا المجــال أيضاً، النمــوذج المعياري. ومع ذلك ظل بعضــ الفيزيائيين متشككين بعض الوقت، مطالبين بتجارب إضافية من أجــل إثبات النمــوذج أو مترافعين لصالح تفسير آخر للمعطيــات التجريبية. وعندما كنت أؤكد أن كل تفسير آخر للمعطيات بشع

ومصطنـــع، كان بعضهم يرد أنه لم يكن على العلم غير إقامـــة الأحكام الجمالية. وكانت هذه الإجابة ستضحك كوهـــن، إذ بالنسبة له «يتجاوز دائمـــاً فعل المحاكمة الذي يقود العلماء إلى رفض نظرية كانت مقبولة سابقاً المقارنة البسيطة لهـــذه النظرية مع العالَم». يمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار أية سلسلة من المعطيات في عدد كبـــير جداً من النظريات المختلفة. والحسم لصالـــح إحداها يجبرنا على تقدير هذا النوع من الأناقة والتجانس والعالميـــة التـــي تجعلها جديرة بـــأن تؤخَذ جديـــاً. وكوهن ليس أول من لفت نظرنا إلى هذه النقطة –فقد سبقه بيير دوهم Pierre Duhem وآخرون– لكنه فعل ذلك بطريقة مقنعة جداً.

وفي الوقـــت الحالي تنتمـــي معارضات النمـــوذج المعياري بدرجة كبيرة إلى الماضي. ويعـــترف العالم كله عمليـــاً أن هذا النموذج يأخذ بعين الاعتبار بشكل صحيح الظاهرات المرصـــودة. فنحن نعيش فـــترة جديدة من العلـــم العـــادي؛ فالنظريـــون يحسبـــون ما يتضمنه النموذج المعياري ويقوم التجريبيون باختبار الحسابات. وكما يقبل كوهن نفسه بذلـــك، فهذا نمط العمل الذي يمكن خلال فترة علم عادي أن يجعلنا نكتشف شذوذات تجبرنا على عبور الخطوة التي ستقودنا إلى ما وراء النموذج الحالي.

ومع الأســـف، لم تكن هذه الرؤية المفيدة والبصيرة بالأحرى التـــي كانت سبب شهرة كوهن. فالجزء الأكثر شهرة من أعماله يبقى وصفـــه للثورات العلميـــة ورؤيته للتقدم في العلوم. وتحديداً حيث يضل بشكل خطير.

فمـــا الذي حـــدث إذن؟ ومـــا الذي قاد كوهـــن خـــلال حياتـــه إلى هـــذا التشكك الجـــذري، إلى هذه الرؤيـــة الغريبة للتقدم العلمي؟ ليس الجهل بالتأكيد. فمما لا شك فيه أنه استطاع أن يفهم أكثر من أي شخص آخر فصولاً عديدة من تاريخ الفيزياء. لقد اكتشفت مؤشراً حول فكر كوهن خلال المرة الأخيرة التي التقيته فيها. وكان ذلك في عام ١٩٩٢، خـــلال احتفال في بـــادو Padoue في إيطاليـــا، وكان لإحياء الذكرى الأربعمئة للمحاضـــرة الأولى التي ألقاهـــا غاليليه في جامعة هذه المدينـــة. وكان كوهن يروي أنه كان مدرســـاً شاباً للفيزياء في عام ١٩٤٧ في هارفارد، وكان يدرُســـ فيزياء أرسطو فأتاه حدســـ: «كيف كان يمكـــن لعبقريته المميزة أن تهجـــره إلى هذا الحـــد ما أن كان يلتفت باتجاه دراسة الحركـــة والميكانيك؟ وبالمثل، إذا كانت عبقريتـــه تهجره في تلك اللحظة، فلمـــاذا أُخذت كتاباته حـــول الفيزياء بهذه

الجديـــة على مدى عدة قـــرون بعد مماته؟ (..) وفجأة، تجمعت هذه الأجزاء في رأسي بطريقـــة جديدة، بحيـــث توضعت تماماً في مواضعهـــا. وظللـــت مذهولاً مـــن المفاجأة، لأن أرسطـــو بدا لي فجـــأة فيزيائياً ممتازاً، إنمـــا بطريقة لم أكن قد اعتقـــدت أبداً أنها ممكنة».

وقد سألت كوهن ما الذي كان قد فهمه فجـــأة بالنسبـــة لأرسطو. فلـــم يجب على ســـؤالي، لكنه كتب لي ليخـــبرني إلى أي حد كان لهـــذه التجربة أهميـــة بالنسبة له: «إن ما قلبته قراءتي الشخصية الأولى (لكتابات أرسطـــو في الفيزيـــاء) كان فهمـــي وليســـ تقديري لأعمالـــه. وما جعل من هذا التغير أمراً عظيماً حقيقياً بالنسبة لي كان التحول الذي كان يعمله مباشرة في فهمي (وليس هنا أيضـــاً في تقديري) لطبيعة النتائج العلمية، وبشـــكل خاص جـــداً لاكتشافـــات غاليليه ونيوتن».

وقـــرأت بعد ذلك بفـــترة مقالة لكوهن، كتبهـــا في عام ١٩٧٧، ويشـــرح فيها أنه كان قد تعلم، دون أن يصبـــح فيزيائياً أرسطياً، أن يحاكـــم كما لـــو كان أحـــد الفيزيائيين الأرسطيـــين، أي أن يـــدرك الحركـــة كتغير نوعي لجسم ما، مشابه لتغيرات نوعية كثيرة أخرى، بالأحرى منها حالة قابلة لأن تُدرَس لذاتهـــا. ظاهرياً، فقد جعـــل هذا الاختبار كوهن يعـــي إمكانيـــة اعتمـــاد وجهة نظر كل رجل علـــم ندرسه. إننـــي أشك أن هذه اللحظـــة كانت من الأهميـــة في حياة كوهن إلى درجـــة أنه أعد مفهومـــه لتغير النموذج ابتداء من هذا المرور من الفيزياء الأرسطية إلى الفيزيـــاء النيوتنية- أي المـــرور (الذي أخـــذ في الواقع قروناً عديـــدة) من محاولة أرسطو إعطاء وصفاً نوعياً منهجياً ومطلقاً للطبيعـــة إلى التفسيرات الكمية التي قدمها نيوتن لظاهرات مختـــارة بعناية، مثل حركة الكواكب حول الشمس.

وفي الواقـــع، كان الأمر يتعلق فعلاً بتغير في النمـــوذج. لكـــن يبدو أن كوهـــن أراد أن يلصـــق هذا النموذج علـــى الثورات العلمية الأخرى كافة. ولهـــذا فهو يتوافق تماماً مع وصفه لتغير نموذج مـــا. فأولاً، من الصعب جداً فعليـــاً بالنسبة لعالم معاصـــر أن يضع نفســـه في الإطار الفكـــري لفيزياء أرسطو. وثانياً، فإن تأكيد كوهن على الخطأ اللاحق لـــكل رؤيا للحقيقـــة، إذا لم تكـــن صحيحة للميكانيـــك النيوتنـــي أو للإلكتروديناميكا المكسويليـــة، ينطبـــق بـــلا أدنـــى شك على الفيزياء الأرسطية.

ولكن الثـــورات في العلم لا تبدو موافقة لوصـــف كوهـــن إلا في حالـــة الانتقال، في فهمنا للطبيعـــة، من السوية ما قبل العلمية إلى العلم الحديث. فولادة الفيزياء النيوتنية

كانت بالتالي نوعاً من التغير الفائق للنموذج. ولكن لم يحصل منــذ ذلك الحين أي تعديل في إدراكنــا للحركة -لا المرور من الميكانيك النيوتنــي إلى الميكانيــك الأينشتاينــي ولا المرور من الفيزياء الكلاسيكية إلى الفيزياء الكموميــة- يوافق وصف كوهــن لتغيرات النموذج.

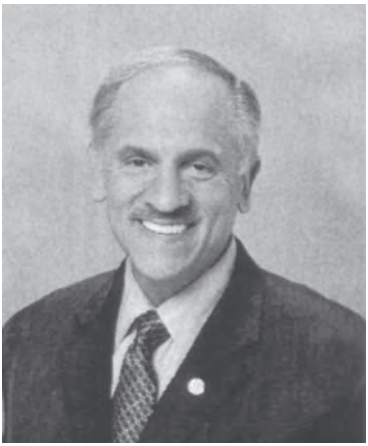
وخــلال العشرة أو العشرين سنة الأخيرة مــن حياته، كرســ كوهن نفســه للفلسفة، متعلقاً بشكل أدق باستكشاف معنى الحقيقة والواقع، وهمــا ســؤالان كان قد طرحهما بشــكل مختصر قبل ذلك بسنــوات في بنية الثــورات العلمية. وبعد مــوت كوهن، كتب ريتشارد رورتي Rrchard Rorty أنه كان «أكثر الفلاسفة الكاتبــين بالإنكليزية تأثيراً بعد الحــرب العالمية الثانيــة». والحال أن المواقــف الفلسفية لكوهــن تتسم بالتشكك الأكال نفســه الذي في كتاباتــه التاريخية. فقــد أعلن مثلاً خلال محاضــرة ألقاها في هارفارد عام ١٩٩٢: «إنني أشدد على واقع أننــي لست بصدد الإيحــاء بوجود واقع لا يستطيع العلم بلوغــه. بل أريد بالأحرى أن أقــول إن مفهــوم الواقع، كمــا يطرح عادة في فلسفة العلوم، هــو مفهوم من المستحيل إدراكه».

وفي رأيــي، كان الفيلســوف البراغماتي شارل ساندرز بيرس Charles Sanders Pierce قــد أوضح منذ أكثر من قرن معنى مفهوم الواقع. لكنني لســت قادراً، لا ذوقاً ولا تربيــة، على الفصــل في النزاعات بين الفلاسفــة. ولحسن الحظ فليســ ثمة ما يفرض علــى الفلاسفة أن يملوا كيف يجب أن تطبــق حواراتهم على تاريــخ العلوم، أو على البحث العلمي نفسه، ليس أكثر مما أنه ليس للعلماء أن يقــرروا بأنفسهم استخدام اكتشافاتهم في التكنولوجيا أو الطب.

لقــد قدمت في موضــوع حديث نُشر لي ملاحظة بــأن قوانين الطبيعــة بالنسبة لي كفيزيائي هي واقعية بالمعنى نفسه (أياً كان هذا المعنى) لواقعيــة حصى على الطريق. وبعد بضعة أشهر، كانت هذه الملاحظة سبباً ليتهمني فيه الفيلسوف ريشار رورتي بأنني أعتقد نفسي قــادراً بما أنني فيزيائي على أن أحسم بسهولة مسألتي الواقع والحقيقة، واللتــين كرس الفلاسفــة أنفسهم لهما منذ آلاف السنــين. وهذا ليس مع ذلك موقفي. فأنا أعــرف أنه من الصعوبة بمكان التعبير بدقة ما الــذي نعنيه بكلمات مثل واقعي أو حقيقــي. ولهذا، فعندما كتبــت أن كلاً من قوانــين الطبيعــة وحصى الطريــق واقعي بالمعنــى نفسه للمصطلح، فقــد تعمدت أن أضيــف بين أهلة «مهمــا كان هذا المعنى». إنني أحترم جهود الفلاسفة من أجل إيضاح هذه المفاهيــم، لكنني على يقــين أيضاً أن

كلاً من كوهن وورورتي نفسيهما كانا قد استخدما أحياناً خلال حياتهما اليومية كلمات مثل واقعي أو حقيقي دون أن يطرح ذلك أي مشكلة بالنسبة لهما. فلست أرى أي سبب يمنعنا من استخدامهما أيضاً في بعض شروحنا حول تاريخ العلوم. إن الفلاسفة يستطيعون أن يؤدوا لنا خدمة كبيرة في محاولاتهم أن يوضحوا ما نريد قوله بكلمتي واقع وحقيقة. ولكن عندما يؤكد كوهن أنه يصعب عليه بما هو فيلسوف أن يفهم ما تعني اللفظتان حقيقة وواقع، فإن ذلك يبين أنه يعاني هو شخصياً من صعوبات مع هذين المفهومين، وليس أكثر من ذلك.

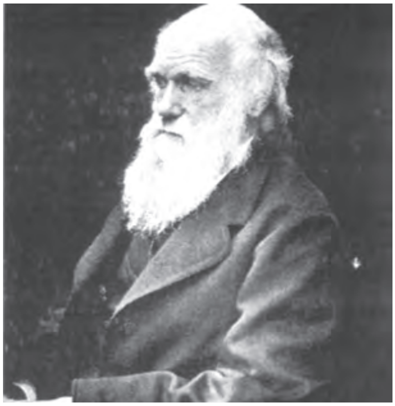
وفي الختام، أريد أن أصف فكرتي الخاصة عن التقدم العلمي. فكما سبق وقلت، يستخدم كوهن التحول الذي في التطور الدارويني: أي تحول التحسين غير الموجَّه نحو أي هدف كان. إن التحول ليس سيئاً شرط أن نعدل فيه تعديلاً طفيفاً: فتقدم الفيزياء يشبه تقدم التطور إنما بشكل تراجعي. فكما أن أصول البشريات والثدييات الأخرى ترجع إلى مخلوق أشعر من الحقب الكريتاسي، كان يبذل جهده للإفلات من الديناصورات، ومثلما على غرار هذا المخلوق ترجع الديناصورات كافة والحياة كلها على الأرض على الأرجح إلى «كرية ذرية قبيل بلازمية أولية»، كذلك فقد رأينا علوم البصريات والكهرباء والمغنطيسية تتصهر في عصر مكسويل لتشكل ما نسميه اليوم بالإلكترودىناميكا، ثم شهدنا خلال السنوات الأخيرة الإلكتروديناميكا تتصهر مع نظريات قوى طبيعية أخرى لتشكل النموذج المعياري للجسيمات الأولية. ونحن نأمل أن الخطوة الكبيرة القادمة إلى الأمام للفيزياء ستصهر نظرية الجاذبية وكافة فروع فيزياء الجسيمات الأولية في نظرية واحدة موحدة. وبهذا الهدف إنما نعمل ونصرف الأموال المساهمة. وعندما نكتشف هذه النظرية فإنها ستصبح عندها جزءاً من وصف حقيقي للواقع.



ولد ستيفن واينبرغ في عام ١٩٣٣، وكان زميلاً لتوماس كوهن في بداية الثمانينات عندما كان كل منهما أستاذاً في مؤسسة ماساشوستس للتكنولوجيا.



ولــد توماســ كوهــن في عــام ١٩٢٢، وقــدم أطروحة الفيزياء النظرية في جامعة هارفــارد بعد الحرب مباشــرة. وقد تُرجم كتابه الشهير الذي ظهر في عام ١٩٦٢ بعنوان بنية الثورات العلمية إلى خمس وعشرين لغة وبيع منه أكثر من مليون نسخة في العالم.

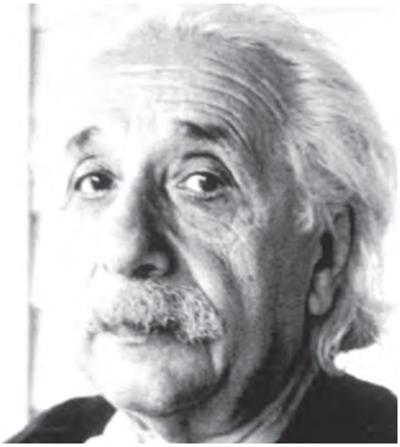


هل يمكن لمفاهيم أعدها شارلز داروين من أجل فهم تطــور الأنواع الحية أن تطبق على النظريات العلمية؟

نيوتن



أينشتاين



كانت أفكار نيوتن قد ولدت نموذجاً كان بشكلــه النهائي قد طبــع الفيزياء كلها لمدة أكثر من قرن. وظهر نموذج جديد في بداية القرن العشريــن بفضل أعمــال أينشتاين، لكنــه لم يمنع الميكانيــك النيوتني من البقاء فعالاً ومن استمرار تدريسه حتى الآن.



لكي يعد نظريتـــه في الكهرباء والمغنطيسية قـــام جيمس كلرك ماكسويـــل في بداية عام ١٨٧٠ بالاعتمـــاد على رؤية آلية لوسط، هو الأثير، حيث كانت الأمواج تنتشر مثل حركة تداخل. لقـــد تم التخلي اليوم كلياً عن هذا التمثيل الذي يبدو لنا اليوم غريباً جداً، لكن المعادلات المستخلصة من أعمال مكسويل لا تزال معتادة ومستخدمة بين الفيزيائيين.



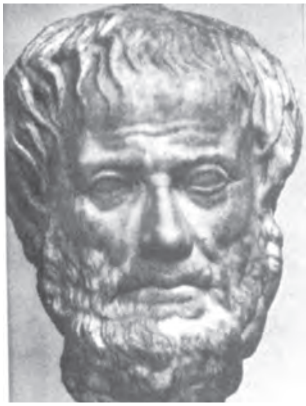
لا تختلف مواضيع فيزيائيي الجسيمات أبداً عن المواضيع التي درسها نيلز بور.



كان ميخائيـــل فـــاراداي هو أصـــل مفهوم الحقـــل القائم في قلب الفيزيـــاء المعاصرة، لكن لا شيء يؤكد أن النظرية الأساسية التي يجب اكتشافها ستعتمد عليه.



عـــالم الفيزياء الفلكيـــة فريد هويل هو أحد علمـــاء الفيزياء الفلكية النادرين الذي قاوم منذ السبعينـــات الإجماع الذي يشكل «النمـــوذج المعيـــاري» في الكوزمولوجيا، ألا وهو نموذج الانفجار الكبير.



إن دراسة نصوص أرسطو هي أصل المنهج التاريخي والتربوي لتوماس كوهن. ففي أحد الأيام بعد الظهر من عام ١٩٤٨، أدرك في الواقع فجأة أن أرسطو لم يكتب فيزياء نيوتنية رديئة، بل فلسفة يونانية جيدة. وإمكانية المرور هذه من إطار فكري إلى آخر هي التي قدمت له المادة الأولى لتحليله للثورات العلمية.

الدراسات والبحوث



ســن الرشــد

❁

باكير محمود باكير

الحضارة تراث إنساني، بدأ منذ وعي العقل عند الإنسان، منذ بدأ يدرك أنـــه موجود. وأنـــه يتحرك في كل الاتجاهات في سبيـــل المحافظة على هذا الموجـــود، دون أن يُدرك معنى الحركة، ومعنى العمل في سبيل الحصول على الطعام وفي سبيل المأوى وفي سبيل البقاء.

فقـــد كان يسعـــى ويعمل باستمرار، وبشكل بدائـــي يشبه بقية الكائنات الأخـــرى، ولكن العقل عنده كان أعلى مرتبة من غيره، لأن العقل باستطاعته

❁❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمة

أن يُحــرّك الأشيــاء في البيئــة التي حوله لصالحه.

لقــد تطــور الإنســان خــلال مراحله العميقة في التاريخ نحو الأفضل. وفي سبيل الحصــول على الأفضل مــن كلّ موجودات الطبيعة التي حوله، والطبيعة مليئة بكل ما يحتاجــه من طعام ومأوى وملبس، ولكنها لا تخدمــه، بل هي طوع بنانــه، فكان عليه أن يستخدمها، لأنها جاهزة للعطاء بقدر ما هو جاهز للاستخدام.

يشارك في ذلك كلُّ الأجناس البشرية، كلُّ شعبٍ أو بالأحــرى كلّ فردٍ حسب إمكانياته وحسب حضوره في مجال الإبداع والتطور.

وبدأ الإنسان يتصالح مع البيئة والمحيط الــذي وجد فيه لصالحــه، وإذا لم تصالحه البيئة انتقــل إلى غيرها في سبيل الحصول على الأفضل.

تكونتِ الأســرُ وقامت القرى المتواضعةُ، وتحركت الزراعــة، وصنــع الإنسان بعض الأدوات التي تساعده في تنفيذ ما يريد من أعمــال يومية تعود عليه بمــردود أفضل و أكثر.

الأرض واسعة جــداً وتستطيع استيعاب ذلك المخلوق المبدع الذي هو الإنسان، ولكن حركَتــهُ كانت في كثير مــن الأحيان مضادة لطبيعــةِ الاستقرار والإنتاج، فكان مثله مثل الحيوان اللاحم الذي يرى فريسة جيدة بين يدي لاحم آخــر أضعفَ منه، فكان عليه أن يحصــل عليها عن طريق الغلبة، ذلك أسهل تناولاً له من مطــاردة فريسة جديدة. وكان الإنســان بالمقابل يزاحم شبيهَــهُ الأضعفَ، ليحصل بجهــد أقل على ما جنــاه الآخر. فكان الصــدام وكان العدوان وكان الاقتتال وبالتالي كانت الحرب.

وعلى مرِّ التاريخ تناوبتِ الشعوب الغلبةَ عنــد الأقوى ضــدّ الأضعــف، وكأن جذور إنسان الغابة أو حيوان الغابة ما تزال تعتمل في عقله الباطن خلال الأجيال المتعاقبة منذ وجوده على وجه الأرض.

وبالمقابل، فإن حب التعــاون مع أقرانه موجودٌ في طبعه، في سبيل الوصول إلى العيش الأفضــل. فــكان التجمــع وكان الاستثمار النباتي وكان الرّعــي، وكانت الزراعة وكان العمران في البيئة التي يتواجد فيها، وتعامل مع التربة وإنتاجهــا كما تعامل مع الماء وما يحتويه من إنتاج غذائي.

الإنســان ضعيف جــداً أمــام الطبيعة وجبروتها، وأمام مــا تحويه من بركان ونهر وبحر ومطر وقوى لا طاقة له بها، وأمام ما تحويه من وحوش كاســرة ومرعبة لا يملك القــدرة الكافية على ردهــا ومنع شرورها. كما أنه قــويٌّ جــداً إذا استعمل عقله ضد

الطبيعة أو تعاون معها، أو اكتشف وسائل الدفاع والردع ضد جبروتها وضد وحوشها.

الإنسان عطوف جداً مع أخيه الإنسان، وبالمقابل فهو وحشيٌّ جداً ضد أخيه الإنسان. فإذا تأزمت الوحشيّةُ في نفسه ضد الآخر، كان مدمّراً لا يقف عند حد حتى ينتهي من خصمه، وبدلاً من التعاون في سبيل العمران والمشاركة في الخبرات في كثير من مراحل التاريخ البشري، كان على النقيض من ذلك، يذهب إلى أبعد حدود الخراب والدمار والقتل، دون رادع من عقل أو قلب.

والتاريخ المُدوّنُ يعطينا كثيراً من الأمثلة المرعبةِ عن هذه المراحل، لأنها قريبة جداً منا بالنسبة لعمر الإنسان على الأرض، والذي يمتد لمئات الآلاف من السنين الخالية.

قد يكون هناك تصادم في المصالح بين الجماعات البشرية، وكل جماعة تعتقد أن الحق لها في ذلك، فيقع التصادم، والمنتصر يصل إلى ما يريد، حيث يعتبر ذلك حقَّهُ الذي حصل عليه، ويكون الدفاع عن الحق وعن المصالح المُغتصَبةِ مشروعاً عند المظلوم ضد الظالم الذي تطاول على حقوق الآخر، وتجاوز حدود منفعته.

إن القبائل القوية والكثيفة العدد والمتخلفة والجاهلة في الوقت نفسه، قد دمرت كثيراً من الممالك المتحضرة التي أقامت عمرانها ونظامها وتجارتها بعقلها الواعي، كما أسفرت أعمالٌ كثيرةٌ من الشعوب الهمجية عن تخريب الكثير من المناطق المتحضرة والتي كانت لقمة سائغة لأولئك الغزاة الذين أقبلوا من المجهول، يحملون معهم الطمع وحب الغنيمة والكسب لكل ما تصل إليه أيديهم، فيسمحون لأنفسهم باجتياح ديار العمران، وسلب كل ما تصل إليه أيديهم دون رادع من وعي ودون مبرر من ضمير.

لقد أطلق التاريخ على بعض أولئك الغزاة اسم (الفاتحين) ورفعهم إلى مرتبة الأبطال، ورفع أعمالهم إلى موقع الأمجاد التي تحققت على يدهم علماً، أنهم وصلوا إلى ما وصلوا تاركين خلفهم الدّمار وخراب العمران، وألوف المعذبين والمضطهدين والمشردين الذين باتوا بلا مأوى وبلا وطن، يقتلهم الجوع والمرض والحرمان وقد جُرِّدوا من أي عون ورحمة، وكأنَّ ذلك التصرف من قبل أولئك الطغاة حقٌّ طبيعيٌّ لا يجوز لأحد مراجعته ولا قول شيء فيه.

فإذا ما انقلبت اللّعنةُ، ووقع هو وقومه تحت كارثة مماثلة، من قبل خصم أقوى، ذاق الويلات نفسها التي أذاقها للآخرين، وعاش مأساة مماثلة.

إن الجهود المبذولة والإمكانيات الموضوعــة تحــت تصــرف ملك قــديم مثــل (كورشــس) مثــلاً من أجل السيطرة علــى العالم القديم وقهــره، والذي يقع إلى الغرب من عالمه هــو مثل بلاد مابين النهرين والأناضول ومصر واليونان، إن مثل هذه الإمكانيات كانت تكفي لإنعاش شعبه وإعمار بلده، وإطعام الألوف من الناس، ورفع سوية الحياة عند معظم شعبه.

كم تكلّــفَ الإسكندر من دفع الأمــوال، وإعــداد العتاد وتجهيز الرجال للاتجاه نحو الآخرين من أجل فتح البلاد ونشــر سلطانه في ديار ليست له ؟ ألم تكن تلك الإمكانيات المبذولةُ كافيةً لأن تعمر بلــده، وتوسع فيها الزراعة والتجارة، وتنشر فيهــا العلم والمعرفــة والعمــران ؟ ألم تكن قادرة على رفاه شعبه وإطعام الجياع في كل مملكته ؟ ثم هــل حمل معه هو أو غيره من الغزاة الطامحين لإظهار القوة، رسالة نبيلة أو ثقافة متميّزةً أو حضارة نيّرة يريد نشرها بين البشر الجاهلــين؟ أم أن حب السيطرة وحب إظهار القوة لإشباع طموحه دفعه لأن



ينســاح في بلاد الآخريــن، مقتحماً كل بلد يقف في طريقه لأنه فاتح عظيم، والشعوب التــي وقعت تحت حوافر خيلــه كانت مادة أولية لتلبية طموحه وضحايا بريئة لأمجاده الحربية التي لا ترحم.

الجيش الذي يسير نحو هدف ما يحتاج إلى طعــام و كساء ومأوى وعتاد، فكان ذلك يقع علــى حساب المغلوبــين الذين يتكفّلون بمثل هذه التبعــات، فكانت تُصَادرُ الأرزاق من مواد للتموين ومن حيوان للحمل والنقل وإطعــام الجيشــ، وأحيانا تســاق الرجال لخدمة الغالب وللمشاركة في الحرب. وكثيراً

ما تقع النساء والأطفال في الأسر والسبي.

ومعظم الجيوش القديمة والحديثة كانت تسير وتترك خلفها الخراب والدمار للعمران وغيره وتترك المعاناة والعذاب للإنسان.

يقول التاريخ: إن زعيم قبائل الهون المغولية - أتيلاّ- دخل أوروبة القديمة قادماً من الشرق، وكان العشبُ لا ينبت تحت حوافر حصانه، أي إنه يترك الأرض خراباً، ومعه قبائله الكثيفة والمتخلفة التي لا تعرف الرحمة، وروايات التاريخ عن أعمال الغزاة والفاتحين كثيرة في الشرق والغرب.

انساحت قبائل الهون من أواسط آسيا - منغوليا - بقيادة جنكيز خان باتجاه الصين ثم باتجاه الغرب، تسقط الممالك وتفتح المدن، وتخرب العمران، وتسبي وتسلب ما تجده في طريقها، وأتى بعده أبناؤه وأحفاده مثل هولاكو وتيمورلنك ليكملوا زحفهم باتجاه الشرق القديم، ولم يكونوا يحملون معهم قيماً حضارية يريدون زرعها عند الشعوب المغلوبة بل كانوا مجرد غزاة أقوياء بجيوش كثيفة تقتحم ما تجده في طريقها، وتخلّفُ وراءها الخراب والعذاب. وتقود في عودتها قوافل محملة بما سلبته من البلاد المغلوبة وكأنها حق مكتسب وصلت إليه جيوشهم وجحافلهم، مثلما فعل تيمورلنك عند عودته إلى سمرقند.

كانت القسطنطينية عاصمة متميزة بعمرانها وعلومها وتجارتها وحضارتها في أوائل العصور الوسطى، وكانت عاصمة لدولة راقية في عرف ذلك الزمن - الإمبراطورية البيزنطية - دخلها الفرنجة القادمون من الغرب الأوروبي باسم الدين ليحتلوا الشرق ويخلصوه من المسلمين الذين كانوا بعرفهم - كفاراً - ولينقذوا بلد السيد المسيح من أيديهم. فكانت القسطنطينية لقمة سائغة بأيديهم وهي مسيحية مثلهم، ولكن تخلفهم وفقرهم وما رأوه من ترف في بلد لم يكونوا شاهدوه من قبل، دفعهم لنهبها، ولتخريب ما خربوه منها دون رادع من قيم أو أخلاقيات معينة، وهي بالأصل ليست هدفهم، وإنما كانت في طريق عبورهم نحو الأناضول للاتجاه نحو بيت المقدس فكانوا كارثة عليها بدل أن يكونوا عوناً لها. وعادوا من حيث أتوا إلى بلادهم مكتفين بما غنموه من مدينة ليست هدفهم.

وإذا كنَّا موضوعيين فيجب أن لا نقفز فوق النزاعات والصدامات التي حدثت في المنطقة العربية والإسلامية بشكل عام.

وكانت بالأصل صراع سلطةٍ ونفوذ قبل أن تكون صراع دين ومذاهب، وكان بعضهم يتخذ الدينَ ذريعةً لإثارة الحميّة عند الناس البسطاء وبين العامة كي يسيروا خلفه ويكونوا عوناً له في سبيل تحقيق مقاصده السياسية والسلطوية التي يسعى إلى تحقيقها.

وقد سُفكت دماء كثيرة إسلاميّة إسلاميّة، كما سفكت في أوروبة دماء كثيرة مسيحيّة مسيحيّة. ولو كان العقل الإنساني يعي ذاته بشكل موضوعي ونبيل، ويستطيع التحكم في نزواته غير المعقولة، لأوقف الكثير من الصراعات ومن سفك الدماء، ولأحيا بلاداً كانت بحاجة إلى حياة، في زمن يكثر فيه الجياع والمحاجون إلى مأوى ورعاية.

ولكن نزعةَ الأنا المتورّمة عند الإنسان تجعله أحياناً يتجاوز إنسانية الإنسان. وتدفعه لارتكاب أقسى الحماقات التي هو وقومه وأقوام أخرى بغنى عن الخوض فيها ولا ضرورة لها.

العالم والفقيه والمتعبِّدُ والكاتب والمفكر يحتاجون إلى نوع من الاستقرار النفسي والمالي والبيئي والاجتماعي كي يقدّموا للآخرين إنتاج عقولهم المستنيرة من المعرفة والفضيلة. وهذا لا يتواجد إذا امتلأت الساحة بالفوضى والاضطراب والصراع على السلطة، وخاصة إذا اختلطت الأوراق السليمة والمضللة وصار الطريق غير واضح المعالم.

قامت في أوروبة دولٌ ناشئة، استفادت من علوم الأمم المجاورة والسابقة لها في العلم والحضارة مثل الإغريق والرومان والعرب. وبدأت الدول القوية فيها تعمل على نشر أجنحتها على كثير من الشعوب المجاورة بالقوة، ومحاولة كسب المصالح من حساب الآخرين، ودارسُ التاريخ يعرف ذلك.

وجاء نابليون يريد الانسياح نحو العالم القريب والبعيد، ويريد تطويع الآخرين بالقوّة لصالحه، ووصلت قواته إلى مصر وإلى شرق المتوسط، ووصلت إلى أطراف موسكو في شرق أوروبة، ولكنه عاد يحمل معه الخيبة وأحلام الانتصارات التي حققها في طريقه ضد بعض الشعوب. وما الغاية ؟ لقد كان صدامه صدام مصالح، لا صدام دفاع عن النفس، ولا لنشر القيم والمثل العليا التي يحملها إلى العالم، ولا لإحقاق حق مهدور أو إعادة سلام ضائع في متاهات الطموحات الخلبّية التي كان يحلم بها.

وذهب ضحية تلك النزوات والصدامات

ملايين الرجال من خيرة الشباب، ومن العديد من الشعوب التي أصابتها ويلات المعارك، تأكلهم الأوحال والأتربة والثلوج، ومياه البحار والأنهار، وكأنهم مادة أولية لا قيمة لها لصنع أحلام خيالية وإقامة انتصارات خلبيّة، تملأ جماجم القادة الطموحين. ويدخل باريس عاصمة بلده ممتطياً صهوة جواده، حيث تستقبله الجماهير كبطل حقق لأمته الكثير من الأمجاد.

أما الملايين الذين ذهبوا بجرّةِ قلم بسيطة كافرة نتيجة حمقة وطموحه، وبكاء ملايين النساء على أرواح أبنائهن الراحلين، وخراب ألوف القرى والبلدان، وتدمير العمران، فهذا بعيد عن الحدث وبعيد عن التفكير أصلاً.

وتناوب الملوك والقادة في أوروبة العنجهية نفسها أو ما يشبهها، هذا لي وهذا لك، وتبودلت الصدامات والاقتتال، وكانت المآسي المتبادلة، والعنف الذي لا مبرر له.

وجاء هتلر، وتحركت في نفسه عظمةُ الذّات، والأنا القاتلة، وظن أن الأعراق تتمايز بين جيد وأجود، وأغرته القوة الجامحة التي حملها في نفسه بعد أن امتلأت ثكناته بالجيوش، وامتلأت مخازنه بأسلحة الدمار، فكان أشدّ من جنكيز خان، وأقسى من تيمورلنك. يريد وضع العالم المعاصر تحت جناحه، وبدأ يتمدد حتى وصل إلى أوائل الشرق وإلى أطراف موسكو، فما استطاع مضيّاً وانحسر مثل الآخرين، ولكن بكارثة أودت بعشرات الملايين من الجنس البشري، وبعشرات الألوف من المدن والبلدات والقرى المدمَّرَةِ، والتي صارت عبئاً على الإنسانية المنكوبة.

كان العالم الكبير والأرض وأممها بغنى عن كل هذه النزوات الكارثية القاتلة.

كل هذه الخسائر المذهلة، والإمكانيات المهدورة التي تعجز الأرقام عن حصرها. لو وضعت في خدمة البشرية، في خدمة العلم والحضارة، في إطعام جياع العالم، في عمران كوكب الأرض الذي هو ملكنا جميعاً ولا يزاحمنا عليه آخرون من كواكب أخرى، كل هذه الإمكانيات لو وضعت في خدمة البشرية بوعي وعقلانية لكانت تكفي الجميع.

هذه النموذجيّةُ من التفكير قد تكون غير مقبولة عند بعض العارفين، والتي هي أشبه بأحلام المدينة الفاضلة، ومع ذلك، لماذا لا تكون حقائق مدينة فاضلة، بدلاً من الأحلام. وطموحاتُ الإنسانية المعذبة ما تزال تخوض عذاباتها، وتمضغ آلامها أملاً في الوصول نحو الأفضل في حياة كريمة، مع السعي لعدم تحميل البشرية مثل هذه العذابات التي تثقل كاهلها.

القرن العشرون كان أكثرَ القرون كوارث وقعت على الإنسانية، بما حمل إليها من حروب ومآسي ودمار ضد كل شيء. وبالمقابل، كان القرن العشرون القرن الوحيد الذي جعل العقل البشري يراجع ذاته، ففي القرن التاسع عشر أُوقفت تجارة العبيد، ولم يعد الإنسان سائمةً تُباع في سوق النخاسة، وفي القرن العشرين بدأت البشرية تدخل (سن الرشد)

بعد الخروج من الأحداث الكارثية التي مرت عليها، وبعد أن أدركت أن ما تملكه من وسائل الدمار والخراب يمكنها أن تقضي على كل شيء حتى على الذات التي تملكها.

بدأ العقل يستيقظ شيئاً فشيئاً، وبدأت المؤسسات الخدمية الإنسانية والأممية تنمو رويداً رويداً، وتدخل في مجال التعامل الإنساني مع بعضها ولو بشكل بطيء، بدلاً من التصادم اللا إنساني، وبدأ العقل البشري مراجعة الذات محاولاً وقف الجهل المدمر، وفتح الباب للوعي البنّاء.

إذاً، هل بدأ العقل البشري يعي ذاته، ويدرك صلاحيّةَ وجوده على الأرض؟ هل بدأ ينتقل من الأنا المريضة والمزيفة إلى مرحلة الشمولية الرشيدة والشاملة لكل أجناس البشر دون تمييز؟ على رغم حضور الرواسب المتخلفة في عقلية الإنسان الأرعن عند العديد من الجماعات. وهل بدأ الوعي الإنساني يدخل في بوابة الأخلاق الإنسانية المتحضرة؟ وهل بدأ يدرك المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه و التي تدفعه إلى الابتعاد عن العدوان والدمار بإيجابية توصله إلى الرشد والبناء وفتح المجال نحو الأفضل.

لقد استطاع الإنسان أن يصنع أقوى آلات الدمار التي يمكنها أن تمسح الحياة العاقلة وغير العاقلة من على وجه الأرض، لكن جاهزيته ضعيفة على ما يظهر، لأنه سيكون هو نفسه من جملة الضحايا، وبالتالي لن يكون هناك من يقف سالماً على باب البيت.

لم يمض على دمار أوروبة أكثر من نصف قرن، حتى أخذت تتصالح مع نفسها وتتعامل بالمشاركة المتكافئة في سبيل بناء الغد، على رغم وجود الكثير من آثار الدمار الذي ألحقته الحرب العالمية بها. وعلى رغم حضور الكثيرين ممن عايشوها على قيد الحياة، ويحمل الكثيرون منهم انطباعاتهم المريرة عنها وعن ويلاتها.

ويبدو أن شعوب العالم كلها بدأت تنحو هذا النحو، وتسعى للسير في سبيل سلام يعم الأرض وعمران يفيد الجميع، وثبت

للجميع أن الفوارق اللونية أو المكانية أو العقائدية بين بني البشر لا تعني شيئاً في سبيل بناء غد أفضل إلاّ إذا خرج مجنون أو أحمق من القمقم، وعند ذلك لا أحد يعلم ماذا سيكون.

يجب أن تكون الكلمة الطيبة عابرةً للقارات، بدلاً من أن تكون الصواريخ عابرة للقارات، كما يجب أن تقف حدود الأنا المتعالية بالزيف والغرور، عند حدود الأنا التي تحمل الرضى ومحبة الإيثار والتسامح. ويجب أن يكون العقل المستنير أقوى بكثير من العقل المتخلف، وأن يكون السمو الروحي والمادي متلاحمَين، حتى يضيئا طريق الخير.

لقد احترم التاريخ خلال المسيرة الإنسانية الطويلة كل أفعال وأقوال الأنبياء والحكماء والفلاسفة والشعراء والأدباء. تلك التي كانت شموعاً تضيء درب الحياة للإنسان على الأرض. وسجل التاريخ في سطور وصفحات المحبة وفي بنود العلاقات الإنسانية النبيلة كلَّ الأقوال والأفعال الحكيمة التي ترفع وتحفظ كرامة الإنسان وترعى حضوره الإيجابيَّ البنّاء في الحياة وترعى مصيره بكل عناية، وأيّد كل فعل يرشد ويقود إلى سمو و رفعة الإنسان.

وبالمقابل لم يحترم التاريخ أولئك الطغاة الذين حملوا معهم الخراب والدمار للشعوب التي مروا عليها أو عبروا أرضها. لأنهم تركوا وراءهم خنادق ومقابر وحرائق، وحملوا معهم غنائم إن سميناها غنائم. بل حملوا معهم أسلاباً وسبياً وأسرى من بني جنسهم، حملوهم إلى مصير غامض وبائس ومخزي. لا لشيء ولا لجرم ارتكبوه، بل لأنهم كانوا أضعف من الغازي المهاجم، فوقعوا في حبائل البؤس والشقاء، وكان وراء ذلك خراب للعمران وللحضارة التي جهد المنكوبون في إقامتها.

في حين كان الحكماء يعتكفون في الصوامع والزوايا، ينشرون التسامح والمحبة والإخاء بين شرائح الناس البسطاء وغير البسطاء، ويحملون معهم عناء الفقر والحرمان في سبيل خير البشر دون تمييز. فكان منهم مصابيح تضيء درب الناس نحو الأفضل، وكانوا ينشرون الخير والتراحم، ولا يحملون معهم أداة لقتل أو خراب.

إن الكرة الأرضية بضخامتها تشكل نقطة صفر أو أقل في اتساع فضاء الكون المترامي، فهي أشبه بلا شيء في سجل الكون

الكبـــير، ومع ذلك تحمــل على ظهرها ذلك المخلوق العجيب الذي هو الإنسان، صاحب العقل المفكــر والمدرك، والذي يحاول بعقله الذي لا يدرك أن يفسّر هذا اللاشيء وهذا الشيء.

وحضـــور الإنسان على هذه الأرض أقل مــن نقطة صفر في سجــل الأرض الواسع، وهو يمــوت ويحيا، أي إنـــه يتجدد بوجوده فــوق سطــح الأرضــ، وهو دائــم الحركة والبحث، دائــم التفكــير، دؤوب في حركته لا يهــدأ ولا يمل، يوجِد من الشـــيء أشياء كثـــيرة، ومن المادة التي حوله يصنع ما يفيد أعظم الفائدة، وما يضرّ أعظم الضرر. فهو قــادر على أن يجعل مــن الأرض جنة نعيم لــه ولأقرانه من بني البشــر، إذا تابع السير في طريق الخير للجميع. أما إذا غلبت على تفكــيره نزعة القبيلة البدائية، فهو شرّ على نفسه وعلى الآخرين.

إن مفاتيح الخير ومفاتيح الشر بيده، إنه يستطيع أن يجعــل من نفسه ملاكاً للرحمة مع الآخر، ويجعل من العلم والمعرفة النبيلة سلّماً إلى الصعود نحـــو الأسمى، إذا تخلّى عــن نزعة الأنانية، وعن حب" التكالب على المنافع والمصالــح التي هي من حق الجميع على الأرض، وليست من حقه وحده.

يستطيــع بــكل يســر أن يتواصــل مع بنـــي جنسه من خلال العديــد من الوسائل المتاحة ويستطيع أن يدرك الخير والتسامح والتعامل بالمثل مع الآخريــن، ويستطيع أن يُسقِطُ الحقــد والكراهية مــن نفسه، وأن يكون كالمصباح الذي يضـــيء فينشر ضوءه على كلّ مــن حواه وما حولــه دون حاجب ودون تمييز.

إن المستجــدات الحضاريــة قادرة على أن تجعــل من المجتمع البشــري أسرة كاملة بكل ما تعنيه العبارة من امتياز. الاتصالات السريعــة - المعلومــات المتوافــرة - العلم والمعرفة اللذان يمكنهمــا أن يدخلا أضيق النوافــذ لترشيد الآخريــن إلى الخير العام والمتبادل.

القناعــات الكاملــة بتكافــؤ القدرات عند العقل البشري بــكل أجناسه وألوانه و أماكن تواجــده إذا توافرت له سبل المعرفة وإمكانيات العلم.

إن التلاقي الذي يحدث بين البشر يقود بالتالي إلى التعــارف وإلى الخير العام، لأن الإخبــار القديم كان بطيئاً جداً وكان يحمل في طياتــه الظلــم والكذب وعــدم المعرفة بالآخر بالشكل الدقيق والسليم.

المؤتمــرات العالمية، اللقــاءات البشرية الواسعــة الانتشــار من خــلال المؤتمرات والمنتديــات - الألعاب الرياضيــة الواسعة التي تساهــم كثيراً في تلاقـــي شباب العالم

وشعوبه مع بعضهم، ومن جميع الشرائح البشرية من أبيض وأسود وأصفر، مما يساعد كثيراً وكثيراً جداً في إزالة مفاهيم ومقاييس التفاضل أو التمايز البشري بين الأجناس والأعراق، ومما يساعد البشرية للوصول إلى التفاهم وإلى الوعي المعرفي الذي كان مفقوداً في السابق بين أجناس البشر.

إن التلاقي الحضاري والعلمي والتجاري يخلق مساحة من الود والتراحم والتآلف بين جميع الشعوب.

إن اللقاءات الرياضية الواسعة الانتشار بين شباب العالم وفي جميع القارات من خلال المنافسات الرياضية من أجل الوصول إلى الانتصار النبيل في دورات الأولمبياد أو ألعاب القارات أو غيرها، تخلق بين شباب الشعوب جميعاً نوعاً من التبادل واللقاء المعرفي والحميم في كثير من الأحيان، لم يكن يحدث في السابق، وبحيث تزول كثير من القناعات الخاطئة والمتوارثة في وجدان الأجيال السابقة.

إن الأدب بكل فروعه مثل الثقافة والمسرح والسينما والموسيقا والشعر والكتاب بكل أجناسه يكون صلة وصل نبيلة وراقية مع الآخر.

إن المواضيع الغامضة والمجهولة تخضع عند كثير من الناس لأسوأ التفسيرات، وبالتالي تظل معرّضة لإيصال ونشر أسوأ الاحتمالات، وخاصة عندما يكون الجهل هو الغالب عند الكثير من الناس.

إن الأمر الواضح والمعروف يفتح عند المستنيرين باباً واسعاً للحوار والنقاش في سبيل الوصول نحو الأفضل، وفي سبيل تجاوز الأسوأ، كما أن الاتصالات السريعة بين شرائح الشعوب أصبحت قادرة على كبح جماح النزوات الخاطئة التي تقود إلى الشر والعدوان والظلم، كما أنها قادرة على مد يد العون للجميع للمساعدة في المآسي والأحداث ولفتح الحوار والتشاور ومحاولة الوصول نحو الخير العام مثل السعي لكبح المجاعة والأمراض والعدوان، ومحاولة إزالة الفقر والتخلف في أي مكان على الأرض، والتي أصبحت مسافاتُها قريبة جداً على رغم بعدها الشاسع، بعكس الماضي الذي كانت مسافاته بعيدة جداً على رغم قرب المسافة الحقيقية وذلك بسبب صعوبة الاتصال وصعوبة المواصلات، وبسبب حاجز التخلف والجهل الذي كان يقف في كثير من الأحيان حاجزاً كبيراً في سبيل حل ما يمكن حله من متاعب الجنس البشري.

فهل تستطيع البشرية أن تمضي حثيثاً وبشكل عقلاني كي تصل إلى – سن الرشد؟

إضاءات:

١- مؤرخ المغول الكبير = رشيد الهمداني، د.فؤاد عبد المعطي الصياد

٢- الحروب الصليبية: المستشرق رنسيمان

٣- حروب صليبية في أوروبا: دوايت إيزنهاور

٤- الأساطير والأحلام والأسرار: مرسيا إلياد

٥- إضاءات من الذاكرة القديمة د.علي القيم

٦- الأجناس والشعوب: وليم بويد

٧- أسلافنا في عصور ما قبل التاريخ: د. سلطان محيسن

الدراسات والبحوث



الإنسان ومسؤولية اللسان

❋
عبد الباقي يوسف

يتمتع الإنسان دون سواه من مخلوقات الأرض بلسان بليغ يمكن أن يرفعه إلى درجات متقدمة في صفوف البشر، ويمكن أن ينحدر به إلى درجات سفلى من درجات الخزي.

الإنســان هو لسانه، واللسان يمثل شخصية حامله، لكن ثمة إنسان يقود لسانــه، وثمة آخر ينقاد خلف زلات لسانه، وهناك زلات لسان أحدثت وقائع وأحداثــاً كــبرى في التاريخ البشــري، وكان أصحابها يــرددون في محاولات

❋❋ باحث وأديب سوري.

العمل الفني: الفنانة ميسون علم الدين.

للتراجع عما قالوا: إنها كانت زلات لسان. لكن الناس يأخذون الأمر على محمل الجد حتى لو كانت بالفعل هي

زلات لسان حقيقية، لأن هذه الزلات لاتنطلق من فراغ، ولها خلفياتها المخفية كما يتفضل علماء التحليل النفسي بتحليلها بتفاصيلهم المملة أحياناً.

لسان الإنسان هو من الألغاز التي ما تزال البحوث والدراسات، والتحليلات تدور حولها دون أن تبلغ مرحلة الاستقرار، وحقيقة الأمر إن كل بحث يقود إلى بحث آخر، وكل بحث جديد هو فتح باب أمام منهج جديد للبحث عن أسرار هذا العضو العجيب الذي يتخصص به الإنسان ويتحمل مسؤوليته كذلك دون مخلوقات الأرض.

حكمة اللسان

يتميز الإنسان الحكيم بأنه أول من يصمت، وآخر من يتكلم، ويتميز الإنسان المتسرع بأنه أول من يتكلم، وآخر من يصمت. ولذلك يقال: إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب.

يقول الشافعي:

احفظ لسانك أيها الإنسان
لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءه الأقران

وهناك الكثير من الأمثلة الشعبية تشير إلى عظمة مسؤولية اللسان، وتحذر الناس من ألسنتهم سواء أكانت مقصودة، أم كانت زلات، لأن الكلمة تذكّر بصاحبها، ولذلك قالت الحكمة الشعبية: /لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن خنته خانك/.

ربما لايعرف الإنسان قيمة لسانه إلا إذا فقده، ولعل فاقد الصوت هو أكثر الناس قيمة لمعاني الكلمات.

يسعى دي سوسّير نحو تعريف للسان قائلاً بأنه: نسق من العلامات المميّزة التّي تتوافق مع أفكار هي بدورها مميّزة.

ويرى أن اللسان، من حيث هو نسق اجتماعي، عن الكلام بما هو توظيف وممارسة فرديّة. ففي اللّسان يحذف «الجوهر» السّمعي والنّفسي، لكي يقع الاحتفاظ، في الأخير بـ الشّكل، أي العلاقات المتفاضلة والمتقابلة بين عناصر سواء كانت صويتمات Phonèmes أو قواعد نحويّة. كما يفسر سوسير.

يتألف اللسان من أربع مناطق:

- أقصى اللسان.
- وسط اللسان.
- حافة اللسان أو حافتي اللسان.
- طرف اللسان.

وقد ورد في الصحاح بأن اللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة فتؤنّث حينئذ.

عن بــلال بن الحارث المــزني أن النبي قال:

إن الرجــل ليتكلم بالكلمــة من رضوان الله مــا كان يظــن أن تبلغ مــا بلغت يكتب الله بها رضوانه إلى يــوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلــم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة. أخرجه البخاري. وكان علقمة يقــول: «كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث».

وعن أبــي هريرة قــال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: **إن العبد ليتكلــم بالكلمــة ما يتبين فيهــا يزل بها في النــار أبعد ما بين المشرق والمغرب.** (أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما). وفي رواية لمسلــم: إن العبــد ليتكلم بالكلمــة ما يتبين فيها يهــوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وفي حديث معــاذ الطويل، قــال النبي (صلى الله عليــه وسلم): **ألا أخبرك بملاك ذلــك كلــه؟ (قــال معاذ: بلــى يا رســول الله، فأخذ بلسانه ثم قال: كفَّ عليك هذا. قلت: يــا رســول الله، وإنا لمؤاخذون بمــا نتكلم به؟ قــال النبي (صلى الله عليــه وسلم): ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههــم إلا حصائــد ألسنتهــم.** أخرجــه الترمــذي في سننــه وقال حســن صحيح، وصححه الألباني.

وفي حديث سهل بن سعد عن رسول الله (صلــى الله عليــه وسلم) قال: **مــن يضمن لي مــا بين لحييه وما بــين رجليه أضمن له الجنة.** أخرجه البخاري.

وفي آخر حديث سفيان بن عبد الله قال في آخره: قلت يا رســول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال: هذا. أخرجه مسلم.

أتحــدث بشيء مــن اللغــة القصصية عــن شخص فقد صوته، ســوف ندخل إلى عالم هذا الشخصــ وعلاقته بالكلمات. إنه شخصــ يكتشف أبعاد مسؤولية اللسان بعد أن يفقده. أروي القصة على النحو التالي:

مضــت سنــة بشهورهــا، وأسابيعهــا، وأيامهــا، وساعاتها، سنة بكامــل تفاصيل ووقائع الحياة والاحتكاك مع الآخرين دون أن ينطق لسانه بحرف واحد.

سنة حياة انتقالية رحبــة، حافلة بهيبة وقار الصمت، غنية بحكمة الإصغاء، خصبة بعذوبة التأمل.

سنة مجيدة شقّت أمامه آفاق تحوّل أكبر شطر بهــاء حياة جديدة يدرك معالمها لأول وهلة.

في دجى الليل انسحب من فراشه بهدوء تــام تاركاً زوجته وابنــه الرضيع /أُبي/ في الفراش.

مدّ خطواته بحذر صوب غرفة الأولاد حتى لاتستفيق زوجته من النوم وتلحق به كعادتها.

تأمل هيبة الصمت في عمق الليل، تقدم خطوات شطر النافذة، أزاح عنها الستار ليتراءى الظلام الدامس في الخارج.

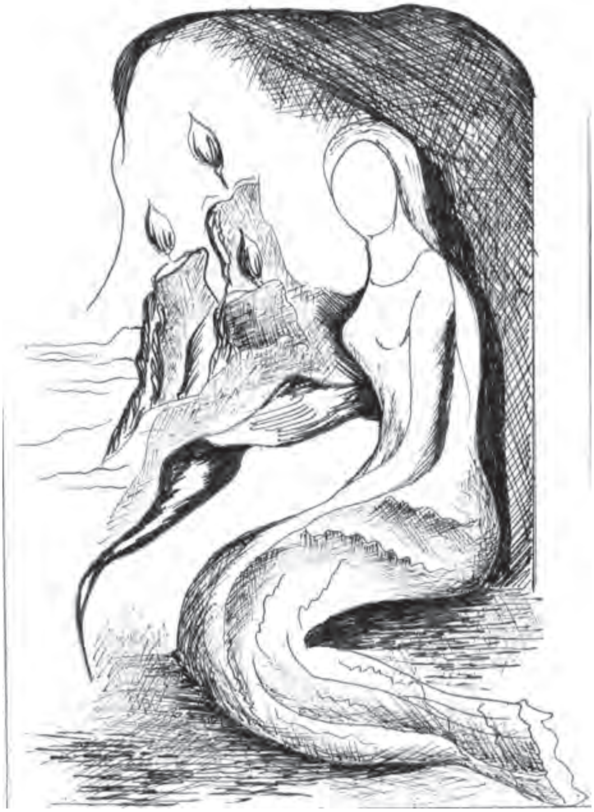
عاد نحو غرفة نوم الأولاد، تسمرت به قدماه أمام الباب ككل ليلة. بعد قليل مدّ كفه المرتجفة إلى المقبض وولج الغرفة المكسوة بضوء أزرق خافت.

جلس يجول بنظره إلى فلذات كبده. /ماسة/ ابنته السمراء ذات السنوات الست تغور في نوم عميق إلى جانب أختها /آلاء/ ذات السنوات الـ (١٢).

في النصف الآخر من الحجرة يتمدد ابنه /آراس/ ذو السنوات التسع.

عندئذ تعلو حنجرته غصة جافة وهو يجول بنظره إلى مساحة الفراغ التي كانت مخصصة لفراش ابنه الأول /بهاء/ ذو السنوات الـ (١٥).

فاضت عيناه بدموع غزيرة وهو يغالب الغصة التي تحجرت في حنجرته، وكالعادة فاقت زوجته على نشيج /أُبي/، وضعت حلمة ثدي في فمه، ونهضت حاملة إياه متجهة إلى غرفة نوم الأولاد.



جلست بجانبه وهي تنظر برهبة إلى موضع ابنها الفارغ، ثم صدر منها نشيج خافت، وغدت تمسح الدموع من عينيها.

عندما غفا ابنها، وضعته على الأرض، ثم نهضت تغطي أولادها بشكل جيد وعادت تحمل رضيعها وهي تهتف بنبرة محتقنة: البرد قارس يابزم، لاأحد لنا غيرك ياعمود البيت.

نهض بزم وخرج مع زوجته، وعادا إلى غرفة نومهما.

كانــت الساعــة إذ ذاك بلغــت الثالثــة والنصف فجراً.

تمدد بزم في فراشــه وهو لايدري كيف ومتى غفا عندما أيقظته زوجته في السابعة صباحــا حتى ينهضــ ويتهيــأ للذهاب إلى وظيفته بباص الدائرة الذي سيقف أمام باب البيــت بعد نصف ساعة، وإن لم يجده سائق الباص /قدري/ أمام الباب سوف يستخدم المنبه المرتفع الصــوت، ويزعج الجيران في تلك الساعة الباكــرة، ولذلك تقول زوجته: أسرع يا بزم قبل أن يصل /الدُبّ/.

بعد إطلاق المنبه بصوت مرتفع، يقذف /قــدري/ جسده بسرعــة ويضغط على زر جرســ البــاب، ولايرفع إصبعــه حتى تقع حدقتــاه على هيــأة بــزم، وكعادتها سوف تدخــل جارتها /سُجــى/ تعاتبها بشدة لأن منبه الباص أزعجها وأيقظها من لفائف نوم عميق، وجعل أطفالها الصغار ينتفضون من النوم كالمصعوقين. تقول لها معاتبة: الدنيا لاتخــرب إذا فاق جارنا بــزم -عافاه الله- قبل دقيقتين.

كل هذه المشاهد التي اندفعت إلى ذاكرته، جعلته يسارع في النهوض من الفراش.

تهرولــت بــه خطواتــه صــوب (بيت الخلاء)، بعد قليل خرج واتجه إلى المغسلة، مــدَّ يــده إلى قطعة الصابون، وبــدأ يغسل يديــه، عندئذ تسربت منه نظــرة إلى المرآة، توقف عــن غسل يديــه، وراح يتلمس ذقنه محاولا التذكــر إن كان قد حلق ذقنه صباح البارحــة أم لا، لأنه اعتاد أن يحلق ذقنه كل يومين.

صفق بكفيه حتى وصلت زوجته مسرعة، فأدركــت أنه يريد معرفــة إن كان قد حلق ذقنه صباح البارحة أم لا؟

هزت رأسهــا نحو الأسفــل وهي تقول بثقة: لا ياروحي.

ألقــى نظرة إلى رحابــة وجهها المشرق، وكأنه يكتشف فيه لمسات جمالية للتو، أحس بأن الوجــه مدّ قلبه بطاقة مــن الانتعاش، ابتسم وهو ما يزال ينظر كأنه يريد أن يأخذ المزيد من جرعات الانتعاش.

همس في نفسه: كم هو محظوظ الرجل الذي يحظى بامرأة طيبة كهذه.

ثم كرر ذات الجملة التي يكررها لنفسه دائماً: إنها المرأة التي اختارها الله لي.

دنا منها وطبع قبلة على جمالية الخد.

بادلته هي الأخرى القبلة متمتمة: كنتُ أحضر الفطــور على قلق قبــل أن يصل / الدب/ ويجلد أسماع الجيران بصوت زموره المزعج.

عادت إلى المطبخ مسرعة، وقبل أن تصل العتبة صدر نشيج

/أبي/. هرولت إليه، حملته بيد وعادت إلى المطبخ مادّة يدها الأخرى إلى ركوة القهوة

حتى تسخن فيها الماء الذي يحلق به زوجها ذقنــه، عندئذ لفت إبريق الشاي -الذي بدأ يصدر تنبيه الغليان- سمعها ونظرها، وقبل أن تــزوّد الإبريــق بالشــاي، سكبت منه في الركوة، وسارعت نحو المغسلة.

صبّت الماء في كأس عدة الحلاقة، وعادت ثانية إلى المطبخ.

مــرّغ فرشاة الحلاقــة بقطعة الصابون لأنــه اعتــاد أن يستخــدم الصابــون بدل معجون الحلاقــة، ويستخدم مكنة الحلاقة البلاستيكيــة حتــى يــرى الصــدأ عليها، ويتحسس بأنها باتــت تقلع الشعر من ذقنه بدل الحلاقة، عندها فقط يستبدلها بواحدة جديدة، حتى يوفر قليلاً من الإنفاق.

فــرغ من حلاقة ذقنه بشيء من العجلة، وعــاد يجلســ في الصالون بجانــب مدفأة المازوت القديمة يدفئ يديه.

دخلــت زوجتــه حاملة سفــرة الفطور، وعــادت على عجل لتجلب ابنها الذي يبكي في المطبخ.

أحس بشهيــة لتناول الشاي الساخن مع الجــبن، والباذنجان المكدســ، ودبس التمر السائــل، والزيتون، والزعتر، ورغيف الخبز الــذي قمّرته /ريماس/ بوساطــة شوّاية الـ /ماريا/.

وضع لقمة جبن في فمه، ثم رشف رشفة من الشاي الساخــن مستمتعاً بنكهة الطعم اللذيذ ومتذكراً في الوقت عينه كيف أنه كل سنة في شهر نيســان يذهب إلى دكان جاره /حنون/ الذي يبيع الجــبن القادم إليه من القرى والأرياف.

يترك بزم أوانيه الفارغة في الدكان ريثما يؤمّــن له /حنون/ طلبه مــن الجبن الممتاز والمكفول مثل كل سنة.

بعــد نحــو يومــين يتصل به جــاره في السادســة صباحــاً وهو يخبره بــأن مونته من الجبن جاهــزة بانتظاره، وعليه الإسراع قبــل أن يدخل أحد /الأحبــاب/ ويحرجه بشرائه، لأن منظر الجــبن الناصع البياض والموضــوع في الأواني يجعل الزبائن يصرّون عليه بالذات دون غيره، ويسببون له إحراجاً شديداً لأنهم قد لايصدقوا بأنه مباع، أو أنه فضّل عليهم زبوناً آخر.

وقبل أن يغلق السماعة يشدد في القول: رجائــي أستاذ بزم اعفني من إحراج زبائني وأحبابي.

يطلع من البيت على الفور ببيجامة النوم حاملاً قيمــة الجبن، يتقدم من باب الدكان الشعبي تسبقــه نظراتــه إلى الناس الذين يتدافعون إلى الباب.

نســوة قادمات من قرى بعيــدة وقريبة يحضرن بوساطــة سيــارات قروية قديمة مكتظــة بالوحل، يُنزلن أواني الجبن، فيهرع إليهــن الزبائن، يتقدم حنــون، يحمل الآنية

ويضعهـا في كفة الميزان، ثـم يسجل وزنها على عجل في دفـتر الحسابات، وينتقل إلى غيرها منهمكاً وسط أصوات الزبائن الذين يصـرون علـى أواني بعينهـا دون الأخرى، فيضطـر أن يقول بأنها مباعـة مسبقاً، أو أنها توصية خاصة.

يصل بـزم باب الدكان وهـو ينظر إلى الناس يتدافعـون للحصـول على الجبن الممتاز المتماسـك، بينما يضع حنون القطع الرديئة والمفتتـة والداكنة اللون على منصة حتى يبيعها فيما بعـد إلى أصحاب المخابز التي تبيع المناقيش كوجبات سريعة.

عندمـا تقع عينا حنون على بزم، يصرخ بابنه الذي يساعده في الدكان: جبن الأستاذ بزم يا ولد بسرعة.

يجر الصبي الأواني المكتوب اسمه عليها بواسطـة قلم /الشنيـار/ بخفة وسرعة إلى الخـارج، يضعها على الرصيـف بعيداً عن الأقدام.

عندئـذ يستعـين بأحـد الصبية حتى يساعده في حمل الأواني إلى البيت، وعندما يفرغ الصبي من المهمة، يعطيه ورقة نقدية، يتناولهـا (الصبـي الذي يكون أحـد أبناء الجوار الأغلب) بشيء من الاستحياء.

تستلـم ريماس جـبن مونتهـا السنوية شاكرة زوجهـا على جهده المبذول في تأمين هـذه المونة السنوية الثمينة التي تقول بأنها عمود المطبخ الفقري، وتقول: المطبخ الذي فيه جبن، فيه كل شيء، والمطبخ الذي ليس فيه جبن، لاشيء فيه.

تتركه كخطوة أولى في ذات الأواني حتى يتخلـص ما أمكن من المـاء، وحول العصر بعد أن يعود زوجها ويتغدى ويغفو القيلولة، تبدأ في تقطيع الجـبن إلى شرائح، ثم تقوم بتمليح الشرائـح واحدة واحدة بشكل جيد، وتتركه مملّحاً في إناء كبير ضخم لمدى ثلاثة أيام متتاليـة حتى يتشرّب الملح بشكل كاف، وتقسو شرائحة.

عندمـا تثق بأنه غـدا مكتملاً للمرحلة المقبلة، تستعين ببعض قريباتها، أو جاراتها حتـى يساعدنها في غليه، وبعد أن تفرغ من الغلي تتركه حتى يـبرد مستغلة هذه الفترة كي تجهّـز الماء المغلي المملـح الذي يحفظ الجبن في العبوات التنكية.

بعـد أن تتلمـس شرائح الجـبن وتتأكد بأنه برد جيداً، ترصفـه في العبوات بشكل متناسق وقويم، ثم تسكب ماءً بارداً في إناء، وتضع فيه بيضة نيـة طازجة، تسكب الملح حتى ترتفع البيضة من قعر الإناء، ويطوف نصفها على سطح الماء، عندئذ تكتفي بالملح، وتغلي الماء،ثم تتركه كي يبرد بشكل جيد.

في اليوم التالي تنتقل إلى المرحلة النهائية، فتسكب الماء على الجبن حتى تمتلئ العبوات الخمس على الأغلب.

تترك ذلك يومين حتى ترى النقص الذي يحدث في الماء، فتزيده، ثم تحكم التنك بأغطيتها جيداً، وتمرر على الأغطية المعجون الحديدي اللاصق الذي يحجب عنها دخول الهواء.

بعد عدة أيام يجلب /بزم مير عقل/ سيارة أجرة ويأخذ العبوات إلى براد المدينة، يضعها هناك برسم الأمانة، كي يستخدمها واحدة واحدة، وأحياناً يبقى أسبوعين دون جبن بين انتهاء عبوة وأخرى كي يحن إليه، حتى يأتي على العبوة الأخيرة في شهر آذار، ويعيد الكرة مرة أخرى.

حين فرغ من ارتداء ثيابه وراح يرتدي حذاءه، عندئذ فطنت زوجته بأنها نست أن تنظف الحذاء وتلمعه، فهرعت مسرعة وهي تعتذر عن نسيانها.

في تلك اللحظة تناهى صوت منبه الباص، وبعد لحظات، تناهى جرس الباب دون توقف، فقالت: أسرع رجاءً، إنه الدب.

ارتدى الحذاء قبل أن ينشف من أثر المعجون الملمع، وفتح الباب على عجل ليسمع صوت السائق /قدري/ معاتباً إياه: لو فقت قبل خمس دقائق يا أستاذ /بزم مير عقل/ لوفرت علينا وعلى الأساتذة هذا التأخر على الدوام.

رفع كف السلام على زملائه الذين يجلسون في مقاعدهم، وراح يجلس على المقعد المخصص له.

في تلك اللحظات ومع انطلاق الباص راودته رغبة فيما لو سدّ أذنيه، وأغلق عينيه أيضاً كي لايرى ولا يسمع شيئاً حتى يقف الباص بجانب رصيف مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل.

نزل من الحافلة بتؤدة، وقف قليلا في الشارع يتأمل الضباب، وبعض الحركة التي أخذت تدب بالقرب منه.

مد خطوات متزنة صوب باب الدائرة الحديدي الضخم.

تلقاه المستخدم /ظرّوف/ قائلاً: صباح الخير أستاذ بزم.

أجابه بترحاب: أهلا وسهلا ظرّوف.. كيف حال الأولاد؟

قال: بخير والحمد لله.

سلّم جسده لفم الدائرة الكبير، وراح يقف بجانب المصعد، يقف برهبة كعادته كل صباح، ويتذكر تفاصيل ذاك اليوم الأسود الذي جاءه فيه ابنه /بهاء/ البالغ من العمر خمس عشرة سنة.

كانت الساعة تشارف على الواحدة ظهراً، وكان بزم على موعد لزيارته كي يأخذه إلى طبيب الأمراض الصدرية الذي يعالجه من مرض الربو.

صعد بهاء إلى الطابق الثالث ودخل

على أبيه الذي استقبله بترحاب وراح يقبله على خدّيه وكأنه لم يــره منذ سنة، ثم تقدم بهاء يسلم على زملاء أبيه واحداً واحداً في المكتب.

بعــد قليــل خرجــا، وعندمــا اتجهت خطــوات بهاء نحو المدرج، أوقفه أبوه طالباً إليه الانتظار ريثما يصل المصعد.

قال: النزول سهل يا أبي.

عندئذ ذكّره بكلام الطبيب الذي حذره مــن بذل جهــد عندمــا يشعــر بضيق في النفس.

دخــلا المصعد، وبعد قليــل من تحركه نحو الأسفل، فوجئا بوقوفه بشكل مباغت!

تسرّبــت نظرة مــن عيني بــزم صوب المصباح، فرآه مضاءً.

خمّــن بأنه وقف في الطابق الثاني ريثما يصعد أحد.

طال الانتظار، فــأدرك بزم بأن المصعد تعرضــ للعطل ممــا أدى إلى وقوفه بشكل مفاجئ.

اندفــع بهلع تلقائي يخبــط على الباب المحكــم بحزم شديــد دون أن يسمعه أحد، وبشــكل مباغت كمن عــثر على خيط نجاة انفجر صوت بهاء: الموبايل يا أبي؟

صعــد الدم إلى وجهه قليلاً، ولطم بكفه على فخذه لعدم تذكره الموبايل.

أخرج الجهــاز السحــري الصغير على عجل وأجرى اتصالاً بزميله (قيس).

بعد عــدة رنات تناهت نــبرات (قيس) وكأنها قادمة من عــالم آخر: نعم ياصديقي بزم، طمئني على صحة بهاء؟

اندفع صــوت بزم المرتبــك: ما أزل في المصعد يا قيس.. الحقني!

قال قيس وقد وقــف على قدميه ملفتاً أنظار زملائه في المكتب:

تقصد تعطل المصعد؟!

قال: تعطل بنا يــا قيس.. أرجوك افعل شيئاً لأن بهاء يعاني من ضيق التنفس.

هــرع قيســ نحــو المصعــد، ولحقــه الزملاء.

وقفوا جميعاً ينظرون إلى الباب المحكم، ثم نزلوا إلى الأسفل، فوجدوا الباب الأرضي كذلك محكماً، فأدركوا أن المصعد معطل في الوسط.

سارع قيســ نحو غرفة المديــر وأخبره بالأمر.

وبعد لحظــات تحلّق جميــع المراجعين إضافة إلى الموظفين والموظفات حول المصعد في الطوابق الثلاثة.

عندئذ اتصل المديــر بأحد الميكانيكيين الذيــن لهم خبرة في فــك وتركيب المصعد، فجاء الرجل ولبث ثــلاث ساعات متواصلة دون أن يتمكــن من فعل شــيء لأن المصعد جمد في موضعه بشكل ثابت.

بينمـــا لبث بزم يصرخ ويهـــدئ من روع ابنه الذي بات يعاني نوبات شديدة من الربو نتيجة قلة الأوكسجين.

عندمـــا بلغت الساعـــة الخامسة مساء، خلـــت الدائرة مـــن المراجعـــين والموظفين، وذهب المدير إلى بيته، أما الرجل الميكانيكي قال بأنه سيضطر للذهاب قليلاً لعله يُحضر مَن يعينه على العمل، في حين بقي قيس مع الموظفة /تشريق/ ورفضا العودة إلى البيت وترك زميلهما في تلك المحنة.

اتصلـــت تشريق مع أمهـــا وأخبرتها بما وقع مـــع زميلها، ثم اتصلـــت مع /ريماس/ وأخبرتها بما وقع.

بعـــد نحو نصـــف ساعة كانـــت ريماس مـــع أولادها في الدائرة، وكذلـــك جاءت أم تشريق.

أخذت ريماس تطرق على أبواب المصعد وهـــي تصعد الطوابق وتنـــزل، وتتحدث مع زوجها بوساطة الهاتف.

في الثامنـــة مساء جاء الرجل الميكانيكي برفقة ثلاثة أشخاص، وباشروا العمل، ولم ينجحوا في إصـــلاح المصعد إلا في الحادية عشـــرة ليلاً حيـــث استطاعـــوا أن يسحبوا المصعد نحو الأعلى بأياديهم.

عنـــد ذاك كان بهاء قد فارق الحياة بين يدَي أبيـــه الذي صمت هـــو الآخر دون أن يصدر منه صوت.

منـــذ ذاك اليـــوم لم يتحدث بـــزم بكلمة واحدة، ولم تعد لديه رغبة في الحديث، حتى الأطباء لم يجدوا أي علاج له، وأعاد بعضهم السبب إلى الأزمة النفسية التي تعرض لها، وربما يعود إليه الصوت عندما يستقر وضعه النفسي.

بعد وقوف دام نحـــو خمس دقائق وهو ينظـــر إلى المصعد الـــذي لم يعد يمد قدمَيه إليـــه مهما كانت الضرورة وعبارة ابنه تجلد سمعه: -النـــزول سهل يا أبـــي- اتجه نحو الدرج صاعداً إلى مكتبه متذكراً كم أنه كان عنيداً بإصـــراره على رأيـــه دون أن يصغي جيداً لعبارة ابنه، بل إنـــه قال رأيه وأصدر أمـــره والكلام مايـــزال في فم ابنـــه. قال: النزول سهل يا أبي.

كان علـــى حق لأن النـــزول لايحتاج إلى بذل جهد مثل الصعود.

كـــم جلدتْ هـــذه العبـــارة سمعـــه، كم جعلته يشعـــر بأنه خسر ابنـــه نتيجة عناده وإصراره على بضعة كلمات، ابنه الذي وقع ضحيـــة لكلمات تمَّ توجيههـــا إليه من أبيه، لـــو رفض هذه الكلمات، وأصر على موقفه، ونـــزل بسرعة على المدرج لمـــا وقع له شيء، بيد أنـــه امتثل لأمر أبيه ودفـــع حياته ثمناً لهـــذه الطاعة، وهو يدرك أن النزول بالفعل سهـــل بالنسبة إليه ولايكلفه أي جهد، أو أي مشقة.

ألقى السلام على زملائه بوساطة رفع الكف، وراح يجلس خلف الطاولة المخصصة لعمله.

انهمك في العمل وهو يشرد كيف أن الصمت يوفر له مساحة من التصالح مع نفسه، ومع الآخرين.

تمضي الأيام دون أن يتحدث بكلمة سوء عن أحد، وما دام لايتحدث بسوء عن أحد، فإن أحداً بالمقابل لا يقذفه بكلمة سوء سواء بحضوره، أو بغيابه.

خلال هذه السنة أحس بزم مير عقل بأنه ولج مرحلة جديدة من حياته، مرحلة بالغة الغنى والأهمية بالنسبة لعلاقته بالحياة، وبالمحيط الذي يعيش فيه.

بات يتأمل معاني الكلمات التي يسمعها كلمة كلمة، يتأمل معاني مرادفاتها.

في المساء عندما يستفيق من القيلولة، يدخل غرفة ويتوسع بالقراءة، يبحث عن تاريخ علاقة الإنسان باللغة، يبحث عن الأحداث السلبية والإيجابية التي أشعلتها اللغة في التاريخ البشري.

يدخل عالماً جديداً، يدرك فيه قيمة الكلمة، يدرك بأنها ثروة الإنسان الكبرى، يمكن للإنسان أن يفعل أي شيء من خلال الكلمة، يمكن لكلمته أن ترفع من شأنه، ويمكن لها أن تلحق به بالغ الضرر. لذلك يصر أن يسمع ويقرأ ويكتشف دون أن يتحدث، يولد الإنسان وهو يسمع، ويبقى سنوات وهو يسمع قبل أن يتحدث بشكل جيد، وحتى عندما يجيد الحديث، لايكون ذلك ليتحدث قدر أن يكون ليفسر ما يتلقاه من كلمات.

إنه يحتاج إلى سنوات طويلة حتى يصبح مهيَّأً للحديث الذي يقدمه للناس، لأن لاشيء يقدم الإنسان للإنسان قدر لسانه.

بعد نحو ساعة من جلوسه وانهماكه في العمل، دخل ظرّوف حاملا إبريق الشاي مع الكاسات.

سكب السكر في قعر الكاسات، عندئذ قال قيس: لاتنس ظرّوف، معلقة سكر واحدة.

قال: على عيني أستاذ قيس.

قفز لسان حاجم معلقاً: الأستاذ يخاف على نفسه من السكّري، أنا ضع لي خمس ملاعق سكّر يا ظرّوف بيك.

نظر إليه قيس، ثم بعد قليل أجاب لسانه: صحة وعافية، يجعل الله أيامك كلها حلوة مثل شايك.

كعادته يعلّق حاجم على قيس الذي يكظم غيظه، ويرد عليه بكلمة طيبة، لكن حاجماً يعود في اليوم التالي ليلتقط أي حديث يقوله قيس حتى يعلّق عليه أحياناً أمام بعض المراجعين، أو بعض الذين يزورون قيس من أصدقائه أو أقربائه.

منذ نحو ستة شهور يبدو أن قيس تشاجر مع زوجته وأتـى إلى الدوام محتقناً، عندئذ نهض حاجم من كرسيه، وتقدم نحوه قائلاً بشيء من السخرية: /خير يا طير/.

نظر إليه قيس باحتقان ولم يرد.

غدا بـزم يصغـي إلى الكلمات ويتخيل عراك لسانيهما مثل ديكين،

وزّع قيس نظراته على جميع الزملاء في المكتب وقال: نسينا بأنك تحتاج إلى استدعاء وطابع حتى تحكي.

في تلـك اللحظة خرج قيـس عن طوره وأمسك بقميص حاجم من الأمام هازاً إياه عدة هزات بشدة وهو يقول: (اسكت ياحيوان قبل أن أقطع لسانك وأحطه في..).

اصفـر وجه حاجم وهو يسحب قميصه بالكاد من يدَي قيس، وجلس على مكتبه.

بعد ذلـك تقدم بزم من قيس ودعاه إلى الخروج حتى يهدأ قليلاً.

خرجـا إلى /البوفيـه/ يجلسان، فقال قيس: هذا الرجـل لايعيبه شيء غير لسانه الطويل، لوكان لسانه في فمي لما ترددتُ عن قطعه لحظة واحدة.

مع رشف الشاي بدأ قيس يتحدث لزميله وصديقـه الوحيد في الدائرة كلها: أختك أم تمارة اعتدت علي بلسانها يا أبا بهاء.

كتـب له على ورقـة مجيبـاً: الأصوات المرتفعـة من طبيعة النسـاء يا صديقي، لا عليك.

قال: طلبـتْ أن نعزم أختهـا وعديلي، لكنني رأيت أن نؤجل ذلك إلى الشهر القادم بسبـب ضيق اليـد، ثم صمـت وبعد قليل أردف: أتدري ماذا قالت؟

قالت الذي لايكون بقدر مسؤولية الزواج عليه ألا يتزوج

كتب له على ذات الورقة مجيباً: يارجل، المرأة مسكينة، تقول كلمة، وبعد لحظة تقول عكسهـا، خذا الأمر ببساطة، حتى الشتيمة بـين الزوج والزوجة يمكـن أن تحتمل شيئا من الغزل المبطّن.

بعـد عودتهما إلى المكتـب، تقدم حاجم إلى قيـس واحتضنه معتـذراً عما بدر منه وهو يقـول: يا أخي حتـى زوجتي تقول لي بـأن لساني طويل، ماذا أفعل لقد ورثته عن أبي.

فضحكوا جميعاً.

لبث بزم يشرد كيـف أن الإنسان يمكنه الاستغناء عن نصف ما يقوله من كلمات كل يوم.

الزمـلاء يتحدثـون طويـلاً، وهـذه الأحاديث التي تحمـل همزات ولمزات غير مباشرة تسبّب الاستفزاز سواء المباشر أو غير المباشر لهم.

كان في الماضـي يثرثر كما يثرثروا وكأنه

محكوم بقول ذاك الكم الهائل من الكلمات، عندئــذ أدرك أن التبذير في الكلمات لايقل عن التبذيـر في المال، لأن الكلمة تحتاج إلى بذل جهد من كل أعضاء الجسد.

وهنا غدا يتمتم لنفسه:

تملك لساناً واحداً يا بزم، وتملك أذنين اثنــين، اللســان يقع خلف بابــين، والأذنان طليقتان حتى تسمع أكثر مما تتحدث لأنك تحتاج إلى السمع أكثر من حاجتك إلى النطق، وتكتشف الحياة عن طريق الأذنين أكثر مما تكتشفها عــن طريق اللسان، ما يعلّمه إياك السمع، يفسده اللسان عليك.

ألا تــرى أن النطق يحتاج إلى بذل جهد، في حين لايحتــاج السمع إلى أي حركة حتى يعلّمك شيئــاً جديداً. اللســان يصلح مرة، ويفسد عشر مرات، لذلــك فإن قلة الكلام حكمة الرجال والنساء معاً.

إن أطلــق الإنسان العنــان للسانه قتله لسانــه، كم مــن لســان أودى بصاحبه إلى التهلكــة، كم مــن لسان سفك جــداولاً من الدمــاء، كم من لسان هدّ بيوتاً آمنة، كم من لسان أشعل العداوة والبغضاء بين شخصين مدى الحياة.

انظر جيداً يا بزم إن أردت النطق احتجت إلى فتح باب الأســنــان، وفتح باب الشفتين، وتحريــك اللســان، واستخــدام الصــوت والاستعانــة بأكــثر أوتار الجملــة العصبية حساسيــة، وبشيء مــن التركيز والحدة قد تستعين بيديــك وعينيك وحاجبيك ورأسك كمــا يفعل حاجم أحياناً، وهــذا كله يسبب الإرهــاق له، يعلو الاحتقــان سمات وجهه، يختل قلبه في نبضه.

أمّا وأنــت تسمع، ينشرح صدرك، يتسع تأملــك، تستكــين في حضن نشــوة السماع والتأمل،تدخــل بكامــل حواســك حالــة استرخائية من لــذة الإصغاء، ونشوة التأمل قد تُتوّج بغفوة لم تدرك لذتها في ألف نوم.

اسمع كثــيراً يابــزم، إنــك لم تسمع إلا القليــل، وانظر كثيراً، إنــك لم تر إلا القليل، واقرأ كثــيراً، فإنك لم تقــرأ إلا القليل، ولا تفكر في النطق كثيراً يا صاحبي، فإنك قلت الكثير.

اسمع أصوات كائنات الطبيعة، سترى كل صــوت يغتني بميزة خاصــة به، إنك تحتاج إلى سمــاع لسان كل حيــوان ونبات وجماد، اسمــع إرزم الإبل، ســتراه مختلفاً عن طنين الذباب، اسمع أزيز الرصاص، ستراه مختلفاً عــن عندلة العندليب، اسمــع عواء الذئب، ستراه مختلفاً عــن بفوم الفيل، اسمع تغريد البلبل، ســتراه مختلفاً عن فحيــح الأفعى، اسمــع قباع الخنزير، ستراه مختلفاً عن ثغاء الغنم، اسمع قصيــف الرعد، ستراه مختلفاً عــن قعقعة السيوف، اسمع خترشة الجراد، ستراه مختلفــاُ عن قطقطــة القطة، اسمع

حفيف الأشجار، ستراه مختلفاً عن جحمة الفرس، اسمع قهقاع الدب، ستراه مختلفاً عن حنين الناقة، اسمع خرير الماء، ستراه مختلفاً عن خشخشة القرطاس، اسمع دوي النحل، ستراه مختلفاً عن مواء الهر، اسمع دبيب النمل، ستراه مختلفاً عن نباح الكلب، اسمع نقيق الضفادع، ستراه مختلفاً عن زمار النعامة، اسمع نعيق الغراب، ستراه مختلفاً عن هديل الحمام، اسمع سجير النار، ستراه مختلفاً عن صرير الباب، اسمع نهيق الحمار، ستراه مختلفاً عن يعار المعز، اسمع دوي الهواء، ستراه مختلفاً عن قلقلة المفتاح، اسمع ضغيب الأرنب، ستراه مختلفاً عن نغمات الأوتار.

ستتعلم من كل صوت تسمعه، ويمكن لك أن تجري حواراً صامتاً مع هذه الأصوات، فتراها تستجيب وتحاورك بما أنت عليه من صمت.

سنة مضت عليك يابزم دون أن تسبب حساسية لأحد، حتى أولئك الذين وقعوا على خصام معك نتيجة كلمات قلتها بحقهم سواء بحضورهم أو بغيابهم، أتوا لعيادتك وفتحوا معك صفحة جديدة. كانت سنة صلح بامتياز في تاريخك الصغير، ولم تكن سنة خصام، سنة سلم، وليست سنة نزاعات.

حتى في البيت لم ترفع ريماس صوتها خلال هذه السنة، أحياناً تتحدث بعصبية، وعندما تراك صامتاً سرعان ما تقدّم اعتذارها الشديد عمّا بدر منها نتيجة رد فعل، أو نتيجة تسرّع في استنتاج أمر ما.

كنتَ في الماضي ترفع صوتك لتجعلها تصمت، فتزيد من رفع صوتها، وفي مواقف الانفعال كنت تمد يدك لتصفعها، وحدثت مرات عديدة خلال السنوات الماضية ملاسنات بينكما أدت إلى أنك صفعتها، فكانت النتيجة أنها تزداد عناداً. الآن تدرك أن لاشيء للمرأة غير لسانها الذي من خلاله تفجر ثورة الاحتقان التي تجتاحها خلال تعرضها للأزمات النفسية نتيجة تربية الأولاد وإدارة البيت ومسؤولية كل من فيه، وكل مَن يدخله. إنها كائنة مستنفرة ليلاً نهاراً، لاساعة للراحة لديها، لأن الطفل لايمنحها هذه الساعة. وعندما يكبر الطفل، فإن مسؤوليتها عن البيت لاتمنحها هذه الساعة.

عندما يبكي الطفل في منتصف الليل، فإنك تهرب من مسؤوليتك تجاهه، وتبعد عن بكائه لتنام في غرفة أخرى، بينما لاتتجح هي كي تحذو حذوك، ولايخطر في بالها أن تحذو حذوك، إنها مسؤولية الأمومة التي تعلو مسؤولية الأبوة، هذه المسؤولية الناقصة التي تجعلك تتخلى عن طفلك في منتصف الليل وتتخلى عنه في ذروة بكائه، وذروة حاجته إليك، أمام مسؤولية الأمومة الكاملة

التي لاتسمح لها أن تتخطى مسؤوليتها قيد شعـرة واحدة، وتصبر، وتدنـدن له ساهرة حتى تقنعه بالنوم وهي تقلّبه على كل الأوجه حتـى يهدأ في الوجه الذي يريد ويغفو على سماع صوتها الذهبي.

الآن يابـزم ريماس تحترمـك أكثر مما كانـت، حياتكمـا الزوجية تمضـي بهدوء وسكينـة ومودة أكثر من أي سنة مضت على زواجكما.

أحس بندم شديد على كل تلك الكلمات التـي لم تكـن في موضعها، تلـك الكلمات الانفعالية المتسرّعة التـي بدرت منه. ذاك الكـم الهائل من الكلام الـذي لم يكن له أي ضرورة سـوى أن زاد البغيضـة والاحتقان بينه وبين الآخرين، وفي بعض المراحل جعل عداوة بينه وبينهم.

علمتـه هذه السنة أن علـى الإنسان أن يضبـط لسانه قبل أن يضبط أي شيء آخر لديه.

عند الساعة الثالثة نهض موحياً لقيس بأنه لن يعـود إلى البيت بباص الدائرة، لأن ريماسـ أوصته بشراء بعض السلع من سوق الهال.

قال قيس: منذ يومين تمَّ افتتاح معرض للفـن التشكيلي لأحد الفنانين القادمين من حلب، ما رأيك أن نزوره؟

أومأ بـزم رأسه بإيجـاب، فقال قيس: سوف أمر عليك في البيت ونخرج معاً.

هـز رأسه وخرج مـن الدائـرة مسلماً حواسـه للطرقـات الفرعية التـي أدخلته عالم سوق الهال المكتـظ بالفاكهة، وعربات الدفش، وألوان الخضار والفاكهة، وأصوت الباعة، وزحمة المشترين.

انتقى ما أوصته ريماس بحسب ما دوّنت علـى قصاصـة صغيرة. عندئـذ تقدم منه صبي يبيع أكياسـ النايلون الكبيرة السوداء قائلاً: عمو كيس بخمس ليرات لأغراضك.

وضع الأكياس الصغيرة في الكيس الكبير، وأشار للصبي كي يحمل عنه إلى حيث موقف الباص الذي يبعد عشرين خطوة.

هناك أعطى الصبي قطعة نقود معدنية بفئة العشر ليرات، وصعد الباص الذي كان واقفاً.

بعد دخول شارعين، فرمل الباص بشكل مفاجئ وصـدر صوت مرتفع مـن السائق يقول: يا حيوان.

كان الصـوت موجهـاً إلى سائق تكسي أجرة.

نظر الناس جميعاً إلى السيارة الصفراء التـي كادت تلتصق بالباصـ، فنزل سائقها مغتاظـاً وهو يوجّـه لسائـق الباص كلاماً خرج من فمه كالشرار: لولم تكن حيواناً وابن حيوان لما قلت لي ذلك.

قفــز ديكان إلى مخيلة بــزم وهو يصغي للسانَي السائقَين.

قــال لسان سائق الباصــ: أأنت أعمى، وعلى الفور هبط جسده الأرض وبدأ يسدد اللكمات إلى وجه سائق التكسي.

نزل بعضــ الركاب للتفريق بينهما، وفي أثناء ذلك انطلقت صرخة مروعة من سائق الباصــ، فعرف الــركاب أن سائق التكسي طعنه بسكين في خصره.

ســارع شرطي السير الــذي كان واقفاً ينظم السير، وأمسك بسائق التكسي بعد أن نزع السكين من يــده، وأوقف سيارة أخرى طالباً مــن سائقها أن يسعــف المصاب إلى أقرب مشفى.

نزل بــزم مــع الــركاب العائدين على الأغلب من أعمالهم، يحملون سلعاً من سوق الهال في أكياس متفاوتة الأحجام.

بعــد قليل وقــف باص آخــر، فهرعوا صاعديــن إليه وقوفــاً، عندئذ صدر صوت مــن الركاب نحو السائق: هــل الباص حبة كوسة وأنت تريد أن تحشوها. يكفي جشعاً، اختنقنا.

قــال لسان السائق بصــوت مرتفع راداً على الصوت دون أن يعرف

صاحبــه: إن لم يعجبــك، (التكاســي) كثيرة.

بعد عدة مواقــف تقدم شخص للنزول، عندئــذ وجه كلامــاً للسائــق: السواقة فن وذوق وأخلاق، ويبدو أنك لم تسمع بذلك.

عــرف السائق بأنه كان صاحب الصوت الذي قارن الباص بحبة المحشي، فقال وهو يستدير إليه قائلاً: الكلام صفة المتكلّم.

عندهــا تقــدم إليه الشخصــ محتقناً، فتدخل الــركاب، ومنعوه مــن الوصول إلى السائق، وأجبروه على النزول.

نزل الشخص تاركاً صوته الموجه للسائق: سنتواجه يابن الحرام، أنا الآن تعبان، راجع من الشغل.

بعد تناول الغداء، وغفوة القيلولة، نهض بزم، فأحضرت زوجته فنجان القهوة.

أخذ يرتشف القهوة، عندئذ تناهى رنين جرســ الباب، راحت زوجتــه تستقبل قيس الذي دخل مسلّماً على صديقه.

دخلــت ريماس المطبــخ لتحضر فنجان قهوة لــه ريثما يرتدي بزم ثيــاب الخروج، عندئذ نهض بزم، وراح يمد يديه إلى البدلة في غرفة النوم.

عندما خرج بــزم من غرفة النوم بفائق أناقتــه، كان قيس قد باشــر بتناول فنجان القهوة للتو من يد ريماس.

جلس بــزم إلى جانبه حتــى رشفها مع تدخين سيجارة، وخرجا صوب قاعة المعارض في المركز الثقافي.

دخــلا المعرض، عندئــذ أدرك بزم بأنه

يحتـاج إلى وقـت لابأسـ به حتـى يتأمل اللوحات لوحة لوحة.

بعد نحو نصـف ساعة من التأمل خرج برفقـة قيس، أمام البـاب لفت نظره دفتر يكتب فيه الـزوار انطباعاتهم عن المعرض، فحمـل القلم وجلس على كرسـي يدوّن ما ترك المعرض لديه من انطباع.

في صبيحة اليـوم التالي، وعند الدخول إلى مكتبـه في الدائـرة، وقعـت عيناه على /تشريـق/ زميلته في العمـل، وهي فتاة في الخامسة والثلاثين مـن عمرها، منذ عشر سنوات تعينـت في الدائرة بموجب شهادتها الجامعية.

كان بـزم كلمـا يراها يشعـر بحالة من الارتيـاح، فينظر إلى جمال وجهها، ويستمع إلى نـبرات صوتهـا، أحيانـاً يدخـل حالة يشعر فيها بأنه يتبـادل معها كلاماً سحرياً شديـد الحميميـة والخصوصية من خلال النظرات.

لكن شعوره نحوها غدا أكثر حميمية في موقفها يوم الحادث، أحس بأنها مرتبطة به بأحاسيسها.

عشـر سنـوات لم يجرؤ علـى قول كلمة يرغـب في قولها لهـا، ويدرك أنهـا أيضا تعجز، أو لاتملك شجاعـة أن تقول له تلك الكلمة.

أحيانـاً كانت تدخل مكتبـه في الساعة الحاديـة عشرة صباحاً تحمـل /سندويشة كبـد/ وتقدمها إليه بشـكل خاص من بين جميـع الزملاء قائلة: هذه هدية مني لك يا أستاذ بزم.

يتنـاول السندويشة مـن يدها، ويوصي ظرّوف أن يحضر إبريقاً من الشاي.

يوجـه كلامـه إلى زملائـه: تفضلـوا ياشباب.

يرددوا بأصوات متعاقبة: صحة وعافية يا أستاذ بزم، صحة وهنا يا آنسة تشريق.

عندمـا سمعت تشريق بالحـادث الذي وقـع، أجرت معه اتصـالاً بهاتفها الخليوي لتطمئن عليه.

لبثـت راكضة بهلع بـين الطوابق، وهي تتصل به.

حتى أن قيس عندما جلس كي يستريح، رفضت الجلوس، وهي تنادي بصوتها: بزم.. لاتخف، نحن معك. ثـم تعاود الاتصال به، وعندمـا جلب قيس طعاماً رفضت أن تضع لقمة واحدة في فمها.

ولم يصعـد الدم إلى وجههـا إلا عندما شاهدته رغم المأساة التي وقعت بين الجميع في تلك اللحظات.

وعندما أمضى شهـراً في البيت، كانت تشريق تزوره كل أسبوع مرتين حاملة له بعض الهدايا المتواضعة، كانـت تجلب معها أمها

أحياناً، وأحياناً تصحب زميلتها في الدائرة /سما/.

إنها المرأة التي دوماً كلما يراها يشعر بأنه يريد أن يقول لها شيئاً، ويشعر بأنها تريد أن تقول له شيئاً منذ أن وقعت عيناه عليها أول مرة في الدائرة.

ذات ليلة عندما قرأ قصيدة، ولفتت نظره بقوة عاطفتها، أحس بأنه لابد أن يقرأها لـ تشريق.

كتب القصيدة بخطه، ووضعها في جيبه حتى يعطيها لها عندما يراها في الدائرة.

لبثت القصيدة نحو أسبوعين في جيبه وهو يتردد من ذلك، وأحياناً يشعر بأنه لايمتلك الشجاعة الكافية لإعطائها قصيدة تحمل كل تلك العاطفة، وأحياناً أخرى يخاف أن ترفض، وتفسد روح العلاقة بينهما، لكن في الأسبوع الثالث، دخل مكتبها، جلس قليلاً، وعندما سألته عن أحواله كعادتها، أجاب بأنه بخير، ثم قال بأنه قرأ قصيدة جميلة، ويريد أن يهديها تلك القصيدة إن رغبتِ في ذلك.

قالت بأنها سعيدة، لأنها تخطر بباله عندما يرى أو يقرأ أشياء جميلة، وشكرته على تلك البادرة: أنا ممتنة يا أستاذ بزم، وأرجو أن تذكرني بكل ماتراه مناسباً، لأنني أحب القراءة.

عندئذ أخرج القصيدة التي كتبها على صفحة بيضاء من جيبه، وقدمها إليها.

فتحت تشريق الصفحة وبدأت تقرأ بشوق:

تعالي عيشي معي وكوني حبيبتي
ولسوف نجرب كل المسرات الممكنة
التي تهبها الوديان والبساتين والتلال والحقول
والتي تمنحها لنا الغابات ومنحدرات الجبال
لسوف نجلس أيضا فوق الصخور
ونرى الرعاة وهم يغذون قطعانهم
قرب الأنهار الضحلة وعلى مساقطها
تصدح الطيور بأغاني الغزل الرخيمة
ولسوف أصنع لك سريرا من الأزهار
وأقدم لك آلافاً من الباقات العطرة
وقبعة منسوجة منها وثوبا فاتنا يكون لك
مطرزا بأكمله بأوراق الآس العطرية
وعباءة منسوجة من الصوف الأكثر نعومة
الذي سوف أجتزه من حملاننا الجميلة
وسأصنع لك خفا رائعا كي يقيك البرد
مع إبزيم من الذهب الأكثر نقاء
وأيضا زنارا من القش وبراعم اللبلاب
مع مشابك مرجانية وأزرار كهرمانية
فإذا أمكن لهذه المسرات أن تثيرك
فتعالي عيشي معي وكوني حبيبتي
لسوف يرقص الرعاة العاشقون ويغنون
في كل صباح من شهر أيار من أجل أن تفرحي(*)

قبـل نحـو ثلاثة شهـور دخلـت عليه تشريـق شاحبة، وقالت بأنهـا تعاني نوبات من الاكتئـاب. في تلك اللحظـات نظر إلى عينيها، وسالت دموع من عينيه، ولأول مرة منذ الحـادث أحس برغبة في الكلام، رغب بقـوة فيما لو تحدث نصف ساعة وعاد إلى صمتـه، كان سيقول لهـا أشياء كثيرة خلال النصـف ساعة تلـك، كان سيفعل أي شيء حتى يخفف عنها ولو قليلاً.

دخل بزم المكتب رافعاً كفه بالسلام على زملائه، بعـد قليل علا صوت المدير كعادته من الطابق الثاني، صوته الذي يملأ ممرات الدائرة وهو يوبخ أحد المستخدمين، أو أحد الموظفين، أو يصرخ في وجه أحد المراجعين، وإن عانـده المراجـع، رفع سماعـة الهاتف واتصل بالشرطـة قائلاً بأن هـذا المراجع يزعجه في عمله.

قال حاجم: لاأعرف إن كان يتحدث مع الشخص الذي يقف في مكتبه، أم مع جميع المتواجدين في الدائرة؟

قالـت إيبلا: يظن بأنه سَيّد على كل مَن يدخل هذه الدائرة، أتحداه إن كان يستطيع أن يرفـع صوتـه على زوجتـه مثلما يرفعه هنا.

قال قيس: ربما ينتقم منا هنا لأن زوجته ترفع صوتهـا عليه في البيت، فلا يجد غير المراجعين (يفش خلقه فيهم).

عندما انتهى الدوام قـال لقيس: اليوم ريماس طبخت رأس خروف، مارأيك بالغداء عندنا؟

قال قيس: صحة وعافية، اليوم أختك أم تمارة عزمت أهلها على الغداء.

عند الساعة الثالثة والنصف وصل بزم إلى البيت بسيارة الدائرة، كانت ريماس قد جهّزت الغداء.

بدل ثيابـه، وتمدد قليـلاً للراحة نحو نصـف ساعة، ثم نهضـ غسل يديه وجلس مع الأولاد على سفرة الغداء المكوّن من رأس الخـروف وأحشائه المحشـوة بالرز، ومرقة حبات الحمّص.

تناول بزم في البدء بعض السلطة، وقرناً من الفليفلة الخضراء الحلوة، ثم بعض قطع الفجل، وبعد ذلك قال: جدّ الجدّ.

وغدا يتناول مـن لحم الرأس والأحشاء اللذيذة التي طبختها ريماس على نار هادئة بدل طنجرة الضغط حتى تنضج مع الرأس بشكل جيد ودون ضغط.

مد يـده إلى لسان الخروف، وسحبه من الفم ليصبـح اللسان بين يديـه. نظر إليه وقارنه للحظات بلسان الإنسان.

وبعد قليل حوّل اللسان إلى قطع، ووزعها علـى الأولاد والزوجـة، وتنـاول هو الآخر قطعـة وهو يشعر بأنه تنـاول قطعة مميزة من الخروف.

عندما فرغ من الطعام، راح إلى المغسلة يغسل يديه بالصابون، ولايدري لماذا راودته رغبة لينظر إلى لسانه.

عندئذ فتح فمه بشكل جيد، ومد لسانه حتى يرى ما الذي تغير فيه حتى توقف عن النطـق، لبث ينظر حتى سمع وقع خطوات، فتناول المنشفـة وخرج لـيرى ابنته /آلاء/ تتقدم إلى المغسلة لتغسل يديها.

تمدد في غرفة النوم لاستراحة القيلولة، لكـن اللسان بقي في ذاكرتـه، اللسان الذي يمكن لـه أن يقيم الدنيـا ويقعدها ببعض الألفاظ، اللسان الـذي يشعل ناراً ويطفئها ببعضـ الكلمات، اللسان الذي يشعل عداوة أبديـة، والـذي يجعل صلحـاً أبدياً ببعض الحركة.

ينظر كيـف أن اللسان يمكن له أن يعبق بأطيـب الحديـث، ويمكن لـه أن ينزل إلى درجات سفلى من ألفاظ بذيئة. يمكن له أن يكيل الشتائم والسباب، وعبارات الاستفزاز، يمكـن له أن يوجه كلمات طيبة قوية تنتشي لها القلوب والعقول.

لقـد أمضينـا وقتاً مع هـذا الشخص الذي بدأ يدرك قيمة اللسان، ويدرك أهمية وخطـورة أن يملك الإنسان لساناً يتمتع بكل هذه المزايا الخطرة.

ونحن دومـاً نتعلم من تجارب الآخرين، ونتعلم مما علّمتهم المآسي التي أصابتهم.

أشواك اللسان

ذات يوم جلس الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) مع أصحابه، فجاء رجل وشتم أبا بكر الصديق وآذاه، فسكت أبو بكر ولم يرُدَّ عليه، فشتمه الرجل مرة ثانيـة، فسكت أبو بكر، فشتمـه مرة ثالثة فرد عليـه أبو بكر، فقام (صلى اللّه عليه وسلم) من المجلس وتركهم، فقام خلفه أبو بكر يسأله: هل غضبتَ علي يا رسول اللّه فقمتَ؟ فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليـه وسلم): (**نـزل مَلَك مـن السماء يكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرتَ (أي رددتَ عليـه) وقع الشيطـان (أي: حضر)، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان**) (أبو داود).

وكانت السيـدة عائشة تجلس مع النبي (صلى اللّه عليـه وسلم)، فأقبلت عليهما أم المؤمنـين السيدة صفية بنـت حُيَي، فقالت السيدة عائشة للنبي: حسبك من صفية كذا وكـذا -تعني أنها قصيرة-، فقال لها النبي: (**لقـد قلـتِ كلمـة لـو مُزِجَـتْ بمـاء البحر لمزَجَتْهُ (عكَّرته)**. (أبو داود والترمذي)

يقول اللّه تعالى: «**مَـا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**» (ق: ١٨).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): **(إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان (تذل له وتخضع) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنَا)** (الترمذي). وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): **(لا يستقيمُ إيمان عبد حتى يستقيمَ قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)** (أحمد). وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

رُوِي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: **(لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كَثْرَة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعدَ الناس عن الله القلبُ القاسي)** (الترمذي).

سئل النبي (صلى الله عليه وسلم): أي الإسلام أفضل؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده) (متفق عليه). **وقال عقبة بن عامر: يا رسول الله، ما النجاة؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أمسك عليك لسانك ولْيسعك بيتك، وابْكِ على خطيئتك)** (الترمذي).

قال الله تعالى: «**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**» (الفرقان: ٧٢). وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)** (متفق عليه).

والغيبة تقع عن طريق اللسان، قال الله تعالى: «**وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**» (الحجرات: ١٢).

وحذَّر النبي (صلى الله عليه وسلم) صحابته من الغيبة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): **(أتدرون ما الغِيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ذِكْرُكَ أخاك بما يكره)، فقال أحد الصحابة: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه)** (مسلم).

ويروى أن امرأتين صامتا على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، وكانتا تغتابان الناس، فعلم النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك، فقال عنهما: **(صامتا عما أحل الله، وأفطرتا على ما حرم الله)** (أحمد)، أي أنهما صامتا عن الطعام والشراب، وأخذتا

تتحدثان وتخوضـــان في أعراض الناس فلم يقبل الله صيامهما.

والغيبة عذابها شديد، وعقابها أليم يوم القيامــة، قال رســول الله (صلى الله عليه وسلم): (**لما عُـرِجَ بي (أي في رحلـة الإسراء) مــررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخْمِشُون (يجرحـون) وجوههـم وصدورهـم، فقلـت: مَـنْ هـؤلاء يـا جبريل؟ قـال: هـؤلاء الذين يأكلـون لحوم الناس ويقعـون في أعراضهم**) (أبوداود).

حاجتنا القصوى إلى الإصغاء

لاأظـن بأننا نحتـاج إلى شيء يمكن أن يعلمنـا الكثير قـدر حاجتنـا إلى الإصغاء، لاأقول الإصغاء إلى الناس فقط، بل الإصغاء لكل صوت، وكل لسان.

إننا نحتـاج إلى سماع مخلوقات الأرض، لالسماعهـا فقـط، بـل لاكتشـاف أنينها، واكتشاف لغاتها أيضاً.

القطـة عندمـا تكون جائعـة لاتصدر ذات الصـوت الذي تصـدره، وهي تتعرض لضربة للاعتداء عليها سواء من قبل إنسان، أو من قبل حيـوان أقوى منهـا. ولاتصدر ذات الصوت الوديع عندمـا نداعب رأسها بحنان.

والكلب يصدر أصواتـاً مختلفة بحسب المشاعـر التي تنتابه، وبقـدر ما يرغب في التعبير عما يـرى ويحدس، ولذلك فإن لغة الصوت ليست واحدة.

ونلاحظ بأن الطعام علـى النار يُصدر أصوتـاً مختلفة مع كل مرحلـة من مراحل نضوجه.

يمكن لنا أن نتعلم من ذلك بأن علينا ألا نقول جملة قبل حلول موعدها من الحديث، ومن الأحداث والوقائع.

ولذلك نرى الإنسان الحكيم يعتمد على الإيحاء أكثر مما يعتمد على التعبير المباشر بالكلمات.

قال ابن لقمان الحكيم لأبيه ذات يوم: يا أبي أريد أن أعرف منك أمرا.

قال: نعم يا بني.

قال: هـل أستطيـع أن أرضـي الناس جميعاً.

لم يجبـه، وفي صبيحة اليوم التالي طلب أن يصطحبـه في طريق قبـل ذهابهما إلى العمل.

فقال الابن: أجل يا أبي.

طلب إليه لقمان أن يحضر الحمار.

أسرع الابن في إخراج الحمار إلى الطريق ومضيا بعيداً عن الديار.

بعد شـــيء من المسير والابـــن ينتظر ما يقول حتى يعرف إلى أين يتجه مع أبيه.

أوقف لقمان الحمـــار، وبعد قليل ركبه داعيا الابن أن يمشي بجانبه في الطريق.

يمشـــي الابـــن وهـــو ينتظر مـــا يقوله، ولقمان يمضي راكبا الحمار دون أن يتحدث بشيء.

بعد مسير طويل اقتربا من جمع من الناس كانوا يجلسون بفيء شجرة، مرا من أمامهم والقيا عليهم السلام.

أجابوا علـــى سلامهما، ثم قال أحدهم: أما نظرتم إلى هذا الشيـــخ القاسي، يركب الحمـــار دون أن يأبـــه بابنـــه الصغير الذي يمشي على قدميه.

التفت الابن ليجيب عليه، فمنعه لقمان وأكمل المسير.

بعـــد غيابهمـــا عن ذاك الجمـــع أوقف لقمان الحمار، وطلب من ابنه أن يركب بدلا عنه.

تردد الابـــن، إلا أن أباه أمـــره أن يفعل ذلك، فاضطر الابن إلى ركوب الحمار وأبوه يمشي بجانبه.

مضيـــا في الطريـــق إلى أن اقتربـــا من شخصين يأتيـــان في ذات الطريق، وعندما مرا من أمامهما وتبادلوا السلام فيما بينهم، سمعا صوت أحدهم يقول لصاحبه: انظر.. انظـــر، ياللعجب، هذا الابـــن ركب الحمار تـــاركا أباه الشيخ يمشي على قدميه دون أن يكرمه.

أراد الابـــن أن يجيـــب عليه فمنعه الأب وطلب أن يمضي بالحمار في الطريق.

بعد مسير آخر طلب إليه أن يقف، وعند ذاك ركب هو الآخر الحمار مع ابنه، ومضيا في الطريق.

مرا بجانـــب جمع من الناســـ يجلسون أمام بيت، ألقيا عليهم السلام.

أجابوا علـــى السلام، ثم ما لبث أن قال أحدهـــم: يا لقسوة قلبيهمـــا، ركبا معا على هذا الحمار المسكين دون أن يرأفا به.

بعد بعض المسير طلب من ابنه أن يوقف الحمار لينزلا ويمشيا إلى جانبه.

مشيـــا إلى جانـــب الحمـــار إلى أن مرا بثلاثـــة رجال يمضـــون في الطريـــق، ألقيا عليهم السلام، وبعد أن أجابوا قال أحدهم لصاحبيـــه: أما رأيتم هـــذا العجب، معهما حمار ولايركباه.

عند ذاك وقف الابن وقـــال لأبيه: الآن أجبتنـــي خير إجابة على ســـؤال البارحة يا أبت.

ذكــر الإمام مالك في الموطأ عن عمر بن الخطــاب -رضي الله عنــه- أنه دخل على أبي بكــرٍ الصديق -رضــي الله عنه- وهو يجبذ لسانه، أي: يجــره بشدة، فقال عمر: «مَه!! غفــر الله لك»، فقال أبو بكرٍ -رضي الله عنه-: «إن هذا أوردني الموارد».

- قــال رجل: رأيــت ابن عباســ آخذًا بثمرة لسانه وهو يقــول: «ويحك، قل خيرًا تغنم واسكت عن شرٍّ تسلم، فقال له الرجل: يا ابن عباس، مالي أراك آخذاً بثمرة لسانك وتقــول كذا وكذا؟ قال ابن عباس: بلغني أن العبــد يوم القيامة ليس هو على شيءٍ أحنق منه على لسانه»، يعني لا يغضب على شيءٍ مــن جوارحه أشد من غضبــه على لسانه، والأثر أخرجه ابن المبارك وأحمد وأبو نعيم وأحمد في كتاب الزهد.

- وقــال عبــد الله بن أبــي زكريا: «عالجت الصمت عشرين سنة فلم أقدر منه على ما أريد»، وكان لا يدع يعاتب في مجلسه أحــد، ويقول: «إن ذكــرتم الله أعنّاكم، وإن ذكرتم الناس تركناكم».

- وكان طاوســ بن كيسان -رحمه الله- يعتذر من طول السكوت ويقول: «إني جربت لساني فوجدته لئيمًا راضعًا».

- وذكر هناد في كتابه الزهد بسنده إلى الحســن أنه قال: «يخشــون أن يكون قولنا (حميــد الطويل) غيبة»، لأنهم بينوه ونسبوه أنه طويل.

- وأخرج وكيــع في الزهد وأبو نعيم في الحلية من طريق جرير بن حازم قال: «ذكر ابن سيرين رجلا، فقال: ذلك الرجل الأسود، -يريد أن يعرّفه-، ثم قال: أستغفر الله، إني أراني قد اغتبته».

- وكان عبد الله بن وهب -رحمه الله- يقول: «نــذرت أني كلما اغتبــت إنسانًا أن أصوم يومًا، فأجهدني -يعني تعبت- فكنت أغتاب وأصوم أغتــاب وأصوم.. فنويت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حب الدراهم تركت الغيبة».

- قال النووي في الأذكار: «بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بــن صيفي اجتمعا، فقال أحدهمــا لصاحبه: كم وجــدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، فوجدت خصلــة إن استعملتها ســترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان».

- قــال إبراهيم التيمــي: «أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عامًا ما سمع منه كلمة تُعاب».

- وقيل للربيع: «ألا تذم الناس؟ قال: والله إني ما أنا عن نفسي براضٍ فأذم الناس؟! إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس، وأمنوه على ذنوبهم».

قال حماد بن زيد: بلغني أن محمد بن واسع كان في مجلس فتكلم رجل فأكثر الكلام، فقال له محمد: ما على أحدهم لو سكت فتتقى وتوقى.

وقال بكر بن المنير سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً.

الهوامش:

- من قصيدة للشاعر الإنكليزي /الإليزابيتي/ كريستوفر مارلو بعنوان /أغنية الراعي العاطفي لحبيبته/.

المراجع

١- موقع بيكيديا- الموسوعة الحرة.
٢- تفسير ابن كثير.
٣- كتاب الموطأ- الإمام مالك.
٤- ديوان الشافعي.
٥- معجم مختار الصحاح.
٦- المستطرف من كل فن مستظرف- لمؤلفه شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي- منشورات وزارة الثقافة السورية.



الدراسات والبحوث



فلسفة الذكاء الصناعي

وسيم طاهر حسن *

لقد رافق اختراع الكمبيوتر الخطوات الأولى للجواب على السؤال: كيف يفكّــر الإنسان؟.. وكان الهدف منه إيجاد طريقة مناسبة لبرمجة الكمبيوتر. ومع تطور الكمبيوتر ظهر علم الذكاء الصناعي. ومع التطور الهائل للأجهزة العلميــة واستخدام برامج الكمبيوتر في تحليل النتائج تطورت أبحاث تحليل الحموض النوويــة وعلم الوراثــة والكيمياء الحيوية وأصبــح بحث الذكاء الصناعي مرتبطــا بتطوير الكمبيوتر وتطوير برامجه، وكذلك مرتبطا بفهم

** باحث من سورية.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

تركيب وطريقة عمل الدماغ، باعتبار عقل الإنسان الحد الأقصى في هذا المجال، حيث لاحظ العلماء أن طريقة عمل الكمبيوتر تحاكي طريقة عمل العقل، وإن كانت النتائج محدودة فإن أبحاث الذكاء الصناعي تسعى لتحسينها.

يمكن اعتبار أبحاث الذكاء الصناعي تسير باتجاه تطوير أساسي هو التعامل بين الآلة والإنسان بالإجابة على السؤال التالي: كيف نطور الآلة ليكون جواب مجموعة من الناس مشابه لجواب مجموعة من (الآلات) على السؤال التالي: (أنت ذكي) ماذا أعني؟؟. إذا قرأت العبارة تجد لها معنى (أنت ذكي)، ولكن إذا قيلت في سياق حديث يصير لها معان مختلفة (أنت شديد الذكاء)(أنت ذكي) (هل أنت ذكي؟.) و(أنت غبي)، إن فهم العبارة متعلق بسياق الحديث وقد تتعلق بالكلمتين فقط مع إضافة المؤثرات الصوتية للفظها وإضافة مؤثرات بصرية. إذا كيف سنفهمها وتفهمها الآلة ؟؟ باعتبار أنه من غير الممكن إعادة صياغة أبجديّتنا لصناعة لغة ليس لكلماتها كيفما قيلت سوى معنىً واحداً.

هنا لابد أن أذكر أهمية هذا الاتجاه في الدراسة على الواقع: إن جميع الأحداث التاريخية المرتبطة بالأشخاص نقلت إلينا دون مؤثرات صوتية أو بصرية، وهكذا يمكن القول إن ترجمة تلك الأحداث، التي حدثت منذ مئات السنين أو منذ دقائق، هي ترجمة نسبيّة الصحة فهي تشبه الحقيقة ولا تطابقها وأحيانا قد تكون مناقضة لها، وذلك متعلق بقدرة المترجم والأدوات التي يعتمدها.

مقدمات الذكاء الصناعي

لابد من إلقاء الضوء على بناء جهاز الكمبيوتر وتطور هذا البناء لمقارنته لاحقا بالدماغ. خاصة لمن تعودوا استخدام الكمبيوتر دون الخوض في محتويات الجهاز وطريقة عمله ومواصفاته. لقد تطورت صناعة الكمبيوتر من جهاز يستخدم الصمام الثلاثي بحجمه الكبير (حجم راحة اليد) والأسلاك الكهربائية الثخينة والطويلة والطاقة الكهربائية الهائلة التي يستهلكها عمله البسيط في ذلك الوقت، إلى جهاز صغير الحجم يتركب من أجزاء لا ترى إلا بالمجهر وقدرات هائلة وأعمال كثيرة معقدة ويمكنه الاتصال بالعالم لنحصل (يحصل) على المعلومات ولا يستهلك إلا القليل من الطاقة الكهربائية، إن تطور الذكاء الصناعي وفهمنا لكيفية عمل الدماغ مرتبطان إذاً ببعضهما ارتباطا وثيقا بناءً وعملا، وبما أننا أكثر معرفة بتركيب

الكمبيوتر وطريقة عمله لذلك سوف ننطلق منه كنموذج مصغر قليل التعقيد.

المراحل المختلفة لعمل الكمبيوتر

يمر الكمبيوتر بمراحل مختلفة من التصنيع إلى الاستثمار سنشرح ما يهمنا من كل مرحلة .

مرحلة التصنيع

يتم فيها صناعة المعالج المركزي والمعالجات المتخصصة واللوحة الأم وبرنامج الإقلاع والذاكرة ووسائط الإدخال والإخراج.

المعالج المركزي: أهم جزء في الكمبيوتر حيث تتم ضمنه معالجة المعلومات وحل المسائل المختلفة معالجة المعلومات متعلق بتركيب المعالج داخليا وطريقة دخول الإشارة الكهربائية إليه وشكلها. الكمبيوتر المتطور يحوي مجموعة معالجات مركزية، إن قدرة هذا الجزء من الكمبيوتر تحدد القدرة الأعظمية لاستخدام الكمبيوتر من حيث البرامج الممكن استخدامها وطرق المعالجة والسرعة ، لأن عمل الكمبيوتر يعتمد على إدخال إشارات كهربائية إلى المعالج بشكل محدد لتتم معالجتها وإعادة تنظيمها حسب تركيبه لتخرج بشكل آخر، لذلك يهمنا كثيرا أن نذكر طريقة بناء هذا الجزء: يصنع المعالج من رقائق صلبة بسماكة المليمتر ويتم توجيه أشعه على سطح هذه الرقاقة بطريقة محددة، هذه الأشعة تؤثر في قدرة المادة التي تصنع منها الرقاقة على إطلاق إلكتروناتها وضمن مسارات محددة بحيث مكننا تطور تصنيع هذه الرقاقات من تصنيع مئات الألوف من الصمامات في مساحة السنتمتر المربع الواحد، إن عمل وحدة المعالجة يعتمد على انتقال الإشارة الكهربائية عند دخولها ضمن خطوط معينة لتتلاقى في لحظة محددة عند تقاطعات بحيث يؤثر مرور أو عدم مرور الإشارة (O / ١) في أحد خطوط نقطة التقاطع على مرور الإشارة في الخط الآخر، أي إن هذه النقاط تتعامل مع السماح للتيار بالمرور بـ (نعم أو لا) ولذلك سميت دارات منطقية. ولقد كان تطور زيادة عدد الخطوط المكونة لبناء الإشارة الواحدة أهم خطوات تطور المعالجات في الكمبيوتر وصل عددها (٨ – ١٦ – ٣٢ –٦٤) لأن ذلك يؤدي إلى تسريع عمله وقدرته على تحليل الإشارة الواحدة، ويتم تحديد موقع نقاط التقاطع في الرقاقة بناءً على تصاميم يعتبرها المصممون أفضل الطرق وأسرعها لوصول إشارة قادمة إلى المعالج بهدف محدد مسبقا وخروجها منه مع تحقيق الهدف. المنطق بالنسبة للرقاقة إذاً متعلق بمرور أو عدم مرور التيار (O



/١) في التقاطعات، ومنطقية تكامل هذه العمليات مجتمعة تحدد بالنتيجة قدرة المعالج.

يقوم المصممون بتحديد العمليات الأساسية التي يحتاجونها لتنفيذ عملية بسيطة محددة ،كالجمع مثلا: يقومون بتحديد شكل عملية الجمع كهربائيا من خلال مرور أو عدم مرور تيار في مجموعة الأسلاك التي تمثل العملية الواحدة عند البدء بتنفيذ أمر عملية الجمع، وطريقة دخولها إلى المعالج ،ثم يقومون بتوزيع العملية على الخطوط وتحديد مواقع التقاطعات مع الإشارات (العمليات أو المعلومات) الأخرى لتحقيق نتيجة صحيحة للعملية، ومن مجموعة هذه العمليات كطريقة وجدت لغة الآلة، وكتصميم تطور المعالج المركزي. لغة الآلة هي اللغة التي يخاطب بها المعالج المركزي المحيط فلغة الآلة هي أم اللغات للتعامل المنطقي بين المادة والإنسان، وبسبب صعوبة هذه اللغة نشأت لغات أكثر تواصلا مع الإنسان كمترجمات بين رموز لغة الآلة وكلمات أكثر سهولة للإنسان، وهنا نلاحظ أن القضية في لغات البرمجة هي تقريب الآلة من الإنسان على حساب فاعلية الآلة، لأن أيّ لغة برمجة تنفذ مجموعة كبيرة من التعليمات للوصول إلى التعليمة الوحيدة التي يتعامل معها الكمبيوتر بلغته (تعليمة لغة الآلة).

المعالجات المتخصصة: هي معالجات تتم صناعتها بنفس طريقة صناعة المعالج المركزي، ولكن العمليات التي تقوم بها على الإشارات الكهربائية الداخلة إليها تعتمد على أهداف خاصة متعلقة باختصاص المعالج، فهناك المعالج الضوئي الذي يحول

الإشـــارات إلى شاشـــة العرضــ، ويستقبل الصور فيحولها إلى إشارات، وهناك المعالج الصوتي الذي يحول الإشارات بعد تنظيمها إلى الطرفيــات الصوتية ويستقبل الأصوات فيحولهـــا إلى إشــارات، وغــير ذلــك من المعالجــات المتخصصــة. إن استقلال عمل هذه المعالجات والذاكــرة التابعة لها يؤدي إلى تحســين الأداء العــام للجهاز من خلال تقاسم وتشارك العمل مع المعالج المركزي.

نظام المقاطعة الزمنية: يتم تصميم وحدة المعالجة المركزية على أساس معالجة متتابعة للإشارات الكهربائيــة التي تشكل البرنامج المراد تشغيله، مع الأخــذ بعين الاعتبار أن هنــاك مجموعة من العمليات والبرامج لابد من تنفيذها أثناء تنفيذ البرنامج الأساسي، لذلــك يتم تصميم المعالج لقبول بناء (نظام مقاطعة) لهذا الغرضــ، حيث يتم كل فترة زمنيــة محددة توقــف (مقاطعــه) لمعالجة البرنامج الأساسي والانتقال لتنفيذ برنامج المقاطعة، وبناءً على نتائج هذه المقاطعة يعود المعالــج المركزي لمعالجة البرنامج الأساسي. فمثلا مــن الأعمال التي يقــوم بها برنامج المقاطعــة قــراءة إدخالات لوحــة المفاتيح والفــأرة والبريــد الوارد وتنشيــط الذاكرة وأعمــال أخرى. فنحن قــد نرغب بإيقاف قســري للبرنامج الأساسي بعــد تشغيله، أو قــد نستلم رسالة عبر البريــد، فكيف سيتم ذلك مــا لم تتم مقاطعة عمــل المعالج؟. أي أن المعالــج لا يقوم بعدة أعمال دفعة واحدة وإنمــا يقوم بالتنقــل السريع بين برنامجين، المهم أن زمن الانتقال غير محسوس بالنسبة للإنسان.

اللوحــة الأم: هــو الجســم الذي توضع عليه أجــزاء الكمبيوتر الأساسية والأسلاك الكهربائيــة اللازمــة لوصلها مــع بعضها، وهو بمساحــة ٢٠×٢٠ سنتمــتر للأجهزة المنزلية.

برنامــج الإقــلاع (البرنامــج القيــادي): وهو برنامج وسيط يعمل على تهيئة الأجزاء المختلفــة للعمل لحظة تشغيــل الكمبيوتر، حيث يقــدم العمليات الأساسية لبدء العمل قبل الدخــول إلى برنامج العمــل الأساسي الــذي تمَّ تشغيل الكمبيوتر مــن أجله. لقد نشــأت الحاجة له من خلال تعــدد أشكال الاستخدام المحتملــة للكمبيوتر، حيث لابد للكمبيوتر من التعرف علــى لوحة المفاتيح والشاشــة وبقية المكونات مثــلا، سواء كان الغرض تصميم بناء أو كتابة نص.

الذاكـرة: هــي المكان الــذي تخزن فيه المعلومــات والبرامــج اللازمة لحــل مسألة محــددة، ويتم تخزينها على شــكل إشارات كهربائية هي ذاتها التي يتعامل معها المعالج

المركزي، والذاكــرة لها مستويات: فالمستوى الأول هــو ذاكرة المعالج المركزي وهي ضمن بنائه ويستخدمها لعملياتــه المباشرة فائقة السرعة. المستوى الثاني للذاكرة هو الذاكرة العامــة العشوائيه المسمــاة (رام)، المستوى الثالث وحدات التخزيــن الصلبه والليزرية وغيرهــا، لكل من هذه الذاكرات خصائصه وطرق خاصة للتعامل معه. ومن الطبيعي أن يكون الحصــول على المعلومات متأثراً بهذه المستَوَيات إن لم يكن مرتبطا بها، فمثلا لحل مسألة معينة يبحث البرنامج عن معلومة في المستــوى الأول للذاكرة فــإن وجدها توقف عــن البحث علما أن من الممكن أن يكون لها قيمــة مختلفة أو مماثلــة في المستوى الثاني أو الثالث.

وسائــط الإدخــال والإخــراج: هي منافذ الكمبيوتر إلى العــالم الخارجي، وهي كثيرة جدا ومتعــددة الأشكال والأهداف وتختلف في أجهــزة الكمبيوتــر حســب الغرض من الجهــاز، فالغرض قــد يكــون التعامل مع الإنسان وبالتــالي تمَّ تصميم لوحة المفاتيح والشاشــة والفأرة كوسائط لهــذه العلاقة، وقد يكون الهدف تشغيــل آلة مثل الطابعة ومحركاتهــا بمختلف أنواعهــا، أو محركات ليــد إنســان آلي أو خط إنتــاج في معمل، أو حساســات حراريــة لقياس الحــرارة أو حساسات ميكانيكية تعطي الكمبيوتر إشارة لوجود حركــة في مكان محدد، أو حساسات ضوئية..إلــخ، وقــد تكون قريبــة أو بعيدة الموقع عن الكمبيوتر وتتصل به عبر أسلاك تنقــل الإشــارة الكهربائية التــي يصممها البرنامــج المخصص في المعالج المركزي. قد تحتوي هذه الوسائط على وحدات معالجة وذاكرة أكثر تخصصا للإشارة القادمة إليها والخارجة منها.

بعــد أن تعرفنــا على تركيــب وأجزاء الكمبيوتــر ومهمة كل جــزء سنتعرف على استخدام الكمبيوتــر والذي يمر بمرحلتين عامتين أساسيتين:

مرحلة البرمجة

يتم تحديــد الموضوع الــذي سنستخدم الكمبيوتــر لمعالجته وتحديــد طريقة الحل الأمثــل (حسب ما توصل إليــه المبرمج) ثم تحليل خطــوات هذا الحل بطريقة واضحة خطوة خطوة. ونقوم بتحويل هذه الخطوات التي نفهمها كبشر إلى الشكل الذي يستخدمه الكمبيوتر من خلال استخدام الأوامر التي تقدمها لنا لغة البرمجة، وكما قلنا نستخدم لغة برمجــة وسيطة وليس لغة الآلة عموما، ونقــوم بإضافة العمليــات اللازمة لتحديد طــرق إدخال المعلومات التي نحتاجها للحل وكذلك التعليمــات اللازمة لتحديد طريقة

ظهور النتائج. إن مجموع هذه العمليات من عمليات إدخال ومعالجة وإخراج تسمى (البرنامج)، بعد ذلك يتم كتابة هذه الخطوات بدقة على لوحة المفاتيح التي تتصل بالمعالج الذي يحولها إلى الذاكرة والشاشة. ثم تتم عملية ترجمة (تحويل) لكل تعليمة من لغة البرمجة إلى لغة الآلة ليتمكن الكمبيوتر من تنفيذ هذه التعليمات المتتابعة (البرنامج) عند الطلب (الاستثمار).

مرحلة الاستثمار

في هذه المرحلة نستخدم الكمبيوتر لتشغيل البرنامج المتكامل المحدد لحل الموضوع المحدد الذي تم وضع البرنامج له، أي أن الكمبيوتر يصبح مسخرا لهذا الموضوع حصرا، ونقوم بإدخال المعلومات اللازمة لحل المسألة التي صمم البرنامج لها بالترتيب الذي يمليه سير البرنامج وبالتالي الحصول على الحل النهائي، ويمكن أن يسخر الكمبيوتر بعد الانتهاء من هذا الموضوع لموضوع آخر، وهكذا. بالتالي عمل الكمبيوتر مرتبط بالبرنامج الذي نشغله عليه. هناك أجهزة كمبيوتر تخصصية بمجال عمل محدد حيث يتم تحميلها ببرنامج محدد لا يمكن تغييره وكذلك بوسائط إدخال وإخراج تخصصية كالأجهزة المستخدمة للسيطرة على خطوط إنتاج المعامل. أو التحاليل المخبرية وغيرها.

كيف نستفيد من الذكاء الصناعي

الهدف من أبحاث الذكاء الصناعي محاكاة الذكاء البشري صناعيا، أي صناعة وحدة معالجة مركزية ودعمها بالبرامج اللازمة لكي تستطيع القيام بالأعمال التي يقوم بها الإنسان فيستحق أن يوصف أنه ذكي، فتكون وحدة المعالجة ذكية. فالقضية إذا كخطوة أولى تحديد معنى الذكاء، القضية هنا هامة جدا، فالذكاء نسبي من شخص لآخر ومن موقف لآخر، كثيرا ما وصفنا شخصا بالذكاء ثم عدنا لنقول غير ذلك عنه بعد فترة بسبب توضح النتائج غير المباشرة للعمل الذي وصف من أجله أصلا. إننا نصف الخطط الحربية بالذكاء بسبب التخطيط والمغامرة والفوز وعدم التقيد بالمنطق المتسلسل كالكمبيوتر، غير الذكي، وبالتدقيق نعود لنقول عكس ذلك إذا كانت النتيجة الخسارة.

الإنسان يتصف بالعديد من الصفات أهمها محدودية قدراته، بكل المعنى لقدراته، فماذا سيحدث إذا صنعنا آلة تحوي ذكاءً غير نسبي وزودناها بكل الإمكانات التكنولوجية الحديثة (وما سيستجد زمن صناعتها)؟.. هنا يجب أن نعود للبدء: الهدف من البحث في علم الذكاء الصناعي هو: «فهم الإنسان ومساعدته بهدف تحسين حياته».

هل أقــول هنا أنني استخدمت الأسلوب المنطقي (الخطوة ـ خطوة) للوصول إلى هذه النتيجة، وهذا أسلــوب الكمبيوتر، في حين أن الــذكاء كان ليوصلنــا إلى هذه الحقيقة (الفرضية/ النظرية) من اللحظة الأولى.

أود أن أذكر الآن الخاصية الأهم للعقل، أعني تداخل الأفكار والبرامج بشكل هائل، وتأثــير بعضها على بعض. إن مجرد التفكير أن المشاعــر الإنسانيــة السامية التي تميز الإنسان على مدى التاريخ قد تكون منطقية ولهــا قواعد ومــواد كيميائيــة متعلقة بها، يفتــح أبواب جهنم ، علمــا أن الإنسان منذ عشرات السنين يعرف أن الخوف، أحد أهم المشاعر الإنسانية الغريزية، يتسبب بإطلاق مادة الإيدرينالين في الجسم، ومنذ عشرات السنــين نقــاوم عقــار السعادة أحــد أهم المشاعــر الإنسانية. ومنــذ عشرات السنين نعــرف أن النبــات والحيــوان لــه مشاعر وأحاسيس، نرفض الاعتراف صراحة بذلك ونقول: الغريزة. . ولكن.

المراحل المختلفة لعمل العقل

إن معرفتنــا عن تركيــب العقل البشري مازالت محدودة، أما طريقة عمل العقل التي هي أعمق بكثير فهي أبعد عن معرفتنا، ذلك بسبــب أن تركيب العقل يمكن التعرف عليه من خلال تطور الأجهزة المخبرية والتحليلية. فالعقل من حيث تركيبه ممكن المعرفة، أما طريقة عمله فهي أكثر تعقيداً بسبب ارتباط معرفتهــا بقدرتنا على تحليل مجريات عمل خلايا العقل، كما هو الفرق بين معرفة المواد الداخلة في تركيب المعالج المركزي وخصائص هــذه المواد وطريقة انتقــال الكهرباء فيها، وبين منطقية تــوزع الإشــارة الداخلة إليه ومعالجتها وفق برنامج.

تركيب الدماغ

إن العقل (الدمــاغ) يتشكل من الخلايا العصبيــة التــي تتوضــع على سطــح كتلة الدمــاغ، هذه الخلايــا تتميز عــن خلايا الجســم بأنهــا لا تموت ولا تتجــدد أي إن الخلية ترافق الإنسان من النشوء إلى الموت، هــذه الخلايا تتصل مع بعضها البعض عبر شبكــة من الأذرع تمتد مــن الخلية لتتصل بالخلايــا المجــاورة عبر نقــاط التقاء غير ملتصقــة، والعنصــر المميــز في الخلية هو (المحور) الامتــداد الصادر عنها ليصل إلى نهاية عصبية في منطقة ما من الجسم، إما أنهــا نهاية حسية تستقبل إشارة من الخارج من نــوع معين مــن المحرضــات، أو نهاية عضلية (ميكانيكية)، أو لها وظيفة التحريض على الإفــراز (الغدد). مجموع هذه الخلايا والامتــدادات الصادرة عنهــا تكون الجهاز العصبــي للإنسان، والمعــروف عن الدماغ

أيضا أنه مقسم إلى مناطق كل منها يقترب من الاختصاص بوظيفة محددة، أما كيف يتم اختزان المعلومات؟.. وأين في الخلايا؟.. وكيف يفهم الإنسان؟.. وأسئلة أخرى كثيرة فليس هناك جواب لها حتى اليوم.

مع تطور علم الجينات يمكن مقارنة خلايا الدماغ بأنها: كمبيوتر، صماماته جزيئات كيميائية لا ترى حتى بالمجهر الإلكتروني، وطاقة متعلقة بالتفاعلات الكيميائية الجارية في الخلية من خلال ما ينقله الدم من سكريات وأوكسجين. أي إن الخلية التي لا ترى بالعين هي معمل ضخم يستخدم الكمبيوتر لإدارة ذاته، ويقيم علاقات مع المعامل الأخرى من خلال نقاط الالتقاء، وإمدادات الخلايا (المحور) هي طرق توصيل الإشارة إلى أعضاء الجسم (وسائط الإدخال والإخراج) بدل الأسلاك وتتفوق عليها قدرة وحجما، والنهايات الحسية بدلا عن المجسات والحساسات الحرارية والميكانيكية والضوئية..إلخ، وإذا علمنا أن نتيجة تفاعل الجسم البشري (النهايات الحسية للخلايا العصبية) مع المحيط هي إشارة كهربائية تنتقل إلى الدماغ ليتم تحليلها وإعطاء نتائج يتعلق بها رد فعل الإنسان، وأن هذه الآلية ذاتها في الكمبيوتر يكون واضحا أن فهمنا للكمبيوتر سيسهل علينا فهم أنفسنا، وأن فهم أنفسنا سيسهل تطوير الكمبيوتر، وهذا هو اتجاه أبحاث الذكاء الصناعي: الفهم والتطوير.

وهنا أذكر الأبحاث التي يقوم بها الإنسان في دراسة الحيوانات والمجتمعات الحيوانية ليحصل على معلومات تساعده في فهم ذاته ،ولقد حصل منها على الكثير، فالإنسان جادٌّ في رغبته فهم ذاته مهما كلفه الأمر .

الغريزة: هي الاسم الذي نطلقه على تصرف الكائنات الحية عموما تجاه مواضيع محددة لم يتم ربطها بأية عملية تعلم سابقة. خلايا الدم البيضاء تهاجم كل الدخلاء إلى الدم، فهل هذه غريزة البقاء عند هذه الخلايا؟.. أم أنه توافق وتعارض مركبات كيميائية كما تظهر الأبحاث؟.. هل ما نقوله هنا ينطبق على الإنسان بطريقة لا نفهمها بعد، أم هي عملية مقارنة منطقية يجريها العقل بشكل مستمر، أم برنامج قيادي مسبق الإعداد بتكوين العقل؟.. إن الغريزة من المواضيع التي لم يكتشف الإنسان لها تفسيرا واضحا بعد.

المشاعر والأحاسيس (السعادة – الحب – الخوف..) أسماء نطلقها على حالة الإنسان في ظروف غير عادية تعبر عن تغير مؤقت حدث في داخله ولها تأثير

علــى ردود أفعاله. هل هــي قضية دماغ أم روحانيــات؟.. مهمــا كانــت الحقيقة فمن المعــروف أن الدماغ يسيطــر بالنتيجة على هــذه المشاعر، وهو يتجــاوب معها بإطلاق مركبــات كيميائية. هناك عقاقير تصنع في المعامل تعطي مؤشــرا على إمكانية التدخل في مشاعر الإنسان، منها عقاقير (السعادة) التي تجعــل الإنسان في حالة سعادة عديمة السبب أو التوجيه عدا دخول مركب كيميائي إلى الجسم. هــذا المركب يؤدي إلى تخريب عمليات المعالجــة التي يجريها الدماغ على المعلومــات وعلى اختيــار المواضيــع التي بحاجــة للمعالجة، حيــث أن السعادة أحد أهــم المحفزات الإيجابيــة للعقل ،وفي حال عدم السيطرة عليها لن يعرف العقل حقيقة النتائج التــي وصل إليها فيصبح الفرد غير فعــال في المجتمع، وهذا هــو سبب محاربة انتشــار مثل هــذه العقاقير بــين الأفراد. قدرات غير عادية الحاسة السادسة وتوارد الخواطــر الأحاسيس التوأمية من المواضيع التــي لم تفهم ولم يحدد لهــا أي توجه بسبب نقص المعلومات والأدوات للدراسة. ما هي الأداة التــي تمكن الشخصــ من معرفة ما يفكر به شخصــ آخر؟.. أم أن هناك اتفاق مسبق بين الشخصين ؟..

التعلم عند الإنسان

الدراســات التي تنطلق مــن أن مرحلة التعلــم عند الإنسان تبدأ قبل الولادة كثيرة، فهو مــن لحظة اكتمــال جهــازه العصبي وقبــل ولادتــه يستخدم ما لديــه من طرق للاتصال بالعالم المحيــط به، ويعبر صراحة بالحركة عن فهمه لمــا يصله من معلومات، ولفهم ذلك يكفي أن نسأل الأمهات، وكذلك الدراسات التي تعتمــد على أن الإنسان في مرحلــة الطفولة يتفاعل بفهم عميق مع كل ما يدور حوله، وبسبب دقته لا يدرك المعاني غــير الظاهرة (المباشرة) كالمــزاح أو الحب العميــق الكامن وراء العقاب مــن الأبوين، إن كل تصــرف غير مقصــود مباشرة يشكل مشكلــة على المربــي والطفــل ، فهو يفهم الأحداث المباشــرة بتحليل متسلسل منطقي ويتعلمها مــن خلال التحفيــز الإيجابي أو السلبــي، فعندما نعاقبه على الكذب يصبح الكذب خطأً، فــإذا كذبنا أمامه دون عقاب التبســ عليه الأمر، لأننا أخطأنا ولم نعاقب، نحن الذين عاقبناه على الخطأ. فالمنطق إذا بالنسبة للطفــل متعلق بما يتلقاه من مربيه والمحيطين به كتحفيز إيجابي أو سلبي.

إذاً العقل فعال من لحظة تكوينه ، ولكن لأي درجــة؟.. كيف تتغــير طريقة معالجته

للمواضيع؟.. هل نقارن مرحلة التعلم هذه بمرحلة تصنيع المعالج المركزي أم مرحلة البرمجة؟.. المثل العام يقول (الطبع يغلب التطبع) (التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، صعب جدا وراسخ جدا)، إن عملية تعلم معالجة موضوع تمت في ظروف معينة أدت إلى نتيجة محددة قد لا تؤثر فيها سنوات من محاولات تغييرها، وقد يحدث أن تتغير بفعل حدث مفاجئ. وحتى لو استطعنا التأثير وتعديل طريقة المعالجة وتغيير النتيجة، نلاحظ أن عملية التعلم الأولى مازالت موجودة عميقا في العقل، فالخوف من الظلام مثلا يستمر مع الإنسان في الكبر مهما حاولنا تغييره، ولو تمكن الشخص من البقاء في الظلام فهو يقاوم ويتجاهل أحاسيس حقيقية داخلية من الخوف، وفي ظرف طارئ كأن ينام ويستيقظ فجأة في الظلام قد يؤدي ذلك إلى ردة فعل مثل التوتر الشديد ومضاعفة الخوف، مما يدل على وجود مستويات للذاكرة والتعليم عند الإنسان قد تكون مشابهة لمستويات الذاكرة في الكمبيوتر.

ثم إن عملية التفكير تتم بتسلسل منطقي محدد، وتعامل مباشر مع المعلومات، هذه هي الطريقة المتبعة عند الإنسان والكمبيوتر. ففي لعبة الشطرنج مثلا هناك مجموعة من الاحتمالات للحركة يدرس الإنسان والكمبيوتر نتائج كل منها ويحدد الأفضل، وهذا أحد أشكال تمييز القيمة للعمل (صح/ خطأ)، في حين يقوم الإنسان المتميز بتنفيذ استراتيجيات منها الخدعة والمناورة والمغامرة وهذا الأسلوب متعلق بتفوق شخص على آخر، إذ إن الذكي لا ينخدع، هذه العمليات غير متسلسلة منطقيا وغير أكيدة النتائج وتعتمد على خطأ التقدير من الشخص الآخر، وتعتمد أحيانا على إشغال الخصم بمسائل ليست مباشرة في الموضوع الأساسي، أي محاولة تشتيت طريقة تعامله مع موضوع المعركة، وبالتالي ليست من العمليات الصحيحة منطقيا، وبالتالي لا يمكن اعتبارها تميّزا في الذكاء.

إن عملية التربية والتعليم بالمعنى الحقيقي لها تهدف إلى بناء العقل البشري والمحافظة عليه سليما وتوجيه إمكاناته، وبما أن هذه العملية تتم بعد سنوات من وجود الطفل (العقل) لذلك صار اكتشاف مواقع الإبداع عند الطفل ثم توجيهها المهمة الأساسية للتعليم ،أي إن مهمة التعليم ،إذا تأخر، هي البحث عما تبقى في العقل من قدرات، في حين إذا بدأنا عملية التعليم مع التكوين يكون العمل استمرارا وليس بحثا وإصلاحا.

ما هي المواضيــع التي يدركها العقل في مراحلــه الأولى (عقل الطفل)؟.. وتلك التي يدركهــا بعد سنوات؟.. إنه يتفاعل مع حالة أمه النفسيــة ولكنه لا يعرف عملية بسيطة مثل (١+١). العقل في مرحلة الطفل يعرف ما يؤذيــه ولكنه لا يعرف الشرور. العقل في مراحــل العمر المتقدمة بعــد سنوات يصير عسيرا عليه فهم أحاسيس أمه أو معرفة ما يفيده وما يؤذيه لكنه قادر على حل المسائل الحسابية المعقدة!. إن عملية تعلم العقل إذا تســير باتجاهين على الأقــل: الاتجاه الأول زيادة معارفه ومعلوماته (خبراته)، والاتجاه الثاني تغيــير طريقة التعامل مــع المؤثرات والمعلومات. وبمــا أن قدرة العقل بعد عمر معين تصبــح محددة بتركيبه الأساسي وآلية تطور هذا التركيب، فإن قدرته بالتالي على تحليــل المعلومات واستنتــاج النتائج محددة وثابتــة فيه، ولا نستطيــع زيادة قدرته على التحليــل، وإنمــا نستطيع استخــدام هذه القدرات وتغيير توجيهها. فكثير هم المتعلمون والمثقفــون وقليل هم الأذكيــاء والمبدعون. هل فعلا نحن نطــور عقولنا بعمليات تعلم جديــدة؟.. أم أن التطويــر هــو مــن قبيل استخدام نفس المعادلات ولكن لمتغيرات أكثر تطورا؟؟..

التكـون والتعلـم وردود الفعل عند الإنسان

يكتمــل تكوين العقــل والجهاز العصبي عند الإنسان مــع نشوئه ولا يتغير بعد ذلك ،خلافــا لكل خلايا الجســم، وبانتهاء تكون العقــل يبــدأ تفاعله مع المحيــط بالأدوات المتوفــرة لديه، ويبــدأ بعمليــات متداخلة ومتشعبة، فهو يمارســ حياته اليومية التي يتعلــم خلالها ويتفاعل مــع المحيط، وأثناء ذلــك يتم تعديل العلــوم السابقة. وفي حين تتم برمجة الكمبيوتــر لحل المسألة بطريقة محددة متفق عليها من قبل المبرمجين، مهما اختلفــت طبائعهم في حال اشتراك أكثر من مبرمج، يكون الإنســان تحت تأثير عدد من المعلمين تتفاوت معرفتهم وقدرتهم وطريقة تعليمهــم، وبالتــالي تأثيرهم علــى المتعلم، وذلــك للمسألة الواحدة، فكيــف والإنسان يتعلم جميــع المواضيع دفعــة واحدة؟.. إن (المقاطعات الزمنية) التي تحدث في الدماغ مشابهــة لتلك التي تحــدث في الكمبيوتر، ولكن عدد المهام التي يقوم بها العقل كالعادة أضعاف العمليات التي يقوم بها الكمبيوتر.

كمــا يتعلــق التعلــم بالحصــول على المعلومات، لذلك كلما زادت الحواس المشتركة بتقــديم المعلومات كلمــا كان التعامل معها أسهل، ونجد أن العلوم المجردة كالرياضيات

أصعب العلوم تعلّما لأنها لا تستند إلى الحواس إنما إلى العقل فقط، حتى الوصول إلى النتيجة النهائية، وهنا لابد من وجود التعزيز الخارجي إيجابا أو سلبا لتحديد نوع النتيجة.

في هذا الاتجاه نلاحظ أن الطفل في فترات محددة يكون شديد النشاط كثير الأسئلة دقيق الملاحظة يرغب بالتعامل مع جميع الأشياء، إن هذه المرحلة تحديدا أكثر مراحل حياة الإنسان أهمية، فهو يقوم بعمليات التجريب بذاته، وفي هذه المرحلة يتم تحديد قدرته على استقراء البيانات، ثم تحديد العلاقات الناظمة لها وبالتالي النتائج، أي إنها مرحلة تكوين العقل الذكي المبدع، وعادة يتم قمع هذه المرحلة من قبل المربين بسبب عدم قدرتهم على التعامل مع هذا الحجم من النشاط.

إن المدارس إحدى أهم مصادر المعلومات والبناء للطفل، خاصة في المراحل الأولى، ولكن قليلة هي المدارس التي تنجح في تمييز قدرات الأطفال والتعامل معهم حسب قدراتهم، وفي الغالبية العظمى يتم تطبيق منهج تعليمي واحد متوسط المستوى على جميع الأطفال. عملية التعليم إذا عملية اجتماعية هدفها (العقل العام) وليس العقل.

ترى ماذا يحدث إذا عزلنا طفلا وحددنا الموضوع والمعلم، وتم تعليمه دون أي تدخل من أي نوع، ولا حتى الغريزة؟.. بالمقابل إذا قمنا ببرمجة الكمبيوتر لنفس الموضوع، أيهما يتفوق:.. الإنسان أم.. الكمبيوتر؟؟.

يحدث عادة أن نعدل في طريقة العقل الغريزية لمعالجة المواضيع أثناء توجيه العقل لأن يكون اجتماعيا، وبذلك نخلق تناقضا في بناء طريقة التفكير، مثلا لا نعلم الإنسان في طفولته أن يكون حذرا مع الآخرين بسبب مراقبتنا له باستمرار، ونعلمه أن يثق خاصة بالكبار لأنهم مصدر التعليم. وعندما يبدأ مرحلة الانطلاق والاستقلال بشخصيته نبدأ تعليمه أن يكون حذرا من الآخرين وخاصة الكبار، هذا التناقض ستستمر نتائجه مع الحياة.

ثم هناك تنظيم للحاجات الإنسانية الأساسية مثل الطعام والنوم، فالطعام له وقت محدد وكمية محددة ونوعية محددة أيضا، في حين أن الطعام في الأساس حاجة للجسم ليحصل على الطاقة، وذلك مرتبط باستهلاكه وحاجته لها في حال الإنسان السليم. إن هذا التنظيم هو سيطرة قسرية على حاجة الجسم الإنساني، مصدر طاقة العقل وأدواته، ألن يؤثر ذلك سلبا عليه؟..

هل نصنع جهاز كمبيوتر يعمل بطاقة محددة ثــم نقوم بإنقاص هذه الطاقة بسبب تنظيم الطاقة بين الأجهزة أو رغبة بذلك؟..

هــل يمكن أن نعلــم الإنســان أن يعزل العمليات المادية (الرياضية والعلمية)، عن العمليــات الاجتماعيــة المتعلقــة بعلاقاته بالآخرين، عن العمليــات الإنسانية المتعلقة بحاجته للشعــور بذاته؟.. هل نريد ذلك؟.. يمكــن أن نصنع كمبيوتــرا يختص بكل نوع من العلوم، ويمكن أن ندخل في برنامجه مثلا عملية تقاطعية مــن النوع: (إن الطاقة هي سبب استمرار تشغيلك ووجودك.. إذا عليك تخزين الطاقة أثناء عملك.. لذلك لا تشتغل إلا ما هو ضروري لك!..)، فهل سيبقى عمله كمــا كان؟.. الإنسان كائن اجتماعي وجميع عملياتــه الحياتية والعقليــة مرتبطة بهذه الصفــة، وإلا فقد الإنسان إنسانيته وأصبح أنانياً (كالكمبيوتر المخزّن للطاقة).

أرجــو أن تعــذروني لخروجــي عــن الموضــوع، ولكن أليست هــذه أهم صفة لي (كإنسان يستخدم عقله)؟.. بسبب اهتمامي بالموضوع من الناحية الإنسانية تتقاطع فكرة الاهتمامات الإنسانية مع فكرة كيف نفكر. بالتالي تؤثر على التتابع الفكري.

المحفـزات السلبيـة والإيجابية في عملية التعليم

أهم المحاولات الجارية حاليا على الذكاء الصناعي هــي إمكانية التطوير الذاتي، أي أن يقوم الكمبيوتر بتعديل برنامجه بناءً على معطيــات ونتائج الاستخدام الأوّلي. تلتصق عمليــة التعليم عنــد الإنســان بالمحفزات الإيجابية والسلبيــة، فالإنسان يتعلم طرقا مختلفــة للتعامل مــع المعلومات مــن النوع الواحد، واستخدام طريقة محددة كي نصل إلى الحــل متعلقة بالتحفيــز الذي يمارسه المعلمون: التحفيز الإيجابي يؤدي إلى تعزيز الطريقة، والتحفيز السلبي يؤدي إلى رفضها والبحــث عن طريقــة أخــرى.. وعمليات التحفيز هي عمليات خارجية لها انعكاسات داخلية. ولقد وجد العلماء أن عملية التعلم تــؤدي إلى زيادة عدد نقــاط التقاء الخلايا الدماغيــة (المشابك)، وهو ما يمكن التعبير عنه، مقارنة بالكمبيوتر، أنه عملية (تطوير ذاتي) لتصنيع المعالج المركزي. فالدماغ إذا يتم تطــوره باتجاهين: البنــاء (التصنيع)، والتعلم (البرنامج).

إن الطفل الــذي لا نقدم له السعادة في الصغر يعجز في الكبر عن اتخاذ أي موقف وعن معرفة الصواب من الخطأ، لأن السعادة

هي المؤشر والدليل على قيام الشخص بعمل فيه فهم وذكاء. السؤال: هل يوجد محفزات داخلية في العقل الإنساني؟.. أي هل يمكن لإنسان أن يستغني عن الآخرين للوصول لاتخاذ قرارات هامة صحيحة؟.. حينها ما هي هذه المعززات وما هي المواضيع؟.. إن عملية التحفيز الأساسية في عملية التعليم وبناء الإنسان هي أكثر اللأمور ضبابية ولا أحد يمكنه تحديد نتائجها جزما وبالتالي يكون التحفيز سببا في البناء وفي الوقت ذاته سببا في الهدم ليس لأنه أساس في بناء الإنسان ولكن لأنه أساس بناء التربية إلى الآن إننا ننمي روح المنافسة بين الأطفال ليقول كل منهم: (أنا خير منه) من خلال ترتيب مستوى الطلاب في المدارس وفي البيت: الأول الثاني الثالث.. الأخير، إننا بذلك ندفع الأطفال دفعا ليكونوا أعداء.

صحيح أننا قصدنا خلق روح المنافسة (الشريفة) لكي يلحق المتأخرون بالمتقدمين وندفع المتقدمين نحو مزيد من التقدم، ولكن للأسف خلقنا إنساننا المريض أولا. ببساطة شديدة إن سبب (الأنا) المريضة فينا هو تربية الأفراد منذ الطفولة باستخدام المحفزات السلبية/والإيجابية التنافسية بالمقارنة بين الأفراد، مع واقع التفاوت بين قدراتهم وظروفهم.

كيف يمكن أن نحفز الطموح عند الأطفال دون أن نحفز الأنانية المريضة.

بالنسبة للكمبيوتر حتى الآن نحن نقوم بوضع برنامج محدد :نحدد فيه نوع المعطيات بشكل دقيق وواضح، وخطوات العمل المرتبطة بهذه المعلومات، والنتائج مرتبطة بالمعطيات وخطوات العمل بشكل مطلق. والكمبيوتر الذي لا نحدد خطوات عمله لن يجد الحل، فكيف يمكن أن يكون المحفز الإيجابي أو السلبي، الخارجي، بالنسبة للكمبيوتر؟.. وهل يمكن أن نوجد في المستقبل معززات داخلية في معالج الكمبيوتر ليتمكن من توجيه (ذاته)؟..

إن الفرق بين تعلم الإنسان والكمبيوتر متعلق بعدد الاحتمالات الممكنة للتعامل مع معطيات محددة ،وكذلك دقة هذه المعطيات ووضوحها، الإنسان له خيارات كثيرة نعزز أحدها فيصبح برنامج عمل، أما بالنسبة للكمبيوتر، نحن نحدد برنامج عمل وحيد للمعطيات المحددة بدقة، فلماذا التحفيز؟..

إن الفرق بين الإنسان والآلة واضحٌ، وإمكانية صناعة الذكاء الصناعي حقيقة، وإن تأخر فبسبب تأخر تطوير الأدوات والبرامج، وحتى يحاكي الكمبيوتر الإنسان هناك احتمالان يجب أن نحقق أحدهما :

إما أن نعزل العقل الإنساني لحل مسائل من موضــوع محدد دون التأثــر بالمحيط، أو أن نعقّد بناء الكمبيوتر وبرامجه حتى يستطيع معالجــة أكــثر مــن موضوع دفعــة واحدة وبحيــث يتم تبادل النتائج بين البرامج، وكل ذلك أثناء تفاعله مع المحيط.

هــذا يقودنــا أعمــق في الســؤال: ما هــو الهدف الحقيقــي من أبحــاث الذكاء الصناعي؟.. أليس خدمــة الإنسان؟.. إننا نريــد أن نعرف كيف يفكــر الإنسان وكيف يتعلم لنوجهه بأفضــل البرامج إلى إنسانية سعيدة. فالموضــوع إذاً ليس متعلقا بأفضل التصاميم المادية لحياته بل بتخليص الإنسان من الشــر وتوجيهه إلى الخير. فالقضية قد تكــون متعلقة باكتشاف مــا إذا كان تخزين المواضيع المختلفة معزولا في الدماغ بمواقع يمكــن اكتشافها وتحديدهــا والتخلص من منطقة الشــر. أو أن آلية تخزين المعلومات والبرامــج في الدماغ متعلقة بمواد كيميائية لكل نوع من المواضيــع وبالتالي يمكن حقن الجسم بمادة تؤدي إلى التخلص من الشر أو كبحه ومنع انطلاقه.

أمثله (كيف نفكر ويفكر)

لحل مسألة في الحســاب (الرياضيات) يجلــس الإنسان أمام مكتبــه ويشتغل عقله بموضوع المسألة، والفوائد المادية والإنسانية التي سيجنيها من الحــل، وضرورة تقديمه غدا للمدير، واحتمــال مكافأته أو رفضه، ومشكلــة ابنه المريضــ، ورغبتــه بالتفوق لإثبات ذاته أمام مديره وحتى أمام العالم!.. وقد تكون بعض هــذه التداخلات سببا في إبداع حل مميز للمسألة. وقد يتوقف فجأة عن حــل المسألة بسبب حــل أوجده لمشكلة ابنــه المريض!. وهذا لــه ما يشابهه في عالم الكمبيوتــر، فالكمبيوتر يقوم بعدد كبير من العمليــات أثناء قيامه بحــل مسألة محددة تمَّ تشغيــل الكمبيوتــر لأجلهــا (المقاطعه الزمنيــه)، منهــا مثــلا: قــراءة المعلومات القادمــة من لوحة المفاتيــح، ويقوم برنامج البريــد الإلكتروني بإعلامنــا بقدوم رسائل جديــدة، ويتم تفحص وتنشيط الذاكرة. أي إن هناك عدداً من تداخلات البرامج بشكل مشابــه لعقــل الإنسان، الفــرق أننا نعرف ونحدد برامــج التداخل على الكمبيوتر أما في عقولنا فلا نستطيع.

إن برامج التعلم في عقل الإنسان فاعلة باستمــرار، وإن كان العمــر الزمنــي يحد مــن قدراتها، لكنها مستمــرة وكذلك قراءة المعلومات الجديــدة وتخزينها وكذلك ردود الأفعال .

في هــذه المرحلــة يبدو جليــا أن هناك طريقــة لمعالجة وتحليل الأحداث والمؤثرات

التي يلاحظها العقل كامنة فيه، أي إنها غير مكتسبة بل من بناء العقل ذاته، وإذا كان رد فعل الكائن الحي لبعض المؤثرات الحياتية الأساسية يعتبر غريزة، من حيث الإدراك غير العاقل، فإنني أرى أنه يجب التدقيق بعدد الغرائز عند الكائن الحي ،أو التدقيق بمفهوم الإدراك.

كيف يفهم الإنسان عبارة مثل: (أنت ذكي)؟.. إذا قرأت العبارة تجد لها معنى: (أنت ذكي)، ولكن إذا قيلت في سياق حديث يصير لها معان مختلفة (أنت شديد الذكاء)، (أنت ذكي) و(هل أنت ذكي؟..)، (أنت غبي)، إن فهم العبارة متعلق بسياق الحديث، وقد يتعلق بالكلمتين فقط مع إضافة المؤثرات الصوتية للفظها، وإضافة مؤثرات بصرية، وقد تتعلق أيضا بعلاقتنا بالمتحدث. وفي حين يكون البرنامج الذي يقرأ هذه العبارة لترجمتها باستخدام الكمبيوتر وحيداً ومحددا بإيجاد المرادفات اللغوية من لغة أخرى، يشتغل عليها في دماغ الإنسان مجموعة برامج إنسانية تتفاعل فيما بينها، أهم هذه البرامج هو البرنامج الذي نقول بنتيجته (أننا فهمنا العبارة) فما هو معنى أننا (فهمنا العبارة)؟.. إن الفرق بين عدد البرامج المشتغلة على العبارة وجودتها بين الإنسان والكمبيوتر يمكن تحديده، ولكن ما معنى أننا فهمنا وهل يفهم الكمبيوتر أيضا؟.. وما معنى الإدراك؟.. ما معنى الذكاء؟..ما معنى الإبداع؟.

إن البحث في هذا الموضوع بحاجة إلى مختبرات، ولكن وضع نظرية تعمل عليها هذه المختبرات يأتي بالدرجة الأولى.

الفهم: يرافق هذه الكلمة تمييز للعلاقات الرابطة لموضوع محدد من خلال تعليم الآخرين، يدعمها إحساس قليل بالسعادة.

الإدراك: يرافق هذه الكلمة تمييز للعلاقات الرابطة لموضوع محدد، وتمييز علاقته بالمواضيع الأخرى ذات الصلة من خلال تعليم الآخرين.

الإبداع: يرافق اكتشاف علاقات جديدة بين المقدمات والنتائج لم تكن معروفة ،وحتى تقديم نتائج جديدة، وقدرا كبيرا من السعادة من خلال رد فعل الآخرين.

فهمت = صرت قادراً على معالجة الموضوع في حال حصولي على المعطيات = انتهيت من وضع البرنامج في الدماغ وصار جاهزا للاستخدام وانتهيت من تحديد مميزات المعلومات اللازمة له = انتهيت من تحديد البرامج اللازمة لحل الموضوع وتحديد البيانات اللازمة = انتهيت من تحديد العلاقة بين المسببات والنتائج.

الفهم إذاً من ناحية معالجة قضية محددة هو: الوصول إلى نتيجة صحيحة من خلال تحديد البرنامج الصحيح ،والقدرة على تمييز المعلومات اللازمة من بين مجموعة معلومات وللمرة الأولى، ووضعها في مكانها الصحيح. وما إن نفهم حتى يفقد تكرار العمل هذه الصفة، وهذا ما يجعل الكثيرين يعبرون عن حل الكمبيوتر لموضوع معين بالفهم: (أي إنه ميّز المعلومة التي قدمناها له، ووضعها في مكانها الصحيح، وها هو يعطينا نتيجة صحيحة). الصحيح أنّ الكمبيوتر لا يفهم لأنه لم يميز المعلومة، وإنَّما لقناه إياها تلقينا ونحن الذين وضعناها في مكانها الصحيح. يحدث أن يكون فهمنا خاطئا ،الصحيح أن قرارنا بأننا فهمنا هو الخاطئ لأننا لم نفهم.

هناك تقنيات في طرق البرمجة أكثر فعالية لم نكتشفها بعد لتحسين عمل الكمبيوتر وعلاقتنا به، وأشير إليها بالمثال التالي: إن لوحة المفاتيح تحوي ما يقارب ١٠٠ مفتاح لكل مفتاح وضعيتان، وهناك مجموعة الحروف الإضافية، والأوامر المتضمنة بالمفاتيح أي ما مجموعه ٢٥٦ حرف مختلف تقريبا، المنطق الإنساني البسيط يقول بوجوب وجود ٢٥٦ سلك للتعامل معها، في حين تمَّ تصنيفها وتوصيفها وإيجاد علاقات أدت إلى أن عدد الأسلاك الكهربائية التي تصل بين الكمبيوتر ولوحة المفاتيح هي أقل ب ٣٠ مرة، فإذا افترضنا إمكانية إقامة مثل هذه العلاقة بين البرامج المختلفة سينخفض عدد الاحتمالات لحركة القطع في لعبة الشطرنج لتصبح ضمن الحدود المنطقية. ومثال حديث لهذه البرامج برامج ضغط البيانات، مثلا يتم تخفيض حجم التخزين اللازم لحفظ ملف صور حتى النصف باستخدام برنامج ضغط البيانات.

أخيراً

كثيرا ما نلجأ أثناء صناعة برنامج للكمبيوتر لإضافة حلقات تأخير زمني تبطئ عمل البرنامج في مرحلة محددة لكي نعطي الوقت الكافي للإنسان لقراءة النتائج، بسبب الفروق المختلفة الممكنة في العلاقة التفاعلية بين الإنسان والكمبيوتر، كاللغة والسرعة وطريقة رد الفعل، وكذلك بين الكمبيوتر ووسائط الإخراج الميكانيكية الآلية ،من ذلك قدرة العين على متابعة الحركة، فالعين تستوعب عددا من الصور في الثانية الواحدة فإذا تجاوزناه فقدنا صورا، لذلك نلجأ لآلة التصوير في كثير من أعمال المراقبة الدقيقة، والمشكلة ذاتها يعانيها الكمبيوتر مع الآلة الميكانيكية، كالطابعة، فمثلا أثناء كتابة هذا النص كنت

أستعرضه بأوضاع مختلفة على الشاشة، كان يقدمها بأجــزاء من الثانيــة ،ولكن عندما وجهتــه لاستخدام الطابعــة جلست أنتظر، وكذلــك الكمبيوتــر، وقتا طويــلا بانتظار انتهاء الطابعة من عملها الميكانيكي، ورحت أستخدم لعبة الــورق لأتسلى مع الكمبيوتر بالانتظار. نحن لا نتعامل مع أجزاء المليمتر لعدم قدرتنــا على تمييزها بالعين، في حين يتعامــل الكمبيوتر مع الأجــزاء المجهرية، نحن لا نميز ســوى مجموعة ألوان محدودة بالنسبة للكمبيوتر الــذي يتعامل مع مليون لــون. والأمثلة أكثر مــن أن تعد هنا، لذلك يتوجب علينا عند التعامل مع الكمبيوتر أن نتجاهــل أو نحدد مجال عملــه زمنًا ونوعاً وكمّاً و.. و.. و.إلخ.

إن قــدرة الكمبيوتــر على حــل المسألة أفضل بكثير من قدرة الإنسان على حلها في حال الحصول على المعلومات اللازمة، ولكن من أين أو كيف ستحصل الآلة على المعلومات اللازمــة لموضوع محدد دون التدخل المباشر للإنسان؟.. إن هذا هو سبب التفوق الحالي للإنسان.

الكمبيوتــر باعتباره من صنــع الإنسان يفتقد كل ما يجهله الإنسان، لكنه في الوقت ذاتــه يتفوق علــى الإنسان بــكل ما قدمه الإنسان له من تكنولوجيا حديثة.

هــل نقول إن العقــل البشري يحوي مع تكوينــه برامج عمل لمواضيــع محددة؟.. أم إن البرامــج جميعها يتم وضعها لاحقا أثناء الحياة؟..أم إن العقل يحوي عمليات منطقية غير حسابية (خير/ شر) مع بنائه؟.

ونذكر هنا أن الكمبيوتر يمكن أن يدخل في حالــة عــدم تفاعل مع المحيــط (نفقد التعامل مــع لوحة المفاتيح والفــأرة) كتلك التي تحدث عند الإنسان ولأسباب مشابهة، إذ لا يموت الشخص ولكن لا يكون له أي رد فعل مع المحيط (استجابة) ولا نعرف ما إذا كان يفهمنــا ولكنه لا يستطيــع الإجابة بأي طريقــة، إذ تفقد الإشــارات الكهربائية في الدماغ توجهها أثناء حــدوث المقاطعة، ولا يستطيع العقل، أو الكمبيوتر، تحديد المسار الذي كان يعمل عليه قبل حدوث المقاطعة. لحل هذه المشكلة نطفــئ جهاز الكمبيوتر، ولكن ماذا بشأن الإنسان؟..

إن عمــل الكمبيوتر من حيث: محدودية تعامله مع المحيــط، وتلقينه البرنامج المراد تشغيلــه في زمن محدود بدقائــق، وقدرتنا على السيطرة على جميع خطوات البرنامج، وتحديد المعلومات اللازمة لحل أي موضوع، يختلــف جذريا عن عملية تربيــة الإنسان، التــي هي عمليــة مستمــرة في كل لحظة،

فالإنســان لا يتوقف عن تلقي المعلومات في أي لحظة من حياتــه، حتى وهو نائم يبقى جهــازه العصبي فعالا ولــو بنسبة أقل من حالة اليقظة، ومــن ناحية البرمجة (توجيه ردود الأفعال) فإن هــذه العملية لا تتوقف أيضــا في كل لحظــة مــن حيــاة الإنسان، ويلاحظ أن عملية التعلم في السنوات الأولى تحدد المناحي والمواصفات الأساسية لسلوك الإنسان لاحقا، وضمن حدود تغيير محدودة (الطبع يغلــب التطبع) (التعلــم في الصغر كالنقش على الحجر، صعــب جدا وراسخ جداً).

إننا لحل موضــوع معين نحدد خطوات الحــل بشــكل دقيق جــداً ومتتابــع بشكل لا يقبــل الخطأ، ولكي نقــوم بذلك ندرس الموضــوع ونفهمه بشكل كامل، ونحدد طرق الحــل الممكنــة والمعلومات اللازمــة للقيام بذلــك. إن أي نقص أو عدم دقة في أي من هذه الخطوات سيؤدي إلى حلول غير كاملة. ونحــن أثناء تطوير الكمبيوتــر نعرف هذه المواضيــع وندركها ،ضمن حــدود معرفتنا (الحــد الأقصــى لقدراتنا). أمــا بالنسبة للمواضيــع الإنسانيــة فالوضــع مختلــف: فمعطيات المسائل الإنسانية وطرق معالجتها وحتى النتائج المراد الحصول عليها مازالت غير واضحة، وضمن هذه الظروف لا يمكن وضــع برنامج واضح للإنسان يمكن تطبيقه لينشأ الإنسان إنساناً متفوّقاً.

تحدثنا عن السعــادة وعقاقير السعادة وعلاقتها بالذكاء الصناعي من حيث تبادل الفائــدة مــن تداخل العلاقة بــين الإنسان والآلــة ،و قلنــا أن حصــر استخــدام هذه العقاقــير في حــالات المرض هــو لمصلحة المجتمع، وليس الفرد، في حين أرى أنه يمكن استخدامها بطرق أكــثر فاعلية: ففي حين يجب منعها عن الأشخاصــ القادرين على العمل المنتــج للمجتمع، يمكن فرض تناولها على الأشخاص (الأشرار) في المجتمع، بحيث يفقدون قدرتهم على التفكير بأذية الآخرين، وفي الوقــت نفسه لا نسبب لهم آلامًا تجعلنا في مصــاف غير الإنسانيــين، وكذلك يمكن منحهــا للأشخاص الذيــن قدّموا للمجتمع كل طاقتهم ووصلوا إلى حالة من الضعف لم يعودوا قادرين معها على تقديم المزيد. بهذه الطريقة نقدّم لهــم حقهم من السعادة دون جهــد منهم أو من المجتمع ليقضوا ما تبقى لهــم من حياة بشكل إنساني. ألن يكون ذلك

أكثر توفيراً للجهد الإنساني في سبيل إصلاح ما لا يصلح، وتأمينا لحياة أكثر إنسانية؟..

من الملاحظات الأخرى في هذا الاتجاه، أن طباع الأفـراد في المجتمعات تختلف من منطقة إلى أخرى، وأعتقد أن ذلك يعود إلى وجود أنواع مـن النباتات في مناطق السكن تحتـوي مـواد كيميائية متميـزة تنتقل إلى الإنسان عند تناوله هذه النباتات فيؤثر على العقل بشكل أو بآخر مما يؤدي إلى أن ينطبع أفراد المجتمع على ما تسببه هذه المادة.

نتيجـة أبحـاث فلسفـة الـذكاء الصناعي

هل نحن باتجاه تصنيع روبوت أكثر منا ذكاءً وقدرة؟؟؟؟

هل نحن باتجاه حياة إنسانية مفهومة وموجهة وسعيدة؟؟؟؟



الإبداع

شعر :

قصة :

الإبداع



حين تَعْبَث

شعر

سليمان العيسى ❁

على هامش عاصفة الجليد الرهيبة في كندا..

حينَ تَعْبَثْ

أرضُنا العاثرةُ الجَدِّ بنا

بصخورٍ من جليدٍ عاصفٍ تُمطِرنا

تقصفُ الأغصانْ

❁ شاعر العروبة والطفولة الكبير

❀ العمل الفني: الفنان مطيع علي.

تَنْقضُ الجدرانْ

تتركُ الدنيا ظلاماً حولَنا
حينَ تَعْبَثْ
لا تُبالي بالأُلى تحمِلُهم..
أَعْني بِنا..

❁ ❁ ❁

إنَّها غاضبةٌ مِنّا.. تُراها هل تُلاَمْ؟
عَبِثَتْ حين عَبَثْنا..
والمقاديرُ نيامْ

فجــأةً.. تنفُضُــ عنها بعضَــ آثامِ البَشَر.
فجأةً تُنْذِرُ.. لو تُجدي النُّذُرْ

إنَّها تُنْذِرُ أَعْتانا.. وأعتانا طَغَامُ
يَزْرعون الليلَ وَيْلاتٍ وَرُعْباً..
كي يناموا..

إنَّني أحلُمُ بالأطفالِ..
ما ذَنْبُ الطفولَةْ



حين تجتاحُ أَعاصيرُ الغَضَبْ؟

حينَ، يا أَرض الخطايا تَعْبثينْ
حــين لا مَــأْوى لأكداســِ الصغــارِ الضائعينْ

أَلْجِمي هذا الغَضبْ!
كفكفي ثورتَكِ الهوجاءَ..
رفقاً بالصغارْ!

أَيُّ عَدْلٍ؟

أيكونون الضحايا..

لِحماقات الكِبارْ؟

❁ ❁ ❁

حين أَعْبَثْ..

أتَلقَّاكم بما أَنتم بصدري تَنْفُثُون

أنا لم أَبْداُكُمُ قطُّ الأَذى..

لو تَذْكُرونْ..

إِنَّني أُغْتالُ.. تَغْتالونني ليلاً نهارا

وتعيثون فساداً بيَ سِرّاً وجَهارا

تعلَمونْ..

أَنَّني أَحْنى وارْأَمْ

منذُ أن كنتمُ على ظَهْري،

ورقرقتُ الهناءاتِ لَكُمْ،

أَحْنَى وأَرأَمْ..

أتمنَّى لو سريراً كنتُ للأطفالِ أخضَرْ

أفرشُ العُشْبَ لهم أنَّى خَطَوْا..

أَحْلَى وأَنْضرْ

أتَمنَّى..

فدعوني لِلْمُنى الخُضْرِ..

دعوا الأحلامَ تَحْلُمْ

إننـــي أجمــلُ.. لــو لم تَثْقُبــوا سَقْفــي المنمنَمْ[1]

حين أَغْضَبْ

قالتِ الأُمُّ التي عاتبتُها منذُ قليلٍ،

حينَ أعبَثْ

أتلقَّاكُمْ بما أنتمُ بوجهي تَنْفُثُونْ

من جُنونٍ أسودٍ يَقْتُلُكمْ..

يقتُلُ أبنائي معي لو تعلَمونْ

الهوامش:

١- إشارة إلى ثقب الأوزون الخطر الذي يتحدث عنه العلم الآن.

الإبداع



هم يعشقونك

شعر

محمود مفلح*

إني لأرحل أو أكادْ

يا أيها الزمنُ الرمادْ

لم يبقَ إلا خطوتان ودمعتان.. وبعدها يصلُ الجرادْ!

لاشيءَ يبقى غيرُ قاعةِ الطريقِ لمَنْ أساءَ ومنْ أجادَ!

لم تبقّ إلا الدربُ والأشباحُ والقبلُ الحِدادْ!!

* * *

* شاعر سوري.

العمل الفني: الفنان عبد المعطي أبو زيد.



فاهجــر يراعــك لا تقل عما
تراه طغى وزادْ
أو فاتّشــحْ إن شئــت بالقلــم
المدجّن والمدادْ
يكفيك في «الستين» ترحل من
بلادٍ كم عبرتَ بها السرابَ..
إلى بلادْ..!!
وهمٌ جهادُكَ..
لم يجب أحــد وأنت تصيح في
«الستينَ»..
حيَّ على الجهادْ..
تعــب الطريق مــن الطريق..
وضاق صدرُ «السندبادْ..»!
حتى المطارات التــي كانت تُصفّق حين
تأتيها وتستهويكَ
بيعت في المزادْ..!!
خذ ماء وجهك وانصرفْ
أو فاصطلــحْ فالطقــس مصطلح وهذا
البحر «عالُ العالِ»
لا تعبأ بما زعمــوه أو قالوا عن الأفقِ..
انسدادْ!
منذ انتُبذتَ على الرصيف..
وأنت تجترح اليقينَ ولا تعودْ
وسماؤك الأولى.. فمــن أغراك بالزمن
الجديدْ
قَبسٌ هناك وطلقــة خرساء تبحث عن
فريستها هنا
ودمٌ فريدْ..
والقتل تحت الجلــد ينبت والصغار هم

الضحايا..

والعدوّ هو الشهيدُ!!

لَغمٌ جديدٌ

ضَمّدْ جراحك واحترسْ

قد يُطبقون على قصيدتك الوحيدةِ.. يا

وحيد..!!

الإبداع



بيراموس وثيسبي

قصة

وصفية محبك*

تطل من الشباك وهي تنادي، كأنها تغني:

- بيرامــوســ وثيسبي، تعالا أين أنتما؟ لدي مفاجــأة، لدينا زائرة حلوة، سمـــراء، قادمة من الشرق القريب، ليســت مثلي أنا الشقراء، التي جئت من الشرق البعيد.

من هما بيراموس وثيسبي؟ هل هما من الخدم؟ هل هما ولداها؟ أو اثنان من النزلاء؟ يا إلهي، كم تحب الثرثرة، لا بأس، سوف تسليني من غير شك.

* * *

* قاصة سورية مقيمة في انكلترا.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

تفتح لي الباب سيدة في الخمسين من عمرها، توقعت من صوتها الحميم أن تكون لطيفة وأنيقة، فوجدتها أجمل من الصورة التي رسمتها لها في خيالي، حيتني بحرارة وعفوية، كما اعتادت أن تحييني على الهاتف حتى قبل أن ألتقي بها، عرفتني على أرجاء المنزل، ثم سارت بي إلى الغرفة التي سأمضي الليلة فيها، كل شيء مرتب، كل شيء له موضعه الخاص في البيت، منزل هادئ، جامد، بل ميت، لا صوت ولا حركة، سألتها إن كانت أي من الغرف الأخرى محجوزة، فأجابت إنها جميعاً فارغة، فموسم السياحة لم يقبل بعد، وكانت تتوقع مع انعقاد مؤتمر عن شكسبير في بلدة ستراتفورد أن تمتلئ الغرف كلها بالنزلاء، ولكنها أصيبت بخيبة أمل، فأنا النزيلة الوحيدة، وكأنها تريد منحي غرف المنزل كلها، أصرت أن أشرب القهوة معها قبل أن أنطلق في رحلتي السياحية في البلدة، شعرت أنها في شوق لتتحدث، لتكلم أحداً ما، تريد من يسمعها، جلست معها قرابة الساعة، ثم انطلقت وأنا أعدها بحديث ثان مطول في نهاية يومي.

❀ ❀ ❀

بحثت في المواقع الإلكترونية عن أسماء الفنادق في هذه البلدة الصغيرة، فوجدت الكثير منها، أحتاج غرفة لليلة واحدة، يمكنني أن أستمع لجلسات المؤتمر حتى الثانية، ثم أتجول في البلدة وأزور بيت شكسبير حيث ولد، وبيوت بناته وأقاربه، ثم أنهي جولتي في الكنيسة حيث دفن، وفي المساء لابد من حضور عرض مسرحي في مسرح فرقة شكسبير الملكية، وقعت عيني في المواقع الإلكترونية على فندق يحمل اسم بيراموس وثيسبي، لا أعرف لماذا لفت نظري، كنت قرأت عنهما في مسرحية حلم منتصف ليلة صيف لشكسبير، هي قصة للشاعر الروماني أوفيد ذكرها في كتابه التحول ورواها من بعده جيفري شوسر، وجدت أسعار الفندق مقبولة، أثاث غرفه جميل، موقعه قريب من معهد شكسبير في ستراتفورد حيث سيعقد المؤتمر، هو معهد متخصص بالدراسات والبحوث حول حياة شكسبير وأعماله، تابع لجامعة برمنجهام، جذبني اسم صاحبة الفندق أيضاً كما كتب في الموقع «مريم»، وعلى الفور اتصلت، وحجزت غرفة لليلة واحدة.

ستراتفورد بلدة سياحية بامتياز، تعيش

علــى اسم شكسبير، لا يمكــن أن تتنفس إلا شكسبير هنــاك، فالقرية تعيش على اسمه، أينمــا التفت ترى أثراً منــه، تحمل الفنادق عناويــن مسرحياتــه، والمطاعــم أسمــاء شخصياتــه، واحــد اسمه كورديليــا، وثان ماكبث، وثالث أوفيليا، تردد الساحات اسمه وأسماء أقاربه، تنتشر التماثيل في الحدائق، وتزين الرسومات جــدران المدينة وأبوابها، وتستمــر العروض المسرحيــة على خشبات المسارح المغلقــة والمفتوحة، أمــا نهر آفون فيسير في المدينة وينظــر بعين ساهرة على مئات السياح كل يــوم، يتوافدون من أنحاء العالم في شهر الصيف، واليوم منتصف شهر حزيران، البلدة هادئة، موسم الاصطياف لم يحــن بعد، الجو دافئ يساعــد على التنقل والحركة، مع ذلك لا يمكنني أن أثق بطقس انكلــترا أبداً، ولا أنســى أن أحمل مظلة أو معطف المطر.

– أجيــد الإنكليزية والفرنسية، وتعلمت منــذ طفولتــي الفارسية، وأحــب حروفها العربية، أنــت عربية أليس كذلك؟، وأعرف القليل من الإسبانية والإيطالية، عشت بضع سنوات في إسبانيــا وإيطاليا وفرنسا، كانت أياما جميلة، كنت صبيــة صغيرة، تخيلي.. قدمت من طهران في إيــران، حيث ولدت، إلى هــذه البلدة البــاردة في أقصى الغرب وأنا في العشرين من عمري، جئت مع والدي الضابط المتقاعــد، أذكــر أول أيامي هنا، كانت أياماً صعبة، مع أنني إنكليزية الأصل، ووالــدي من أســرة أرستقراطية عريقة من ويلــز، ووالدتي من إدنــبرة في اسكوتلاندة، توفيت بعد عودتنا إلى انكلترا بعامين، عاش أبــي بعدها عشــرة أعــوام، في نهاية أيامه أصيب بالرعاش، حقيقة كانت الأيام الأولى صعبة، لكن كل شيء تبدل بعد ذلك وتغير.

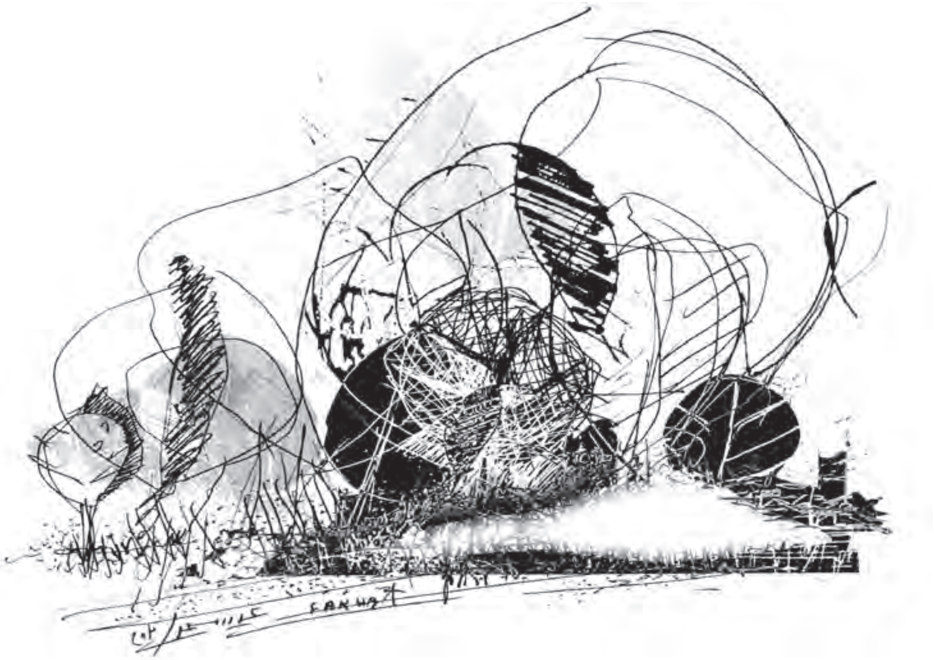
هكذا بدأ حديثهــا ونحن نتناول العشاء معاً.

تلتفت نحو الباب، وتنادي:

– بيراموس وثيسبي، تعالا أين أنتما؟

وتصمت هنيهة، وهــي تترقب، ثم تتابع حديثها:

– عملــت بجــد، بــل دفنــت نفسي في العمــل، حتى تمكنت من شــراء أول منزل، حولته إلى فندق صغير، ثم تمكنت من توفير بعضــ النقــود، وحصلت علــى قرض من البنــك، لأشتري بعدها منــزلاً آخر، وهكذا توالت السنــوات، ومر العمر، شــراء وبيع، تأجير بيــوت ومساكن للطلاب وغرف، ربح وخسارة.



ويستمر نداؤها، بل غناؤها الجميل:

- حان وقت العشاء، تعالا أين أنتما؟

تتوقف عن الحديث بين الفينة والأخرى، وتلتفت إليّ وأنا أتناول طعام العشاء، لتقول لي:

- تناولي من هذا المربى، أنا صنعته بنفسي، أخبريني ما رأيك، اشربي من هذا الشاي، وإن لم تحببه فلدي نوع آخر، هل تريدين أن تسمعي بعض الموسيقا الهادئة في غرفتك قبل النوم، وضعت لك في المسجل شريطاً جميلاً يساعدك على الراحة بعد نهارك المتعب هذا.

أذهلتني الغرفة، شرقية، دافئة، جميلة، ما إن فتحت الباب حتى ولجت داخل عالم ثان، السجاد الفارسي القديم يفترش الأرضية، ولوحات من سحر إيران تزين الجدران، صورة لفتاة إيرانية جميلة ذات عينين سوداوين مكحولتين، ضابط بزيه العسكري يقف بقامته الطويلة، وشاربيه الكثيفين، والأوسمة تزين صدره، هو والدها من غير شك، على أحد الرفوف اصطفت كؤوس شاي وأطباق وصحون مزينة بنقوش ناعمة.

شعرت أني في منزلي، مع أمي، تدللني

وتعاملني كطفل صغــير، أرادت أن أتصرف كأني في بيتــي، اغتسلــت، وتناولت الطعام معهــا، وشربنا الشاي في الحديقة الصغيرة، شاهدنا التلفــاز، ثم اعتــذرت منها لبضع دقائــق، تحدثت مــع أمي، بعــد أن شعرت أني في شــوق لصورة أمــي وصوتها، تمنيت أن أسافر للحظــة إلى حلب كي أعانق أمي ثم أعود، ليت المسافــة قريبة، ليت الأرض تطوى.

- مــا بك؟ يــا ابنتي، لم تتصلــين ثانية، اتصلت بأمك في الصباح، واطمأنت عليك، هل هناك أمر ما؟

أردت سماع صوت أمي وحسب، استمرت تلقــي بأسئلتها القلقة، وأنــا صامتة سعيدة بسماع صوتها:

- سافرت إلى باريس، عشت سنة هناك، عملت في شركة طــيران، وزرت عدة بلدان، وهكــذا أتقنت عدة لغات، ثم استقررت هنا في ستراتفــورد، بعــت معظم المنــازل التي اشتريتها، ولم أبــق على غير هذا المنزل، هو منــزل وفنــدق في آن، شــارع (فورتنبراس) هادئ الآن جــداً، ولكن مع بدء الموسم، يعج بالسياح، موســم واحد يكفيني لأعيش على دخله العام كله.

وتصمت هنيهة، ثم تنادي:

- الحليب اللذيذ بانتظاركما، هيا تعالا، بيراموس وثيسبي.

أثار نداؤها المتكرر فضولي، فسألتها:

- من بيراموس وثيسبي؟

- بيراموس ابني وثيسبي زوجته.

اعتقدت من صمت منزلهــا أنها تعيش بمفردها، لا يمكــن أن تكون بمفردها وهي في الخمسين مــن عمرها، لابد أنها تمضي وقتاً ممتعاً معهما، لكــن أين هما؟ نادتهما كثــيراً، ولم يأتيا بعد، تناولنــا طعام العشاء، وشربنــا الشــاي، ولم ننس قطــع الشوكولا، وهما لم يصلا بعد.

- يمــلآن حياتي بالحــب والأمل، كنت وحيــدة، ثــم أصبحــت أعيشــ لأجلهما، أستيقظ على صراخهمــا، اعتدت أن أسمع صوتهمــا في الصباح الباكر، نذهب للتسوق معاً، نتنزه في الحدائق، هما عائلتي، سترين الآن ثيسبــي، هي تمشي هكــذا، مثل سيدة أرستقراطيــة، وبيراموســ يمشي مثل سيد محترم، يتلفت يمينــاً وشمالاً، يراقب المنزل ويراقب ثيسبي.

في كل مرة تناديهمــا تلتفت نحو الباب، كأنهــا تتوقع دخولهما، وأنــا أظنها تتخيل،

كأنه لا وجود لبيراموس وثيسبي، هل هما شبحان، هل هما روحان لولدين فقدتهما، الناس هنا في انكلترا يؤمنون بالأرواح والأشباح، بل كثيراً ما يعتقدون بوجود الأشباح في المنازل.

تلتفت نحو الباب، وتنادي ثانية، ألتفت أيضاً، يدخل قط وقطة، شعرهما الأبيض كثيف جداً، ناعم، كأنهما وسادتان، أو معطفا فرو صغيران، يتحركان ببطء وهدوء، يتجهان نحوي.

❁ ❁ ❁

ودعتها في صباح اليوم التالي، وعدتها بزيارة ثانية، أهديتها جملاً صغيراً مصنوعاً بعناية من خشب الجوز، كنت قد حملته معي من حلب، فرحت به جداً، لم أنس بالطبع أن ألقي التحية على بيراموس وثيسبي، وأن أدعو لهما أن يبقيا معاً طول الحياة.(1)

الهوامش:

١- ثيسبي فتاة من بابل أحبت ابن الجيران «بيراموس»، اتفقا على اللقاء في مكان ما، وصلت ثيسبي أولاً، ففوجئت برؤية أسد تلطخ وجهه بالدم من بقايا فريسة كان قد التهمها، فهربت مسرعة، وأسقطت عنها من الفزع بعض ثيابها، فالتقطها الأسد ولطخها بالدم، ووصل بيراموس متأخراً قليلاً، فرأى الثياب الملطخة بالدماء، فاعتقد أن الأسد التهم ثيسبي، فقتل نفسه، وتعود ثيسبي إلى المكان، فترى حبيبها مقتولا، فتقتل نفسها.

الإبداع



رثائياتُ رجلٍ حاول النهوض..

قصة

إبراهيم عواد خلف ❀

(جرحٌ أوّل)

أيّ ناهض:

أعــرف عينيك تماماً، أعرف ذلك السواد الــذي يعشش فيهما، وأعرف أن روحــي اقتبست ذات لوعةٍ بعضاً مما يؤرقك، وشيئاً مما يحزنك، وسهماً

❀ قاص وكاتب سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

من نصيبــك في ميراث الحيــاة، واقتبست كل شــيء من التفاصيــل المقيتة التي حذت بك إلى الشطط،.. إلى الجنوح، فقط مجرد الجنوح وليس الجنون، كما يطلقون عليك.

أنت جنحت بخيالك وأحلامك وبعينيك إلى أفــقٍ لم نــره، ما زلت على قيــد القلق، وعلى ذمــة العقل، وما زال الهــواء الفاسد يدخل رئتيك ويخــرج نقياً إلى العالم المكتظ بالخنقة..

ولعلك فقدت شيئاً من الذاكرة، وفقدت منزلك الخــراب، وعائلتــك وأهلك، لكنك حصلت على حرية الهذيان والحمى في زمن بارد كأجساد الموتــى! ونالت فرشاتك لأول مرة حرية الحراك، ونزف اللون الذي تريد بالطريقــة التي تريد، خرجــتْ عن حدود اللوحة الضيقة لترسم على الفضاءات التي تنداح مــن حولك وترسم وترســم، وتستلذّ برسمها، فقد منحتها الحياة، ومنحتك معها متسعــاً للصراخ واللهاث، لذلك أرى شبحك الذي لا يــكاد يــرى متسكعــاً في الشوارع المقفــرة، نحيلاً، وطويلاً سمــق بقامته بما يكفي ليبصر أبعد من غيره!.

وأذكر -أعوذ بــالله من كلمة أذكر- أني حادثتــك ذات غــروب، أواسيك في حديث طويــل عــن الذاكرة وقد وهبــك الله نعمة فقدهــا، وعن لوحةٍ لفنان مغمــور لشدّ ما أعجبتني في صحيفــةٍ محلية، وحين طلبت رؤيتها، سرحت بتفاصيلها، ولازمت مجلسي وقتــاً طويلاً تنعم النظر بصورة هيكلٍ آدميّ تكــوّر على ذاته بشدة، داخل قفص زجاجي ضيــق كُسرت إحدى زواياــاه، وخرجت منها القدم الآدمية كبيرة بحجم القفص الشفيف، ومنطلقــة تبتعد بساقها في إشارةٍ عن التوق للهرب من زحمة النفســ وضيق الكون من حولها..

ولأنك وجدت في اللوحة ما يؤرقك فعلاً، ويشغل تفكيرك ويشله، فقد تكرر حضورك الجميــل إليّ، طالباً أن تــرى الصورة التي بدأت ألوانها تبهت بــين أصابعك المتعرقة، لكنك كنــت حــذراً وخائفاً تتطلــع حولك باستمرار على الرغم من أنك فقدت عقلك (كما يرى الآخــرون)، ربما لأنك هربت من

مصحّ الأمراض النفسية غير مرة، وربما لأن القلق -كالهواء- مجبرين على استنشاقه في مدينة تغتسل أرصفتها بالخطيئة!.

دخلتَ غرفتي المطلة على الحي الصناعي في فندق (الجامعة العربية)، ولم تستأذن أحداً بالدخول أو الجلوس على كرسي الخيزران بالقرب مني. طلبت للمرة الخمسين ربما، الصورة ذاتها، تبسمت كطفل بريء، ثم أخرجت من عبّك أوراقاً لا شكل لها، دفعتها إليّ، فشرعتُ بقراءتها حتى قبل أن أتناولها منك، كنتُ تواقاً لأعرف شيئاً عن ماضيك غير كونك رسام ومصاب بمرض عصبي مزمن!.

هل تدرك أنك قدمت لي سجلاً بخط يدك عن حياتك السابقة؟ وهل تعي أنك أطلعتني على مذكرات تبدو معاناتك فيها حتى بالخطّ وطريقة رسم الكلمات؟!

أشكرك على أية حال، أيها الرفيق الدافئ، فكلانا غريب في هذه المدينة الكبيرة الصغيرة، أنا أنتظر عملاً أنجزه، ثم ارتدّ إلى حيث انطلقت قبل أيام، وأنت قدّيس في شوارع (مجنبة) رفضتك ونأت عنك..، كلانا محكومٌ بالزمن والجهات..

وقبل أن تسقط الصورة من يديك، كنت قد أرخيت رأسك على مسند الكرسي، ثم سافرت في إغفاءةٍ عميقة، أما أنا فقد شرعت أقلب أوراقك التي لا تشبه بعضها، وأبدأ بقراءة مذكرات رجلٍ فقد عقله.. وهو يكتبها:

(جرحٌ ثان)

استهلكتني الحياة، أنا الذي حاولت أن أرسمها حتى بدمي، تغافلت عن اهتمامي بها، تجاهلتني، ورويداً رويداً استهلكتني كسلعة لمّا تعد تلزم..!؛ عشرات، بل آلاف الصور المعرَاة، تكومت في مخيلتي، وحين لم أجرؤ على تعريتها -فنحن في مجتمع شرقي محافظ- رسمتها صوراً (كاريكاتورية)، لكنَّ أحداً لم يعرها أدنى اهتمام، ومثلتها بلوحات تجريدية، فلم يفهمها أو يفك طلاسمها أحد، عدا بعض الذين وصمهم الدهر على وجوههم بإبهامٍ من لهب، فأصبحتُ أعرفهم وأميزهم من نظراتهم..



سيماهم في عيونهم من أثر التشرد..!.

تلذعني اللوحة، تقرصُ راحتي، تمتصُ كريات دمي السوداء، وبعضاً من ساعات نومي القليلة، ترتجفُ يدي كثيراً وأنا أحاول ترويض قلم الفحم الهائج بين أناملها، وحين تولد اللوحة على الورق، ولادة طبيعية أو قيصرية، ترفض مكاتب الصحف والمجلات.. أن تشتريها ولو ببعض الليرات، ينصحني البعض من أصحاب الرأي والمهتمين بالفن أحياناً بإتلاف اللوحة، فلربما جرجرتني وراءَها إلى بيت خالتي، ولم يكن لي خالة، فأمي كانت الوحيدة على ستة أو سبعة أخوة!

وكثُرَ الناصحون حتى من أهلي، ولم يطلبوا لقاء النصيحة جملاً أو دجاجة، بل سجلوا عليَ أنهم عذلوني عن هذا الدرب، فبقيت ضالاً وعاصياً.

زوجتي ضاقت ذرعاً بالفقر، أمي تنصحني بالعمل مع أخي، فهو مستور الحال، ويخلص لقمته من فم الذئب على حد تعبيرها، لكنَّ أخي لم يكن غير كاتب استدعاءات، يجلس على طاولة حديدية

صدئة، مربوطة إلى كرسي صغير بسلسلة من حديـــد أمام إحدى الدوائر الرسمية، فيبدو كأنـــه مربوط مع الطاولـــة والكرسي، تحت سطـــوة الشمس ولسع الـــبرد، يبيع الطوابع حيناً، يعقِّب المعامـــلات، ويعود قبيل المساء وفي يديه ما يسدُّ الرمق ويمسك الحياة إلى نهار الغد.. نعم إنه مستور الحال!!

أما ولـــداي اللذان لم يبلغا أشدهما، فما زالا يلحان عليّ لأشتري لهما ألواناً وفرشاةً ويرسمـــان البيت الذي بـــدا يخلو حتى من أثاثه!.

ومن يومها أصبحت أخاف عليهما كثيراً، فالخيبة تورّثُ كلون العيون!.

(جرحٌ ثالث)

لم أكـــن لأقطع أذني كما فعل (فان كوخ)، فالحيـــاة تشدها كل يوم بأكـــفٍّ من حديد، وربمـــا قامت بهذه المهمة نيابة عني، ولم أكن لأنتحـــر بالســـمِّ أو الرصاصـــ أو بلفِّ حبل سميـــك على رقبتي، فأنا أمـــوت ألف ميتة في كل قطعـــةٍ مـــن الزمن. ولعلـــي أجد من المبررات ما يدفعني لتصرّف أحمق يودي بي إلى النهاية، وأجد من الترقب والتجديف في فسحة الأمل الضيقة ما يمسكني عن الموت، فأبدو أكثر حمقاً وسذاجة، ما يؤرقني فعلاً هو محاولة النهوض بأعبائي وأحلامي، وما يؤرقني أكثر هو الاسم الذي ليس لي منه أي نصيب..

التوقيع: (ناهض).

كتبت هذه الأسطـــر من مذكرات اليوم، بعـــد أن خرجت من معرضـــٍ للرسم أقامه أحدهم ممن يدعون الفن، وبعد أن تفحصت الجدران الأربعة وسقفها، لم أجد ما يستحق الانتباه عدا إطارات اللوحات والبراويز التي شغلت بعناية فائقة.

عشرات الحضـــور يصفقـــون للموهبة الجديـــدة، يتسابقـــون في حجـــز اللوحات بأسمائهم، الكاميرات لا تفتأ تلتقط الصور، والصحافـــة أنشط مما عهـــدت، أما النقاد فيصفـــون صاحب المعرضـــ الكبير والاسم الكبير بأنه: مدرســـة فنية حديثة!! خرجت مستعجـــلاً، يسبقنـــي إلى الخـــلاء لهاثي، ويجري خلفي ثلة من مبدعي العصر الذين

قضـوا انتحاراً، بشعورهـم الكثة، ولحاهم التي استطالـت كحبال المشانق، بينما كانت زمامير السيارات أحرص مني على حياتي، تسمّرت في مكاني، ومـا زالت صور النقود الورقية التي انهالت على (الرسام) مطبوعة في عينيّ، ولعلي سأشهد شهادة حقٍّ بأن من أبدع لوحـة العملة الورقية، لهوَ أعظم فنانٍ عرفته. أو سمعت عنه!.

عدت متسللاً إلى الحارة، يداي فارغتان، جيبي فـارغ، معدتي خاويـة، ولا شيء في ذاكرتي غير الفراغ.

(جرحٌ آخر، وليس أخير..)

يومان متتاليان، ولم ألتق بصديقي ناهض، كان عليّ قبل أن أغـادر المدينة، أن أتفقده وأسـأل عن حاله، شعورٌ بالقلق راح يدفعني لأتحـرك صوب المقهى الذي كنا نتردد عليه باستمـرار، جلست إلى الطاولـة، وقبل أن أطلـب إلى النادل شيئاً بادرته بالسؤال عنه، جلس النادل قربي، وراح يتحدث عن النوبة العصبية التي ألمت بصاحبي، فبعد أن رسم بالطين خرابيش مبهمة على جدار بيت كبير في الحـارة، تهجّمت عليـه صاحبة البيت، صرخت عليه أمـام الجميع، وطلبت منه أن يغسل الطين عن جدارها الأبيض، وقالت له بصوت يشبـه الصراخ: اذهب وافقد عقلك في مكانٍ آخر..، ثم ساءت حالته أكثر، وراح يبحث عن أي قطعـة زجاجية في شباك أو واجهة محـل، ثم يكسرها، ويحـاول الولوج مـن خلالها، يصمت النـادل قليلاً، ويختم حديثه بـ «لا حول ولا قوة إلا باللّه»، ثم يعود ويستأنف الكلام من جديد..

آخر شـيء علمته عن صديقـي أنه تمَّ تطبيق الحجر الصحي عليه. أدخلوه المصحَّ عنوة بعد أن كثرت شكاوى الجيران، فلم تعد هناك قطعـة بلّور في الشـارع على حالها، حتـى نوافذ منزله حطمهـا بعد أن غادرته العائلـة لتستقر بعيداً عنه، ولأنه كان يقحم قدمه اليمنـى في كل فتحة أو شرخٍ يحدثه، فقد نزفـت ساقه الكثير من الدماء، حتى لم يعد يستطيع الوقوف عليها!.

ساعتها فقط أدركت أنني ساهمت بعذابه بتلك الصورة التي أعطيتها له، فحين ضاق

الوجود عليه انطلق يقلد الشخص المقيد في اللوحة، ويبحث عن فجوة للهرب من الضيق الذي تغلغل في خلاياه، لكنه لم يعلم أنني من رسمت تلك اللوحــة تعبيراً عن حالة مررت بها، ونشــرت الصورة في صحيفة محلية، ولم يعلــم كذلك أن الهرب عــبر صدوع الزجاج سيعيده إلى المــكان الذي حاول الهرب منه، ولكن بجروحٍ جديــدة. وبآلامٍ أكثر..، نسيت أن أحــذره مــن تقليــدي في ساعــة جنوحٍ وجنون، نسيت ذلــك، نسيت..، لا حول ولا قوة إلا بالله.

آفاق المعرفة

آفاق المعرفة

مع امتداد الطريق

د. عبد الكريم الأشتر ❀

-١-

لبث الفتى، وهو ينتظر نتيجة قَبوله في معهد إعداد المعلمين للتعليم الثانوي - وقد سمَّوه يومذاك «المعهد العالي للمعلمين» - يعمل معلماً وكيلاً في إحدى مدارس حلب الابتدائية، تجاور بيوتاً تسكنها طائفة من يهود المدينة. وكانت أحداث القضية الفلسطينية، بعد إعلان «الدولة» والإخفاق في الحرب العربية التي صاحبتها، تستولي على عقول الناس. وكان الفتى سافر إلى دمشق وقابل اللجنة التي تتولى فحص المتقدمين إلى «المعهد»،

❀ أستاذ جامعي وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

مع طلب الانتساب إلى كلية الآداب التي لم يمض على إنشائها، في جامعة دمشق، أكثر من عامين.

وليس ينسى الفتى فرحته بالنبأ الذي حمله إليه أحد رفاقه، مساء أحد الأيام، عن رؤيته اسمه بين أسماء المقبولين في «المعهد»! خرج من المدرسة، تلك الساعة، وسار في الشوارع المحيطة بها، وفرحته تخالطها غصص النظر إلى البيوت التي يسكنها اليهود، من حولها، وقلق رحيله إلى عالمٍ جديد.

وكان أخوه سبقه في السفر إلى دمشق، وسكن، مع زميلٍ له، غرفةً في شقة هادئة مكونة من ثلاث غرف، تشغل صاحبتها واحدة منها، ويشغل الثانية الدكتور عبد الكريم اليافي العائد حديثاً من فرنسة. فانضمَّ الفتى مع أخيه، إلى جوار الأستاذ اليافي، وكانت تلك الأيام هي المقدمةَ التي حاكت الأقدار خيوطها، لصلة الفتى الغنية به، من بعد.

وكانت الجامعة، على اختلاف كلياتها وأقسامها، شغلت، بعد التحرر من سلطة الانتداب، ثُكنة عسكرية كبيرة معروفة، في حيّ البرامكة، اتسعت لمدرجاتها وهيئاتها الإدارية. وانتقل إلى العمل فيها جملة من الأساتذة، كان بعضهم، لقلة المختصين يومذاك، يعمل في المدارس الثانوية. ووجد بعضهم، ممن كان أُوفد للدراسة في الغرب، الباب مفتوحاً إلى أقسام الدراسات المختلفة فيها. وكانت كلية الآداب الحديثة أنشئت فيها وفق البرنامج الذي رسمه ساطع الحصري، المستشار في وزارة التربية يومذاك، وجمع فيه، في وقتٍ واحد، بين الدراسة في كليتي الآداب والعلوم وبين الدراسة في «المعهد»، لتخريج المدرِّسين المؤهَّلين للعمل في الثانويات.

لم يكن عدد الطلاب كبيراً في المدرَّجات، في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي (١٩٤٨ - ١٩٤٩)، يكاد عددهم لا يتجاوز الأربعين. وكانت الدراسة تتَّبع نظام «الشهادات» وإن كانت تضم، في كل سنة، مواد لغوية وأدبية تتدرج في مستوياتها، على السنوات الأربع.

دخل الفتى المدرَّج، وهو يتطلع في وجوه زملائه وزميلاته، يرجو أن يرى فيهم فتاته التي عرفها في السنة الماضية، في زيارته بيتها. وقد رآها تدير وجهها إلى إحدى زميلاتها وتتحدث معها، فحاول أن ينصرف عنها إلى المحاضرة التي يلقيها أستاذ في تاريخ العرب والإسلام، يعود فيها إلى مجموعة من الأوراق تحمل أهم ما يريد أن يستخلصه من الدرس. كان طويلاً عريضاً

يروع شكله، ولكنه يوحي لناظره بالطيبة.

أخذ الفتى يرقبه. ثم عاد فانصرف، من جديد، إلى مراقبة الفتاة وقد انحدر عن رأسها، من الخلف، شعر أسود غزير، انزاح عنه الشال الذي يمسكه، فدار من حول العنق. وكانت، حين تلتفت، تتكشف أطراف منه، على نحوٍ لا يعرف اليوم كيف كان أثره فيه!

ثم حاول أن يعود إلى الدرس، فوصل إليه صوت الأستاذ واهناً متقطعاً لم يكد يعي منه شيئاً. ويذكر أنه زار هذا الأستاذ، من بعد، في بيته، فرآه ينصرف إليه بحنوٍّ بالغ يدفع عنه شعوره بالحرَج! لقد أبقى في نفسه، على مدار العام، أثراً طيباً يتملاه إلى اليوم. والذي بقي منه، في نفس الفتى، معنى من معاني الالتزام بالموضوعية، في الحكم على الأحداث، وبالمنهج العلمي في استقرائها والرجوع إليها.

.٢.

عرف، في سنته الأولى، من أساتذة الكلية و«المعهد العالي للمعلمين»، ممن رافقهم في السنوات التالية: الأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور أمجد الطرابلسي. وعرف معهما: الأساتذة عز الدين التنوخي، وإبراهيم الكيلاني، وحكمة هاشم، وعبد الهادي هاشم، إلى جانب الشيخ محمد بهجة البيطار، ومحمد المبارك، وخلدون الكناني، وعبد الكريم اليافي، وجميل صليبا، وعادل العوَّا، وجودت الركابي، وشفيق جبري (عميد الكلية) وأساتذة آخرين.

كان سعيد الأفغاني، أستاذ مادة النحو، لا يحمل اللقب العلمي الذي يحمله غيره من أساتذة الكلية. ولكنه كان، فيما يرى الفتى اليوم، قريباً من مناهج التعليم الجامعي. رآه الفتى يجمع مادة كل سنةٍ فيقسمها بينه وبين طلابه: يتولى هو تدريس أكثرها حاجة إلى الشرح، ويدع للطلاب أن يتولَّوا، من بعده، إلقاء ما يتبقى منها على زملائهم، ويقعد هو يتولى الاستماع إليهم، ويستقبل ما يرِد عليه من مداخلاتهم وردودهم، ويناقشهم فيها.

وكان، إلى جانب هذا، يُحسن تقويم الطالب، ويحفظ قدْر العلم، ويقف عند حدود ما يعرف منه. لا يستحيي، أحياناً، أن يقول لِمن يسأله:

- انتظر، سأعود إلى المسألة من بعد!

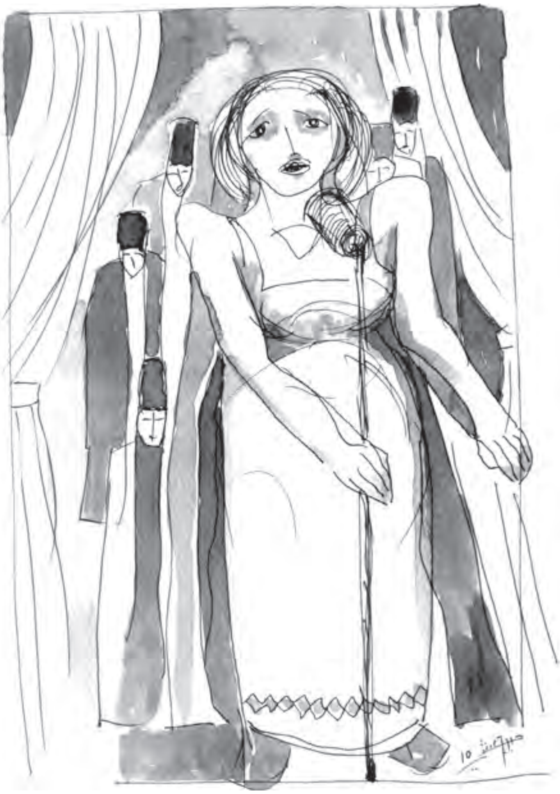
كان ينتسب إلى ثقافة محافظة، يبدو شديد الغيرة عليها. ولعل اختصاصه أعانه على التمسك بها. فكان هذا من أسباب الخلاف بينه وبين كثير من الناس.

على أنه يبدو للفتى مستلطَفاً في بعض

الأحيـان، كأنمـا يستشعر حاجة الطلبـة إلى الترويح. ويـراه ربما أدركتْه الدعابة الخفيفة، وهو على المنـبر، فصاغها، علـى طريقته، صياغة جهْمة لا تكاد تثير الانتباه. سمعه الفتى يومـاً ينادي الطالب الذي كلفه بكتابـة بحثٍ عن (ابن جنّي)، ليلقيـه على زملائه، فقال له:

- قم يا «جنّي» فألقِ بحثك!

لم يـزد عليهـا شيئـاً، كما لو كان ناداه باسمه، ثـم لم يتعدَّ هذا الحدّ!



قصير القامـة، بادي النشاط، يتنقَّل في ممرات الجامعة كالظل، شديـد الثقة بقدراتـه. رآه الفتى يومـاً، وهو على المنبر في قاعة الدرس، وقد فُتح عليـه الباب ودخل منـه رئيس مجلس الوزراء يومـذاك (الدكتور محسن البرازي)، ومعـه رئيس الجامعـة، يريـد أن يستطلع أساليـب الدرس في كلياتهـا. فاستهـوى الفتـى أن يستطلع، في هـذا الموقف، حال الأستاذ الذي لا يحمل الشهادة التي يحملها الآخـرون. رآه لم يكد يحـرك ساكناً، وتابع درسه كأنه لا يراهما، إلا أنه ضمَّ إليه سترته وعقـد أزرارها. ثم إنـه لم ينزل عن المنبر، ولم يخاطب الزائرَيْـن، ولم يتوجه إليهما إلا بالتحية العابرة الأولى!

وكان، كمـا ينبغي لمثلـه أن يكون: حادَّ المزاج، شديد الصلابة، قوي العزيمة، حديد اللسان. لعلـه كان يؤذيه أن يستشعر ضعف موقفه، بين زملائه وأمام طلبته، في الحرمان من لقب الشهادة، فكان ربما قال لتلميذه إذا أخطأ، على مسمع من الطلبة:

- «كأنك يا ابني درستَ في السوربون»!

يعرّض ببعض زملائه الذيـن قدموا بشهاداتهم من فرنسـة! وقد حكى الدكتور

إبراهيم الكيلاني للفتى، بعدها، فقال: إن الأفغاني، أيامها، لم ينجُ من تعنيف بعض زملائه له، حين بلغتْهم كلمته!

وبلغ أن يهدي إليه الدكتور الكيلاني، خرِّيج فرنسة، كتاباً من كتبه، فأحب أن يجزي الهدية، فحمل كتاباً من كتبه في النحو، واقترب منه يهمس في أذنه:

- «هل تحب أن تقرأ كتاباً في النخو» (بالخاء)؟

كما لو كان يتوجه بالسؤال إلى أحد «الخواجات»!

كان، في حدود تكوينه الفكري، كما بدا للفتى، يَعدُّ نفسه صاحب رسالة يحامي عنها. يفهم موقع التراث، من حياة أمته، فهماً عميقاً يجعله يقف منه موقف القداسة. إذ يكوّن، في رأيه، شخصية الأمة ويحرس هويتها الفكرية والوجدانية. فمن ثَمَّ يخاف، باسم التحديث أو التجديد، أن تُحرَّك الأسس التي يقوم عليها.

ثم إنه لم يُهيأ له أن يلمّ بالثقافة اللغوية الحديثة، ولعل هذا لم يهيأ لجيله كله، فبقي يدرج، في تعليم النحو، عند الحدود الموروثة.

ساءت علاقة الفتى به أمداً. وربما زاد الأمر سوءاً سوء علاقته بأخيه زمناً. ثم استقامت الحال، وذاق الفتى من برّه واستقامته وتواضعه ومباسطته ما بات يذكره إلى اليوم.

وقرأ الفتى وزملاؤه، مع الدكتور أمجد الطرابلسي، أستاذ الأدب والنقد، على مدار الأعوام الأربعة، نصوصاً من شعر الجاهلية، ووقفوا معه عند شعر زهير بن أبي سلمى وقفة طويلة. وقرؤوا أيضاً نصوصاً من كتاب (الكامل) للمبرِّد. ورجعوا إلى نصوص مختارة من نقد المعري في (رسالة الغفران). وطافوا بالنقاد العرب القدامى، ووقفوا على القضايا التي أثاروها في كتبهم.

عرف الفتى أن الدكتور الطرابلسي بدأ حياته يقول الشعر، قبل أن ينقطع إلى الدرس والبحث. وكان يقرأ كتبه وكتب الأستاذ الأفغاني، فيجد لغة الثاني أغنى إحساساً وأقوى نفوذاً وأكثر ليناً في الوصول إلى مراميه، فيعجب لهذه المفارقة، وينصرف إلى درس أسبابها، فما يجد آخر الأمر غير الرجوع بها إلى التكوين.

كان، فيما بدا للفتى، يعاني، في حياته، من بعض العثرات، ثم ما يجد سبيلاً إلى حلها. فيجعله التسليم بما هو فيه حادَّ المزاج، صعباً أحياناً في مواقفه من الآخر.

وكان يراه، من جهة أخرى، متين التكوين، منفتحاً على ثقافة العصر وقيَمه. أفاد من دراسته النقدية، ما جعله يميل إلى الشمولية

في الأحـــكام، وإلى سعـــة النظرة الأفقية في مسائلهـــا وجزئياتها. ولكنـــه يراه، مع هذا، لا يتعدَّاهـــا، أحياناً كثيرة، إلى البعد الثالث، يعني الذهاب في العمق! وقد يصلح، في رأي الفتى، أن يُتخَذ، من بعض أحكامه النقدية، مثال على ما يذهب إليه.

علـــى أنه يـــراه، آخر الأمـــر، فتح، أمام الطلبـــة، أبواباً في الدرس أفـــادوا منها في قراءة تراثهـــم الأدبي والنقـــدي، على نحوٍ مكَّنهم من الرجوع إليه والإفادة منه.

وتبقـــى في نفـــس الفتـــى، مـــن هذين الأستاذين اللذين انفـــردا بدرس أهم المواد في برامـــج الكلية، بشهاداتهـــا الأربع، بقيةٌ لا يستطيع أن يكتمهـــا. فقد كانا، في جملة مواقفهما، مـــن الناحية التربويـــة، بعيدين عـــن الطلبة إلى حدود إحساسهـــم، أحياناً، بالانقطـــاع عنهمـــا. وكان يخطر للفتى، في الساعـــات التي يتولى الدرســـ فيها أساتذة آخـــرون، مثل الدكتـــور إبراهيـــم الكيلاني أو الأستـــاذ عز الدين التنوخـــي، أو الشيخ البيطـــار، أو الدكتور اليـــافي، أن يجمع بين مـــا كان يحسه في الساعـــات التي يجلسون فيهـــا على منـــبر الدرســـ، والساعات التي يجلس فيها إليهما، فوجد نفسه موزعاً بين إحساسين متغايرين!

أمـــا الدكتـــور الكيلاني فـــكان مثلاً في لين الجانب وأُنْـــس المعاملة، يباسط طلابه ويداعبهم، وينقل إليهـــم صوراً من ذكرياته وتجاربه، وهو يقـــرأ النصوص ويستخلص معانيها ودلالاتها التاريخية والإنسانية. وكان يقرؤهـــا في ضوء حقائق العلـــوم الإنسانية، ويفيـــد منها في فهم النفوســـ، ويصل منها إلى مواطن كان الفتى يجدها، على غرابتها، بالغة العمق. وقد امتدت صلته به، من بعد، حتـــى صار يجلس إليه، مـــع بعض الرفاق، ساعات طويلة.

وأمضى الفتى وزملاؤه، مع الأستاذ شفيق جبري، عميد الكلية، أيضاً ساعات غنية، في الاستماع إلى محاضراته عن شوقي، وما وقع في صحبتـــه له، في دمشق وزحلة، من طُرَف المواقف وأسرارها، وصل فيها إلى أن يقول، في رده على بعض المداخلات:

– نعـــم، لقـــد كان شوقي يشـــرب «حتى تُرعَش يداه»!

ومـــع الأستاذ محمد المبـــارك، في جمعه بين اللغة العربيـــة وخصائص تكوين الأمَّة، من الناحيتين الفكرية والروحية. ومع جميل صليبا في جمال صياغاته، عند تناوله بعض القضايـــا التربويـــة والنفسية. ومـــع الشيخ البيطار في عمق تقواه ونفوذ تحليله لبعض الآيات في نصوص القرآن الكريم. ومع عبد الكـــريم اليـــافي في سعة ثقافتـــه واختلاف

ميادينهــا وامتدادها إلى الآفــاق الصوفية العذبة.

.٣.

وغَنِــم الفتى، في هــذه المرحلة، رفيقين طيبين مــن أسرتين معروفتــين في دمشق، تعودان، في أصولهما، إلى القطر الجزائري. وكان أبواهما من أعضاء مجمع اللغة العربية الــذي يرأسه محمد كرد علــي، هما الشيخ محمد بهجــة البيطار والشيــخ عبد القادر المبارك. فتألفت مــن الثلاثة حلقة متآلفة، حلا لبعض زملائهم أن يطلق على أعضائها لقب «الفرسان الثلاثة».

وقد مضــت أعوام الدراســة الجامعية الأربعة وهم على ما بدؤوها من الألفة. وكان الفتى يُمضي بعض ليــالي الامتحانات، في بيت زميله عاصم ابن الشيخ البيطار. ويذكر ليلة منها وقعت في شهر رمضان، شهد فيها من ورع الشيخ البيطار، وقت السحَر، وخوفه من فوات الوقــت على لحظة الإمساك عن الطعام، ما أصبح الفتــى يذكره، إلى اليوم، عند كل سحَر من ليالي رمضان. وكان يغفو علــى خرير الماء المنبعث من البركة الصغيرة «الفسقية» في أرض الدار، ويُفيق على دعوة الشيخ إلى طعام الإفطار!

مع هذين الصديقين، غَنِم صديقاً آخر، كان صديقاً لأخيه من قبل، وهو أحمد راتب النفاخ. وكان لــه، في حياة الفتى، أثر كبير. كتب فيه ما لم يكتبــه في فقْد أخيه. رآه من أصــدق مَن عــرف من الطلبــة، في سنواته الجامعيــة الأربــع، ومن أعلمهــم بالعربية وآدابهــا، وأقربهم إلى الإنســان الحق. نعِمَ الفتى، في صحبته، بمحبته الصافية، وعانى أيضاً مــن غضبه، في موقــف أو موقفين. ولكنه لم يكفَّ عن محبته وتقديره أبداً.

وعرف، من رفاق المرحلة: شاعر الجامعة المرح أيامها، محمد الحريري الذي كان ينشد الشعر في بعض المناسبات القومية المواتية، ومدّحــة عكّاش الذي أنشــأ، من بعد، مجلة «الثقافة» الدمشقية، وميخائيل أديب صاحب الانتمــاء الصــادق إلى القوميين السوريين. وقد كانــت له، مع الأخير، جــولات حامية ذات صبغة فكريــة وأيديولوجية سياسية لم تمنع من زيارته، مع صديقه عاصم البيطار، في قريتــه الفريدة «مرمريتــا». وقد شهدا فيها، من كرم الضيافة وجمال الصحبة، ما امتد أثره في حياة الفتى، إلى مدىً طويل.

وعرف، من زميلات المرحلة أيضاً، نبيلة الــرزاز التي تقدمتْ في الدرســ، ووفتْ به حتى كانت من أحسن زميلاتها وأقربهنَّ من التفوق فيه، وفي نتاجها الأدبي، من بعد.

.٤.

لم يكــن الفتــى يخلد، وهــو يتابع درسه

في الجامعة، إلى الراحة. فقد درَّس النحو والأدب في بعض معاهد دمشق الخاصة، إذ لم يكن المرتَّب الذي يدفعه له «معهد إعداد المعلمين» يكفيه. وكان عمله فيها التجربةَ الأولى لعمله في الإعداديات والثانويات الرسمية، بعد تخرجه في الجامعة. وقد أفاد من خطئه وصوابه فيها، إذ ازداد يقيناً بتكامل المعرفة والتدرج في تحصيلها، وتفرُّد هذا الأسلوب في السعي إلى النجاح فيه.

ثم إن الفتى شارك زملاءه وبعض أساتذته في الرحلات الجامعية، فزاروا مواطن كثيرة عززت من روابط الألفة بينهم، وقرَّبتْ بين الأساتذة وطلبتهم، وأبقت في ذاكرة الفتى صوراً كثيرة يستعيدها ويأنس بها. وكان لبعض زميلاته دور فيها غابت عنه زميلته الفتاة التي عرفها. إذ انقطعت عن الجامعة، في نهاية العام الجامعي الأول، فما عاد يراها إلا في مواقف سريعة عند باب المدرَّج.

وشارك، في العام الجامعي الثاني زملاءه، في رحلة قاموا بها إلى السويداء في جبل العرب، وانضمَّ إليها بعض الأساتذة: الدكتور اليافي، والدكتور الطرابلسي، والأستاذ التنوخي. وهي زيارته الأولى إليها. فكان، وهو يسير في طرقها، يرى التاريخ يسير معه على الجانبين، متمثلاً في بقايا الأعمدة والجدران الرومانية والبيوت والمدرَّجات والحمّامات، فيعمق إحساسه بمكانة وطنه التاريخية، ويعلو اعتزازه بها. وقد بلغه، من بعد، أن أستاذه التنوخي يعود بأصوله إلى الجبل وساكنيه.

وفي صيف العام الأول (١٩٤٩) نُظِّمت رحلة جامعية إلى تركيّة، في عهد (المشير حسني الزعيم)، وتحسُّن العلاقات السورية التركية، اشترك فيها الأستاذ الأفغاني إلى جانب الدكتور عبد الكريم اليافي والأستاذ عز الدين التنوخي، وجمعٌ من طلبة الكلية، وكانت الزيارة من بواكير الصلة التي قامت بين الطلبة الجامعيين في سورية والطلبة الأتراك. وكان عز الدين التنوخي خير من يتحدث بلسانهم، في جلسات الالتقاء، إذ كان يجيد التركيّة. وتحفل ذاكرته بأحداث نفيه إلى العراق، في أواخر أيام الدولة العثمانية. وقد سمع الطلبة من زملائهم الأتراك ما جعلهم يسترجعون ذكرى تحالف الشريف حسين مع الحلفاء ضد السلطة العثمانية، أواخر الحرب العالمية الأولى، ووجدوهم لا ينسَون هذا التحالف، ويقرب أن يعدوه ضرباً من الخيانة.

وقد قرَّبت الرحلة بين الطلبة وبين أساتذتهم الثلاثة. يذكر الفتى أنهم أخذوا يتبادلون الأحاديث وهم على ظهر المركب،

عائدون من زيارتهم لجزيرة (بيوكْ قضا) طافوا خلالها بعض أنحائها. وكان بين الطلبة عاصم ابن الشيخ البيطار، فأخذ الأستاذ التنوخي يذكر أباه ويثني عليه، وكان من أقرب أصدقائه إليه. وأدركتْه نزعته إلى الشعر، فالتفت إلى الطلبة المتحلِّقين من حوله، وصاح فيهم:

- أجيزوا... «الشيخُ بهجةُ زينة الأشياخِ»

فأخذ الطلبة ينظر بعضهم في وجوه بعض، ينتظر كلٌّ منهم، لبعد القافية، أن يجيزه زميله. فلما بدا عجزهم، صاح الأستاذ التنوخي يُكمل صدر البيت:

....

«فإذا تؤاخي مثلَ بهجةَ آخِ»

كان الفتى يستعيد، أحياناً كثيرة، مع صديقه عاصم ذكريات هذه الجلسة على ظهر المركب العائد بهم من الجزيرة. وظلتْ هذه الذكرى تعاوده حين أُتيحت له زيارتها، مرة أخرى، بعد عشرات السنين!

وفي نهاية العام الجامعي الثاني (١٩٥٠) استأجر الفتى، مع صديقه عاصم، بيتاً في (مضايا) من قرى الاصطياف المطلة على سهل الزبداني، وأمضيا فيه عطلة الصيف، واستقبلا مَن كان يزورهما من الزملاء والأصحاب.

وكان يسير، في مساء كل يوم، إلى مقهى (بُقّين)، فيطل منه على السهل الممتدّ. وقد يمضي قسطاً من الليل في المقهى، بعد أن يخلو من زوّاره، ينعُم بالهدوء والسكينة من حوله. وقد يختار أن يقف على حوافيه يصغي إلى الهدير الناعم المتصاعد من أحد الطواحين، في أسفل الجبل، تجلوه السكينة وترحل به في غير انقطاع، فيستسلم الفتى له كأنما ينصهر فيه. وتتوحّد الأضواء البعيدة في العين وتقرُب السماء منها، فينداح في نفس الفتى شعور حار بوحدة الأشياء من حوله.

وقد سأل الفتى يوماً صديقه عاصماً أن يدعو أباه الشيخ ليقضي معهما، في (مضايا) يوماً أو يومين. فلبّى الشيخ الدعوة، وأقبل يحمل معه كتبه ودفاتره، فأُفردتْ له غرفة صغيرة يُمضي فيها ليله.

وفي ساعةٍ لا ينساها الفتى مرّ يستطلع حال الشيخ، بعد أن دخل يَقيلُ في غرفته، فوجده، وقد غلبه التعب، فاستلقى على بساط الغرفة، متوسِّداً عدداً من كتبه التي حملها معه، إذ كان يعمل، قبل أن يغلبه النعاس، في كتابٍ يحققه في النحو..... صورةٌ بعثتْ في نفس الفتى، على الفور، ذكرى بعض علماء الإسلام، ظل يستذكرها إلى اليوم الذي يكتب فيه هذه الكلمات.

- ٥ -

وآخــر ما يذكــره، وهــو في طريقه إلى الخروج من الجامعــة، في مساء أحد أيامه الأخيرة فيها (١٩٥٢) وقد أقاموا، في مدخل بابهــا الكبير نصبــاً خشبيــاً هُيِّئ لحضور رئيــس الجمهورية يومــذاك (العقيد أديب الشيشكلــي) ليسلِّم بيده شهــادات التخرج لطلبــة كلية الحقوق. حتــى إذا نودي باسم أحدهم، رفض الطالب أن يمدَّ يده فيصافح يد «الرئيس» الممتدة ويتسلَّم شهادة التخرج منها، قائلاً:

- أرفضــ أن أتسلّمها مــن يدٍ لا تمثل حرية الوطن ولا سلامة الأحكام فيه.

وقد أحدث موقــف الطالب وتصريحه هرَجاً حــاول منظمو الحفــل أن يطمسوه! وكانت هذه الصورة آخر ما حمل الفتى معه من ذكريات المرحلة الجامعية.

فأما الــذي أفاده، من جانــب الدرس، فمجموعٌ كله في الالتفات إلى تحسين منهجه فيه، وتقصِّي الحَيطــة في أحكامه، بعد أن تكتمل عناصرهــا ومصادرها، وينفسح أفق التفكير في غاياتها وحقائقها الحية وصلتها بالعصر.

على أن الفتى كان يرى بعض مواقفه من الدرس الجامعي، والتصريح برأيه في بعض قضاياه لم تكن مرضيــة. وقد بانَ أثرها في وجه مَن يستمع إليه، وإن ابتسم له ابتسامةً مغتصبــة. فقــرر أن يعيــد النظــر فيها. وانتهــى، بينه وبين نفســه، إلى الاقتناع بأن بعض السكوت عن الحق لابد منه في بعض الأحيان، وهو ما ازداد اقتناعاً بالحاجة إليه من بعد، وإن كانت الشكوك تساوره فيه إلى اليوم.



البحوث العلمية عماد التطور التقني والتنمية

د. أحمد غنام ❋

مـن المسلم به أن الارتباط العضوي والمباشر بين البحث العلمي والتطور التقنـي والصناعي لا يحتاج، في أيامنا هـذه، إلى دليل أو إثبات. ولهذا فإن العلاقـة بـين البحث العلمي والتنميـة هي علاقة لاتنفصـم، وبالتالي فإن أنشطـة البحث والتطويـر تحظى في الدول المتقدمـة بعناية فائقة وترصد لهـا الميزانيات التي تكاد تعادل ميزانيـات بعض الدول النامية. مثال على ذلـك: تشير إحدى الدراسات أن اليابـان أنفقت في الفترة من نيسان ١٩٩٨ إلى غايـة آذار ٢٠٠٨ ما مقداره ٧٠,٩ بليـون دولار على البحث والتطوير

❋ باحث سوري.

العمل الفني: الفنانة ميسون علم الدين.

عموماً، وقد نمت ميزانية البحث والتطوير خلال هذه الفترة بنسبة ٢,٨٪ سنوياً. أما مشاريع البحث والتطوير الصناعي فقد أنفق عليها ٤٣,٧ بليون دولار. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد تمَّ إنفاق ١٤٠ بليون دولار بين عامي ١٩٩٥ و٢٠٠٥، وهناك حوالي ٢٠٠ جامعة تمارس أنشطة البحث والتطوير، وتبلغ الميزانية المخصصة في البحث العلمي في أكثر من ٣٥ جامعة أكثر من ١٠٠ مليون دولار، وفي الصناعة الأمريكية بلغت مخصصات البحث حوالي ٤٠ بليون دولار خلال الأعوام العشرة الأخيرة. أما الدول الآسيوية (غير النامية) فقد بلغت نسبة الإنفاق فيها ٢,٨٪ من الدخل القومي، فيما كان الإنفاق في الدول العربية ٠,٧٦٪ من الدخل القومي. وبهذا الخصوص فإننا نجد من الضروري تعرّفنا، بادئ ذي بدء، على ماهية البحث العلمي والتطوير، قبل أن نتوسع في توضيح علاقته بالتقدم العلمي.

ما هو البحث العلمي

١- هو استعمال التفكير البشري بأسلوب منظم لمعالجة المشاكل التي لا يتوافر لها حل.

٢- أو هو دراسة واختبار ناقد للكشف عن حقائق جديدة أو تنقيح أو إعادة النظر في نتائج مسلم بها.

٣- هو محاولة لاكتشاف المعرفة والتنقيب عنها وتنميتها وفحصها وتحقيقها بتقص دقيق ونقد عميق،ثم عرضها عرضاً مكملاً بذكاء وإدراك، لتسير في ركب الحضارة العالمية، وتسهم فيها إسهاماً إنسانياً حياً وشاملاً.

أنماط البحث العلمي

تختلف هذه الأنماط باختلاف الوسائل والأهداف، ويمكن تقسيم هذه الأنماط إلى الأقسام الرئيسية التالية:

١- البحث النظري (أساسي أكاديمي): هو البحث الذي لا يقصد منه فائدة اقتصادية مباشرة، حيث يتركز جل الجهود الذي يقوم به الباحثون ضمن نطاق هذا النمط من البحث، في محاولة فهم الظواهر الطبيعية والاجتماعية واستكشاف أسرارها.

٢- البحث الأساسي الاستكشافي: هو بحث يبدأ بكمية قليلة من المعرفة، ويحاول أن يضيف إليها إضافات كبيرة ومهمة من الممكن أن تكون نظرية أو تطبيقية.

٣- البحث العلمي التطبيقي: هو نشاط

موجه نحو زيادة المعرفة بقصد التوصل إلى منتج جديد أو تحسين منتج موجود وتحسين طرق إنتاجه، أو اكتشاف حقول علمية جديدة متقدمة بهدف الوصول إلى الاختراع لتحقيق الربح الاقتصادي أو خدمة المجتمع.

التطوير: هو المرحلة التي تجري فيها دراسة الجدوى الاقتصادية لما أنتجه البحث التطبيقي من منتجات أو طرق أو اختراعات.

البحث والتطوير: هو نشاط خلاق ومبدع ومنسق، يجري لزيادة المعرفة العلمية والتقنية للوصول إلى تطبيق جديد أو مشكلة قائمة، وتنمية الإنتاجية رأسياً وأفقياً.

إن المتمعن في تعريف مفهوم البحث والتطوير، يجد أنه وسيلة لتحقيق نقل التقنية وتوطينها، لأنه يحقق أهداف توطين التقنية.

البنية الأساسية للبحث العلمي

يعتبر البحث العلمي نظاماً متكاملاً، لا غنى لجزء من أجزائه عن الآخر، وتتشكل بيئته الأساسية من المفردات التالية:

١- الأهداف والسياسات والاستراتيجيات الخاصة بالبحث العلمي.

٢- السياسات والنظم الإدارية المناسبة والمرنة.

٣- مختبرات البحث العلمي زائد معدات التجارب وأدوات القياس.

٤- الورش الفنية اللازمة للتجارب.

٥- الطاقات البشرية (الكفاءات العلمية المتمرسة والكوادر المدربة).

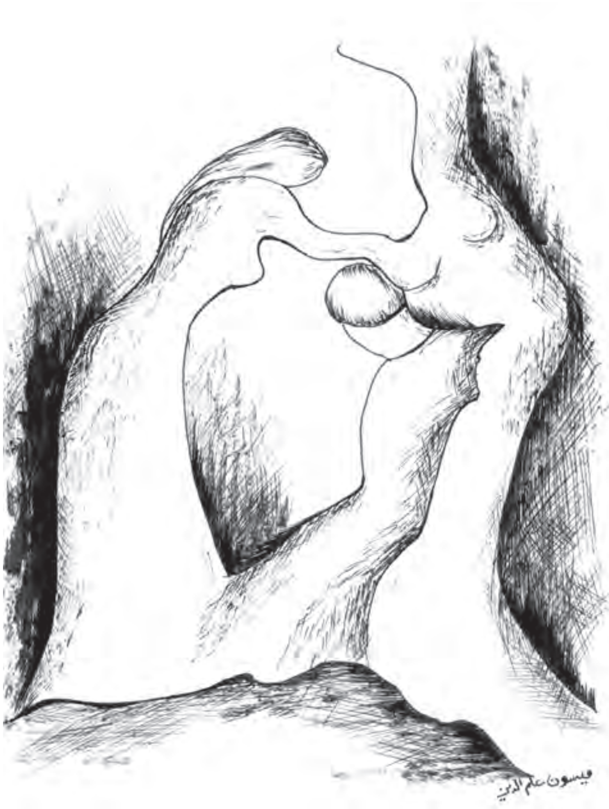
٦- الموارد المالية المتاحة.

٧- بنوك المعلومات الكفوءة.

٨- دعم مراكز صنع القرار في الدولة للوحدات الإنتاجية للبحث العلمي والإيمان بأهميتها.

مصادر طلب البحث العلمي الاجتماعية

إن البحث العلمي والتطوير التكنولوجي يمكن أن يكون عملية واعية، وأصبح من غير المنطقي الحديث عن التكنولوجيا وكأنها نبت ينمو منفصلاً عن حاجات الممولين وطموحاتهم، وسوف تستمر إذاً ظاهرة العلم الكبير في المستقبل،بما يعنيه ذلك من تركيز للطاقات البحثية والتمويلية في حل مشكلات أو تحديات محددة سلفاً، لقد ثبت أنه يمكن معرفة الكثير عن آفاق الإبداعات التكنولوجية في المستقبل من خلال التعرف



على اتجاهات الإنفاق في البحث والتطوير، وربما ساعد في هذا، أو ساعد في ضد هذا، تركز هذا الإنفاق، في عدد محدود من الشركات الكبيرة والشركات المتعددة الجنسيات والدول، وأن أية تصورات مستقبلية لخيارات تكنولوجية لابد وأن تؤسس على معطيات الواقع الفعلي لمجتمع العلم والتكنولوجيا القائم في الدولة، والأدبيات المعنية بالاقتصاد السياسي للعلم والتكنولوجيا، تحدد أربعة مصادر رئيسية للطلب الاجتماعي على العلم والتكنولوجيا، وهي: الدولة، والمجتمع الأكاديمي، والقطاع الخاص الصناعي، والاهتمامات الجماهيرية، وسوف نعرض بإيجاز كل مصدر من هذه المصادر:

١- **الدولة:** ينشأ الاهتمام الحكومي من كون العلم والتكنولوجيا لهما تأثير جوهري على النمو الاقتصادي منذ الثورة الصناعية، وعن كون الإنفاق عليهما يحتاج إلى تخصيص موارد ضخمة، ثم لأن أولويات مجتمعية واستراتيجية عديدة لإنفاق هذه الموارد لابد وأن تكون مسؤولية السلطة المركزية في المجتمع، ورغم أن البعض لا يزال يجادل بأن طفرات اقتصادية يمكن أن تحدث بسبب تغييرات مؤسسية وليس بسبب البحث العلمي المنظم، فإن حكومات عديدة توفر إنفاقاً ضخماً على هذه البحوث، سواء من خلال الوزارات والمؤسسات الحكومية ذاتها، أو من خلال الشركات الصناعية، وتمثل

القضايا ذات الأبعاد السياسية، مثل الدفاع والطاقة النووية.. إلخ، مواضيع مركزية لاهتمام الحكومات.

٢- **المجتمع الأكاديمي**: وهو تجمع أصحاب الكفاءات العاملين في مجالات البحث العلمي والتطوير التكنولوجي وكثيرون من هؤلاء قد تحولوا بممارسة العلم على الاحتراف، وبهذا فإن هؤلاء المحترفين لم يعودوا في الحقيقة يؤدون وظائفهم بالأساليب التي تراعي معايير العلم الصحيح، ولكنهم على النقيض من ذلك قد يتصرفون باعتبارهم مجموعات اجتماعية غالباً ما تعمل وهي معرضة للإغراءات الاقتصادية والسياسية، وهكذا فإن الاهتمامات الأكاديمية يمكن أن تمتد من الاهتمام بالعلم لذاته، إلى العمل في التطوير التكنولوجي من أجل تنشيط النمو والتنمية إلى الحرص على الإبقاء على المؤسسات الاحترافية وعلى الميزات البيروقراطية التي يوفرها الاحتراف وكلها دوافع حادة وجادة لتنشيط الطلب على العلم والتكنولوجيا.

٣- **القطاع الخاص الصناعي**: يستند دور تضخيم القطاع الخاص الصناعي وآليات السوق في تطوير بحوث العلم والتكنولوجيا إلى تصور البعض الخاطئ أن النظام الرأسمالي قد نشأ، وأنه يعمل دون تدخل الدولة، ويدحض هذا أن الرأسمالية قد نشأت ونمت في دول غرب أوروبة في ظل تدخل قوي ورعاية من الدولة، بل إنه دون تدخل الدولة خلال القرن السادس عشر لم يكن بأي حال من الأحوال أن يتم القضاء على النظام الإقطاعي وبزوغ الرأسمالية، ومن الناحية النظرية فإن آليات السوق لا يمكن أن تظهر إلا في وجود أطر تشريعية تضعها الدولة لحماية الملكية الخاصة، أو حماية المستهلك، أو ضبط المعاملات التجارية، كما أن آليات السوق تحكمها السياسات الاقتصادية الكلية التي تضعها وتتبعها الدولة مثل السياسات النقدية والمالية والتجارية، وفي الدول المتقدمة يكون البحث العلمي القائم على التمويل العام مشغولاً بالعلم الكبير في مجالات مثل الفضاء والطاقة، أو إنتاج العتاد الحربي استناداً على بحوث الأسلحة والتسليح أو بمتابعة وتطوير بحوث العلوم الأساسية، وفي المقابل يتم إلى حد كبير التخلي عن التأثير الاقتصادي للعلم كي يتولاه القطاع الصناعي في النظام الاقتصادي.

٤-الاهتمامات الجماهيرية: عادة ما تنشأ الاهتمامات الجماهيرية بالعلم والتكنولوجيا عن دوافــع سلبية، فجمهــرة الناس في أي مجتمع قد تستثمر إبداعات العلم ومنجزات التكنولوجيا وتستمتع بهــا، دون أن يدفعها ذلك إلى ممارسة ضغوط مجتمعية من أجل مواصلة الإبداع ومضاعفة الإنجاز، غير أن الخسائر التي تلحــق بهذه الجماهير والتي تنجم عن العلم والتكنولوجيا المعاصرين، قد تكون هي الدافعة التي تعلو برغبات الناس في المزيــد من تدخل العلم والتكنولوجيا من أجل تحجيم الخسائــر ومحاصرة الأخطار مثل التلوث البيئي. وما إلى غير ذلك.

متطلبات نقل التقنية

تتفــق معظم الأبحــاث على أنــه لنقل التقنيــة الفعال متطلبــات تجعلها تفيد من مختلف المصادر في الآتي:

١- وعــي القيــادات السياسية لأهمية العلم والتقنية: ويتضمن ذلك ضرورة توافر الإرادة السياسيــة للتغيــير، وتوافــر الأمن والاستقــرار. ولعلَّ أبلــغ مثال على ذلك هو ما حدث في اليابان عندما وجه الإمبراطور لشعبــه، بعد نهاية الحــرب العالمية الثانية، النداء أو التوجه الاستراتيجي التالي: «يجب البحث عن المعرفة وحيازتها من أي مصدر كان، وبــكل الوسائل المتاحــة لدينا لصالح عظمــة اليابــان وأمنــه». وكذلــك التوجه الاستراتيجي الذي أصدره ملك الدنيمارك في خمسينيــات القــرن الماضــي حين وجه بتركيز نهضة الدنيمارك في القطاع الزراعي وتطوير ما يلزم من تقنية تتعلق بهذا المجال، حيث يتوافر للدنيمارك ميزة نسبية.

٢- ضــرورة إنشاء جهة مركزية لتحديد أهــداف التقدم التقنــي ومجالاته: وبالتالي توجيــه سياســات نقــل وحيــازة التقنيــة والإشراف على تنفيذها. مثلما فعلت بعض دول أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا.

٣- توفــير العدد الــكافي مــن العلماء والفنيــين: ويتضمن ذلك العنايــة بالتعليم الفعــال، وتوفير فرص التدريــب واكتساب الخبرات والتقنية من مواردها، بل واستقطاب العلماء والتقنيين من البلدان الأخرى. مثال على ذلك استقطاب الولايات المتحدة لعلماء ألمان بعد هزيمة ألمانيــا في الحرب العالمية الثانيــة. واستقطاب العلماء من دولة الكتلة الشرقيــة بعد تفــكك الاتحــاد السوفييتي السابق،وكذلك استقطــاب العلماء العرب، وقــد فعلت كل مــن دول أمريــكا الجنوبية وإسرائيل مثل فعل الولايات المتحدة.

٤- توافر القدرة والآلية لتمويل وحيازة التقنية: والقـدرة الماليـة اللازمة لتحقيق ثلاثة أهداف:

أولها: الاستثمار مباشرة في نقل التقنية بصورها المختلفة وبأي من أساليبها.

ثانيها: هو تمويـل البحث العلمي الذي هو أحد الركائز المهمة في حيازة التقنية.

ثالثهـا: الاستمـرار في تنميـة وبنـاء القاعـدة التقنيـة من العلمـاء والمهندسين والفنيـين، والإنفـاق على برامـج التعليم الفعال والتدريب التقني، وحضور المؤتمرات والمعارض والترجمة، وجميع الأنشطة التي تستهدف توطـين التقنية، أي جعلها متاحة للمواطنين وخادمة للمجتمع.

٥- توفـير البيئـة الملائمـة والوعـي الاجتماعـي: يعتبر الوعـي بأهمية التطور التقني ضرورة لاشـك فيها، ولابد أن يكون هـذا الوعـي شاملاً لجميـع المستويات في الدول (الحكومات والمواطنين). ويشير أحد المصـادر البحثية في هذا الصدد إلى الآتي: المجتمع التقني هو الذي باستطاعته التعامل السليم مع التقنية، وهذا الأمر لا يحدث إلا عند توفير عدة شروط منها:

- أن يكون المجتمع على درجة عالية من التنظيم، فلا تتداخل المسؤوليات والواجبات والصلاحيات والحقوق بل تتكامل.

- أن يـدرك السـواد الأعظم من أفراد المجتمع في مواقع عملهم وتأثيرهم في حياة المجتمـع، على اختـلاف أنواعها وكمياتها. حيث أن تنمية قدرات المجتمع ككل لا تنفصل عـن تنمية القـدرات الذاتيـة والشخصية للأفراد بل تتكامل معها وتعضدها.

- أن يعمـل السواد الأعظـم من أفراد المجتمـع مـن منطلـق ضـرورة إتقـان ما يقدمونـه من عمل سواء في مجال الإنتاج أو الخدمات.

- أن يـدرك السـواد الأعظم من أفراد المجتمـع أن التمتـع بالعدالـة الاجتماعية وتحقيـق الرفاهيـة مطلب لـه مسؤولياته المجتمعية وأن لا يكتفي الفرد بتحقيق الحد الأدنى من التحصيـل أو التدريب والعطاء ضمـن هذه الحـدود لبناء القـدرة التقنية للمجتمع.

معوقات النقل الفعال للتقنية

ومـن حيـث المبـدأ فـإن عـدم توافر متطلبـات نقل التقنيـة التي أشرنـا إليها سابقاً، أو أحدها، يمثل عقبة كأداء في سبيل نقل فعـال للتقنية، بيد أننـا لابد أن نشير

هنا إلى أن هناك عقبات أخرى تساهم في إحباط عملية النقل هذه. من ذلك ما يأتي: إن أهداف نقل التقنية هي غالباً أهداف اقتصادية مقترنة أحياناً بأهداف سياسية. أما أهداف نقل التقنية لدى المستقبل فهي أهداف اقتصادية ذات طابع حضاري يستهدف تضييق الفجوة التقنية والحصول على ميزة جديدة تساهم في تنمية المجتمع المستقبل للتقنية، لذا فإن الجهود لابد أن تبذل لتحقيق المصلحة المشتركة لكلا طرفي المعادلة: المصدر/ المستقبل.

وهنا يبرز دور إدارة نقل التنقية الشاملة في (تحديد الأهداف- التخطيط السليم- تنظيم الجهود- مراقبة وإجراء التعديل المطلوب عند أي انحراف عن تحقيق الأهداف المبتغاة).

عائق آخر يمكن الإشارة إليه وهو داخلي في البلد الراغب في الحصول على التنقية، ويتمثل في وجود بعض الإجراءات والسياسات والأنظمة الحكومية التي قد تعيق عملية النقل الفعال للتقنية. وربما يكون ذلك غير ما يقصده صناع القرار. وقد يكون أحد القرارات قد صدر لمعالجة مشكلة لا علاقة لها بنقل التقنية من قريب أو بعيد. ولكن للقرار آثارا جانبية قد تطال عملية النقل وتعيقها. أما العائق الثالث: فيتمثل في مدى اتساع الفجوة التقنية بين البلد المصدر للتقنية والبلد الراغب في الحصول عليها، وكلما كانت الفجوة واسعة أصبح عبء نقل وتوطين التقنية وحيازتها ثقيلاً إن لم يكن مستحيلاً. والعائق الرابع هو: الاختلاف في اللغة بين مصدر التقنية ومستقبلها، فكلما اختلفت اللغة كلما كان العبء أكبر. رغم أن تجربة اليابان في هذا المجال تجربة غنية ومثمرة، حيث أصر اليابانيون منذ البداية على أن تكون اللغة اليابانية هي لغة التقنية الوطنية بغض النظر عن مصدر هذه التقنية، ولكن ما ينطبق على اليابان قد لا ينطبق على غيرها من الدول.

والعائق الأخير: يتعلق بخصائص المجتمع من حيث شيوع الجهل والاعتقاد بالسحر والشعوذة أو التوكل ومدى انتشار عقائد ذات طبيعة غير مادية. ولعلَّ المثال التالي يوضح إلى أي مدى يمكن أن تحد هذه الأمور من أي تطور تقني: لقد حدث لخبراء الأمم المتحدة (منظمة الأغذية والزراعة- الفاو) موقف فريد من قبل بعض القبائل القاطنين على ضفاف نهر الأمازون، إذ

حاول الخبراء تدريب السكان المحليين على استخـــدام المخترعـــات الحديثـــة في صيد الأسمـــاك بدلا من الوسائـــل البدائية، فما كان من السكان إلا أن اعتقدوا أن في الآلات سحـــرا، فهي وإن كانت تأتـــي بنتيجة كبيرة إلا أن ذلك سينقلب ضد أرزاقهم فيما بعد، فامتنعوا عن استخدامها. وكذلك ما شاع من اعتقاد في بداية ظهـــور الراديو واللاسلكي في بعضـــ المجتمعات مـــن أن هذه (مراكب شيطان) ومن عمل السحرة.

آفاق المعرفة



التكنولوجيا الحديثة ودورها في هيكلة الاقتصاد (الإسرائيلي)

د. حسين إبراهيم ❋

كان من الطبيعي أن تعتمد مجموعات الصهاينة التي غزت أرض فلسطين منذ نهايات القرن التاسع عشر بهدف الاستيطان.. على أحدث ما توفر لها من أدوات الغزو والسيطرة وقهر السكان واحتلال الأرض..

وكانت الوكالة اليهودية – كما هو معروف تأتي بهؤلاء اليهود الراغبين في (الهجرة) إلى الأراضي المقدسة، من مختلف بلدان العالم، ولكن حسب معايير ومواصفات محددة، بحيث يكون هؤلاء قادرين بشرياً وتقنياً على الاستيلاء على الأرض واستعمارها.. وما يستدعي ذلك من طرد السكان الأصليين وتصفيتهم.

❋ باحث في العلوم ومدير الاستشعار عن بعد سابقاً.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولا حاجة لأن نستعرض تاريخ التكنولوجيا الإسرائيلية التي لا تهمنا تفاصيلها.. بينما أكثر ما يهمنا هو تطور هذه التكنولوجيا في العقدين الماضيين، وأخص العقد الأخير من القرن الماضي، لأن بعض المدعين الإسرائيليين ومريدهم في الخارج.. يزعمون أن إسرائيل أصبحت منذ حوالي عشر سنين مركزاً للتقنيات العالمية في الشرق الأدنى.

وذلك لأسباب أهمها انعكاسات الهجرة الروسية من اليهود إلى إسرائيل، وأولئك اليهود القادمين مما يسمى (اتحاد الدول المستقلة) وهي تلك الجمهوريات التي انفصلت عن روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.. ومعظمها جمهوريات مسلمة، وتغلغل الإسرائيليين في العديد من أسواق الدول، وتغيير الهيكليات في بنية الاقتصاد الصناعي (الإسرائيلي) والاستفادة القصوى من التكنولوجيا العسكرية المتطورة بشكل لافت في المؤسسات الإسرائيلية..

ولكن يجب أن لا نغفل أن الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي تفجرت في أيلول /٢٠٠٠م/ أثرت سلبياً على النمو الاقتصادي في (إسرائيل) والتوقعات بشأنه وأثر في ذلك أيضاً الركود الاقتصادي الذي حدث في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة.. تدليلاً على الارتباط العضوي لكل تطور وكل نمو في الكيان الصهيوني بالأوضاع في الولايات المتحدة..

وعلى الرغم من استحالة اندماج (إسرائيل) كدولة أو كمجتمع في المحيط الإقليمي.. فإنها حققت تقدماً ملحوظاً ولكن مسبق الصنع في مجال التطور التقني وبالتالي الاقتصادي.. وتوصل هذا الكيان إلى بناء طاقة صناعية قادرة على المنافسة وزراعة تقوم على الأساليب التقنية الحديثة وشبكة مرافق عامة متقدمة حديثة المكونات والعناصر..

ولكن هناك من يدعي من النقاد الغربيين أن حالة التوتر السائدة في الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب الكونية الثانية هي التي اضطرت إسرائيل إلى عسكرة مجتمعها واقتصادها.. ولهذا أيضاً كانت الزراعة والصناعة بما فيها الكهرباء واستغلال المياه.. وقطاع البناء لا تشكل إلا الثلث من دخل الكيان الصهيوني.. بينما تشكل القطاعات الأخرى الغير منتجة بما فيها أكبرها وهو القطاع العسكري والأمني ثلثي الدخل الشامل للكيان..

ويقول بعض هؤلاء النقاد إن ذلك ازداد حدة بسبب عدم قيام تبادل تجاري بين إسرائيل وجيرانها حتى مطلع التسعينات

مـــع مصر والأردن.. ولهذا فـــإن أي ازدهار للقطاعـــات الإنتاجيـــة في الاقتصـــاد الإسرائيلي.. ما كانت لتجـــد سوقاً مجاورة لتصريـــف فائض إنتاجها... هذا إلى جانب مـــا أشار إليه هؤلاء النقاد من حجم الرقعة الجغرافيـــة الصغيرة التـــي تحتلها إسرائيل من فلسطين وافتقارهـــا إلى كثير من المواد الخام والموارد الطبيعية وخاصة تلك لتوليد الطاقة إلى جانب النقص في المياه.. وغيرها ولهذا وجد الكيان الصهيوني نفسه في وضع ضغطت جميـــع عناصـــره ومكوناته باتجاه استغلال خبرات عناصـــره البشرية القادمة من بلـــدان متقدمة صناعيـــاً واقتصادياً.. والتركيز علـــى تطوير قطاعات التكنولوجيا المتقدمـــة في جميـــع مجـــالات الاقتصاد.. وخاصة في القطاع العسكـــري الذي يشكل المرتكـــز والمحـــور لنمو المجتمـــع.. ومن ثم حمايته.

وكانـــت كل عناصـــر المجتمـــع والدولة المصطنعـــة التي فرضتها ظـــروف الوجود علـــى إسرائيل هي التـــي فرضت من ناحية أخـــرى بنىً سياسيـــةً واقتصادية فريدة في حالات قيـــام الكيانات الدوليـــة.. وهذا ما تجلـــى واضحاً في الدور السياسي لمؤسسات الدولـــة وازدواجيـــة مهمـــة نقابـــة العمال المعروفة باســـم: (هيستادروت) التي حملت منذ البدايـــة تركيبة حزب العمل.. وأعطت مجتمع الدولة صيغة اشتراكية مموهة !!!

فالهيستـــادروت بـــرزت كعصبة لرجال الأعمـــال ومرجعية لتمثيـــل مصالح العمال !!! وذلـــك في ضوء التأثير الفعـــال لرؤوس الأمـــوال المتدفقة من الخـــارج.. والتفاعل مع الاقتصـــادات الخارجية الداعمة للكيان الإسرائيلي منذ قيامه ولهذا كانت التطورات والتحولات في الاقتصاد العالمي وخاصة في الـــدول الرأسمالية تنعكس فـــوراً وبفعالية على حركة وتطور الاقتصـــاد الإسرائيلي.. هـــذا في ثمانينات القـــرن الماضي.. أما في التسعينـــات فقد شهد الاقتصاد الإسرائيلي ارتياحـــاً ظاهراً وفرت لـــه المفاوضات التي جرت مع الفلسطينيين خلال التسعينات ومع غيرهم في الصعد الثلاثة الدولي والإقليمي والمحلي..

ويمكن توضيح هـــذا الارتياح والانفراج بالمظاهر التالية:

- الهجرة النوعيـــة اليهودية من روسيا والـــدول التي استقلت عنها والتي بلغت منذ ١٩٨٩ أكثر من مليون مهاجر.

- التطـــور الاقتصـــادي والتقنـــي على الصعيد العالمي.

- اندفاع المفاوضات المختلفة بين بعض العرب وإسرائيـــل خاصة بعد حرب الخليج



الثانية وتراضي أحكام مقاطعة إسرائيل من قبل الدول العربية.

- وإضافة إلى كل هذا انتهاء الحرب الباردة والانفتاح الواضح لمعظم الدول والأسواق على بعضها في مختلف أنحاء العالم..

ولكن ما يميز الاقتصاد الإسرائيلي منذ قيام الكيان حتى الآن، وخاصة في العقود القليلة الأخيرة، هو تدفق رؤوس الأموال الأجنبية وخاصة رأس المال الأميركي، وتحويلات المنظمات اليهودية من الخارج، والمتبرعون الخاصون من اليهود الصهاينة.. إلى ذلك اليد العاملة الخبيرة حيث زادت أعدادها من عام ١٩٩٠ مثلاً حتى عام ٢٠٠٠ من مليون و٦٥٠ ألف عامل إلى مليونين و٤٣٠ ألف..

ومن الملفت للنظر أن نسبة المهندسين مثلاً في إسرائيل إلى عدد السكان وصل مؤخراً إلى مئة وخمسة وثلاثين مهندساً لكل عشرة آلاف إسرائيلي بينما لا يتجاوز هذا العدد في الولايات المتحدة الأمريكية الخمسة وثمانين مهندساً لكل عشرة آلاف أميركي..

ولا بأس أن نحدد هنا ببعض الدقة هذه المؤشرات الرقمية في إسرائيل إذ كان بين المهاجرين إلى الأراضي المحتلة في بداية

التسعينات أكثر من الثلث من العلماء أو أكاديميين والثلث الآخر فنيين ومختصين تقنيين..

ولقد أسهم هذا الاحتياطي البشري أو رأس المال البشري المختص مثلاً في الرياضيات والفيزياء وتقنيات الطيران والفضاء.. الذي أصبح بشكل مكثف بتصرف السلطات الإسرائيلية دون أن يرتب عليها أي تكاليف تدريب أو تأهيل. أسهم هذا الواقع بتقدم تفوقي تقني للمؤسسات الإسرائيلية.. رغم أن تكاليف تدريب وتأهيل أي فني أو تقني بهذا المستوى كان سيكلف الخزينة الإسرائيلية على الأقل مئتي ألف دولار.

قوة الاقتصاد الإسرائيلي وقدرته على التطور والنمو يمكن وصفها بأنها مصنعة أو حتى مسبقة الصنع تحكمها قبل كل شيء المشاركة شبه الكاملة بين الولايات المتحدة وإسرائيل وبالدرجة الثانية الاتحاد الأوروبي.. ويظهر ذلك بالإشارة إلى أن ثلث الصادرات الإسرائيلية تمتصها السوق الأميركية.. فقد وصلت قيمة هذه الصادرات الإسرائيلية إلى أميركا في عام ١٩٩٨ مثلاً ٢,٨٣ مليار دولار.. وهناك مساعدات سنوية أمريكية لإسرائيل اقتصادية ومعظمها عسكرية تصل إلى ثلاثة مليارات دولار وهي كفيلة بمعادلة أي عجز قد يعتري الميزان التجاري الإسرائيلي مع أمريكا.. هذا بصرف النظر عن المساعدات التي تقدمها واشنطن في الحالات الطارئة ومن وقت إلى آخر ناهيك عن تدفق رأس المال الأمريكي للاستثمار في قطاعات تحددها السلطات الإسرائيلية ومعظمها في قطاع التكنولوجيا العالية وبالتحديد في التكنولوجيا العسكرية.. وهناك مؤشر آخر يؤكد أن الاقتصاد الصهيوني مضمون الازدهار تقريباً من قبل الدولة والسوق الأمريكيتين.. هذا المؤشر هو وجود ما يقارب مئة شركة ومؤسسة إسرائيلية فيما يسمى ببورصة التكنولوجيا الأمريكية وبذلك تكون إسرائيل ثاني أقوى مشارك في هذه البورصة بعد كندا..

بالنسبة إلى الاتحاد الأوروبي فهناك اتفاق اندماج بين الاتحاد وإسرائيل منذ ١٩٩٥ واتفاقية سوق تجارة حرة متوسطية في منطقة من ١٩٩٥ حتى ٢٠١٠ ولا شك أنها ستجدد.. وسجلت واردات إسرائيل من الاتحاد الأوروبي منذ الخمسينات ازدياداً مطرداً حتى وصلت اليوم إلى ٥٠٪ من مجموع واردات إسرائيل.. أما الصادرات الإسرائيلية إلى منطقة الاتحاد الأوروبي لم تتعدَّ حتى الآن الـ٣٠٪ من الصادرات.. في عام ١٩٨٦ تدفقت الصادرات الإسرائيلية

إلى أوروبة الغربية بنسبة ٤٦٪ وإلى الولايات المتحدة بنسبة ٣٣٪ وإلى آسيا بنسبة ١٠٪ فقط..

تجدر الإشارة هنا على ضوء المعطيات السابقة إلى أن معظم دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية في نطاق دول عدم الانحياز لم يكن لها علاقات مع إسرائيل.. لا دبلوماسياً ولا اقتصادياً.. ولكن بعد كارثة كامب ديفيد في نهاية السبعينات.. نشطت إسرائيل في إقامة علاقات دبلوماسية سبقتها أو واكبتها علاقات تجارية واقتصادية مع معظم الدول الأفريقية وأمريكا اللاتينية.. وأخطرها مع بعض دول آسيا الهامة كالهند واليابان وكوريا الجنوبية.. والأخطر مؤخراً ما تكشف عن العلاقات مع الصين الشعبية.. ونذكر هنا أن صادرات إسرائيل إلى أفريقيا وأمريكا اللاتينية ارتفعت ما بين ١٩٩٠ و٢٠٠٠ إلى ثلاثة أضعاف.. بينما بلغت صادرات الصهاينة إلى آسيا في هذه الفترة ١/٥ من مجموع صادرات إسرائيل. وفي هذا المجال ركزت إسرائيل على ما يسمى منذ فترة الآسيوية الصغيرة ماليزيا.. سنغافورة وتايلاند.. والفيليبين وتايوان أو ما تسمى بلغة رجال الأعمال الأسواق الناهضة (emerging markets).. ولا يتركز الاهتمام الإسرائيلي في هذه الأسواق على التجارة العادية فقط بل وعلى إمكانيات استثمار الشركات ورجال الأعمال الصهاينة في هذه البلدان وخاصة في قطاع التكنولوجيا العالية... هذا في اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وتايلاند.. وغيرها.. هنا تدعي المؤسسات الإسرائيلية أنها تستثمر في المستقبل.

أما علاقات إسرائيل بشرق أوروبة فقد أعيدت لها الحياة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ومنظومته الاشتراكية ونشطت العناصر الصهيونية في مكوناته المتداعية لصالح إسرائيل وخاصة في روسيا الاتحادية.. فصدرت ٤٪ من مجموع صادراتها في نهاية التسعينات إلى ما سمي بمجموعة الدول المستقلة..

هنا لابد من التوضيح بأن حرب الخليج الثانية ضد العراق أظهرت وكأن بعض العرب كانوا حلفاء مع إسرائيل.. ثم ما نجم عن المفاوضات الفلسطينية والإسرائيلية (أوسلو ٩٣) وتراجع التوتر على صعيد صراع الشرق الأوسط شجع الرأسمال الغربي على الاستثمار في إسرائيل بما يسمى (الملتقى العالمي الاقتصادي)(World economic forum) ... إلى وضع إسرائيل في المركز التاسع عشر بين الدول ذات الاقتصاد النشط وسريع التطور..

وعلى ضوء حقيقة أن السوق الداخلية الإسرائيلية الضيقة المحدودة تجعل نمو الاقتصاد الإسرائيلي محكوماً بالتوجه نحو التصدير إلى الخارج.. وترتبط بالتالي مقدرته على النمو والتوسع بقدرته على التعامل مع الخارج.. فإنه يبقى متأثراً بكل ما يحدث خارج الحدود.. ولذلك أيضاً نرى أنه تأثر سلباً وانكماشاً بالانتفاضة الثانية في نهاية ٢٠٠٠ والركود الذي أصاب الاقتصاد الأمريكي..لكنه بالمقابل نراه ينتعش ويزدهر عندما تجري المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين بصرف النظر عن برامجها وخطتها وأهدافها.. وفي الأصل فإن هذه المفاوضات ومنذ أكثر من عشرين عاماً لم تؤد إلى أي نتيجة تذكر باتجاه حصول الفلسطينيين سواء في الضفة الغربية أو في غزة على أي من حقوقهم.. بينما تستمر إسرائيل في تكريس سياسة التوسع بزرع المستوطنات لا بل المستعمرات في الأراضي الفلسطينية وقضم هذه الأراضي وتقطيع أوصالها وسلب السكان الفلسطينيين أبسط حقوق وجودهم وحياتهم... وفي ظل هذه الظروف السلبية بالنسبة إلى الفلسطينيين بلغت الاستثمارات الأجنبية في إسرائيل منذ منتصف التسعينات حتى ١٩٩٨ ٥ ,٢ مليار دولار.. وتعززت مساهمات رأس المال الأجنبي في إسرائيل بتأسيس وتعزيز استثمارات لشركات مهمة في أمريكا وألمانيا واليابان..

الطابع التكنولوجي المتقدم للاقتصاد الإسرائيلي:

يدعي مراقبو تطور الاقتصاد الإسرائيلي أن تأسيس الاقتصاد الإسرائيلي خاصة خلال العقدين أو العقود الثلاثة الماضية.. على عناصر التقنية الحديثة والمتطورة هو الذي أغرى رؤوس الأموال الغربية على الاستثمار في الأراضي المحتلة.. واستطاعت المؤسسة الإسرائيلية أن تلائم الاقتصاد الإسرائيلي مع التطور التقني المتسارع للاقتصاد العالمي وخاصة مجتمع المعلومات.. وأصبحت التكنولوجيا العالمية منذ التسعينات هي المحرك والرافعة للاقتصاد الإسرائيلي استجابة لمتطلبات التصدير وجذب الاستثمارات الخارجية.. وشكلت التكنولوجيا العالية هنا القيمة العالية.. للمنتج الإسرائيلي.. مما مهد وفتح له أسواقاً جديدة في كثير من أقاليم العالم..

إذاً أين تكمن هنا مراكز الثقل لإنتاج التقنيات العالية في إسرائيل؟!: إنها في الصناعات الحربية الإسرائيلية.. والصناعات الرافدة لها.. وحدث بعد ما يسمون بحرب الأيام الستة أن أوقف الجنرال

آنــذاك إسرائيل بالسلاح حيث كانت فرنسا حتى ذلــك الوقت الممول الرئيسي لإسرائيل بالعتاد الحربي والتعاون العسكري.. ولذلك اتجهت السياسة الإسرائيلية لتحقيق اكتفاء ذاتــي خاصــة في مجال الطــيران والسلاح المدرع.. وقبــل أن تنخرط الولايات المتحدة بالالتزام الكامل في الدعم العسكري للكيان الصهيوني.. وهكذا أصبح قطاع الصناعات الحربيــة الإسرائيليــة في السبعينات وبعد حرب ٧٣ أهم قطاعات الاقتصاد الإسرائيلي تطــوراً وخاصــة في تصديــر منتجاتــه.. والمحافظة على التفوق الحربي على الدول العربيــة المجــاورة.. وأصبحــت الولايات المتحدة هنا أهم عمــلاء الكيان الصهيوني في هذا القطــاع ودأبت المصانع الإسرائيلية علــى تكثيف البحــوث العسكريــة وتطوير المعدات والتجهيزات لصالح جهات أمريكية أو لأغراض عسكريــة إسرائيليــة خاصة. ولكن نظراً للركــود في سوق السلاح العالمي منتصــف الثمانينــات ضغــط الأميركيون علــى إسرائيــل لتجميد خططهــا بتطوير وتصنيع المقاتلة المتقدمة (Lavi).. واضطر القطــاع المدني في الاقتصــاد إلى استيعاب مئات المهندســين والفنيين المختصين الذين أصبحــوا دون عمــل بعــد إيقــاف مشروع (Lavi).. وتأسست لذلك شركات ومصانع جديدة.. في قطــاع الكهرباء والإلكترونيات لتصنيع منتجات للقطــاع المدني.. واضطر اضمحلال سوق السلاح المؤسسات الحربية إلى تحويل إنتاجها باتجاه تطوير وإنتاج سلع هامة لمختلف مجالات الاقتصاد كالبرمجيات وتجهيــزات الاتصــالات والتحكم ومعالجة المعطيات الرقمية وغيرها..

ثم جاءت موجــة المهاجرين من مناطق الاتحاد السوفييتي السابق والدول المستقلة بمئات من المهندسين والمختصين والباحثين خاصة في النصف الأول من التسعينات فيما عزز البناء العلمي والتقني لهيكلية الاقتصاد الإسرائيلــي.. ورغــم متطلبــات الاستثمار الأجنبي في الصناعات الإسرائيلية.

ونجدد العودة إلى التركيز على محدودية السوق الداخلية الإسرائيلية بشكل يعجز عن استيعاب ما تنتجه الصناعات الإسرائيلية.. لذلك كان هم الاقتصــاد الإسرائيلي الأول هو المحافظة علــى أسواق في الخارج يمكن أن تمتص الصــادرات الإسرائيلية وخاصة من منتجات التكنولوجيــا العالية التي يقع على كاهلها إنقــاذ الاقتصاد الإسرائيلي لا بل واستمــراره في الحيــاة.. ومثال عددي بسيط على ذلك هو ارتفاع نسبة الصادرات من المنتجات الإلكترونية والبرمجيات ما بين عام ٩٩ و٢٠٠٠ بمقــدار ٥٠٪ وبما وصلت

قيمته إلى ١٣ مليار.. وبهذا تكون مؤسسات التقنيات الحديثة في إسرائيل قد صدرت من إنتاجها نسبة ٨٧٪.. ولا نغفل هنا أن نذكر أن تصدير هذه المنتجات التي يمكن استخدامها مدنياً قد ارتفع من ٢٠٪ قبل خمسة عشر عاماً إلى حوالي ٩٠٪ في عام ٢٠٠٠ واستمر حتى نهاية العقد الأول من القرن ٢١.. بشكل متوازن.

وتعتبر المؤسسات الإسرائيلية لصناعة التكنولوجيا العالية التي تسمى بالنظيفة من الناحية الجغرافية الأفضل بالنسبة إلى المستثمرين الأجانب طالما هناك هدوء واستقرار حول إسرائيل.. أو بتعبير آخر طالما تفاوض إسرائيل جيرانها وخاصة الفلسطينيين وكبح جماح المقاومة.. وعلى وجه أخص دون الوصول إلى أي نتيجة لصالح الفلسطينيين!!!..

وهكذا بادرت مؤسسات التكنولوجيا العالمية العالية كشركة (IBM) الأمريكية و(Intel) و(Microsoft) و(Mitsubishi) اليابانية و(Telekom) و(Siemens) الألمانيتين إلى تأسيس فروع لها في إسرائيل وبعد أن تعرفت على سوق التقنيات المتطورة في إسرائيل كمنجم للأفكار والحلول المتطورة.. وتشاركت مع الزبائن الإسرائيليين المناسبين في هذا القطاع..

ولا بأس أن نذكر هنا المقارنة اليائسة بين هذا الواقع الإسرائيلي الخطير والواقع الغربي الموازي البائس.. هو كيف تحرص الاقتصادات والمؤسسات العربية الصناعية على استقدام الصناعات الاستهلاكية الأمريكية خاصة في القطاع الغذائي غير الصحي في كثير من الأحيان كمطاعم الوجبات السريعة (كدجاج كنتاكي) والهامبورجر.. والكولا ومشتقاتها.. وغيرها من نظم التغذية اليابانية والأوروبية سهلة وسريعة الاستهلاك..

وهكذا تمكنت إسرائيل- من ربط هذه الشركات الأمريكية الضخمة والهامة بعجلة صناعاتها التقنية وصارت أهم شركائها الاستراتيجيين..

وكانت مجلة (Wired) الإلكترونية الأمريكية.. قد وضعت إسرائيل في المرتبة الرابعة في العالم كمركز للتقنيات الحديثة بعد (Silicon) في كاليفورنيا وبوسطن في ولاية بنسلفانيا الأمريكية وستوكهولم عاصمة السويد..

وقد حرصت إسرائيل على اندماجها في العولمة الاقتصادية والمالية في العالم كي تحافظ على مستوى الحياة الغربية التي أرادته لمجتمعها الاستيطاني.. لكن عملية انتقالها من الاقتصاد الاستيطاني الموجه والخاضع

لقوانين الحماية الاقتصادية إلى اقتصاد سوق شبه حر.. تعثرت كثيراً.. خاصة بسبب مشاكل دمج المستوطنين الجدد في المجتمع وبالتالي في العملية الاقتصادية وثانياً بسبب تداعيات مشكلة الصراع مع الفلسطينيين والمحيط العربي.. لكن إسرائيل واندماجها باتفاقيات تجارة حرة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.. ومناطق التجارة الحرة الأوروبية وإعفاء صادراتها إلى هذه الأسواق من الرسوم الجمركية- هذا إضافة إلى أن صندوق النقد الدولي بفعل النفوذ الأمريكي والصهيوني على سياسة هذا الصندوق.. ساعدها في تعاملها منذ التسعينات مع الدول الأخرى في إعفاء سلعها من الرسوم الجمركية بالتدريج..

وفي اتجاه محاولة الحكومة الإسرائيلية تحرير بعض قطاعات اقتصادها من قبضة الدولة.. جرى بيع عدد كبير من المؤسسات الاقتصادية الصناعية والخدمية -ولا يزال هناك أكثر من مئة شركة ومؤسسة اقتصادية (إسرائيلية) معروضة للبيع بعضها مهم وآخر أقل أهمية وبينها مثلاً الشركة العامة للهاتف.. وثلاثة بنوك كبيرة- ويزعم بعض المسؤولين الإسرائيليين وخبراء الاقتصاد.. أن سياسة (دولتهم) تتجه نحو اقتصاد السوق وإنهاء هيمنة الدولة على بعض قطاعات الاقتصاد والصناعة.

ولجأت الجهات الرسمية من ناحية أخرى وحرصاً منها على المحافظة على الهيكلية التقنية العالمية في جسم الدولة.. لجأت إلى إحداث صناديق خاصة باسم (البيت الأخضر) (green house) لدعم العناصر الشابة الخبيرة الرافدة خاصة في قطاع الكومبيوتر والبرمجيات بشكل عام مما انتهت إلى تأسيس حوالي ثمانية وعشرين مركزاً للتكنولوجيا الحديثة تتوافر فيها للباحثين الشباب الإمكانيات المالية والمدنية للخروج بنتائج بحوثهم كإنجازات تقنية لعرضها على الشركات وفي الأسواق للاستخدام والاستثمار أو الدخول في برامج مشاركة مع شركات ومؤسسات محلية أو أجنبية أخرى يمكنها تمويل إنتاج هذه الاختراعات والإنجازات وطرحها في الأسواق..

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام هنا وهي عندما تولى (اسحق رابين) في عام ١٩٩٢ رئاسة حكومة العدو.. عمد لأول مرة ولذر الرماد في العيون إلى تخفيض ميزانية الحرب..(الدفاع) لكنه من جهة أخرى رفع مخصصات البحوث العلمية وتطوير التقنيات الحديثة وخاصة إنتاج البرمجيات المتقدمة التي لا تحتاج إلى مواد أولية ولا إلى استثمارات تأتي من

الخارج.. بل خبرات بشرية.. هي متوافرة لدى الدولة الصهيونية.. كما يدعون.. وفي غمرة العولمة الطاغية في العالم خاصة في مجال حركة رؤوس الأموال وبقيمة الشركات الضخمة عابرة الحدود فإن هذه الشركات والمؤسسات تجد في السوق (الإسرائيلي) لإنتاج البرمجيات بغيتها وفرصتها للحصول على هذه المنتجات التقنية العالمية بأسعار بخسة – وهذا من ناحية أخرى ما تستغله السوق الإسرائيلية إلى آخر لحظة..

ومن المهم أن نعود هنا إلى التأكيد أن جميع المحاولات الأمريكية المبرمجة مع الجهات ومراكز الدارسات والبحوث في أمريكا و(إسرائيل) للسير في خارطة طريق أو ما يدعى بعملية السلام في شرق أوسط جديد.. جميع هذه المحاولات لم تهدف مخلصة إلى الوصول إلى سلام عادل يعيد الحق لأصحابه.. بل لتكريس تقوية ودعم الجهة المعتدية المحتلة العاملة على فرض الهيمنة المباشرة وغير المباشرة على مقدرات الشرق العربي.. ومن الصعب أن نعدد المبادرات الأمريكية الكاذبة في هذا الاتجاه منذ انهيارات (أوسلو) هذا على الجانب الفلسطيني فقط وحيث حاولت أمريكا ولصالح إسرائيل القفز فوق الواقع والمنطق والعدل وتركيب مبادرات ملغومة استمالت لها كثيراً من الدول العربية لطرح إمكانية مشاركة إسرائيل في تنفيذ مشاريع كبيرة في الشرق الأوسط في المياه والكهرباء وخطوط الغاز والنفط وشق الطرقات السريعة.. وغير ذلك إيجاد مناطق تجارة حرة وصولاً إلى سوق اقتصادية مشتركة بين العرب وإسرائيل- في إطار مقترح الشرق الأوسط الجديد على هوى شيمون بيريز وتجاوز حتى تحديد أو صيغة لدولة فلسطينية قابلة للحياة.. ويا للسخرية فهل هناك دول قابلة للحياة وأخرى غير قابلة للحياة.. على أن تشمل هذه التركيبة دول شمال أفريقيا. ولهذا ابتدعوا ما بين ٩٤ و٩٧ ما يسمى بمجموعة (ميتا) أي قمة دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هذا عدا عن الاجتماعات المفبركة من قبل المخابرات الأمريكية والإسرائيلية التي موهت تحت شعار الاقتصادية في بعض الدول الخليجية وهناك على شواطئ البحر الميت بما في ذلك ما حدث ويحدث تحت عبارة لقاء (دانوس) الاقتصادي العالمي وخلال ذلك ركبت فرنسا تحت شعار «مؤتمر دول البحر المتوسط والأردن»!! الذي كان قد بدأ في ١٩٩٥ في برشلونة/ إسبانيا على أن ينتهي عام ٢٠١٠ أي في هذا العام إلى هيكلية ثابتة تنفض فيها إسرائيل إلى جانب الدول

العربية الأخـرى.. وعمد الاتحاد الأوروبي هنا البدعة الجديدة باسم (منطقة الأويرو- المتوسطية للتجارة الحرة) ويمكن التكهن كم من الفرص ستتاح (لإسرائيل) لاختراق هذه المنطقـة بفعالية وجـوده وبمساعدة دوائر الاتحاد الأوروبـي لتحقيق مصالحها وعلى حسـاب مصالح الـدول العربيـة المتغطية في هـذه التركيبـة).. وتحصـل (إسرائيل) بضغط من الدول الأوروبيـة وأمريكا على أولويات وأفضليات في التبادل التجاري بين الاتحاد الأوروبي والدول العربية.. وخاصة ما يتعلـق بصناعة النسيـج والجلديات في مصر والأردن رغم ذلـك فإن قيمة التبادل التجاري بين السـوق الإسرائيلية والأسواق العربيـة كافة وخاصة في مصـر والأردن لم تتجـاوز الأربعين مليـون دولار عام ٢٠٠٠ من ٢٩ مليون قيمـة الصادرات وأحد عشر مليوناً قيمة الـواردات هذا من أصل مبلغ حوالـي تسعة وعشرين مليـار دولار قيمة الصـادرات الإسرائيلية في العام نفسه- أما الاستثمـارات الإسرائيلية في البلاد العربية فقد بلغت حتى مطلع الألفية الثالثة حوالي مئة مليون دولار..

هذا رغـم أن أحكام المقاطعـة العربية الإسرائيلية قد تهاوت منذ مطلع التسعينات لا بل إن بعض الدول العربية أعلنت ما تسمى في ١٩٩٤ المقاطعـة الثانويـة أو الانتقائية وإسقاطها عن الشـركات غير العربية - ثم بدأت العلاقـات الدبلوماسيـة منذ ١٩٩٥ مع الأردن/ التجاريـة المباشرة مع عدد من الدول العربية الأخرى..

إجمالات:

نرى في النهاية أنه بحكم شبكة العلاقات المصلحيـة والاستراتيجية مـن جهة أمريكا والمصيريـة من جهة (إسرائيل).. ذهب ٣٨٪ مـن صـادرات (إسرائيـل) الإلكترونية إلى السوق الأمريكية وذلـك في عام ٢٠٠٠ من أصـل ٨٠٪ شكلتها صـادرات إسرائيل من منتجـات التكنولوجيـا العالمية والبرمجيات وتجهيزات الاتصالات.. بالنسبة إلى مجمل صادراتها.. هـذا بينما ذهب ٣٧٪ من هذه الصادرات التقنية العالمية إلى أسواق الاتحاد الأوروبـي و٢٠٪ منها إلى الأسواق الآسيوية وتدّعـي الأوساط الإسرائيليـة أن الفنيين الأخصائيـين الصهاينـة الذيـن اكتسبـوا خبراتهـم في الصناعـة العسكريـة وخلال خدمتهم هنـاك.. هؤلاء يكثر الطلب عليهم في الداخـل والخارج خاصـة في الشركات والمؤسسـات الأمريكية.. وبعض النقاد يرى أن في ذلـك استنزاف للطاقات التكنولوجية الإسرائيلية العالمية وعولمتها..

ويزعـم الصهاينـة أن ظاهرة قيام كثير مـن الشـركات الأمريكية وغيرهـا بشراء بعضـ الشركات الإسرائيلية العامة في حقل التقنيات العالمية.. هذه الظاهرة أثارت بعض الأوسـاط الصهيونيـة داخـل (إسرائيل)-

ويدعي هؤلاء أن استمرار الصراع الفلسطيني الإسرائيلي لم يستطع أن يوقف هذا التطور الخطير بل سرّعه.. وأضحت هناك كثير من فروع شركات التقنيات العالمية إلى الخارج.. بما فيها من تجهيزات وبرامج ومن فيها من خبراء..

ولهذا فإن الأوساط الإسرائيلية اليمينية المتطرفة والمتشبثة بالأرض والاحتلال تريد استمرار المفاوضات العبثية مع الفلسطينيين بلا جدوى.. حتى تستقر الأمور والأجواء كي يتوقف ما يسمى بـ exodus المعاكسة..

ولهذا أيضاً تريد إدارة المؤسسات العلمية والسياسية في الكيان الغاصب أن تتجه بالبحوث والإنتاج إلى مجالات جديدة في التقنيات الحديثة كالتقنيات الحيوية ومراكز البحوث الطبية الحديثة مما يعزز خطوات يريد الكيان الصهيوني أن يخطوها بسرعة.. لتحويل الجهود والإمكانات العلمية الضخمة المركزة في قطاع الصناعات الحربية.. والتي كانت حتى الآن تشكل العمود الفقري في الصناعات الإسرائيلية بشكل عام.. دون أن يعني هذا إضعاف البحوث وتطوير التقنيات العسكرية التي يبدو أن الجهات الصهيونية المسؤولة تريد أن ترفع من نوعيتها.. لا من كميتها.

تطور الإنتاج الصناعي الإسرائيلي حسب القطاعات فيما بين ١٩٨٥ -٢٠٠٠ / النسبة المئوية

القطاعات الصناعية	١٩٥٨	٢٠٠٠
التعدين والمواد المعدنية	٣,٣٣	٢,٧٤
الصناعات الغذائية	١٨,٠٤	١٢,٧٠
الصناعات النسيجية والألبسة	١٧,٤٦	٥,٤٤
الصناعات الكيماوية	٧,٤٢	٩,٨٩
تصنيع أشباه المعادن (الفحم الأزوت)	٩,٤٢	٣,٧٤
تصنيع معادن قاعدية	٢,٥٠	٢,٠٨
معالجة المعادن.	٨,٢٧	١٠,٣٩
تصنيع الآلات.	٣,٢٨	٤,٥٠
الكترونيات وكهربائيات	٣,٦٨	٢٢,٤٣
تصنيع وصيانة تجهيزات النقل ووسائله	٤,١٠	٥,٦٦
تصنيع الألماس	٢,٦١	٠,٤٤

توزع نسب العاملين في قطاعات الاقتصاد الصهيوني / النسبة المئوية /

٢٠٠٠	٩٥٠	
٢٣٦١ ٦٠٠	٥٨٥٧٠٠	مجموع العاملين في جميع القطاعات
٢,٨ ٪	١٧,٦ ٪	الزراعة
١٤,٩ بسبب تركيز وتخصص شديدة في الصناعات الدقيقة والعالية	٢١,٥	الصناعة
٥,٦	٩,٣	البناء
٤,٥	١٣,٥	تجارة+فنادق+مطاعم
٥٠,٧ فيها العاملون في البحوث والتقنيات العالية.	٢٤,٥	خدمات عامة وخاصة

المراجع:

١- الدكتورة سابيني هوفمان: من كلية العلوم الآسيوية والأفريقية، جامعة هومبولد ت- برلين (جيوجرافيشي- روندشاو- شباط٢٠٠٢).
٢- المكتب المركزي للإحصاء/ ملخص احصائيات (إسرائيلية)-القدس.
٣- فيشر.س: اقتصادات الشرق الأوسط-كامبردج / لندن ١٩٩٣.
٤- البنك الدولي: الاقتصاد الدولي.. والتطبيقات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا- ١٩٩٥.
٥- بافيلجا. ب. وفيلينج: الشرق الأدنى على عتبة القرن الحادي والعشرين.
٦- ويلسون ر.: التطور الاقتصادي في الشرق الأوسط/ لندن ونيويورك-١٩٩٥.



نماذج في رثاء مدن وممالك أندلسية

د. فورار امحمد بن لخضر ❋

يعد رثاء المدن والممالك أكثر فنون الشعر قولاً وصدقاً وأصالة، حيث توجد الدوافع النفسية وراء إنشاده، وكذلك وفرة التجارب والأحداث المتلاحقة على أرض الأندلس، والمؤثرات الداخلية والخارجية التي أثرت في عواطف الشعراء، وهذا الفن خاص بالأندلس، رغم أن له جذورا في المشرق[1]، ولكنها لم تأت في روعة وجودة الشعر الأندلسي.

والرثاء السياسي ينحصر -في نظرنا- في رثاء المدن، وآخر في رثاء الممالك الزائلة، وكلا اللونين يتسم بالصدق الفني والعاطفة القوية والعبارات

❋ باحث وأستاذ جامعي (جامعة بسكرة- الجزائر).

العمل الفني: الفنانة ميسون علم الدين.

الحزينة والألفاظ الباكية والصور الشجية، ومن ثم فقد كان هذا الفن على درجة كبيرة من الشهــرة والذيوع، يقول غرسية غومس: «وقــد أدركت طائفة مــن المراثي السياسية شهرة واسعة في الأدب الأندلسي وقد قيلت هذه المراثي في مناسبــات زوال الدول مثل رائية ابن عبدون في زوال ملك بني الأفطس أصحــاب بطليوس، أو بمناسبــة ضياع بلد كبير من بلاد المسلمين».(٢)

أما رثاء المدن فيمكــن تقسيمه إلى لون يرثــي مدينــة خربهــا المسلمــون بأيديهم، فتهدمت قصورها وامحــت رسومها بسبب الفــتن التي توالت عليها، وآخر يرثي مملكة سقطــت في يد النصــارى، وتمَّ استردادها، وأخرى سقطت وإلى الأبــد، والمقصود هنا مملكة طليطلة.

يمثل اللــون الأول مدينة قرطبة، المزينة بالقصور والمتنزهــات والحدائق والمساجد، وقــد تغنــى الشعــراء بجمالهــا، وفتنــوا بمتنزهاتها، وتتحول أيام الفتنة العظمى، إلى خراب وأنقاض ونهب وتدمير وحرق، وتصير زهــراء الناصر الجميلة وزاهــرة المنصورة إلى اطــلال، ويموت النــاس جوعا، وتشهد العاصمة قرطبة ألوانا من الذل والمهانة.

ويمثل اللون الثــاني مدينة بربشتر التي استولى عليها النصــارى ثم استردت منهم، تلــك المدينة التــي كانت مــن أمهات مدن الثغر حصانة ومناعــة، ولكن النورمانديين حاصروها سنة ٤٥٦ هـ لمدة، ومنعوا عنها كل متطلبات العيشــ، ولم يحاول يوسف المظفر إنقاذها ولا المقتدر أخوه، ولذا طلب المسلمون من العدو الأمان لأنفسهم، على أن يخرجوا من المدينة دون مال، فوافــق النورمانديون ولكنهــم ما لبثوا أن خانــوا المواثيق، ونكثوا العهود، فقتلوا عامة رجالها، وسبوا فيها من ذرار المسلمين ونسائهم ما لا يحصى (٣).

بيــد أن هذا العمل المهــين لم يهز ملوك الطوائف، ولم يحركهم نحــو إنجاد المدينة، ولكنهم تخاذلــوا. أما الشعــراء فقد ألبهم سقــوط المدينــة، وكان أشدهــم تأثرا بهذه النكبة الأديب الشاعــر أبو حفص عمر بن الحسين الهوزني الذي أرسل وهو في مرسية إلى المعتضد ابن عباد بإشبيلية رسالة يحضه فيها علــى الجهاد، وينبهــه للأمر الداهم، تخلل هذه الرسالة أبيات من الشعر، تصور المعتضد شجاعا في ميدان النزال، ثم يضفي عليه من الفضائــل أرفعها ليستميله لنجدة المدينة، فيقول:(٤)

أعَبــادُ كلاًّ قد علوتَ فضائلاً
تقاصَر عنها كلُّ أروَع ماجِد

ثم أخذ يمدح المعتضد ويستنهضه ويحثه إلى أن استضرحه بقوله (٥):

فقد جدَّ أمرٌ هَدَّ شَرْعِ مُحمد
وما مُخبِرٍ عن حالةٍ مثل شاهد
لكلٍّ يَبينِ الرأيُ عند وفاته
هل من دواءٍ بعد نَهْش الأساوِد
أضاعوا وُجوه الحزم يومًا فعزَّهم
على أمرهم من ليس عنه بهاجد

غير أن الرسالة لم تثمر، بل كان جزاء الهوزني القتل على يد المعتضد، فقام الكاتب أبو عمر بن عبد النمري ينبه ملوك الطوائف إلى هذا الخطر من خلال رسالة أخرى، ولم تمض أشهر قلائل حتى هب الأندلسيون بقيادة المقتدر بن هود وساروا إلى الثغر يدفعهم الحماس الديني حتى وصل الجيش الإسلامي بربشتر سنة ٤٥٧ هـ، وحاصروا النورمانديين واستردوا المدينة[٦].

وكان لسقوط بربشتر قبل استردادها أثر عميق في نفوس الشعراء، ومنهم ابن العسال، الفقيه الزاهد، الذي صور ما لاقاه سكان المدينة من عنت النورمانديين وضلالهم مما تشيب له الولدان[٧]:

لقد رمانا المشركون بأسهُم
لم تُخْطِ لكن شأنُها الإصماء
هتكوا بخيلهم قصورَ حَريمها
لم يبق لا جبلٌ ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهُم بها
في كل يوم غارةٌ شَعواء
باتت قلوب المسلمين برُعبهم
فحماتُنا في حربهم جُبناء

إن الشاعر في بيته الأخير قد حدد موطن الداء وهو يكمن في جبن المسلمين عن نصرة إخوانهم، ثم يصور أثر الهزيمة القاسية، والفرار المريب، والذل والعار، ليلهب حماس المسلمين فيهبوا لاسترجاع ما ضيعوه، واسترداد ما فقدوه، ولا ينسى الشاعر في أبياته أن يصور الغدر والخيانة التي كان عليها المسيحيون، ثم يصور مافعلوه في الأطفال والشيوخ والنساء. إنهم بذلك قد أخلوا بأبسط قواعد الإنسانية، يقول[٨]:

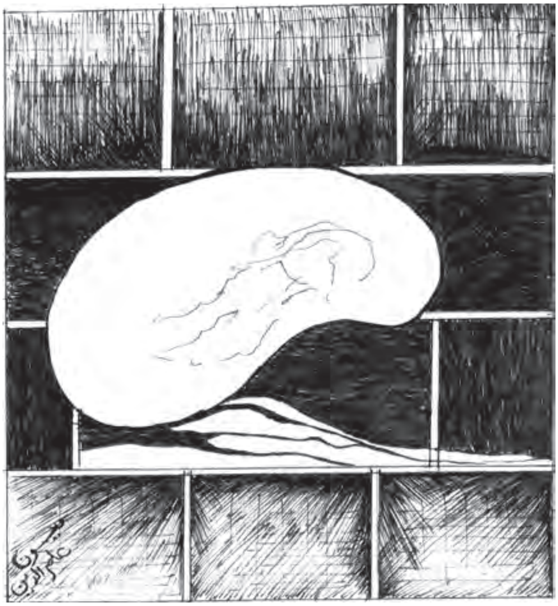
كم موضعٍ غنِموه لم يُرحَم به
طفلٌ ولا شيخ ولا عذراءُ
ولكَم رَضيع فرَّقوا عن أمِّه
فله إليها ضَجَّة وبُغاء
و لرُبَّ مولودٍ أبوه مُجدَّل
فوق التراب وفُرْشُه البَيداء
ومَصونةٍ في خِدْرها محجوبة
قد أبرَزوها ما لها استِخفاء
و عزيزِ قومٍ صار في أيديهمُ
فعليه بعد العِزَّة استِخْذاء

وفي ختام أبياته يلقي اللوم على المسلمين، لأنهم بتخاذلهم وتواطئهم قد تركوا الفرصة للنصارى حتى يفعلوا ما فعلوا:[٩]

لولا ذُنوب المسلمين وأنهم
ركبوا الكبائرَ ما لهنَّ خَفاء
ما كان يُنصَر للنصارى فارسٌ
أبدا عليهم فالذُّنوب الدَّاء
فشِرارهم لا يَختفون بشَرِّهم
وصلاحُ مُنتحلي الصَّلاح رَيَّاء

وكان لهذه الأبيات وقعها المؤثر في نفوس المسلمين فهبوا يدافعون عن المدينة حتى استردوها من أيدي النورمانديين بعد مضي تسعة أشهر من احتلالها، واستطاع المسلمون أن يقتلوا من النصارى الكثير ويأسروا الكثير، ويسبوا نساءهم وأبناءهم، وذلك بفضل تعاونهم ومماسهم الديني.(١٠)

وأما اللون الثالث فإنه يرثي المدن والممالك التي انتزعها النصارى من يد المسلمين وإلى الأبد، وكان للشعر السياسي دور بارز في رثائها، وهذه طليطلة، قد أعد ألفونسو السادس جيشه لمهاجمتها انطلاقا من سياسته التوسعية وذلك حينما قال لأهل طليطلة: «فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا



وبينكم» (١١). وفعلا سقطت طليطلة، بعد استسلام مهين للقادر يحيى بن ذي النون، وذلك بعد أن فقد أي عون خارجي من أمراء الطوائف ماعدا المتوكل بن الأفطس الذي انتدب القاضي أبا الوليد الباجي بأن يطوف ببلاد الأندلس، صائحاً ومحذراً ومستجيراً، ويحثهم على الوحدة ونبذ الخلافات، ولكنه لم يجد آذانا صاغية، فلم يستجيبوا لنصحه بل كانوا يستبردون نزعته.(١٢)

وهكذا سقطت إحدى حواضر الأندلس الكبرى، وخرجت من قبضة الإسلام، بعد أن عاشت في ظلاله ثلاثمئة وسبعين عاما.(١٣)

وكان لسقوط مملكة طليطلة أثر كبير في نفوس ملوك الطوائف وفي نفوس الشعراء،

فأمـا ملـوك الطوائف أخـذوا يفكرون في لمّ الشمـل وتوحيـد الصفـوف أمام خطر النصارى، وأما الشعراء فأخذوا في تصوير هـذه النكبة، وكان ابـن العسال خير شاعر أحس بهـول النكبـة لأنه قاسـى مرارتها شخصيـاً حين أخـرج من المدينـة مع من أخرج، فأنذر المسلمين في أبياته وحثهم على ترك المدينة لأنـه في نظره خير من السبي، وخدمة النصارى، فقال [١٤]:

يا أهلَ أندلسٍ حُثُّوا مطيكُم
فما المُقام بها إلا من الغَلَط
الثوب يُنسَل من أطرافه وأرى
ثوبَ الجزيرة مَنسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياةُ مع الحيَّات في سَفَط

وكان للأحداث التي حلت بطليطلة بعد دخولها في حوزة النصارى أثر كبير في نفوس الشعـراء وخاصة بعـد أن حولوا مسجدها إلى كنيسة، وضيقـوا على المسلمين في أداء شعائرهم حتى يجبروهم على التنصر، وهنا بكى طليطلة المنكوبة شاعر من شعراء الأندلس مصـورا ما حل بالمسلمين من ذل وهوان في قصيـدة طويلة، استهلها بهـذ السؤال: هل هناك من يبتسم وقد ضاعت طليطلة؟ وهذا البدء يدل علـى عمق التجربـة وصدقها، وشدة المعاناة، التي هـزت وجدان الشاعر، فكيـف تعيش مدن الأندلـس في سرور بعد هذه النكبة؟ يقول [١٥]:

لثُكْلِكِ كيف تبتسمُ الثُّغور
سُرورا بعدما سُبِيَت ثَغور

فهـذه النكبة قد هدت كيـان المسلمين وقصمت ظهورهـم رعبا وخوفا، وذلك بعد سقوط المدينة، وامتـلاك ألفونسو السادس لزمام الأمور، وتوالي المحن، وانعدام السرور، قال [١٦]:

أما وأبـي مصاب هُدَّ منه
ثَبيرُ الدين فاتَّصل الثُّبُور
لقد قُصِمتْ ظُهور حين قالوا
أميرُ الكافرين له ظُهور
تَرى في الدهر مَسرورا بعيْش
مضى عنا لطَيَّته السُرور

ثم يتساءل الشاعـر في غمرة الأحداث والمأساة: أليس في الأندلس أبي النفس، شهم، ينقذ طليطلة، ويحررها من الكفر؟ [١٧]:

أليس بها أبَيُّ النَّفس شَهْم
يُديرُ الدَّوائر إذ تُدور

وكانـت صيحته هباء باستثنـاء المتوكل ابن الأفطس الـذي أشار على القاضي أبي الوليـد الباجي أن يطوف في الأندلس -كما تقدم- منذراً ومحذراً، ولكن ملوك الطوائف في ذلـك الوقت قـد خضعـوا لوعيد ملك قشتالة، ورضوا بالـذل والهوان، وتسامحوا في الحرمات، فقال [١٨]:

لقد خضعتْ رقابٌ كنَّ غُلْبًا
وزال عُتَوُّها ومضى النُّفُور
وهان على عزيزِ القوم ذُلٌّ
وسامحَ في الحريم فَتى غَيُور

ثم يعرض الشاعر ما جرى في طليطلة، وكيف كانت معقلا صعبا؟ يفوق بضخامته ومنعته إيوان كسرى والخورنق والسدير، لقد أخرج أهلها وشردوا عن ديارهم وحولت مساجد المدينة إلى كنائس يسمع فيها دق النواقيس بدلاً من صوت الآذان، فأي قلب يقر على هذا ولا يجزع؟!:(١٩)

طليطلةَ أباحَ الكُفْرُ منها
حماها، إنَّ ذا نبأٌ كبير
فليس مثالَها إيوانُ كسرى
ولا منها الخَوَرْنقُ والسَّدير
مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنةٌ بعيدٌ
تناوُلُها ومَطْلبُها عَسير
ألم تكُ مَعقِلا للدِّين صَعْبا
فَذَلَّله كما شاءَ القَدير
وأُخْرِجَ أهلُها منها جَميعا
فصاروا حيث شاءَ بهم مَصير
وكانتْ دارَ إيمانٍ وعلم
مَعالمُها التي طَمِسَتْ تُنير
فعادتْ دارَ كُفْر مُصْطَفاةً
قد اضطَرَبتْ بأهلِيها الأمُور
مساجدُها كنائسُ، أيُّ قلبٍ
على هذا يَقرُّ ولا يَطير؟

يقول صاحب النفح عن اليوم الذي تحول فيه جامع طليطلة إلى كنيسة: «و مما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي، - رحمه الله تعالى- صار إلى الجامع، وصلى فيه، وأمر مريدا له بالقراءة، ووافاه الفرنج، وتكاثروا لتغيير القبلة، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته، وعصمه الله تعالى منهم، إلى أن أكمل القراءة وسجد سجدة، ورفع رأسه، وبكى على الجامع بكاء شديدا، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه».(٢٠)

ثم يتأسف الشاعر لتلك النهاية المحزنة، إنه حزن لا يداوى، يكرر ما تكررت الدهور، لقد ذوت طليطلة بمحاسنها، وشردت فيها حرائرها، ومن ثم لا يجد الشاعر غير أن يشارك إخوانه أحزانهم، قال:(٢١)

فيا أسفاه يا أسفاه حُزنا
يُكرَّر ما تكررت الدُّهور
ويُنشَر كل حسن ليس يُطوى
إلى يوم يكون به النُّشور
أُدِيلتْ قاصراتُ الطَّرْف كانت
مُصُوناتٍ مَساكِنُها القُصور
وأدركها فُتور في انتظار
لسِرب في لواحظه فُتور
وكان بنا وبالقينات أولى
لو انضمت على الكُل القُبور

لقد سَخِنَت بحالتهن عين
وكيف يُصبِح مَغلوب قَرير
لئن غِبنا عن الإخْوان إنَّا
بأحْزان وأشْجان حُضور

والشاعر يرجع النكبة إلى فعل الدهر، أو يرد الأحداث التي حلت بالمدينة إلى تقلب الدهر، ويستبعد أن تكون «عقابا من الله على معاصي ارتكبها أهل طليطلة، وإنكارا منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه الشريعة، وحجته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم، وأشد فسقا وفجورا، فإذا ارتضينا هذا سببا فعلينا أن نتوقع المصير نفسه، وفي قولته هذه يستهدف أمرين فيما أرى: الدفاع عن قوم سقطوا في محنة الاحتلال، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التقريع والذم، وتذكير الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهي إليه حالهم إذا واصلوا سيرتهم العابثة وواصلوا مظالمهم وعصيانهم سرا وعلانية»(٢٢)، قال:(٢٣)

نُذور كان للأيام فيهم
بمُلكهم فقد وفَت النُّذور
فإن قلنا العقوبةُ أدركتهُم
وجاءهم من الله النَّكير
فإنَّا مثلُهم وأشدُّ منهم
نَجور وكيف يَسلم من يجور؟
أنأمَن أن يَحُلَّ بنا انتقام
وفينا الفِسق أجمع والفُجور
وأكلٌ للحرام ولا اضطِرار
إليه فيَسْهل الأمر العَسير
ولكنْ جُرأة في عُقر دار
كذلك يفعل الكلب العَقور
يزول السِّترُ عن قوم إذا ما
على العِصيان أُرخَيَّت السُّتور

ثم يحث قومه على الأخذ بالثأر، ونصر الديانة، فقد حامت النسور فوق جثث القتلى من المسلمين، وذلك حتى يبعث في نفوسهم روح الشجاعة والحمية وسل السيوف، ويدعوهم إلى التعاون وعدم التهاون لأن الموت في عزة خير من الحياة في ذلة، ثم يضيق بالصابرين ويلوم القاعدين:(٢٤)

خُذوا ثأرَ الدّيَّانة وانصُروها
فقد حامت على القَتلى النُّسور
ولا تهِنوا وسُلُّوا كل عَضْب
تهابُ مضاربا منه النُّحور
و مُوتوا كلكم فالموتُ أوْلى
بكم من أن تُجاروا أو تَجوروا
أصَبرًا بعد سْبيٍ وامتحانٍ
يُلام عليهما القلبُ الصَّبور

ثم يصور قعود الناس وجبنهم عن القتال، فهم كالأبقار التي تخور، وقد أضعفت عزائهم أخبار الهزائم، وما يجري لمواطنيهم

في طليطلة، والشاعر كان يتمنى أن يتشجعوا ويكون لهم زئير الأسـود، لقد ساءت أحوال المسلمين وأضحت أخبارهم مصدر كدر وألم، وتأتي الكتب مسطـرة بالشر، والنحس خير مبشر لهم، قال:[٢٥]

نَخور إذا دُهِينا بالرَّزايا
وليس بمُعجَب بقرٌ يَخور
ونَجبُن ليس نزْأر، لو شَجعْنا
ولم نَجبن لكان لنا زئير
لقد ساءت لنا الأخبار حتى
أمات المُخبرين بها الخَبير
أتتنا الكتبُ فيها كلَّ شرٍّ
وبشَّرنا بأنْحسِنا البَشير

لقد أضحت أخبار الناس في طليطلة يشيب لكربها الطفل الصغير، ويصم السميع، ويعمى البصير، قال:[٢٦]

وقِيل تَجمعوا لفِراق شَمْل
طليطلةٌ تَملكها الكَفور
فقُل في خُطة فيها صَغار
يشيبُ لكَرْبها الطفلُ الصَّغير
لقد صُمَّ السَّميع فلم يُعَوَّل
على نبأٍ كما عميَ البَصير

ثم يتحدث الشاعر في ألم شديد عن بعض مسلمي طليطلة الذين أغرتهم وعود ألفونسو ببقائهم على أرض الكفر مع الرضا بالهوان لتنمية ثرواتهم، بل إن منهم من ارتد عن دينه واعتنق النصرانية، وبلغ الحزن غايته حين آثر الجميع البقاء، وحجتهم، إلى أين نذهب؟، وكيف نترك بيوتنا وأموالنا وليس لنا وراء البحر دور ولا أموال؟، ليست لنا هناك ضياع ننعم بوارف أشجارها وطيب ثمارها، ولا طبيعة فياضة بجمالها من ظل وماء واعتدال هواء، قال [٢٧]:

تُجاذِبنا الأعادي باصطناع
فينجذِب المُخَوَّل والفَقير
فباقٍ في الدِّيانة تحت خِزي
تُثَبِّطُه الشَّويْهَة والبَعير
و آخَرُ مارِق هانتْ عليه
مصائبُ دينه فله السَّعير
كفى حَزَنًا بأن الناسَ قالوا
إلى أينَ التحوُّل والمَسير
أنَترُكُ دُورَنا ونَفرُّ عنها
وليس لنا وراءَ البحر دُور
و لا ثَمَّ الضِّيَاعُ تروقُ حسنًا
نُباكِرُها فيُعْجبُنا البُكُور
و ظِلٌّ وارِفٌ وخريرُ ماء
فلا قَرٌّ هناك ولا حَرور
ويأكلُ من فواكهها طَرِيٌّ
ويُشرَبُ من جَداولها نَمير

ويصور الشاعر قبول أهل طليطلة دفع الجزية لألفونسو في كل شهر، وتسليم عشر المحصول في كل صيف، وذلك مقابل

حماية النصارى لهـم، لقد تبدلت الأوضاع وأصبح النصارى الموالي والعشير للمسلمين، قال:[٢٨]

يــؤدى مَــغْــرَمٌ في كـلِّ شَـهْـر
ويــؤْخَـذُ كـلَّ صَـائـفـة عُـشُـورُ
فـهـم أَحْـمـى لِحَـوْزتِـنـا وأَوْلى
بـنـا وهـــمُ المـــوالي والـعَـشـير

ثم يقرر بــأن اليقين قد ذهــب، وليس هنــاك دين ولا دنيا، فالمسلمــون قد رضوا بالرق والــذل والهوان، ثم يطلب من إخوانه أن يبكــوا، ولكن مــا جدوى البــكاء؟ ويتألم الشاعــر لحــال إخوانه الذيــن هاموا على وجوههم في فلاة، حيارى، ثم يدعو الشاعر إلى نبذ السلم، والاستعداد للقتال، عسى أن يجبر العظم الكسير، قال: [٢٩]

لـقـد ذهـبَ الـيـقـينُ فـلا يـقـينٌ
وغَـــرَّ الــقــومَ بــالله الــغَــرور
فــلا ديـــنٌ ولا دُنــيــا ولـكـن
غُـــرورٌ بـالمعِـيـشـة مـا غـرور
رَضــوا بــالــرِّقِّ يـا الله مــاذا
رآهُ ومـــا أشـــارَ بـــه مُـشـير
مضى الإسلامُ فابْك دَمًاعليه
فما ينفِي الجَوى الدمعُ الغزير
ونُــحْ وانـــدُب رفـاقـا في فَـلاة
حَيارى لا تَحطُّ ولا تَسير
ولا تَجـنَـح إلى سِـلْـم وحـارِب
عسى أن يُجْبر العظمُ الكَسير

ثم يقــارن الشاعر بين فريــق المسلمين الذين عموا عن مراشدهم، وفريق النصارى المتميــز بنفــاذ البصــيرة، ويتعجــب مــن المسلمين، إذ كيف يلقون فرداً من النصارى ويفرون عنه جميعــاً، وكان الأولى أن يثبتوا وأن يصبروا، ولكن مــاذا ينفع العدد الكثير إذا ذهب اليقين؟، قال [٣٠]:

أنَـعْـمـى عـن مَـرَاشِـدِنـا جميعا
ومـــا إنْ مـنـهُـم إلا بَـصـيرُ
ونَـلـقـى واحـــدا ويَـفِـرُّ جَـمْـع
كـمـا عـن قـانِـص فـرتْ حَـمير
ولــو أنَّـــا ثَـبَـتْـنَـا كـان خَـيْرا
ولــكــن مــا لــنــا كَـــرمٌ وخِــير
إذا لم يـكـن صَــبْرٌ جَـمـيـلٌ
فـلـيـس بِـنــافِـع عــددٌ كـثـير

وأخيرا يتمنى الشاعر أن يظهر قائد ذو رأي ومشورة، يستعان به وقت الشدائد ويكر إذا أقبلــت السيــوف، ويتقدم عنــد اللقاء، ويستعظــم الشاعر أن يكــون الأمر قد بلغ بسكان الأندلس أن يكون إما قتيل أو جريح، وقد تنغصت الحياة ولا من مجير.

وفي الخاتمــة يتضرع الشاعــر إلى الله لنصرة المسلمين فهو نعم النصير، قال:[٣١]

ألا رجــلٌ لـه رأيٌ أَصـيـل
بــه ممــا نُــحــاذرُ نَـسـتـجـير

يـكُـرُّ إذا الـسـيـوفُ تـنـاولـتـه
وأيـــن بـنـا إذا ولَّـــتْ كُـــرور؟
ويـطـعَـن بـالـقـنـا الخـطَّـار حتى
يـقـولَ الـرمـحُ مـا هـذا الخطير
عظيـم أن يـكـون الـنـاسُ طُـرًّا
بـأنـدلـس قـتـيـلٌ أو أسـيـر
أذكــرُ بـالـقـراع الـلـيـثَ حِـرصا
على أن يُـقـرع الـبـيَـضَ الـذُّكور
يـبـادرُ خَـرقَـهـا قـبـل اتـسـاع
لخـطْـب مـنـه تـنخـسِـفُ الـبُـدور
يُـوسِّـع لـلـذي يـلـقـاه صـدْرا
فـقـد ضـاقـت بـمـا تـلـقـى صـدور
تـنـغَّـصـت الحـيـاة فـلا حـيـاةٌ
وودِّع جِـــيرةً إذ لا مُجـير
فـلـيـلٌ فـيـه هَـــمٌّ مُـسـتـكـنٌّ
ويـــومٌ فـيـه شـــرٌّ مُـسـتـطـير
ونـرجـو أن يُـتـيـح الله نـصـرا
عـلـيـهـم، إنـــه نِـعـم الـنَّـصـير

والقصيـدة بعد هـذا التحليـل تتسم بالجودة والأصالة وعمق التجربة وصدقها، ويصـف الطاهـر مكـي الشاعـر، بقوله: «أصيـل في أفكاره واتجاهـه، لأن قصيدته أول مـا قيل في بابها، وليس عالة فيها على أحد سبقه»[٣٢]. وصـورت القصيدة سقوط طليطلة ومحنـة أهلها الذيـن تخاذلوا عن استردادها.

وهكذا خربت مـدن الأندلس وسقطت الواحـدة تلـو الأخرى في أيـدي النصارى فراح الشعراء يبكونهـا، ويصورون مشاعر مواطنيهـم المكلومـة، ويخلـدون مراحـل السقـوط، ويعبرون عن ذلك بالـدم أحياناً وبالدمـع والاستنجاد أحيانـاً أخرى، إلا أن معظـم الشعـراء مالوا إلى الاتجـاه الأول، فوقفـوا موقفا سلبيا تمثلت خيوطه باليأس والبكاء وذرف الدموع على الأطلال دون أن يستنهضـوا الهمم لدحر النصارى والقضاء على آمالهم لأنهم يمثلون مواقف ملوكهم – كما تقدم – بيـد أن هناك قلة من الشعراء وقفوا موقفا إيجابيا فحثوا الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال في الذود عن الوطن.

لقد بـرز في الأندلس قسمان من الرثاء السياسـي، في القرن الخامسـ الهجري ؛ فالأول انقسم إلى ثلاثة ألوان: منه ما يتعلق برثـاء المدن التي تخربت أيـام الفتنة – ولم يحظ بالقراءة لتقيدنا بحجم المقال – وآخر انحصر على مدينة بربشتر المستردة، وثالث كان متوقفـا على مملكـة طليطلة الضائعة الذي ركزنا فيه بالقراءة على مرثية الشاعر الأندلسي المجهول، وأما القسم الثاني الذي يختص بزوال مملكة بني عباد، ومملكة بني الأفطس... فإننا أرجأناه لحين الحين.

ويعد رثاء المدن والممالك في الأندلس من أبـــرز فنون الشعر السياســـي، قولاً وتجربةً وصدقـــاً وعاطفـــة وأصالة، بـــل إن شعراء الأندلس بزوا شعراء المشرق في هذا الفن من حيث الإبداع والابتكار، فكتب له الخلود، ولا غرو فقد كان من أوسع الفنون السياسية في الأندلس كمّا وكيفا.

الهوامش:

١- الطاهر أحمد مكي. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. دار المعارف. مصر ط١. ١٩٨٠. ص ٢٠١.

٢- إميليو غرسية غومس، الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٢، ص١٠٦ – ١٠٧.

٣- أبوعبيد البكري. جغرافية الأندلس وأوروبة، من كتاب المسالك والممالك. تحقيق عبد الرحمن الحجي.دار الإرشاد للطباعة والنشر. بيروت. ط ١. ١٩٦٨.ص ٩٤، ابن عذارى. البيان المغرب. تحقيق ح. س. كولان، وليفي بروفنسال. دار الثقافة. بيروت. ج ٣ ص ٢٢٥.

٤- ابن بسّام، الذخيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبا، تونس، ط١، ١٩٧٩. ق ٢، ج ١، ص ٨٧.

٥- ابن بسام، المصدر نفسه، ٢/١: ٨٨.

٦- ابن عذارى. البيان المغرب، ٣: ٢٢٧.

٧- الحمـيري، صفة جزيرة الأندلـس (منتخبة من الروض المعطـار)، تحقيق ليفي بروفنسال، لجنـة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧، ص ٤٠ – ٤١.

٨- الحميري، المصدر نفسه، ٤٠ – ٤١.

٩- الحميري. المصدر نفسه،٤١.

١٠- ابن عذارى. البيان المغرب، ٣: ٢٢٦.

١١- ابن عذارى، المصدر نفسه، ٣: ٢٨٢.

١٢- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٣، ج٢، ص ٩٨.

١٣- محمـد عبـد الله عنان، دول الطوائف، مطبعة الخانجي للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٠، ص ١١١- ١١٥.

١٤- المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج ٤، ص٣٥٢.

١٥- المقري، نفح الطيب، ٤: ٤٨٣.

١٦- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

١٧- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

١٨- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

١٩- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

٢٠- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٤٧، ٤٨٤.

٢١- المقري المصدر نفسه، ٤: ٤٤٧، ٤٨٤.
٢٢- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ٢٥٦، ٢٥٧.
٢٣- المقري، نفح الطيب، ٤: ٤٨٤.
٢٤- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٤.
٢٥- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٦- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٧- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٨- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٩- المقري. المصدر نفسه. ٤: ٤٨٥.
٣٠- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٦.
٣١- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٦.
٣٢- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ٢٦١.



العُبُودة والعمل

د. علي أبو عساف*

وهمـــا مفردتان ذات دلالة مشتركة وهي العمـــل ولبيان ذلك نتتبع معنى العُبُودة وهي من الثلاثي عَبَد وذلك منذ الألف الثالث ق.م من خلال كتابات ماري والدور الأكدي وإيبــلا ونادبا (تل بيدر) وأجاريت والكتابات الكنعانية والآرامية وغيرها.

لم تكن هذه المفردة عَبَــد متداولة بالنصوص الأكدية وبعدها بالنصوص البابلية والآشوريــة. إنما ورد في الأدبيات البابلية الحديثة الاسم عَبْدُ وقيل

* باحث وآثاري سوري (مدير عام الآثار والمتاحف سابقاً).

العمل الفني: الفنان رشيد أبو شمه.

إنه دخل إلى البابلية عبر الكنعانية كاسم وليس كفعل[1]. ويجمع الباحثون في لغاتنا القديمة أن الثلاثي عَبَد يعني قبل كل شيء عَمَلَ.وفي رسائل العمارنة إبان القرن الرابع عشر ق.م والتي كتبت بلغة كنعانية وردت المفردة عبد بمعنى عَبْد= خادم أو عَبَدَ= فعل بمعنى خدم وهذه شواهد على المعنى المزدوج للكلمة. وفي نصوص أجاريت التي تتزامن تقريباً مع رسائل العمارنة وردت هذه المفردة بصيغ متعددة اشتقت من الثلاثي عَبَدَ. ونجد في أسطورة كرب وإن شئتم قصة كرت، أمثلة على ذلك: ففي الشطر ٥٥ و١٢٧ و٢٧١ نقرأ الكلمة عَبدُ أي العبد كما في العربية وكذلك عَبْدُمْ بصيغة الجمع وعلامته الميم وقد ترد كاسم علم عبد أو بن عبد/بن عِبْدي؟ أو يضاف إلى اسم الرب مثل عبد ايل أو لقب مثل عبد ملك.وإلى جانب هذه الأمثلة نجد أمثلة أخرى ترد فيها هذه الكلمة بمعنى عضو في نقابة أو عامل في نقابة أو حرفة كما في النصوص: النص ١٦٩ الشطر٣ و٣٢٤ الشطر٩-١١[2]. يرى القارئ في هذه الأمثلة أن المفردة عَبَدَ تعني خدم وكذلك عمل أو مارس عملاً ما في نقابة أو حرفة وهي تعبير عن الفكر الأجاريتي في تكريم العمل والارتقاء به إلى مرتبة القدسية.

هكذا في أجاريت. أما عند الكنعانيين والآراميين فلا يختلف الأمر وقد أمدونا بمعلومات أوفر. لقد حافظ الكنعانيون والآراميون الشريكان في ثقافة بلادنا على المعنى الأساسي للكلمة: عمل أو قام بعمل ما وللعمل مجالات واسعة: فإن عمل بالحقل أو بالكرم تعني المفردة المستخدمة عَبَدَ فلح وزرع ومارس عمله تحت أشعة الشمس. وإذا رعت (عَبَدَت) الآلهة اتفاقاً ما فهي قد عملته أوصاغته (مجازاً) وباركته ووجب على الفريقين المتعاقدين بالعمل على التنفيذ والذي يسيء (يعبد) إلى صنوه في الاتفاق يصبح في نظر الأرباب مرتداً فيعاقب أي تعمل الآلهة على معاقبته وأظن أن هذه الأمثلة توضح بجلاء أن العبودة قرين للعمل.وفي الكنعانية وخاصةً في الدور المسمى الفينيقي نجد أن المفردة عبد لها عدة معاني تختلف عن المعاني التي ذكرناها في النصوص الأقدم فهي تعني العبد الخادم للسيد أو التابع له أي الذي يقوم بأعمال متنوعة ومتعددة عند سيده ولصالح سيده في بيته وحقله وتجارته وكرمه.. إلخ

وهذا يقنعنا بازدواجية معنى عبد (العُبُودة والعمل) وحتــى تكتمل الصورة نشير إلى أن لغات بلادنــا التي سطــرت بالمسمارية أي الحروف الهجائيــة ذات الشكل المسماري: الأكدية بفرعيها البابلي والآشوري والإبلوية والأجاريتية المسمارية. قد استخدمت مفردة (وارادوم/ ورَدّوم) بدلاً من الثلاثي عبد ولكن بالمعنى ذاته. وهي تؤدي أيضاً معاني عديدة حســب موقع العمل: فالذي يعبد في الهيكل يرعــى شؤونه الدينية كافــة ويحرص على نظافته وصيانته ويهتم بشؤون زواره والذي يعبــد (يخدم) في القصر عليه واجبات عدة تفرضهــا تعليمات القصر.أمــا الذي يعبد في حقــول وممتلكات الهيــكل والقصر فهو يفلحها ويزرعها ويحصد الغلال.. إلخ وهنا تتوضــح الصلة المتينة بــين العُبُودة والعمل ومــع مرور الزمــن تطورت جميــع مناحي الحياة في العصور القديمة وظهر مانسميه عمل السخرة التي هي أعمال يقوم بها فرد عنــد آخر وفاءً لدين لــه عليه.كأن يستدين صاحب حاجة من مالك لها حبوباً أو قماشاً ويتعهد بردها إليه في الوقت المحدد فيتعسر عليه الرد لذا يعمل (يعبد)لديه ليسدد دينه. لقــد كان العمل(عبــد) في الأماكن الدينية الهياكل وبيوت العبــادة شرف الإنسان يلجأ إليه الرفيع والوضيع الغني والفقير فيتطوع ويعمــل في بيــوت العبــادة أو في ممتلكاتها فقد تطوعــت إنْخدّوانا ابنة مؤسس المملكة الأكدية شروكين للعمل (عبد) في عدة معابد ببلاد الرافديــن والجزيــرة(٣) وما ذكرته أعلاه من ارتباط الثلاثي عبد بالعمل داخل المعبد وفي مجالات شتى هو الشهادة على أن العُبُودة تنطــوي في ذاتها على العمل بشكل مطلق فإذا فلح الآرامي مثلاً كرماً أو حقلاً وإذا زرع أرضــاً وإذا قدم نــذراً للرب وإذا بنى هيكلاً فهــو (يعْبُدُ) يقوم بهذه الأعمال ويصــف نفسه بأنه عبد الــرب وقد وصف الملــك الآرامي كيلامــوه نفســه بأنه:عبد تجلات فلصر، وهــذا الآخر هو ملك آشور ٧٤٧-٧٢٧ق.م أي أنه خادم أو تابع أو خاضع لتجلات فلصــر[٤]. فالعمل عندهم متلازماً مع العبــودة بكل ماتحويه هــذه الكلمة من معنى فكلمة عبد في لغتنا القديمة هي كما في العربيــة تنطوي على لين وخضوع وشدة وقوة لين وخضوع في الأعمال الدينية وشدة وقوة في تنفيذ العمل .

وفي القرآن الكريم نزعة إلى هذا المعنى وهــدف إلى تكــريم العمل وجعلــه مساوياً



لممارسة المناسك الدينية.

والقرآن الكريم كما قال فيه طه حسين «القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي» وأنا أقول هو أصدق مرآة لمرامي الناس في معاني مفرداتهم إذ ليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته إلا أن تكون بينهم وبينه صلة[٥].صلة حبلها اللغة فهي لغة عربية قومها الناس عبر مئات السنين.ومن وجهة نظر علمية في العلاقة بين العبودة والعمل أكرر ما يقوله الباحثون في أن الشرائع السماوية رفعت من شأن العمل ووضعته بمصاف العبادة وفي الآية ٣٣ من سورة فُصلت: ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً. يشمل العمل العمل الديني[٦] الذي يحتوي على طقوس العبادة والعبادة عمل كما العمل في أي مجال وهذا يعني شمولية المعنى لكلمة عمل الذي أفهم منه الترابط بين العبادة والعمل.وفي كلا الحالتين واجب العمل وقدسيته الانكباب على العمل ودقة تنفيذه وتحمل المسؤولية في أدائه والحماس له لأنه يرفع من شأن حياة الإنسان وسعادته ويسهم في قمع الفساد ونبذه وجعله إلى زوال.

لايقمع الفساد بالقوانين وحدها والعقوبات بل أيضاً وقبل كل شيء بأن يفهم الإنسان العامل قيمة العمل الذي يؤديه هو في سبيل تحقيق مبادئ منع الاستغلال الذي ينشر الحسد والعداوة بين الناس ومكافحة

الجوع والفقر والمرض وانتشار العلم بأوسع أبوابـه وتحكيـم العقـل في جميـع الأمور وخاصةً الموروث الثقافي الإنساني والاعتماد على النفس ونبذ الاتكالية. الالتصاق بالأرض مبعـث الحياة وبناء الاقتصـاد حسب واقع توفر الموارد. وانتشار الثقافة عماد هوية كل أمة على جميع المستويات والتي تشجع على اعتماد شعار الرأي والرأي الآخر.

الهوامش:

1- W.von soden, Akkadisches Handwoerterbuch, p.6

٢- علي أبو عساف، نصوص من أجاريت، وزارة الثقافة، ١٩٨٨، ص١٥٥-١٥٨.

Ugaritic Manual, 1955, p.175

3- Kulturgeschiehte des Alten Vorderasien Berlin 1989,p.111112,179-

٤- علي أبو عساف الآراميون.

٥- طه حسين في الأدب الجاهلي ص ٧٠-٧١.

٦- اشتراكية الإسلام، تأليف مصطفى السباعي، سلسلة اخترنا لك ١٠٨، دمشق ١٩٦٠، ص١٦٩-١٩٠.

آفاق المعرفة



أضواء على مدينة بصرى

د. خليل المقداد ❁

الهدف من هذا البحث هو إلقاء الضوء على آلية العمل في معلم حضاري محلي رائع يظهر الدور الريادي للإنسان العربي السوري في بناء الحضارة والمعالم التاريخية والحضارية ونقل هذه الرسالة السامية إلى حضارات العالم كافة. كما أن بيان ماهية العمل في أحد الأمثلة من المدن السورية هو دليل قاطع على أن بناء هذه المدن وبناء الإنسان الذي عمرها كان نموذجاً لبناء المدن كافة، ومنطلقاً لبناء الإنسان والحضارة في حوض البحر الأبيض المتوسط التي كانت ومازالت ترتكز على مقومات الحضارة العربية.

❁ باحث آثاري من سورية.

العمل الفني: الفنان ميسون علم الدين.

ومن جهةٍ أخرى لتصحيح بعض المفاهيم التي ما زالت عالقة في أذهان الناس ويكررونها كل يوم وفي كل مناسبة بسبب جهلهم أو عدم درايتهم في الحقائق التاريخية ومفردات الفهرس الحضاري، ومكررين ما كان يطلقه المستشرقون الذين ارتكزت مفاهيمهم على تعصب إقليمي أوديني أو عرقي أو قومي..إلخ. ولهذا نضع الحقيقة بين يدي القارئ والباحث ليستنتج بنفسه الحقائق ويلمسها ومن ثم يترجمها ترجمة عملية أثناء تناول مثل هذه الأمور لتكون نماذج للأبحاث المستقبلة التي تبرز هوية هذه الأمة على حقيقتها وتنصفها بصدق ومصداقية بحثية.

وثمة أمر آخر نلمسه كل يوم من خلال التجربة اليومية في التدريس في العديد من الجامعات العربية أو المحاضرات التاريخية والحضارية على منابر العديد من المؤسسات الثقافية والعلمية والأدبية أو ما نعرفه عبر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية؛ فنجد أن ما هو معروف في أذهان الناس أو ما يتم تدوينه في المناهج التدريسية أن كل ما هو باقٍ من إنتاج حضاري أو معماري أو أثري في بلادنا هو من نتاج الحضارات اليونانية أو الرومانية أو البيزنطية وغيرها.

كما أن ما هو معروف عن الحضارة الرومانية أو البيزنطية وغيرها من الحضارات التي عاشت فوق أراضينا ما هي إلا حضارات مستعمرة وغريبة عن بلادنا، وأن المواطن الروماني أو البيزنطي هو إنسان مستعمر وكذلك متحضر وباني حضارتنا. ولكن عندما نضع الأمور في موقعها الصحيح ومن خلال المنظار الدقيق نجد أن هذه الحضارات ليست سوى حضاراتٍ عربيةٍ قامت فوق أراضٍ عربيةٍ، وشكلت هذه الأراضي أكثر من سبعين بالمئة من جسم تلك الإمبراطوريات، كما كان الإنسان العربي يشكل أكثر من سبعين بالمئة من سكانها.

ولكن السبب فيما كان يطلق على هذه التسميات هو اسم العواصم مثل روما – بيزنطة (نسبة إلى موقع بيزنص) وكما يعرف عن الحضارة العربية المصرية بأنها حضارة فرعونية نسبةً إلى اسم الفرعون (الحاكم). وحتى ننصف سورية أو بلاد الشام من هذه المفاهيم لا بد أن نشير إلى أن سورية معنية بالحضارة المصرية بقدر ما هي معنية مصر بذلك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى حضارة بلاد النهرين فنجد أن سورية معنية في هذا الأمر كما هو العراق معني بذلك.

وعلى جميع الأحوال فجميع هذه البلاد بلاد عربية، وسكانها قبائل وعشائر

عربيــة منــذ الأزل وحضاراتهــا المتعاقبة هــي حضــاراتٌ عربيــةٌ انتقلــت من قلب العروبــة النابض سوريــة إلى العالم قاطبةً. فكم من الأباطرة الذين تربعوا على عروش الإمبراطوريات من أصــولٍ عربيةٍ، وكم من القناصــل والولاة وقــادة الجيوشــ الذين سجلــوا صفحاتٍ مشرفــة بالبطولة والإباء ينتمون إلى هــذه البلاد، وكم من المهندسين والبنائــين والمفكرين والفلاسفة الذين كانوا مناراتٍ للحضارات العالمية وحتى يومنا هذا وينتمون إلى هذه البلاد وهذه الأمة أيضاً.

وبذلك ننتهز هذه الفرصة ونفتح الطريق أمــام زملائنــا الباحثين لتنــاول مثل هذه المواضيع والتوسع في دراستها دراسة تفصيلية معمقة للخروج بنتائج صادقة تظهر الحقائق وتضعهــا في معيارهــا الصحيح، كما نحث زملاءنــا في كليات الهندســة وأقسام الآثار والتاريخ في الجامعات السورية والعربية في توجيه طلاب الدراسات العليا في تناول مثل هذه المواضيع الهامة والمحددة.

المعارف الجديدة عن مدينة بصرى والتــي أظهرتها التنقيبــات والأبحاث الأثرية الجديدة:

نتج عن تعاقب الحضارات وتعدد المراحل التاريخية لبلاد الشام وخاصةً جنوب سورية أن جعلــت من موقع بصــرى حيزاً جغرافياً لمدينة تمخضت عنها العديد من المدن، وكل واحدة كان لهــا إطارها التاريخي ومنهجها التنظيمــي والعمــراني وأوابدهــا الأثرية الخالــدة وموقعها الاستراتيجــي وأهميتها الحضاريــة ومعطياتهــا الأثريــة النفيسة. ومن خلال دراستنا للموقع حديثاً وجدنا أن مقومات سكن الإنسان القديم كانت متوفرة في الموقع وأهمها توفر مصادر المياه الدائمة والموسمية.

ومــن الميــاه دائمة التدفــق العديد من الينابيــع التــي توجــد حاليــاً في الجهات الشماليــة والغربية من المدينة الأثرية حيث بلغ عددها خمسة ينابيــع، تجف أو تتدفق منهــا المياه حســب نسبة هطــول الأمطار السنوية إلا أنــه في السنوات الأخيرة وحتى الآن تشهد المنطقة بشكلٍ عام تدنيّاً في نسبة هطل الأمطار، لذلك لم يبق إلا النبع الرئيس والذي بدوره أخذت مياهه تخف في تدفقها شيئاً فشيئاً كمــا أن استعماله أصبح خفيفاً ولم تتناسب مياهه مع نسبة استهلاك السكان المتزايدة.

أما المياه الموسميــة فمصدرها السيول التــي تجــري في الوديان التــي تحاذي في مساراتها مدينة بصــرى من جهتي الشمال والجنــوب والقادمة من جبل حــوران أثناء مواسم الأمطــار، إلا أن جريان المياه أصبح

نـادراً في هذه الوديان بسبب نسـب الأمطار الخفيفة وقلة تساقط الثلـوج التـي تعطيها استمرارية في الجريان لفترات زمنيـة طويلة ومستمـرة كمـا كان الأمر قديماً.



ويجب التذكير هنا أن العديـد من القرى التـي كانـت تحيـط في مدينـة بصـرى ومواقعهـا مازالـت موجـودة بمحـاذاة هذه الوديـان الأربعة (الزيدي – الرقيق من جهة الشمال، والزعتري – والبطم من جهة الجنـوب) قد هجرت ولم يبق منها إلا بعض التأسيسات البسيطة لبعض الأبنية. ومنها خربة البزايز – خربة الدير – دير الغساني – دير الباعق.

وتتميـز مدينة بصـرى أن موقعها جاء وسـط سهل النقرة الخصـب ذي الأراضي الزراعية الشاسعـة والمنبسطة بحيث تأخذ في ارتفاعها التدريجي بين ٨٠٠م في الجهة الغربيـة مـن المدينـة إلى ٨٥٠م في الجهة الشرقية منها. وهذه الطبيعة الطبوغرافية سهلت في بناء وتوزيع خزانات المياه في جميع جهـات المدينـة والتي بلغ عددهـا خمسة خزانـات عرف كل واحد منهـا باسم بركة رباعية الشكل تـتراوح أبعادها بين٢٠٠ إلى ١٥٠م تقريباً وعمق بين ١٥ إلى ١٠متر .

وبالطبـع فهذا التقليد عرف في منطقة حوران منذ القـدم بسبب عدم وجود انهار دائمة الجريان، وكذلك بسبب نسبة هطول الأمطار الخفيفة التي لم تتجاوز ٢٠٠مم في

السنة في مدينة بصرى وما يحيط فيها. ولهذا فكانت الضرورة تقتضي الاستفادة المطلقة من مياه الينابيع والأمطار بتهيئة خزانات كبيرة وصغيرة داخل المدينة وفي محيطها الخارجي.

كما تفتقر المدينة إلى الكهوف الطبيعية والمصطنعة بسبب بنيتها الجيولوجية وقاعدتها الصخرية ذات الصخور البازلتية القاسية والصماء، ولهذا فلم تشهد المدينة إنسان الكهوف كما هو الحال في المناطق المجاورة مثل موقع درعا ودمشق وحوض اليرموك وحوض العاصي ووادي السير إلى الجنوب الغربي من مدينة عمان ومنطقة اللجاة والجبل شرقاً وغيرها.

ويجب التذكير أنه لم يتم العثور حتى الآن على أي مادة أثرية من مخلفات إنسان عصور ما قبل التاريخ وخاصةً العصر الحجري القديم (الباليوليتيك).

١ - مدينة ما قبل التاريخ:

أصبح من المؤكد أن المنطقة ومنذ الألف الخامس عشر ق. م دخلت كباقي مناطق بلاد الشام في مرحلة تاريخية عرفت بمرحلة الحضارة الزراعية وثورة الرموز والتي استمرت حتى الألف الثامن ق.م. والتي تعرف تاريخياً في جنوب بلاد الشام باسم الحضارة الغسولية، ثم توسعت لتشمل كامل بلاد الشام وبلاد النهرين لتعرف باسم الحضارة النطوفية.

وأهم سمات هذه المرحلة النهضة الزراعية والثقافية والعمرانية وبناء المدن وتطور الصناعات المختلفة، وفوق ذلك كله الوحدة الحضارية لبلاد الشام بجميع مقوماتها.

ومع غياب المعطيات الأثرية والمادية والتاريخية في مدينة بصرى والمناطق المحيطة فيها حتى الآن بسبب غياب الحفريات الأثرية في المواقع التي تعود إلى تلك الفترات الزمنية يبقى الارتكاز في هذا الموضوع على الافتراض المدعم بأسباب منطقية وعلمية بوجود مدينة كانت تتمركز حول ينابيع المياه المتعددة والدائمة وعلى رأسها النبع المركزي.

وما أن حل الألف الثالث ق. م حتى أصبحت هذه المدينة حاضرة متسعة وممتدة يسكنها عدد كبير من السكان، ومساكن منظمة وأسوار حصينة وعالية ولتصبح عاصمة المنطقة الجنوبية من بلاد الشام، ومن ثم استمرت تتربع على هذا العرش طيلة المراحل التاريخية بما فيها العهد السلجوقي والفاطمي والأيوبي. وفي العهد العثماني والعصر الحديث ظهرت مستجدات أفقدتها هذا المركز، ولكن مازالت تاريخياً

وأثريا تحافظ على هــذا الإرث الحضاري النفيس.

٢ – المدينة الآرامية:

أخــذت المدينة تتوســع جنوبــاً وغرباً منذ الألــف الثاني قبل الميــلاد وأصبح لها مخطــط معماري واضــح وشــوارع وأحياء سكنية تحيطها الينابيع ويتوسطها منخفض طبيعــي تحول ليصبح حوضــاً مائياً كبيراً، وسور يحيط بكامل الحيز المعماري وأبواب للمدينة محصنة بأبراج عالية.

كما استمــر توسع المدينــة طيلة الألف الأول ق. م بشــكل يتناسب مــع تزايد عدد السكان وخاصــةً منذ منتصف هذه الألفية الذي تزامن مع قدوم قبائل عربية قادمة من الجزيرة العربية ومنها: الأنباط والإيدوميون والصفائيون وغيرهم. وقد كان التوسع يمتد مــن الشمال إلى الجنوب، ومــن الغرب إلى الشــرق ضمن حيز مكاني امتــد قبل قدوم الأنباط بحوالي ألف وخمسمئة متر شمال/ جنوب وألف متر شرق/غرب، وهذه الحدود مازالت ثابتــة ومعروفة ومحــددة بالأسوار حتى الآن.

وقــد تأكدت هذه المعطيــات من خلال العديد من الحفريات والأسبار الأثرية التي جــرت في القسم الشمالي مــن هذا الحيز المكاني من قبل دائرة آثــار بصرى والعديد من البعثــات الأجنبية التي تعمل في المدينة منــذ أعوام السبعينيات مــن القرن الماضي وحتــى الآن. وتمَّ العثــور على لقــى أثرية تعود إلى الألف الثالــث والثاني والأول قبل الميــلاد، وتمَّ نشر النتائــج في بعض أعداد الحوليــات الأثرية العربية السورية والعديد من الحوليات والدوريات الأثرية في مختلف دول العالم.

٣ – المدينة في العهد النبطي :

أخذ ظهــور العرب الأنبــاط يتزايد في شمال الجزيــرة العربية وجنوب بلاد الشام منــذ الألــف الأول ق. م، وتأكــد ذلــك مع البراهــين التاريخيــة والأثريــة التي أكدت أن هــذا التزايد ظهر بشــكلٍ ملحوظ منذ النصف الثــاني من الألف الأول قبل الميلاد بما فيها منطقة حــوران وخاصةً في مدينة بصرى التي أصبحت المدينة الرئيسة الثانية للأنباط بعد البتراء ومنذ القرن الثاني قبل الميلاد أيضاً.

ومن المؤكــد أن هذه المرحلــة الزمنية تلت مرحلــة وجود الأنبــاط وتكاثرهم في جنــوب الأردن والمناطــق الشمالية الغربية والمشرفــة على البحر الأحمر وخليج العقبة والنقب وخاصة بعــد بناء العديد من المدن مثل الحجر ومدائن صالح والبتراء وانتشار

الحواضر النبطية في منطقة وادي السرحان شمال الجزيرة العربية ومنطقة الأزرق.

ومن البديهي أن حلول الأنباط في حوران أخذ يتكاثر طرداً مع تزايد نشاطهم التجاري بين الجزيرة العربية وبلاد الشام وسيطرتهم على الطرق التجارية بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي عبر الخليج العربي واتخاذهم من مدينة غزة مركزاً لتوزيع التجارة وتصديرها إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط وخاصةً القارة الأوروبية.

إلا أن الوجود الحقيقي للأنباط كقوة بشرية وسياسية واقتصادية وعسكرية ودينية في جنوب سورية ودورهم الفاعل في الأحداث الدولية فكان منذ بداية القرن الأول قبل الميلاد، حيث استمر الصراع على المنطقة بينهم وبين السلوقيين والبطالمة ومن ثم الرومان طيلة القرون الثلاثة وحتى عام١٠٦ بعد الميلاد. وكانت مدينة بصرى منذ تلك الفترة عاصمة الأنباط طيلة القرون الأخيرة من تاريخهم. حيث شكلت المدينة النبطية القاعدة العريضة للمراحل التنظيمية المتعاقبة، أو ما يعرف باسم عهد الولاية (العهد الروماني) والعهد الكنسي والعهود الإسلامية التي استمرت حتى نهاية العهد المملوكي.

ومنذ بداية العهد النبطي أخذ توسع المدينة يمتد شرقاً من محور طريق النبع – المصلبة (التترابيل) – الباب الجنوبي وحتى السور الشرقي. وفي كل مرحلة توسع تتم إزالة السور من جهة التوسع ويحل محلها مساره شارع فاصل.

وأصبح من المؤكد أيضاَ أن المنطقة الغربية من المدينة والتي كان يحدها المحور المذكور من جهة الشرق بقيت ثابتة الحدود بينما أخذ التوسع يمتد تدريجياً طيلة العهد النبطي نحو الجهة الشرقية، بينما الأسوار من الجهات الثلاث الأخرى الشمالية والجنوبية والغربية فقد حافظت على بنائها ومساراتها مع تدعيمها وتقويتها بالسماكة والأبراج ورفع جدرانها حسب المقتضى.

وعلى اعتبار أن المدينة كانت عاصمة للمملكة النبطية التي امتدت أراضيها من منطقة دمشق شمالاً (الضمير – دمشق – جبل الحرمون) وحتى شمال الجزيرة العربية جنوباً فقد اقتضى الأمر أن تبنى فيها جميع الأبنية الموجودة في أي عاصمة أخرى من قصور وأبنية خدمية عامة وخاصة وأبنية وحصون وأبنية دفاعية وغيرها، وهذه الأبنية تمت الاستفادة منها في العهود اللاحقة بعد توسيعها وتجميلها لتصبح مناسبة ومطابقة لمتطلبات العهد الذي تتوسع فيه.

وفوق ذلك كله المعابد ومنها معبد الآلهة العربية: اللات -العزى -ذي الشرى- قوس، بحيث كان يبنى معبد مستقل لكل إله من هذه الآلهة إضافة إلى بناء معبد مشترك ورئيس (بانتيون) لجميع الآلهة. كما بينت الحفريات الأثرية أن القاعدة التأسيسية للمدينة النبطية شملت كامل الحيز المكاني المحصور بين أسوار المدينة في عهد الولاية، وقد تأكد ذلك من خلال نتائج الحفريات الأثرية في المواقع التي شملت كامل الحيز العمراني لمدينة بصرى منذ تأسيسها وحتى المرحلة الأخيرة. وبالطبع فهذا برهان جديد على أصالة المدينة وقدمها التنظيمي.

ومما يؤكد ذلك أيضاً أنه لم يخلُ موقع أجريت فيه الحفريات الأثرية في المدينة من لقى أثرية نبطية إضافة إلى العديد من النصوص الكتابية النبطية التي وجدت في المدينة والمدن النبطية الأخرى ومنها على سبيل المثال نص مازال منقوشاً على واجهة معبد نبطي في مدينة البتراء يذكر أن هذا المعبد كرس على شرف آلهة الأنباط الموجودين في بصرى، إضافة إلى العديد من اللقى الأثرية كالفخاريات والمسكوكات النقدية وغيرها.

٤ - المدينة في عهد الولاية:

بدأ عهد الولاية في مدينة بصرى والمناطق التابعة لها منذ شهر آذار عام ١٠٦ب.م، وصدر بذلك أمر إمبراطوري ينص على أن تكون مدينة بصرى عاصمة الولاية العربية ومدينة الإمبراطور تراجان (فيا تريانا بصرى) وشملت أراضي الولاية أراضي المملكة النبطية نفسها التي كانت بصرى عاصمتها. وبذلك تكون المدينة والمنطقة قد حافظت على استقلالها وكيانها مدة زمنية قاربت الخمسة قرون ؛ ثلاث منها في العهد اليوناني (السلوقي في سورية - والبطلمي في مصر) وقرنين من الزمن تقريباً في العهد الروماني، ولم تستطع هذه القوى العظمى من دخول المدينة والقضاء على الحكم النبطي إلا بعد وفاة العاهل النبطي رئبال الثاني في التاريخ المذكور.

ومع بداية هذا العهد أخذت المدينة تلبس حلية معمارية جميلة وتنظيماً معمارياً جديداً منذ ذلك الحين لينسجم مع مكانتها السياسية والإدارية والبشرية والاقتصادية والعسكرية والدينية، وكذلك كونها أصبحت من جديد عاصمة الولاية العربية تضاهي في جمالها المدن الكبرى (المتروبول) بما فيها العاصمة روما وتتناسب مع التسمية التي أطلقها عليها الأباطرة تراجان وهادريان.

وقد تطلب ذلك أن تكون أنموذجاً لعاصمة شرقيــة وكذلك نموذجاً للمدن الكبرى. وقد بنيت فيها أنماذج من جميع الأبنية الموجودة هنــاك، ومن أهمهــا الحمامــات والمسارح والقصــور وأقواس النصر والشوارع المعمدة والمعابــد وسبل المياه والمصلبــات (تترابيل) والأسواق وخزانات المياه وميدان الفروسية والجيمناز وأحواض السباحة وغيرها.

وحتى لا يتم تعكــير وتخريب مخططها القديم فقد تمَّ تنظيــم ذلك بمنهجية ودقة متناهية باتخاذ المحور الوسط في المدينة من المعسكر شمالاً إلى ميدان الفروسية جنوباً، وكان هــذا المحــور هو المحــور المركزي في المدينة النبطية وحتى منتصف القرن الثاني بعد الميلاد.

وثمة أمور جديدة كشفت عنها الحفريات الأثرية ولم تكن ظاهرة، لأنها كانت مطمورة تحت الأنقاض، أو لم تظهر حقيقتها وهويتها المعماريــة والوظيفيــة. ومنها علــى سبيل المثال:

أولاً- المسرح الأثـري الدائـري (الأنفتياتر): و كنت قد أشرت إلى ذلك منذ عام ١٩٨٣ من خــلال دراستي عن التنظيم العمــراني لمدينة بصرى في ذلك العهد، وقد تأكــدت هذه النظرية بعــد عمليات التوسع في الكشف في المنطقــة المحيطة في المسرح النصــف دائري من الجهة الغربية والقريبة من ميــدان الفروسية من جهتــه الشمالية، ومــن المفترض العثــور أيضا في هذا الحيز التنظيمــي على مسرح صغــير أو ما يعرف باسم قاعــة الطرب (أوديــون) وهو المكان الذي كان مخصصــاً للاجتماعات الرسمية في المدينة.

ثانيــاً- الموقــع الأثــري المركــب: تمَّ الكشف عن أقســام المبنى الذي كان يعرف باســم : (الموقــع الأثري المركــب أو المعبد – الكاتدرائيــة) والمكــون مــن عــدة أبنية أثرية متلاحمة ومتراكبة مع بعضها البعض والواقع إلى الشرق من الباب النبطي ؛ فقد أظهرت الحفريات الأثرية هوية هذه الأبنية والتي كانت جميعها ذات وظيفة دينية بنيت على عدة مراحل وهي:

١- المرحلة الأولى وتشمل البناء الأقدم وهــو المعبد النبطــي المركــزي والذي كان مكرساً للآلهــة النبطية: اللات – العزى – ذي الشــرى والذي ذكر في الكتابات النبطية في مدينــة البــتراء، وظهــرت صــوره فوق المسكــوكات النقدية للمدينــة ويعود تاريخ بنائه إلى القرن الأول ق.م.

٢- المرحلــة الثانيــة تمَّ تجديد وتوسيع المكان ليصبح معبداً رئيساً للمدينة في عهد الولاية إضافة إلى العديد من المعابد الأخرى

التي توزعت في كامل أنحاء المدينة بما فيها المعسكر.

٣- بنـــاء الكاتدرائية الكـــبرى للمدينة إضافة إلى الكاتدرائيـــة المكرسة للقديسين سرجيوس وباخوســ وليونيس. ويعود تاريخ البناء إلى العهـــد الأسقفي وحصول المدينة على مركز المتروبول.

٤- بناء كنيسة ملاصقة لبناء الكاتدرائية من الجهة الجنوبية.

ثالثاً- بنـــاء قصر تراجـــان: وقد تأكدت هوية هذا البناء المعمارية والوظيفية بحيث كان مقراً لحاكم الولاية ومن ثم تحول ليصبح مقر أسقف المدينة والمرتبط مع الكاتدرائية المجاورة. وكذلك الربط التنظيمي بينه وبين المبنى الملاصق للباب النبطي من جهة الشرق بشارع معمد. أمـــا كونه مقر ملوك الأنباط بما فيهم الملك رئبال الثاني أخر ملوكهم فلم يتـــم تأكيد هذه الفكرة حتى الآن، كما أنه لم يتم الكشف عن هذا القصر أيضاً.

إلا أن المعطيـــات الأثريـــة المتوفرة حتى الآن تبـــين أن موقـــع هذا القصـــر يجب أن يكون في هذا الحيـــز التنظيمي الواقع بين قصر تراجـــان والباب النبطي ومبنى المعبد النبطي المركـــزي والمواقع المحيطة بها من جميع الجهات.

رابعـــاً- الحمامـــات العامـــة والأبنيـــة المحيطـــة بها: تمَّ الكشف عن كامل العناصر المعماريـــة لأبنية حمامـــات المدينة المركزية والجنوبيـــة وكذلك الكشف عن معبد مجاور للحمامـــات الجنوبية من الجهـــة الشرقية وتحوله في مرحلة لاحقة إلى بناء كنيسة على حســـاب المعبد مع اختلاف السويات والمنهج المعماري وكامل التفاصيل الهندسية.

خامســـاً- بنـــاء معبـــد الكليبـــة: فقـــد أظهرت الحفريات والكشف الأثري أن هذا البناء عبارة عن سبيل مياه (نمفيوم) مكرس لآلهـــة الينبوع، ويقابل سبيل المياه الأخر من الجهة الغربية والمكرس لنفس الآلهة والمبني لنفســـ الغرضـــ والذي يعـــرف باسم معبد السقايا.

سادســـاً- موقـــع السوق العامـــة للمدينة (الفـــوروم) والســـوق الأرضيـــة: وقد وضحت الحفريـــات الأثريـــة في هـــذا القطاع عن العديد من المفاهيم ومنها:

آ- حـــدود الســـوق العامـــة ومخططـــه الهندســـي وتفاصيـــل الأبنيـــة الملحقة به، والكشف عـــن كامل الأرضية بمـــا فيها ما تبقى من البلاط الأرضي الأساسي.

ب- معرفة المخطط الهندسي وتفاصيل المحـــال التجارية الملحقـــة بالسوق الأرضية في الطابق العلـــوي والتي كانت تشرف على

الشارع الرئيس من الجهة الشمالية ويتقدمها رواق معمد، وكذلك المحال التجارية التي كانت تتقدم السوق الأرضية من الجهة الجنوبية وتشرف على السوق العامة والتي كان يتقدمها رواق معمد أيضاً.

ج- الكشف عن هوية المبنى الواقع على الطرف الشرقي من السوق الأرضية والمقابل للقسم الغربي من قوس النصر (باب القنديل) من الجهة الشمالية، وذلك من خلال دراسة الواقع التنظيمي للمدينة ومقارنة ذلك مع الواقع التنظيمي في كل من مدينة جرش وعمان وبعض المدن المشابهة، وكذلك من خلال الدراسة الدقيقة للموقع والمخطط الهندسي للبناء ؛ وكل هذه الأمور أكدت أن البناء كان عبارة عن المنتدى الاجتماعي للمدينة.

د- من خلال تنفيذ العديد من مواسم التنقيب والبحث الأثري في هذا الموقع الذي يتوسط المدينة وبعد دراسة المنهج العام المعماري والتنظيمي لهذا الحيز المكاني ودراسة طبوغرافية الموقع وغيرها من معطيات أثرية ؛ طرحت فرضية وجود ضلع ثاني مكمل للسوق الأرضية محوره شمال / جنوب يشرف على السوق العامة من الجهة الغربية وله المنهجية التنظيمية نفسها للسوق الأرضية، ولكن في هذه الحالة يكون موقعه تحت مسار الشارع المتجه من ساحة الترابيل إلى النبع المركزي. وإن عرضت هذه الفرضية شبه المؤكدة إلا أن التفاصيل المعمارية والهندية لهذا القسم تبقى مجرد افتراض حتى تسمح الظروف بالكشف عن ذلك.

سابعاً- نفذت العديد من الحفريات في مواسم متعددة وأماكن متفرقة شملت المعسكر وقناة البزايز وعدة شوارع وأعطت نتائج مفيدة سوف نستعرضها في أبحاث مستقبلية أخرى.

٥- المدينة في عهد الأسقفية:

استمر المنهج التنظيمي في عهد الولاية حتى العهد الكنسي وعهد الأسقفية نسبياً، إلا أن ثمة عوامل جديدة ظهرت وأدت إلى تغيير أو تعديل أو حذف بعض المظاهر العمرانية والتنظيمية، إما على حساب المنهج التنظيمي والعمراني للأبنية أو المخطط العام للمدينة أو للوظائف الأساسية التي أشيدت تلك الأبنية من أجلها ومن هذه العوامل:

آ - انقلاب وتحول المفاهيم الثقافية والعقائدية في المنطقة وعلى مستوى الإمبراطورية، وإنهاء كامل المظاهر والمعتقدات الوثنية وحلول الديانة النصرانية الجديدة، ولذلك تحولت الأبنية وخاصة

ذات الوظائــف التــي لا تتناســب مع هذه العقيدة إلى مناهج جديدة. ومن هذه الأبنية علــى سبيل المثــال المســارح الدائرية كافة (الأنفتياتــر) والنصف دائرية والمعابد ودور العبادة وغيرها.

ب- الكــوارث الطبيعيــة التــي لحقت بالمدينة من جهة وكذلك معظم مدن المنطقة مــن جهةٍ أخرى، لذلــك أدت هذه الكوارث إلى طمس معالم العديد من الأبنية القديمة، ولذلك أعيــد استعمال عناصرها في الأبنية الجديدة بمظاهر ومخططات أخرى تختلف عن السابقة.

ومن هنا نجد أن التنظيم الجديد لم يعد يستند علــى المحاور القديمة لا بالنسبة إلى المخطط العــام للمدينة ولا الأبنية الأخرى، وهذا الأمر كان بمثابــة الأرضية الأساسية للمدينة الإسلاميــة. وسوف نستعرض ذلك في أبحاث مستقبلية أيضاً.

٦- المدينة الإسلامية:

بنيت هذه المدينة علــى أنقاض النسيج المعماري والمناهج التنظيمية القديمة بحيث شملت كامل الحيــز العمراني السابق. وقد استمــر هذا الأمر طيلــة العهود الإسلامية وحتى نهايــة العهد المملوكــي. كما شهدت المدينــة نقلة نوعيــة في التطــور العمراني والإداري العسكــري والتحصيني في العهود الفاطميــة والسلجوقيــة والأيوبيــة حيث أعيدت للمدينة أهميتها القديمة كما كانت عليــه الحال في العهد النبطي وعهد الولاية باستثناء العهد المملوكي والعثماني.

ومع نهاية العهــد المملوكي وطيلة العهد العثماني هجرت المدينــة وعاشت في ظلام استمــر حتى منتصف القــرن التاسع عشر حيث أخذت تدب فيهــا الحياة من جديد. ومنذ مطلــع القرن العشريــن كانت معظم الأبنية الأثريــة في المدينة في وضع الخراب والتهــديم والطمس. ولم يسكن منها إلا جزء من القسم الأوســط والشرقي على حساب الأبنية القديمة.

ولهــذا اقتضــى الأمر إجــراء دراسات مستفيضــة من أجل المحافظــة على كامل المظاهر التنظيميــة والأبنية الأثرية بحيث لا تطغى مرحلة تاريخية على أخرى وتظهر المدينة كنموذج لحضارات ومراحل تاريخية متعددة، ونموذجــاً هاماً يقتدي ويحتذي به العالم، ومن هنا تكمن أهمية بصرى كمدينة هامة من مدن التراث وأهمية العمل الأثري فيها.

و كانــت هذه الركيــزة الأولى في العمل الأثري منذ بداية الاستقلال وتأسيس المديرية العامة للآثار والمتاحــف حيث أولت الدولة اهتمامها بذلك وكذلــك منظمة اليونسكو.

وقد هيأت الظروف لهذا الأمر أناساً أكفاء قاموا بهذا العمل مثل المرحوم سليمان المقداد والمرحوم إبراهيم المقداد، كما يعود الفضل إلى وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف وجميع أهالي بصرى.

كما شاركت في العمل أيضاً البعثات الأثرية الفرنسية والألمانية والإيطالية والعديد من الباحثين، وتمَّ توثيق ذلك بدقة متناهية للأمانة والتاريخ.

آلية العمل في المسرح الأثري وشوارع المدينة المعمدة والأروقة:

وحتى لا يطول البحث في شرح التفاصيل الدقيقة لكل مبنى ومنهجه المعماري والهندسي نود هنا بيان آلية العمل في محورين فقط حيث أصبح من الواضح إجراء الدراسات التفصيلية والمنهجية واستخلاص النتائج المفيدة ومعرفة المنهجية المعمارية والهندسية والتكلفة المادية والفترات الزمنية لتنفيذ الأعمال فيها، كما أننا سوف نبحث ونستعرض بقية الأوابد كلما سنحت الفرصة في المستقبل.

ومن هذه المحاور: أولاً مبنى المسرح – ثانياً شوارع المدينة المعمدة والأروقة.

أولاً المسرح:

بني المسرح ضمن نسيج عمراني وتنظيمي شمل كامل الحيز التنظيمي للمدينة. وهذا المنهج التنظيمي كان ينطوي على توزيع الأبنية الخدمية ضمن الوظائف والتخصصات التي انسجمت مع واقع المدينة البشري والعسكري والإداري والتجاري.. إلخ.

وانطلق التنظيم من أقصى الشمال ببناء المعسكر والحي السكني العسكري، وفي الوسط المعابد والأبنية العامة والخدمية ومنها الحمامات، ومن ثم جنوباً أماكن اللهو والتسلية ومنها بناء المسرح الدائري (الأنفتياتر) والمسرح النصف دائري وقاعة الطرب (أوديون)، وفي أقصى الجنوب ميدان الفروسية. وكان المنهج التنظيمي يتوزع من خلال شبكة طرقات معمدة ومجملة بالأروقة والشرفات وواجهات الأبنية والمحلات التجارية، وشمل ذلك كامل الحيز العمراني للمدينة.

وقد نفذ العمل بأيدي محلية وبمنهج تنظيمي ومخطط معماري محلي وبعناصر معمارية محلية أيضاً، وقد ارتكز القسم الأعظم من عناصر البناء على الحجر البازلتي، وهذا الاختيار فرضه الواقع المحلي بسبب وفرة الصخر البازلتي في موقع البناء والمنطقة وعدم توفر الغابات والخشب، وقد تمَّ استعمال الحجر في جميع أقسام الأبنية من جدران وواجهات وأبواب ونوافذ ومقاعد..إلخ.

كمــا أن توفر الحجــر البازلتي بكميات كبيرة سمح بعدم التقتير في سماكة الجدران، ممــا يدعم ويضمــن صلابة وقــوة المباني ومقاومتها للعوامل الجوية. وعلى الرغم من قسوة الحجارة فقد ظهرت وجوهها بملمسٍ ناعم في جميــع الاستعمالات بسبب حذاقة ورشاقة النحاتــين والدقة في النحت، حيث جاءت بالشكل المطلوب وأعطت نتائج مثمرة وخاصةً في إطارات الأبواب والأقواس.

إلا أن قســوة الحجــارة البازلتية كانت لهــا نتائج سلبيــة حدّت كثيراً مــن المغالاة في إظهــار الزينة في أماكــن متعددة وبارزة في المسرح لصعوبــة النحت والجهد والزمن الطويل، ومع ذلــك برزت قسمات كثيرة من الزينة النحتيــة المتمثلة في الأزهار والأوراد وعناقيد العنب وغصونها وأوراقها، إضافة إلى العديــد من الفواكــه الأخرى ونمنمات التيجان

وجاءت المهارات عالية في العمل وخاصةً في الأروقــة وزوايا المنصة وواجهات الألواح والمداخــل الداخليــة والخارجيــة للمسرح وتطابــق المدرجــات في مقاعــد المتفرجين (الكافيئا) مع الأدراج الشعاعية، وقد أظهر هذا التنفيــذ المعماري الاتــزان والصرامة والحيوية والترابط المتقن والمهارة العالية في العمل.

ومن خــلال الدراســة الإحصائية التي أجريناهــا علــى عناصر البنــاء في المسرح جاءت النتائج بصــورة تقريبية على الشكل التالي :

آ- **واجهــة المنصــة**: بلــغ طــول الواجهة ٥٤،٥م، ومعــدل وســط لطــول كل حجــر بنــاء بلغ ٤٥سم، وبذلك بلــغ عدد مداميك الواجهة مئــة مدماك بشــكلٍ أفقي، وجاء ارتفــاع الواجهة ٢٥م ÷ ٥٠سم معدل ارتفاع الحجر، وبذلــك يكون عــدد المداميك ٥٠ مدماكاً شاقولياً.

وتكون المحصلة :١٠٠حجر× ٥٠حجر = ٥٠٠٠ حجر استعمل في الواجهة يضاف لها خمسة آلاف حجــر استعملت في الواجهات الحاضنــة للألــواح والواجهــات الخلفية والملحقــات. وبذلك تكــون النتيجة ١٠٠٠٠ عشرة آلاف إجمالي عدد الحجارة المستعملة في الواجهة.

ب- الواجهــات الخلفيــة للمنصــة وملحقاتهــا: وهي الواجهــات المشرفة على الردهــات الجانبيــة الشرقيــة والغربيــة، وأروقــة الكواليــس الداخليــة والواجهات الخلفية لأجنحة المنصة وغيرها مع العلم أن ارتفاعها ثابــت في كل الجهات وهو ارتفاع المنصة ٢٥م، فتكون المحصلة حسب طول كل قسم من هذه الأقسام على الشكل التالي:

٢٠+١٤+٥٤+٥٤+٥٤+١٤+٢٠ = ٢٣٠م الطول الكلي للواجهات.

٢٣٠م ÷٤٥ سم وهي الأبعاد المتوسطة لكل حجر = ٥١١ حجر لكل مدماك أفقي

٥٤×٥١١ = ٢٧٦٠٠ إجمالي عدد الحجارة.

ج- الواجهات الخلفية لمقاعد المتفرجين:

طول نصف المحيط ١٣٥م ÷ ٢ = ٦٧،٥م على اعتبار أن نصف جدار الواجهة الخلفية مفرغ بالأقواس والنصف الآخر عبارة عن ركائز وأقواس ومداخل بينها. وبذلك يصبح لدينا طول الواجهة المبنية ٦٧،٥م ÷ ٤٥سم الطول المتوسط للحجر = ١٥٠ حجر لكل مدماك أفقي.

وبما أن ارتفاع الواجهة ٢٦،٦٨ م ÷ ٤٥سم = ١٥٠ حجر لكل مدماك أفقي.

٦٨،٢٦م ÷ ٤٥سم = ٥٩ مدماك للبناء بشكل شاقولي.

٥٩حجراً × ١٥٠حجراً= ٨٨٩٣ إجمالي عدد الحجارة.

د- ملحقات أماكن المتفرجين: وهي الجدران الحاضنة للمداخل والأدراج والأروقة فبلغ عدد الحجارة ٦٠٠٠حجر + ٣٠٠٠حجر استعملت في الأدراج الداخلية الموزعة على أقسام المسرح + ٦٠٠٠حجر استعملت لمقاعد المتفرجين وبذلك تكون النتيجة :

٦٠٠٠+ ٣٠٠٠+ ٦٠٠٠= ١٥٠٠٠حجر إجمالي عدد الحجارة.

المجموع الكلي للحجارة المنحوتة والمستعملة في بناء المسرح جاءت على الشكل التالي :

٢٠٠٠٠ + ٢٧٦٠٠٠ + ٨٨٩٣ + ١٥٠٠٠= ١٢٥٤٩٣ إجمالي عدد الحجارة المنحوتة بزوايا قائمة وواجهات ملساء وأضلاع مستقيمة.

وهذا الكم الكبير من الحجارة يحتاج إلى ١٢٥٤٩٣ يوم عمل لعامل نحات محترف يستطيع أن ينهي نحت حجر من الحجارة. مع الأخذ بعين الاعتبار استخدام عدد من الحجارة يماثل هذا العدد تقريباً تمَّ استعمالها للحشو وملء الفراغات والتأسيسات.

وبذلك يكون عدد الكتل الحجرية المستعملة في بناء المسرح ٢٥٠٠٠٠ مئتان وخمسون ألف حجر، أي ربع مليون حجر.

وإذا اعتبرنا أيضاً أن وزن كل حجر مئة كيلو غرام فيكون وزن كتلة بناء المسرح خمسة وعشرون مليون كغ أي ٢٥ ألف طن .

اليد العاملة المستخدمة في بناء المسرح:

بما أن عدد الحجارة المستعملة في البناء بلغت ١٢٥٤٩٣ حجر ÷ ٣٦٠ يوم وهي عدد

أيـام السنة = ٣٤٨،٦ سنة عمل، وهذا يعني أن العمـل يحتاج إلى نحـات واحد محترف يستطيع أن ينهـي نحت حجر من الحجارة المستخدمـة في كل يـوم ؛ بمعنـى أن الأمر يتطلـب ٣٤٩ نحات يعمـل بشكل متواصل يومياً لمدة ٣٤٩ يوم.

يضـاف لذلك أن العمـل كان يستوجب وجـود نحاتـين ذوي كفـاءة عاليـة لنحت التيجـان والزخـارف المعماريـة وإطارات الأبواب والكـوات والمحاريـب، إضافة إلى البنائـين المهـرة ومساعديهـم والمهندسين والعمال العاديين وعمال الحمل وعمال قطع الحجارة من المقالع وعمال الجلب وغيرها

الأدوات المستعملـة في العمـل وعناصر البناء:

استعمـل في بنـاء المسـرح إضافـة إلى الحجر البازلتي الحجـر الكلسي للأعمدة والتيجان المستعملة في تزيين واجهة المنصة، وكذلك الرخام لإكساء الواجهات، والخشب لتسقيف الواجهة والحديد للسواعد والحبال للشد والمنسوجات الصوفية والشعرية لخيم السطـح، وكذلك المعـادن الثمينة كالذهب والفضـة والنحاس والعـاج والزجاج لصنع التماثيل والفسيفساء والديكورات الثمينة.

النفقات:

مـن الصعب جداً تحديد الكلفة والمبالغ التي أنفقت على البناء بصورة دقيقة، ولكن من الممكن أخذ فكرة عن ذلك من خلال بناء مسرح مستند متوسط المقاييس بني في القرن الثاني للميلاد في شمال أفريقيا، فقد بلغت التكلفة مئـة ألف سيسـترز (sesterces) وهي وحدة النقد الإمبراطوري، وهذا المبلغ يعادل مئـة ألف فرنك ذهبـي، أي عشرين مليون فرنك فرنسي عام ١٩٥٧م.

وعلـى اعتبـار أن مسرح بصـرى يعتبر مـن المسارح الكبرى، كما أنـه ليس بالمسرح المستند وإنما من المسارح المبنية من القاعدة إلى القمـة، فهذا يعني أن تكلفة البناء كانت تساوي ثلاثة أضعاف هذا المبلغ؛ أي بحدود خمسين مليون فرنك فرنسي.

ومـن المؤكد أن هـذه النفقـات لم تكن مصادرها من الحكومة الإمبراطورية وإنما من جهات محلية متعـددة منها المساهمات الكثيرة التـي كانت تشترك فيهـا النقابات المهنيـة والتجار والأثرياء في المجتمع، وهذا ما أكدت عليه النصوص الكتابية في المدينة وفي داخـل المسرح ذاته وفوق المقاعد أيضاً، حيث كانت كل جهة تشارك في البناء تحجز حيزاً من المقاعد.

ثانياً الشوارع المعمدة والأروقة:

تمَّ التأكد من وجود شبكة شوارع رئيسة وطرقات فرعية موزعة على كامل أحياء المدينة والحيز التنظيمي فيها، وقد بلغ عدد الشوارع الرئيسة المعمدة وذات الأروقة ستة شوارع ؛ ثلاثة منها تأخذ اتجاه شرق غرب بطول ألفين متر تقريباً لكل واحد يبدأ من بوابة عند السور الغربي وينتهي ببوابة أخرى عند السور الشرقي، وثلاثة شوارع معمدة أيضاً اتجاه شمال جنوب بطول كل واحد ألف وخمسمئة متر وتبدأ ببوابة عند السور الشمالي وتنتهي ببوابة عند السور الجنوبي، ولها نفس مواصفات الشوارع الأخرى، ناهيك عن الشوارع الفرعية والثانوية الأخرى.

المنهج التنظيمي للشارع يكون على الشكل التالي:

يتوسط الشارع مسلك العربات، أو(الشوصة) بعرض ٦م، ثم رصيف يحيط به من كل جهة بعرض متر واحد وارتفاع ٢٠سم، ثم يليه حيز مكاني بعرض متر واحد في مقدمة الرصيف العلوي أو مقدمة الرواق بارتفاع ٣٠سم مخصص لركائز الأعمدة ثم أرضية الرواق بعرض ستة أمتار من كل جهة ثم واجهات الحوانيت. وبذلك يكون عرض الشارع ٢٢م بشكل كامل.

وقد بلغ عدد الشوارع كما ذكرنا ستة شوارع، ثلاثة منها بطول ألفين متر، وبطول إجمالي ستة آلاف متر، وكذلك ثلاثة شوارع عرضية متقاطعة معها بطول كل واحد ألف وخمسمئة متر وبطول إجمالي أربعة آلاف وخمسمئة متر، والمجموع تسعة آلاف متر. وجميع هذه الشوارع مبلطة ببلاط حجر بازلتي تتراوح أبعاده بين ٥٠×٤٥سم أو ٥٠×٤٠سم أو ٤٥×٦٠سم، أي بمقياس متوسط ٥٠ × ٥٠سم.

ويحيط بهذه الشوارع أروقة معمدة بأعمدة تزين الواجهات مع ملحقاتها. وقد شمل كل عمود ركيزة رباعية الشكل بمقاييس متوسطة بلغت متراً واحداً تقريباً وارتفاع ٣٠سم وأحياناً ٩٠×٩٠×٣٠سم، ثم قاعدة العمود المستديرة بقطر يتراوح بين ٦٠ إلى ٧٠سم وارتفاع ٤٠سم، ومن ثم طبلة العمود المكونة من ثلاث قطع بقطر يتراوح بين ٦٠سم في الأسفل و ٥٠سم في الأعلى وارتفاع خمسة أمتار. يليه في الأعلى تاج بقطر سفلي بلغ ٥٠سم وارتفاع ٥٠سم. وفوق هذه الأعمدة تبنى طبقة ثلاثية الأقسام (خرجة السطح – أو سطح التعميد) مكونة من الكورنيش والإفريز والأرشتراف بارتفاع ١٠٥سم بحيث تأخذ كل طبقة ٣٥سم ارتفاعاً. أما المسافة الفاصلة بين كل عمود والآخر فكانت تتراوح بين مترين ومترين ونصف.

حساب عدد بلاط الشارع:

آ- بلاط الشوصة: بما أن الطول الكلي للشوارع هو ٩٠٠٠م× ٦م عرض المسلك الأوسط لكل شارع فتكون المحصلة ٥٤٠٠٠م طول× ٥٠سم طول بلاطة الشارع المتوسطة= ٢٧٠٠٠ بلاطة استخدمت في ذلك.

ب- بلاط الرصيف السفلي الأيمن والأيسر: بلغ عرض الرصيف متراً واحداً وطول كل بلاطة يساوي عرض الرصيف أيضاً أي ١م، كما أن عرضها المتوسط ٥٠ سم، وبذلك تكون النتيجة:

٩٠٠٠م× ٢رصيف = ١٨٠٠٠× ٥٠سم= ٩٠٠٠بلاطة استعملت في الأرصفة السفلى.

ج- بلاط مقدمة الرصيف العلوي الأيمن والأيسر: ٩٠٠٠م × ٢رصيف = ١٨٠٠٠ × ٥٠ سم = ٩٠٠٠ بلاطة استعملت في الأرصفة السفلى.

د - بلاط أرضية الأروقة الأيمن والأيسر:٩٠٠٠ م طول الشوارع ×٢ رواق =١٨٠٠٠× ١٢ عرض أرضية الرواقين (٦+٦) = ٢١٦٠٠٠ × ٥٠ سم عرض البلاطة = ١٠٨٠٠٠حجر بلاط. وبذلك يكون مجموع البلاط المستعمل في أرضية شوارع المدينة المعمدة مع الأروقة على الشكل التالي: ٢٧٠٠٠+ ٩٠٠٠+ ٩٠٠٠+ ١٠٨٠٠٠ = ١٥٣٠٠٠بلاطة.

حساب عدد الأعمدة وأبعادها :

بلغ طول الشوارع ٩٠٠٠م × ٢رواق= ١٨٠٠٠م طول الأروقة.

وبلغت المسافة المتوسطة بين كل عمود والآخر ٢،٢٥م. وبذلك يكون عدد الأعمدة المستخدمة في الأروقة على الشكل التالي:

١٨٠٠٠÷ ٢،٢٥= ٨٠٠٠ عمود.

أما بالنسبة إلى الطول الكامل للأعمدة فيكون على الشكل التالي:

بما أن ارتفاع كل عمود بدون الملحقات من ركيزة وقاعدة وتاج وغيرها بلغ خمسة أمتار، وعدد الأعمدة المستعملة بلغ ٨٠٠٠ عمود فتكون النتيجة ٨٠٠٠× ٥ = ٤٠٠٠٠م الطول الكامل للأعمدة، أي ٤٠ كم، وهي نصف المسافة التي تفصل مدينة دمشق عن مدينة بصرى. يضاف لهذا العدد ثمانية آلاف ركيزة عمود + ثمانية آلاف قاعدة عمود + ثمانية آلاف تاج عمود. أي ٢٤ ألف كتلة تزيينية تتبع الأعمدة.

حساب عناصر مقدمة السطح المعمد (الخرجة)

آ- العناصر الأمامية (عناصر سطح التعميد) الكورنيش والإفريز والأرشتراف:

١- الكورنيش: وهو إطار تزييني محدب إلى الأمام ومزين بمنحوتات وزخارف مزينة

بالأوراد والزهور وأغصانها وأوراقها وكذلك الكرمة وعناقيدها والفواكه بأغصانها وأوراقها على شكل جدلات وضفائر. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر.

٢- الإفريز وهو أيضاً إطار تزييني مسطح ومزين بزخارف هندسية ونباتية تتوسطها تقسيمات رباعية نحتت في داخلها أشكال بشرية تمثل الآلهة العربية وشخصيات رمزية متنوعة. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر.

٣- الأرشتراف وهو إطار تزييني محدب إلى الأمام ومزين بمنحوتات تشابه منحوتات الكورنيش. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر.

وبذلك يكون طول الإطار التزييني (الخرجة) أو مقدمة سطح الرواق على الشكل التالي :

١٨٠٠٠م × ٣طبقات = ٥٤٠٠٠م.

ب- بلاط سقف الأروقة: ويأخذ مسافات الشوارع نفسها ولكن بشكل مضاعف على اعتبار أن كل شارع يحيط به رواق أيمن، وآخر أيسر أي ٩٠٠٠×٢= ١٨٠٠٠م طول بعرض ٦م.

إلا أن بلاط السقف يختلف عن بلاط الأرضيات، بمعنى أن عرض الرواق يكون مسقوفاً بعرائض على شكل بلاط، وكل بلاطة واحدة يتجاوز طولها الخمسة أمتار بعرض حوالي ٥٠سم، ويرتكز كل رأس بلاطة على طرف متقدم بحوالي ٥٠سم من كل جهة، وبذلك يبلغ الطول الكامل لبلاط أسقف الأروقة على الشكل التالي :

١٨٠٠٠× ٦ = ١٠٨٠٠٠م طول بعرض ٥٠سم. أي ١٠٨كم.

ب- عناصر واجهات المحال التجارية:

تميزت واجهات المحال التجارية في مدينة بصرى بجماليتها وغناها بالأبواب والنوافذ والمنحوتات التي تحيط بها والغنية بالديكورات والزينات على شكل إطارات مستقيمة متعددة تكون مسطحة أو محدبة أو مزينة بعناصر نباتية أو متداخلة بين المسطح والمحدب بوساطة حقول عمودية في الجوانب، أما السواكف فتكون أكثر غنى من الإطارات الجانبية، أو موحدة في الأسلوب.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأبواب حيث تميزت المقاييس بالرتابة والمساواة بين بعضها البعض من جهة وكذلك المساواة والتناسب بينها وبين واجهة كل محل والفتحات المناظرة لها بين الأعمدة المتقدمة. كما أن هذا الأمر

كان يختلف في الصغر والكبر والجمالية حسب موقعها في المدينة.

وعلى هذا الأساس فقد بلغ عرض كل محل وبشكل متوسط خمسة أمتار، وفي منتصف هذه المسافة يكون عرض الباب. وتوزع المسافة على الشكل التالي: ١٥٠سم + ٢م + ١٥٠سم. وهكذا، مع الأخذ بعين الاعتبار سماكات الجدران التي تفصل بين كل محل والآخر، وكذلك مداخل المنازل، أو الأبنية العامة وغيرها.

الوسائل والأدوات التي كانت تستعمل في تنفيذ الأعمال:

تمَّ استعمال كامل المعدات والأدوات والوسائل التي سهلت للفنيين والعمال بإشادة مثل هذه الأبنية الضخمة، وعلى سبيل المثال العرائض والألواح الخشبية، والحبال التي كانت تنسج من الصوف والشعر والقنب والصفائح والعوارض والقضبان الحديدية بأقطار ومقاييس مختلفة. وتم استعمال البكرات الحديدية مع الحبال في رفع الكتل الحجرية الصغيرة أو متوسطة الحجم بعد عمل السقائل التي كان يتم التكيف بارتفاعها حسب العلو المطلوب.

ولكن عندما كان الأمر يتطلب رفع الكتل الحجرية الكبيرة كان المنهج المتبع بناء أقواس متكررة ومتصاعدة في الارتفاع وزيادة الأقطار بما يتناسب مع الارتفاع المطلوب ومن ثم فرش الأرضية العليا بطبقة مخلوطة من العوريات والأتربة بحيث يصبح على شكل منحدر مستقيم (عرف محلياً باسم المقرص) وبهذه الطريقة يتم نقل هذه الكتل المعمارية بطريقة الدحرجة على المنحدر أو فوق عوارض خشبية أو حديدية أو عربات مختلفة وإيصال الحجر إلى المكان المطلوب بسهولة مطلقة.

وقد استعملت هذه الطرق أيضاً منذ الخمسينيات أثناء عمليات الكشف والترميم عن المسرح والقلعة وباقي الأبنية الأثرية في مدينة بصرى الأثرية وباقي الأبنية الأثرية في سورية.

وفي الختام يبقى الشيء الأهم من كل ما تقدم وهو الإنسان العربي السوري، وقد ثبت بالبرهان القاطع ومن خلال ما تمَّ استعراضه من عمل في مدينة بصرى أو المدن الأخرى في بلاد الشام والبلاد العربية أن هذا الإنسان العربي ذا الجذور الحضارية المتعمقة في القدم كان وسيبقى قادراً على إعادة بناء مثل هذه الأبنية العملاقة ومتابعة مسيرته الحضارية كما بدأت مع أجداده.

بعض المصادر والمراجع :

١- عبد الحق (سليم عادل) مسرح وقلعة بصرى. الحولية الأثرية السورية – دمشق ١٩٦٤
٢- مقداد (خليل) حوران عبر التاريخ، دمشق ١٩٩٦.
٣- مقداد (خليل) مسرح بصرى الأثري – سورية، دمشق ٢٠٠١.
٤- مقداد (خليل) المسارح في جنوب سورية، الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق ١٩٩٧.

5- MUKDAD Khalil. L,urbanisme de Bosra a l,époque romaine these de doctora de 3e cycle. Universite de Paris I. 1984
6- MUKDAD Khalil. Le théâtre antique de Bosra (Syrie) Damas 2001
7- MOUGDAD. S. Le role de la ville de Bosra dans l,histoire de la Jordanie aus époques Nabateenne et Romain SHAJ. 1.
8- MOUGDAD. S. Bosra. Apercu sur l,urbanization de la ville a l,époque Romaine. FR. CIX. CXII. 1976.
9- DENTZER. J. M. Sondages pres de l,arc Nabateen de Bosra. in
10- Berytus 32,1984.
11- DENTZER. J. M. Les Sondages pres de l,arc Nabateen et l,urbanisme de Bosra in CRAI. 1986.
12- DENTZER. J. M. Al Mukdad ,r. Le developpement urbaine Bosra. AAAS. 1994.
13- DENTZER. J. M. Al Mukdad ,r. Les fouilles franco – syrienne. AAAS 1987.
14- DENTZER. J. M. Le Blanc J. L,espace de la Bosra. AAAS 2001.



البحتري وأبو تمام

من شعرية الوضوح إلى شعرية التجاوز

د. محمد يقوته نور ❁

ملخّص المقال:

يشــكّل البحتريّ وأبو تمام موقفين متباينــين من التراث الشعريّ العربيّ ومــن الثّراء الثقافيّ والحضاريّ في العصر العبّاسي. وعلى هذا الأساس، عُدّ البحتريّ –عند النقاد القدامى– ممثل عمود الشعر العربيّ أو شعرية الوضوح التي تقوم على قــرب الدلالة والاعتدال والصحّة والسّلامة، وبذلك تحصل اللذة من الشعر. فيمــا مثل أبو تمام الشاعر الخارج عن العمود الشعريّ أو شعريــة التجاوز، حين شغف بطلب البديع، وأقحم الفلسفة في الشعر، وعمل

❁ أستاذ في جامعة مستغانم (الجزائر).

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

على إثراء اللّغة الشعريـة وتعميق التجربة الجمالية عند العرب.

لقد اصطدم الإبـداع الشعريّ المحدث في العصـر العباسيّ بواقـع حضور التراث الشعـريّ العربيّ ممثلا في الشعر الجاهلي، وهيمنتـه على الذوق العام. و«يمكن أن نعدّ المبادئ الأساسية التي جاء بها مفهوم «عمود الشعر» بمثابة منهج جمـاليّ متكامل يرقى إلى مرتبـة «المانيفستـو» أو البيـان الأدبيّ للشعرية العربية الكلاسيكية آنذاك»[1].

من هنـا، كان على الشاعـر المحدث – عربيّـا كان أم غـير عربـيّ– أن يوفّق بين نزوعه إلى التجديـد الشعريّ، وبين ضرورة الوفـاء للتقاليد الشعريـة العربية الموروثة، إذا أراد أن يحظى برضى النقاد المحافظين وجمهور الشعر من الخاصّة والعامة.

وقد مثّل الاحتفال بفنون البديع والإكثار منها في الصّياغة الشعرية أحد أهم أشكال التجديـد عند الشعـراء المحدثين. وأصبح مصطلح «البديع» علامة فارقة بين شعريتين، وبين عصريـن من الشعـر العربي القديم، وهما: شعـر القدمـاء، وشعـر المحدثين. وطُرحـت قضايا فلسفيـة وجمالية هامّة، مثل: «القدم والحداثة»، و«الطّبع والصنعة»، و«الشعر والفلسفـة»، و«الشعر والخطابة»، و«الوضوح والغموض»، من خلال المعالجة النقدية لتلـك الخصومة الفنّية التي نشبت بين أنصار شاعريـن محدثين كبيرين، هما: أبو تمـام والبحتري. ويعدّ كتـاب «الموازنة بـين شعر أبي تمام والبحـتري» للحسن بن بشر الآمـدي (ت٣٧١هـ) أهمّ مصدر نقديّ رائد، تناول تلـك القضايا النقدية الشائكة التـي شغلت الشعراء والنقاد ومتلقي الشعر آنذاك.

وينطلق الآمديّ – في كتابه «الموازنة»– من قناعة قد قرّت لديه، مفادها أنّ الشّاعرين أبـا تمّام حبيب بن أوس الطّائيّ (ت٢٣١هـ) وأبا عبادة الوليد بن عبيد البحتريّ الطّائيّ (ت٢٨٤هـ) متمايزان لا متساويان، «وإن كان كثير من النّاس قد جعلهما طبقة، وذهب إلى المساواة بينهما، وإنّهما لمختلفان»[2]. ومدار هذا الاختـلاف وهـذا التّفاضل ينحـو – في رأيه– لصالح البحتريّ، لأنّه «أعرابيّ الشّعر، مطبوع، وعلـى مذهب الأوائـل، وما فارق عمود الشّعر المعروف، وكان يتجنّب التّعقيد ومستكـره الألفـاظ ووحشيّ الـكلام»[3]. وعلـى أساس من هذه الصّفات، كان أنصار البحتري «هم الكتّاب والأعـراب والشّعراء المطبوعون وأهـل البلاغة»[4]، الّذين تعوّدوا مطبوع الشّعـر والمعاني المكشوفة الّتي تفهم دون عناء، فتحصل اللّذّة من الشّعر.

أمّـا أبـو تمّام الطّائي فقـد ترك – في

رأي الآمديّ- طريقة الأوائل، واحتذى حذو الشّاعر مسلم بن الوليد (ت٢٠٨هـ) في الاحتفال بالبديع، وبالغ في الشّغف بألوانه، حتّى صار فيه نسيج وحده، فانحطّ عن درجة مسلم، لأنّه «شديد التكلّف، صاحب صنعة، ويستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولّدة، فهو بأن يكون في حيّز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحقّ وأشبه، وعلى أنّي لا أجد من أقرنه به، لأنّه ينحطّ عن درجة مسلم، لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحّة معانيه»[٥]. ويبدو أنّ أبا تمّام قد أفرط في طلب البديع وتصنّعه، ممّا أدّى إلى دقّة معانيه وغموضها، فاستحقّ - بذلك- هذا الحكم القاسي من ناقد كبير كالآمديّ، حيث جعله دون البحتري ودون مسلم بن الوليد، حين وضعه في تضادّ مذهبيّ مع عمود الشّعر أوطريقة العرب في الشعر؛ إذ إنّ «دقيق المعاني موجود في كلّ أمّة، وفي كلّ لغة، وليس الشّعر عند أهل العلم به إلاّ حسن التأتّي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورَد المعنى باللّفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتّمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه؛ فإنّ الكلام لا يكتسي البهاء والرّونق إلاّ إذا كان بهذا الوصف، وتلك طريقة البحتريّ»[٦].

إذاً، لقد أصبح الوليد بن عبيد الطّائي الشّاعر الحاضر في عمود الشّعر، والمنتمي إليه، والممثل له، وبات حبيب بن أوس الطّائيّ الشّاعر الغائب أو المغيّب، واللاّمنتمي، والخارج عن هذا العمود. ومن قبل الآمديّ، تصدّى لأبي تمّام معاصره ابن الأعرابيّ (ت٢٣١هـ)، فأخرجه من زمرة شعراء العرب، وأزرى بشعره، حين قال: «إن كان هذا شعرا، فكلام العرب باطل»[٧].

ومن الواضح أن الآمديّ لا يستنكف عن ربط قواعد عمود الشّعر بطريقة الشّاعر البحتريّ ومذهبه الفنّيّ في نبذ المنطق في الشّعر، وإيثاره انكشاف المعاني، وميله إلى اللّمح والإشارة، بدل التّطويل والتّفصيل. كما أنّه لا يرى غضاضة، في تأييد موقفه النّقديّ من شعر أبي تمّام، بالاستشهاد بتلك الأبيات المشهورة الّتي أبان فيها البحتريّ عن مذهبه الشّعريّ، حيث قال[٨]:

كَلّفْتُمونَا حُدُودَ مَنطقكُمْ
في الشّعرِ يُلْغَى عَن صِدقِهِ كَذِبُهْ
ولَمْ يَكنْ ذُو القُرُوح يَلْهَجُ بالْـ
ـمَنطقِ مَا نَوْعُهُ وما سَبَبُهْ؟
وَالشّعْرُ لَمحٌ تكفي إشارتُهُ
وليس بِالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ



فالبحتري لم يرض لنفسه أن يكون أسير مذهب أبي تمّام الشّاعر الكبير، فعبّر عن ضيقه بإقحام المنطق في الشّعر، وعن كفره به، وأعلن عن قناعته بالسّير على نهج الشّاعر الجاهليّ الكبير ذي القروح امرئ القيس بن حجر الكندي (ت٥٦٠م)، والّذي لا يزال شعره يحظى - عند الشّعراء المحدثين- بالتّقديم والاحتذاء، دون أن يكون قد عرف المنطق ولا ماهيته، أو الفلسفة ومقولاتها. فلا يشترط في جودة الشّعر بناؤه على صدق القضايا الّتي يتناولها الشّاعر، وقياسها بمقدّمات المنطق واستدلالاته. فالشّعر «يكفي فيه التّخييل، والذّهاب بالنّفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل»(٩). كما أنّ طبيعة الشّعر - في رأي البحتريّ- تقتضي اختزال التّجربة أو الموقف الوجدانيّ، وإجماله في لمحة خاطفة تبوح بمكنون نفس الشّاعر، في غير حاجة إلى طول الاستقصاء للمعاني، وتشقيق التّفاصيل المكرورة المملّة، وإطالة القصائد في هذر زائد يذهب بمتعة الشّعر، ويحوّله إلى خطبة تعتمد على الإقناع والمباشرة والتّقرير. وقد أوضح البحتريّ نهجه الخاصّ في تعاطي البديع، فقال(١٠):

في نظامٍ مِنَ البلاغَةِ مَا شَكْ
كَ امْرُؤٌ أنَّهُ نِظامٌ فَريدِ
وبديعٌ كأنّه الزّهرُ الضّا
حكُ في رونَقِ الرّبيعِ الجَديدِ
مُشرقٌ في جوانبِ السّمع ما يُخْ
لِقُهُ عَوْدُه عَلى المُسْتَعِيدِ
حُجَجٌ تُخْرِس الألدَّ بألفَا
ظٍ فُرادَى كالجوهَرِ المَعدُودِ

ومَـعَـانٍ لـو فَصّـلـتْـها الـقَـوافي
هَـجّـنَـتْ شـعـرَ جَـرْوَلٍ ولَـبِـيـدِ
حُـزْنَ مُسْتَعْمَلَ الكلام اختيَارًا
وتَجَـنَّـبْنَ ظُـلـمـةَ الـتَّـعْـقـيـدِ
وَرَكـبْنَ الـلَّـفـظَ الـقـريـبَ فَـأَدركْـ
ـنَ بـهِ غَـايـةَ المُـرادِ البَـعـيـدِ

فالبديع المشرق المنمنم والموقع – عنده– هو تلك الألفاظ المستعملة السّهلة والعذبة والسّليمة من التكلّف، مع صحّة السّبك وحسن التّأليف، «ممّا يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا، حتّى كأنّه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تعهد»[١١]. وهذا المعنى المكشوف والمستغرب في آن واحد – على رأي الآمديّ– مع القوافي المحكمة غير المقحمة، هو الكفيل باستمالة متذوّقي الشّعر القديم إلى تفضيل شعر البحتريّ على أشعار الشّاعرين المخضرمين الكبيرين: لبيد بن ربيعة العامريّ والحطيئة جرول بن أوس العبسيّ.

فالبحتري لا يبتغي كدّ ذهنه وذهن المتلقّي سعيا إلى المعاني الدّقيقة والغامضة، بل هو مهموم – أوّلا وأخيرا– بإمتاع حواسّ هذا المتلقّي، بدءًا بسمعه؛ لذا، فهو يختار ألفاظه بعناية البستانيّ الّذي يحسن تنسيق أوضاع ألوان أزهاره في حديقته، ليحصل على ذلك التّناغم الدّاخليّ عبر تآلف الحروف والكلمات، والّذي ينسجم مع الموسيقى الخارجيّة في موسيقيّة رائعة. وحينئذ، يصدق فيه ما قال ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): «وأراد أن يشعر فغنّى»[١٢].

والبحتريّ، في سينيته «في وصف إيوان كسرى»، أسند توفير تلك الموسيقية الخاصّة التي ميّزت شعره إلى رنين «السين» الشجيّ المنبعث من حنايا الأبيات: من حرف «السين» المتكرّر في القافية، ومن إيقاع «السين» داخل الأبيات، لإشاعة ذلك الجوّ الحزين في نصّه؛ فهو «حريص على أن يكون الجرس الصوتيّ لألفاظه معبّرا عن معانيه وموحيا بها»(١٣). يصوّر الوليد بن عبيد مأساته في العراق، فيقول[١٤]:

صُنْتُ نَفسي عمّا يُدَنِّس نَفسي
وَتـرَفَّـعـتُ عَـن جَـدَا كُـلِّ جِبْسِ
وَتَمَاسكتُ حِين زَعْزَعنِي الدَّهـ
ـرُ الْتِماسا مِنه لِتَعْسِي وَنُكْسِي
بُلَـغٌ مِـن صُبَابةِ العَيش عِندي
طَفَّفَتها الأَيَّـامُ تَطفيفَ بَخسِ
وَكَـأَنَّ الـزَّمَـانَ أَصـبـحَ مَحمُـو
لاً هَـواهُ مـعَ الأَخـسِّ الأَخـسِّ
واشْـتِرَائـي الـعِـراقَ خُـطّـةُ غَـبْنٍ
بَـعـد بَـيـعِـي الـشَّـامَ بَـيـعـةَ وَكسِ

هكذا، استطاع البحتريّ أن يسحر النقّاد القدامى - المحافظين منهم أو المتفتّحين على الجديد- بموسيقيّة شعره، وأن يقنعهم بمذهبه الشعريّ الطّريف، والقائم على أخذ عفو المعاني، مع الاحتفال الشّديد بتركيب الألفاظ تركيبا سحريا مؤثّرا، يأخذ بألباب السّامعين، كلّما استعادوا الاستماع إلى شعره؛ ولأجل ذلك، وصف عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) قصائده الجياد بأنّها «الواصلة إلى القلوب من غير فكر»(١٥).

ومع السّهولة والوضوح والسّيرورة التي اتّسم بها شعر البحتريّ، فإنّه لم يسلم من النّقد والإعراض عن شعره من بعض معاصريه، في قليل من الأحيان، فردّ عليهم في ضيق شديد وسخرية لاذعة قاسية، متّهما إيّاهم ببلادة الحسّ والغفلة، والجهل بصنعة الشّعر ومعاناة الشاعر، حيث قال(١٦):

أَهُزُّ بالشِّعْرِ أقوامًا ذَوِي وَسَنٍ
في الجَهلِ لَو ضُرِبُوا بالسَّيفِ ما شَعَرُوا
عَلَيَّ نَحتُ القوافي مِنْ مَقاطعها
وَمَا عَليَّ لَهُمْ أَن تَفْهَمَ البَقَرُ

فهذا النّقد الّذي رفضه البحتري رفضا حاسما، لا يعدّ شيئا مذكورا بالمقارنة مع النّقد الّذي لا هوادة فيه والأحكام العامة التي كانت تزري بشاعرية أبي تمّام، لغرابة مذهبه وغموض شعره، في زعم اللّغويين والنقّاد المحافظين، ممّا كان يحوجهم إلى كدّ الذّهن لفهم معانيه. وقد عبّر أبو العميثل الشاعر الأعرابيّ عن رفضه لغموض معاني أبي تمّام وبعد استعاراته، فقال له: «لم لا تقول من الشعر ما يفهم؟ فردّ عليه على البديهة: وأنت، لم لا تفهم من الشّعر ما يقال؟ »(١٧).

والظّاهر - من خلال هذا الردّ المفحّم- أنّ حبيبا الطّائي كان مقتنعا تمام الاقتناع بخصوصية المذهب الشعري الّذي اختاره لنفسه، لذا لم يكترث كثيرا لهذه الأصوات الطاعنة في مجمل شعره؛ إذ كان يعلم - في قرارة نفسه- أنّه سيجد التقدير والتشجيع من لدن الصّفوة المثقّفة ثقافة عصرية عميقة في الحواضر العربية، وهم «أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة، ومن يميل إلى التدقيق وفلسفيّ الكلام»(١٨).

فأبو تمام «لم يراهن على قارئ مطمئنّ لما يقرأه، بل ذهب إلى قارئ يقف أمام النصّ محمّلا بالدّهشة وبالسؤال. ومسألة «الفهم»، التي طرحت في شعر أبي تمام، لم تكن إلاّ إحدى القضايا الناتجة عن نصّ غَيَّرَ تركيبه، وخَرَجَ عن نمط سابق في بناء الصّور وتشكيلها»(١٩).

فأبو تمام، كشاعر محدث عاش في ذلك المجتمع العبّاسيّ المتعدّد الأعراق والثقافات،

كان عليه أن ينافس معاصريه من الشعراء والأدباء والعلماء والنقّاد في استيعاب التراث العربي والإسلامي، وتراث اليونان والفرس والهنود المترجم إلى العربية من الفلسفة والعلوم والآداب، ليحقّق لشعره تلك الإضافة وذلك الإبداع المنشود والمواكب لحركية الإقلاع الحضاري في جميع المجالات.

فأبو تمّام الطّائيّ أنموذج للشاعر الحضريّ المثقّف ثقافة متنوّعة وعميقة، والّذي يمثّل القطيعة الحاسمة مع أنموذج الشّاعر البدوي القديم. فهو دليل حيّ على الانتقالة الحقيقية من عصر المشافهة والرّواية، إلى عصر التدوين والقراءة والتأليف. فلم يعد الشاعر المبتدئ بحاجة إلى مصاحبة شاعر كبير يحفظ عنه ويروي له، بل عليه مدارسة الدّواوين المفردة أو الجامعة لأشعار السّابقين، والاحتذاء عليها في مرحلته الأولى، ثمّ تجاوزها بحسب قدراته الإبداعيّة والثّقافيّة. فقد ولّى عصر الطّبع كما ينعته النقّاد المحافظون، وحلّ محلّه عصر الصّنعة والتّصنيع، لمواكبة النّهضة الحضارية الشّاملة، ومواءمة تعقّد الحياة ومطالبها المستجدّة في الحواضر العربيّة المزدهرة بالعلوم والآداب والفنون.

وقد أدرك أبو تمّام - بذكائه الفذ والأصيل- أنّ الإقحام المباشر لمقولات الفلسفة على النصّ الشّعريّ، لا يصنع شعرا جيّدا وجديدا. ولذا، فقد نأى بنفسه عن أن يكون مجرّد مردّد لمفردات فلسفية مختزلة. وفي ظنّنا، أنّ ما أفاده أبو تمّام من مطالعاته الفلسفية، هو ذلك التفكير الجدليّ، الّذي مكّنه من أن ينظر - بعمق- إلى الحياة والأحياء والأشياء والأفكار في تناقضاتها المختلفة؛ فيبدو «أنّ البصيرة في الأمور النّظرية قد تزيد في عمق نفاذ الفنّان وفي اتّساع مداه»[٢٠]. ومن ثمّ، فالرّاجح - عندنا- أنّ إفادة أبي تمّام من الفلسفة كانت إفادة فنّية، عمّقت فنّه الشّعريّ، وكوّنت لديه مذهبا خاصا في البديع، ميّزه ممّن سبقه من الشعراء، أو عاصروه أو جاؤوا بعده. وقد راح حبيب الطّائيّ يبحث عن تلك اللّغة الخاصّة التي تناسب تفكيره الجدليّ، فوجدها في لغة البديع الّذي ازدهر بين شعراء عصره، ثمّ اصطلح عليها بما أسماه «نوافر الأضداد».

إذاً، لم يثر أبو تمّام قضايا فلسفيّة في شعره، في ما نعلم، ولكنّ مطالعاته الفلسفيّة أنضجت فكره، فغايرت نظرته إلى اللّغة وإلى الشّعر نظرة أسلافه العرب؛ فأصبح شاعرا جديدا يَنشد شعرا جديدا، بل أضحى يعتنق مذهبا فنّيا جديدا، يعيد النّظر في علاقته مع اللّغة. فهو يتناول ألفاظ اللّغة وتراكيبها

المألوفة بشكل مختلف، فينتج دلالات جديدة ويفجّر طاقات كامنة في اللّغة، في مستواها الإبداعيّ؛ ومن هــذا السّبيل، فَهِم أبو تمّام وفــاءه لتراثه العربــيّ: اللّغــويّ والشّعريّ، وتجاوزه له. فلم يقل شاعرنا معاني فلسفيّة دخيلــة بتراكيب عربيّــة موروثة، بــل قرأ الفلسفة، فتأثر بها تفكيره، وتغذت بها ملكته الإبداعيّــة، وتسرّب هــذا التأثير إلى صميم نسيج شعره؛ فبدت ألفاظه غريبة، وتراكيبه معقدة، وصوره غامضــة، تكدّ ذهن المتلقّي العادي والمختصّ بالشّعر على السّواء.

هكذا، صار شعر أبي تمّام غير مستساغ للذوق العربــيّ المحافظ؛ فوســم بالتّعقيد والغموضــ، والبعــد عن الأصالــة العربيّة والبلاغة العربيّة. ولم يتوان الآمديّ في وضع أبــي تمّام الطّائــيّ في منزلة مضطربة بين الشّاعر والفيلسوف، وحجّته في ذلك أنّه إن كان الشّاعر «يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس، ويكون أكــثر ما يورده منها بألفــاظ متعسّفة ونسج مضطــرب، وإن اتّفــق في تضاعيــف ذلك شيء من صحيــح الوصف وسليــم النّظر، قلنا له: قــد جئت بحكمــة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة، فإن شئت دعوناك حكيما، أو سمّينــاك فيلسوفا، ولكن لا نسمّيك شاعرا، ولا ندعــوك بليغا؛ لأنّ طريقتك ليست على طريقــة العــرب، ولا على مذاهبهــم، فإن سمّينــاك بذلــك لم نلحقك بدرجــة البلغاء ولا المحسنــين الفصحــاء»[٢١]. فالآمدي لا يريــد أن يحظر على الشّاعر الاستمداد من الفلسفة والحكمة الأجنبيّة، ما لم يخرج على طريقــة العرب وبلاغة العــرب، في «إصابة المعنى وإدراك الغرضــ بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة مــن التكلّف كافية، لا تبلغ الهَــذر الزّائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية»[٢٢].

والحــقّ أنّ أبا تمام، حــين حكّم العقل وحــده في توجيه عمليــة صناعــة الشّعر، وعمــد إلى المزاوجة بــين التّضادّ والجناس والتّصويــر والمشاكلة وبــين الفلسفة وألوان الثقافة الأصيلة والوافدة، قد أشاع الغموض في كثير من شعره. فالغموض خاصّة جديدة صدمت الذّوق العربيّ المحافظ، الّذي تعوّد مطبوع الشّعــر والمعاني المكشوفة الّتي تفهم دون عناء، فتحصل له المتعة من الشّعر.

لكــنّ هذا الغموضــ - في رأينا- لم يكن غاية تفرّغ شاعرنــا لطلبها، وإنّما هو صفة وسمت شعــره، في أثناء بحثه عن تلك اللّغة الخاصّة الّتــي تلبّي شغفه بألــوان البديع، وترضــي تفكــيره الجــدليّ الّــذي لا يقنع بالوقوف عند السّطــح، بل يمضي إلى سبر أغوار الأفــكار والنّفوس والأحوال. وقد نوّه

بتلك اللّغة الخاصّة به، واصطلح عليها بما أسماه «نوافر الأضداد»، في أثناء مدحه القاضي أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإياديّ، حيث قال(٢٣):

قَدْ بَثَثْتُمْ غَرْسَ المودّة والشَّحْـ
ـناءِ في قَلبِ كُلِّ قارٍ وبَادي
أَبْغَضُوا عِزّكُمْ وَوَدُّوا نَداكُمْ
فَقَرَوْكُم مِنْ بِغْضَةٍ وَوِدَادِ
لاَ عَدِمْتُمْ غَرِيبَ مَجْدٍ رَبَقْتُمْ
في عُراهُ نَوافرَ الأَضْدَادِ

فهذه الصّورة الغريبة الّتي أبدعها عقل أبي تمام، لا تناسب إلاّ ذلك المجد التّليد والكرم الغريب الّذي تنافرت في ذراه الأضداد؛ لأنّه زرع التّضادّ والتّناقض في نفوس المكرمين من ساكني القرى والبوادي اتّجاه هذا الكريم المحسن، بين حبّهم وانتجاعهم لجوده، وحسدهم وحقدهم عليه لعظم شرفه؛ فلا جزاء له – عندهم- على إحسانه إلاّ هذه العاطفة المضطربة المتناقضة.

وحين تصدّى أبو تمام لتصوير حريق قلعة عمورية الرومية، لم ينس لعبته المفضّلة «نوافر الأضداد»، حيث قال(٢٤):

ضَوءٌ مِنَ النّارِ والظَّلمَاءِ عَاكفةٌ
وظُلمةٌ مِنْ دُخانٍ في ضُحَى شَحِبِ
فالشّمسُ طَالعةٌ مِنْ ذا وقد أَفَلَتْ
والشّمسُ وَاجبةٌ مِنْ ذا ولَم تَجِبِ
ما رَبْعُ مَيّةَ مَعمورًا يُطيفُ بِه
غَيْلانُ أَبْهَى رُبىً مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ
ولا الخُدُودُ وإِنْ أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ
أَشهَى إلى نَاظرٍ مِنْ خدّهَا التَّرِبِ
سَماجةٌ غَنِيَتْ منّا العُيونُ بها
عنْ كُلّ حُسنٍ بَدَا أَو مَنْظَرٍ عَجَبِ
وحُسنُ مُنقلَبٍ تَبدو عَواقِبُهُ
جَاءتْ بَشَاشَتُهُ عَنْ سُوءِ مُنْقلَبِ

فقد أخذ يتلاعب بضوء النّار الطّارئ على ظلمة الأرض العاكفة، والّذي يتحوّل في أوج تأجّجه إلى شمس طالعة بعد الشّمس الآفلة. ثمّ يخبو ضوء النّار، وتغلب عليه ظلمة الدّخان، فيرين على الشّمس الطّالعة في اليوم التالي للمعركة، فيحيلها إلى ضحى شاحب ثقيل. ورأى شاعرنا في خراب قلعة عمورية مصدرا أغزر للإلهام الشّعريّ وأقوى من الدّيار المعمورة بالحبيبة العربيّة «ميّة»، وأنّ خدّها الشّاحب التّرب أشهى للنّظر من الخدود المورّدة حمرة من الخجل؛ فقبحُ وجه عمّورية جمال ثان لها، وحُسن جديد تتملاّه عيون المسلمين. كما أنّ مصرع الكفار وسوء عاقبتهم، يثلج صدورهم، ويشفي غيظ نفوسهم.

هكذا، صارت المعاني المطروقة والألفاظ المألوفة تكتسب الطّرافة والغرابة، منذ أن تناولها عقل ذكيّ يعدّ الشّعر صناعة باهظة

التّكاليــف، وعمــلا واعيا لا يــترك للطّبع والموهبة وحدهما. فنحن مع شاعر يعي وعيا علميا وعمليّــا الأدوات الفنيّة التي يوظفها في شعره، بل إنّه يوجد لها المصطلح المناسب الّذي يميّزها من غيرها من الأدوات. لذا، كان لزاما على المتلقّي أن يستعدّ تمام الاستعداد لاستقبــال شعر أبي تمّــام الطّائي، ومعاناة قراءته، لاكتشاف لــذة الشّعر كما تصوّرها أبو تمّام نفسه. وإلاّ فليركن هذا المتلقّي إلى طريقة البحــتريّ القائمة على الخفيف من المعــاني، وإرهاف السّمع إلى الكثير من رنين الألفاظ والموسيقى الشّجيّة.

وحتّى ننأى بنفسنا عن كلّ تعصّب لطرف ضدّ طرف آخر، أو تفضيل أحد الشّاعرين على الآخر، نقول: إنّ وجود تجربتين شعريتين مختلفتــين أو متضادّتين، يتواءم تماما وتلك النّهضة الحضارية الزّاخرة في ذلك المجتمع العبّاسيّ المتعدّد الأعراق والثقافات. كما أنّ ظهور شعريتــين متميّزتين كان مصدر حياة وثــراء للشّعر العربيّ القــديم. وكان ديوان حبيب الطّائيّ وديوان الوليد البحتريّ منهلين ثرّيّــن للشّعــراء والنقاد، لأجــل الاستلهام والاستمداد والمدارســة. والرّاجح أنّ ذينك الدّيوانين كان لهما إسهام ما في بروز شاعر كبير كأبي الطّيّب المتنبّي.

الهوامش:

١- فاضــل ثامــر: الصــوت الآخر الجوهر الحــواريّ للخطــاب الأدبــي، دار الشؤون الثقافيــة العامة، بغــداد، ١٩٩٢، ص٢٤٦.
٢- الآمديّ: الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ج١، ص٦.
٣- المصدر نفسه، ص٦.
٤- المصدر نفسه، ص٦.
٥- المصدر نفسه، ص٦.
٦- المصدر نفسه، ص٤٠٠.
٧- المصدر نفسه، ص١٩.
٨- البحتريّ: الدّيوان، شرح محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٩، ج١، ص٩٩. الآمديّ: الموازنة، ٤٠١/١.
٩- عبد القاهر الجرجانيّ: أسرار البلاغة، تحقيق: محمّد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، (د.ت)، ص٢٣٥.
١٠- البحتريّ: الدّيوان، ٣٥٤/١.
١١- الآمديّ: الموازنة، ٤٠٢/١.

١٢- ابـن الأثـير: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق كامل محمّد عويضة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ج٢، ص٣٠٧.

١٣- يوسف خليف: في الشعر العباسيّ، دار غريب، القاهرة، (د.ت)، ص١١٦.

١٤- البحتري: الدّيوان، ٢/٦٣١-٦٣٢.

١٥- عبد القاهر الجرجانيّ: أسرار البلاغة، ص١٢٥.

١٦- البحتري: الدّيوان، ١/٤٨٧.

١٧- ابن سنان الخفّاجي: سرّ الفصاحة، تحقيق عليّ فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤، ص٢١٦.

١٨- الآمديّ: الموازنة، ١/٦.

١٩- صـلاح بوسريـف: الكتابيّ والشفاهيّ في الشعر العربيّ المعاصر، دار الحرف للنشر والتوزيع، المغرب، ط١، ٢٠٠٧، ص٥٨.

٢٠- رينيـه ويليـك وأوستين وارين: نظريـة الأدب، ترجمة محيي الدّين صبحي، المؤسسة العربيـة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، ص١٢٨.

٢١- الآمديّ: الموازنة، ١/٤٠١-٤٠٢.

٢٢- المصدر نفسه، ص٤٠٠-٤٠١.

٢٣- أبو تمّام: الدّيوان، شرح محيي الدّين صبحي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ج١، ص٢١٢.

٢٤- أبو تمّام: الدّيوان، ١/٩٩-١٠٠.



المرأة.. والقرار الثقافي العالمي هل ثمة وعيٌ إنساني جديد؟؟

د. بغداد عبد المنعم*

البعــد الدولي للثقافة يغدو شيئاً فشيئاً بعداً مؤثراً.. ويغدو كذلك ساحة منــاورات غالباً مــا تتحصن خلف سواتر السياســة التي قد تحرك (القرار الثقــافي) بصفته جزءاً من مشروعها السياســي.. تَدخلُ المشكلات الثقافية إلى الدوائر الدولية فتكتسب شكلاً شمولياً، وتعتريها تأطيراتٌ واسعة يصعب استدراجُها إلى الفاعلية إلا نادراً..!!

* كاتبة وباحثة في التراث العربي (سورية).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولكــنَّ العالمَ يبحث حقاً عن نقاط يلتقي عليهـا.. وعن لحظات إنسانيــة.. وباعتبار أن هــذا البحث ليــس من مهــام السياسة أصــلاً.. فإنَّ مثل هذه اللقــاءات لا تتشكل إلا فوق دروب الثقافة حيث يتم الارتكاز إلى الخصائصــ العميقة للمثقــف، باعتبار أن الثقافة ترتبط بحضور الإنسان الكلي.. أي بذلــك الحضور الذي لا يتنازل عن الحقوق والجماليــات والبنــاء والتطويــر.. بذلــك الحضــور الكلي الذي تتحرك المرأةُ بداخله كجزء كائن في كل الحركة..

وحين الحديثُ في ذلك لا شك أن (منظمة أممية) تحمل عنوان الثقافة تتصدر باسمها وبمــا يصدر عنها من عناوين ومشروعات.. وتتحقق عندها المستويات العليا في الاتصال والمعلوماتية، فهي تشــكل إحداثيات حركة وعمل فيما لو تمَّ التحرك بأسلوب مدروس وعميق نحو الهدف المُراد..

قدمت اليونسكو هذه المرة إشارةً جديدة نوعاً مــا حين سلمت رئاستهــا إلى (امرأة) لتقول بــأن التغيــير القادم الثقــافي وغير الثقــافي سيكون للمــرأة فيــه دور حقيقي بصفتها فاعلةً ومباشرة..

فهــل سيكون للمرأة عمومــاً دور عميق يرتبط بالكثافة الداخلية التي تتمتع بها..؟ وهل من المحتمل أن العالم سيعتمد عليها في إخراج ثقافي حقيقي لمشكلات العالم النوعية وغير العادية..؟؟

وبشكل عــام أعتقد أن المــرأة يجب أن تعمل على المناطق التي تمَّ إهمالها تاريخياً في التفعيل الثقافي العالمي.. ويجب أن تعمل بحقيقتهــا الداخلية الكثيفــة من الاحتواء والمرونة...

رسالة.. إلى المرأة والعالم

لأول مــرة منذ تأســـت الأمم المتحدة تتــولى إدارة اليونسكــو (امــرأة).. فخلال المؤتمر العــام للمنظمة وفي دورته الخامسة والثلاثــين (٦- ٢٣ تشريــن الأول- ٢٠٠٩) تمَّ انتخــاب (إيرينــا بوكوفــا) مديرة عامة للمنظمة خليفــة للسيد كويشيرو ماتسورا.. ورأت الغالبية مــن الدول الأعضاء في هذا التعيين بشيراً بمستقبــل ديناميكي، وبلاغا قوياً لصالح المساواة بين الجنسين.

وفي كلمتهــا[1] التــي ألقتها بعد توليها هــذا المنصــب، استندت المديــرةُ الجديدة إلى مرجعية فكريــة اتخذتها محاورَ لمهمتها القادمــة أولها -وهو البدهي والمُتَوقع- بأن توليها هذا المنصب هو رسالة ثقة إلى جميع

النساء في العالم. وأعتقد أن الثقة التي تقصدها مديرة اليونسكو ليست إلا حقيقة أولية، يحيلُنا الدخولُ في تفاصيلها إلى أنّ نقول بأنَّ توازنات دولية ليست قليلة هي التي أدت إلى نتيجة هذا الانتخاب.. وأن الاشتغال على أية محاور ومهام سيكون على هذه الخلفية التوازنية السياسية إلى حد ليس قليلا..وهنا تكون الخطة الأولية مبنية على الحنكة في تحقيق اختراق أولاً لتحقيق هدف ثقافي حقيقي لاحقاً..!!

وكان ثمة إشارة مهمة ذكرتها المديرةُ الجديدة في كلمتها لتمكين المرأة، فوجَّهَتْ خطابها إليها وأوصتْها بأمرين يلزمان التفعيل الثقافي: المعرفة والسلطة، لأن الارتكاز إلى كليهما بآن معاً (باعتقادها) سيؤدي إلى المسير والتقدم..

ولكنّ، أعتقد أنَّ الساحة الثقافية العالمية (وإلى حد ما العربية) ازدحمتْ بمثل هذه المناقشات، غير أن الأمر ليس بهذا الوضوح.. وليس بهذه السهولة.. فغالباً ما يتحول المثقف إلى موظف أو مروِّج.. فهذه التوصية إلى المرأة يتوجب نبشها وقراءتها تفصيلياً، والتحريك الاستراتيجي بحيث لا تنضم المرأة إلى الجزء التقليدي من العلاقة بين الثقافة والسلطة.. بل تبدأ بحياكة علاقة جديدة تجلس فيها الثقافة على العرش لأنها مصدر التخليق والتحفيز والتنشيط المستمر في الحقيقة الإنسانية.

ولكون (المديرة الجديدة) امرأة.. ولكونها من دول المستضعفين في الأرض (بلغاريا) فإنها تدعو إلى (الحذر من العولمة) ولعل هذا المحور من أهم المحاور الفعلية التي يمكن الاشتغال عليها لأن الخصوصيات الحضارية في العالم كثيرة وإحضارها وتوكيدها – مع تَحَقُّقٍ يبدو حتمياً في كثافة الاتصال العالمي – وذلك يعني إمكانيةً جديدة لطرح عناوين متكاثرة من التراثات المادية وغير المادية لأمم الأرض وبيئاتها.. وتوكيد السمات الخاصة ولو تمَّ ذلك وفي الوقت الحاضر على الأقل ضمن مجال حوار عولمي مفروض ومهيمن.

وعلى الرغم من أنه ثمة عناوين ساطعة شكلت مهاماً أممية للثقافة وأضحت هذه المهمات تمر بكثافة من نوافذ الإعلام، فحُمِّلت هذه المؤسسة الأممية بمهمات التعليم والتربية ومحو الأمية، وشؤون المحيطات والعناية بموضوع الماء، وتسخير التكنولوجيات الفضائية لخدمة التراث

العالمي الثقافي والطبيعي، وإعلان مبادئ أخلاقية بخصوص تغير المناخ، والتنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، والحث على تعزيز الوعي بتاريخ الحضارات والاهتمام بالشباب وثقافة السلام..

كما بدأت هذه المنظمةُ الأممية برفع الشعارات، فهذا المؤتمر الأخير كان شعاره «التوطيد والانفتاح على رهانات المستقبل» وأن المؤتمر فرض نفسه «سلطة مرجعية حقيقية للتفكير والتبادل». وفي مجال الثقافة، حدد المؤتمر أولويتَيْن اثنتين: صون وإدارة التراث المادي وغير المادي، ثم تعزيز أشكال التعبير الثقافي، واللغات، والتعدد اللغوي والحوار بين الثقافات، واعتبار عام /٢٠١٠/ عاماً للتقارب بين الثقافات. وتقرر أيضا إنشاء عدة مراكز مكرّسة للتراث وموضوعة تحت رعاية اليونسكو. وفيما يتعلق بالاتصال والمعلومات طلب المؤتمر العام الاستمرار في تنفيذ أنشطة لصالح حرية الصحافة، وأكد من جديد دعمه للبرنامج الدولي لتنمية الاتصال وتحقيق سجل ذاكرة العالم.



والتأكيد في كل هذه العناوين على وجهين في هذا الأداء الأممي..وجهٌ يظهر الخصوصيات ووجه يظهر التشابه والمشترك..وهذه البرامج الواسعة دخلت في (ولاية) المديرة الجديدة.. وأضحتْ رسالتُها إلى المرأة وإلى العالم حِمْلاً ضخماً يحتاج بعد إعلانه إلى آليات تفعيل هائلة وإلى نوايا لا تحرفها عن أهدافها الإنسانية.

خصائص المرأة.. هل تنتجُ وعياً نوعياً؟؟

ربما تَشَكَّلَ في (بصيرة المرأة) أولُ أدوارِها

السامية في تصدير الجمالِ إلى الطبيعة حيثُ أنَّ الجمالَ حركةٌ وتجادل..ثُمَّ ارتقاء، وتاريخياً امتدّ هذا الدور الأساسي الفطري إلى دورها الحضاري دون أن يمتلك هذا الدور حقَهُ من التأريخ والتسجيل(٢)!!..

كانت تلك الأدوارُ الأساسية والتي فيها الحياتي الصِرف ومنها ما يحملُ بعداً وظيفياً وجمالياً أيضاً، ومنها أدوارٌ ذاتُ طبيعةٍ أمومية كونية.. ويبقى أنْ نقول أنَّ هذه الأدوارَ القديمة – الجديدة للمرأة هي ثروةٌ تأسيسية تقومُ عليها (حياةُ الوطن) ولكنْ، تأبى التطوراتُ في الأبعاد الحياتية للمرأةِ نفسها إلا بأن تطالبَها ببلورة ذاتِها وصقل أبعادها لتُكملَ ليس الدائرةَ الحياتية فحسب، وإنما الدائرة الحضارية الثقافية.. وإنَّ الانتقال من الأبعاد الخامية المستوية إلى انحناءاتِ وارتقاءاتِ التجسيد.. هذا الانتقال يخلقُ من المرأة ليس كائناً حياتياً وحسب، بل كائناً ثقافياً وسياسياً أيضاً.. كائناً صانعاً للقرارات لأنهُ خلال ذلك لابد من أن تكون المرأة في مركز الفعل حتماً..

ذلك أنَّ المرأة هي أحدُ طرفي الثنائية المولدة للحياة الإنسانية بمشكلاتها البدائية إلى حروبها الطاحنة.. وإلى عطاءاتها المتنوعة على الأرض.. فالمرأةُ هنا ليستْ مفهوماً تنظيرياً يُراحُ ويُغدى به.. بل هي كيانٌ يتحرك في تيارات القوانين والقوالب الإدارية والبانوراما المجتمعية المدنية بأختامها وتوقيعاتها..

هل الثقافة – مثلما السياسةُ – هي التي تحتاجُ إلى (المرأة) ليغدو للعالم شيٌّ أكثر حقيقةً وحياةً واستمراراً..! وليغدو للعالم أيضاً ما هو أهم بكثير من سفك الدماء على قارعات الطرق..؟؟

والآن، تحتاجُ (الثقافةُ) إلى المرأة احتياجاً أكثر مباشرةً.. ربما كان اقتناصاً من تلك الأدوار العلوية الأساسية ليغدو للعالم لونٌ أكثر هدوءاً وحناناً..وأكثر إيجابيةً.. يحتاجُ العالمُ أن تخرجَ (المرأةُ الحقيقية) إلى مراكز القرار..المرأة بجوهرها الأمومي الراقي وليس المرأة المصنوعة على مقاساتٍ ذكورية محدودة بخطوطٍ سياسية أو أيديولوجية..

العنوان الإعلامي العربي والمرأة

حاربت الصهيونية بوجهها النهائي الظاهر وغير النهائي المندمج بكوامن أوروبية وأمريكية حاربتْ بشراسة تجاوزت كل الحدود وصول أي مرشح عربي إلى هذا المنصب (إدارة اليونسكو).. وعلى الرغم

من التنازلات التي يقدمها الحضور العربي أممياً بشكل عام فإني أعتقد أنَّ التوازنات المدروسة هي المطلوبة أكثر من تنازلات لا تفيد..وثَبُتَ أنها لا تفيد.. بل هو اعتمادُ إعلامٍ مدروس داخل هذه المنظمة وتصدير (العنوان الإعلامي) المؤثر في العقليات المحركة داخل مثل هذه المنظمات الدولية (لوبي عربي مقابل اللوبي الصهيوني).. فـ مثلاً اللوبي الصهيوني يشتغل بكثافة على المجالات الصحفية والتلفزيونية.. ويُصَدِّر للحديث في مشكلة قائمة كاتباً حصل على جائزة نوبل مثلاً.. وهذه قصة تاريخية قديمة اتخذت الصهيونيةُ فيها قراراً مبكراً بحيث يمسكون بمسألة القرار حتى مرحلة ما قبل وصوله إلى الأمم المتحدة..

لقد تمَّ وضع شعراء عالميين (من خارج المركزية الغربية تقريباً) مثل طاغور وبابلو نيرودا ضمن برامج عالمية للاحتفاء بهم لأنهم وحسب تبريرات اليونسكو بصدد انتقائهم: بأنهم عَرفوا من خلال نشاطهم النضالي وأعمالهم الأدبية كيف يواجهون تناقضات النظام العالمي غير المتكافئ.. وكيف يشكلون إدراكاً جديداً لمجتمعاتهم وللعالم عنها.. ولكنّ، لماذا لم يُضِفْ الحضور العربي الثقافي في اليونسكو شاعراً أو أديباً عربياً يمثل هذه الجغرافيا المركزية الشاسعة الممتدة على قارتين معاً.. ألم يكن هناك شاعر أو أديب عربي عرف كيف يواجه تناقضات النظام العالمي غير المتكافئ وأن يكوّنَ إدراكاً جديداً..بل ويحقق حضوراً عالمياً..؟؟ أين الدور العربي العالمي المؤثر الذي يضع خطة واحدة حاشدة لتحقيق قرار يفيد منه الوضع العربي كليةً؟؟

لا شك أنَّ إنضاج هذا الحضور يكون بتركيز الحضور العربي الأممي باستراتيجية مُوحَدة يُعمل على تفعيلها الدائم وتتضمن (التراث العربي) ليس بتناولاته الشمولية ودفاعاته التقليدية، بل عبر التركيز الدقيق.. مثلاً: تقديمات من الشعر العربي يمكن أن تبدأ من الشعراء العرب الكونيين في مرحلة ما قبل ظهور الإسلام (المرحلة الجاهلية) وإظهار الأهمية الكونية العميقة لشعرهم (لواحد منهم أو لمجموعة) وطرح ذلك ضمن مصطلحات نقدية حديثة تصل أُذنَ العالم.. مثلاً: امرؤ القيس واللوحات الشعرية للمرأة والبيئة.. امرؤ القيس والسياسة.. البعد الإنساني في شعرية عنترة بن شداد.. وتقديمهم تقديماً يليق بما صنعوا – والتخلص

من العقد الشعبوية والقوالب المصطلحية الأدبية الضيقة التي حُشروا بها..- ومتابعة ذلك باختيار شاعر يمثل كل مرحلة تاريخية عربية وطرح تأثيرهم الإعلامي الشديد وبقائهم في الذهنية العربية والإسلامية حتى الآن.. ويكون ذلك ضمن محور هو: تمكين الشعراء العرب الكبار من اللوحة العالمية ضمن سياق ثقافي- إعلامي.. ومتابعات تتضمن صنع حضورٍ لهم ثم تعميق، وتمكين هذا الحضور لمجموعة كبيرة من العناوين والأسماء العلمية والأدبية والإدارية.. عبر آلية ناجعة من الدخول في المصطلح الأممي (الغربي) ثم الخروج منه وربما عليه..

وخلال ذلك الاشتغال بكثافة على تمكين وتصحيح الحضور التاريخي للمرأة العربية في تسجيلات ومتابعات اليونسكو.. الشاعرات- النَسَّابَات- المُحَدِثات- أجهزة التمريض التي كانت ترافق الجيوش وكلها من النساء (ألا نلاحظ كيف تمَّ إحضار اسمي جان دارك والأم تيريزا إلى مرتبات عليا..) - الملكات والأميرات بإطار جديد بعيداً عن الأسطرة وإظهار المقدرة السياسية والقيادية عندهن بأحداث محددة تماماً وإطلاقها ضمن عناوين ذات إيقاع إعلامي عالمي مؤثر يُمَكِّنُ مكانتهن التاريخية من الخروج من الغشاوات والتفاهات الأزلية التي رزحتْ تحتها...وهناك الطبيبات.. وكل ذلك ولم ننتقل بعد إلى آليات التفعيل أممياً للواقع الحالي للمرأة العربية..!! واعتبار ذلك مهمة ثقافية مستمرة للحضور الثقافي العربي الرسمي في تكسير الفكرة (الاستشراقية) الكبيرة والعميقة التي ابتناها الغربُ عن الشرق والمرأة العربية (والشرقية) وذلك بوضع برنامج تنفيذي لأفكار إعلامية جزئية وخطط جزئية من الاستراتيجية العامة.

ذلك يعني الانتقال السريع ولكن الدقيق والمدروس من سوية السرديات التاريخية (سوية داخلية) والتي لا تقدم كثيراً من الحقائق الجوهرية أو الحقائق الإبداعية.. ومن ثم الخروج من السوية النقدية التقليدية والدراسات التي تمت منذ نهايات القرن التاسع عشر عليها (وهي سوية داخلية أيضاً).. والانتقال كذلك بعيداً عن السوية الاستشراقية، - وكل هذه الانتقالات لا تعني الرمي والتضييع لكل ما سبق، بل تعني تجاوزات نوعية إلى عتبات جديدة - لنصل إلى السوية الإعلامية التصديرية الأممية

(وهي سوية خارجية) مع كل آلياتها المستمرة بالتكاثر والتحديث وإصدار (العنوان العربي الإعلامي الجديد) من كل ذلك، ومنه العنوان الإعلامي الخاص بالمرأة العربية التاريخية ومن ثم الحديثة.. سيكون تصديرٌ متواصل لمجموعات من الرؤى والسحائب التي استمرت بأمطارها وتهطالها فترات طويلة من عمرنا التاريخي..

منذ بدأ القرنُ الجديد ارتبط الإعلامُ ارتباطاً وثيقاً بكل شيء.. وهو ليس ارتباطاً إيجابياً دوماً، وارتباطه بالمرأة يحمل خصوصيات متناقضة وأحياناً متداخلة.. لكنه في النهاية منحها نافذة مستمرة مما مَكَّنَهَا مبدئياً من تحقيق بضعة أهداف، أحدها أن هذه النافذة قدمت لها مقداراً كبيراً من المعلومات كانت في كل العصور السابقة مُحْتكرة ومُخَبَّأة.. وقدم لها إمكانية الاتصال غير المحدود، وهذا الأمر أيضاً كان محتكراً أكثر من السابق وإلى حد بعيد.. والإعلام كذلك، مَكَّنَ المرأةَ من إظهار أدائها وعملها مما أدى مع مرور الوقت إلى حيازتها على ثقة الناس والمتلقين واحترامهم والتعامل معها ومع عملها تعاملاً جدياً وفعالاً.. وبدأت التقاليد التفكيرية القديمة المتشكلة عن (المرأة) بالانقشاع شيئاً فشيئاً.. وبدأت بالتحول التدريجي إلى كائن إنساني حقيقي..

أخيراً:

هي تساؤلات.. ومقترحات أولية.. محاولة في قراءة ما حدث من زاويتنا.. ولئن أرسَلَتْ مديرةُ اليونسكو رسالةً إلى المرأة، وألقت على العالم بنقاط ثقافية كثيفة قائمة على الإيجابيات الواسعة والاحتواء الشامل.. فإنَّ من حقنا أن نطرح الأسئلة: هل سيُبنى وعيٌ إنسانيٌ جديد حقاً..؟ وهل سيكون للمرأة تأثير نوعيٌ في ذلك..؟ وهل سيكون القرار الثقافي الأممي قابلاً للتنفيذ الفعلي..؟ وهل يتمكن الحضور العربي الأممي من تعميق وتقوية وتحديث الفاعلية الثقافية العربية عالمياً؟؟.

الهوامش:

١- جاء في خطاب التنصيب الذي أدلت به السيدة بوكوفا:

«إن وصولي لهذا الموقع الرفيع هو رسالة ثقة إلى جميع النساء في العالم. إنه إشارة إلى أنه يجب أن يصلن إلى المعرفة وإلى السلطة، حتى يتمكن من المساهمة في عطاء المجتمع، وفي مسيرة العالم». وأكدت أنها تريد أن تنشر الفهم بأنه لا

يمكن لأية تنمية أن تكون من دون العمل من أجل المساواة بين الجنسين. وأضافت «شرق، غرب، شمال، جنوب: سأبـذل أقصى جهدي حتى أبني معابر لا تحصى بين هذه الجهـات من العالم، التي باتت مدرجة في سلم العولمة. هـذه العولمـة التي ينبغي أن نبقى حذرين تجاهها، لأنها حتى وإن كانت محـرّرة، وساعدت الملايين من الناس على الخروج من البؤس، فإنها تحمل في ذاتها خطر اللباس الموحد لعالمنا المتنوع» وأكدت المديرة العامة الجديدة على النوع الجديـد من الوعي للإنسانيـة: «لأن التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات يساهمـان في نشوء وعي جديد بالإنسانية حيـث يتصالح العالمي مع المحلي، وعبر ذلك نبدأ بإعادة بناء عالمنا.. بالنسبة إلي فإن الوعي الإنساني إنما هو شغف بالسمـاح والمعرفـة وتنوع الثقافات. إنه يترسخ في الأخلاق كما في المسؤوليـة الاجتماعية والاقتصادية. يتجسد في مساعدة الأكثر عوزاً. إنه في صلب الالتزام ضد التحديات الجامعة، وبالأخص احترام البيئة».

٢- في اللحظـات المهمـة تغيب المرأةُ عن فعل التأريخ -أي أن تقوم هي بعملية التأريخ-.. فيتشوهُ حضورها ويُخْتَزَل إلى أبعد حد. لم تُسجَّلْ حركةُ المرأة العربية تاريخياً إلا نادراً، فتكاد تخلو كتبُ التراجم والتأريخ من أسمائهن وذلك لا يمكن أن يعكس الحقيقة ويبدو أن الأسباب وراء هذه الظاهرة تحتاج إلى دراسة منفصلة، وقد يكون من الاحتمالات الـواردة: أن النساء أنفسهن لم يقمن بعمليات التأريـخ فأُهْمِلَتْ أسماؤهن وأصبحت تلك عادةً أن لا تظهر أسماءُ النسـاء، رغـم أن أسماءً نسائية من الصف الأول ظهرت في حياة الرسـول صلى الله عليه وسلم وفي المرحلة التالية حين بدأ تسجيل الحديث والسنة.

أمَّا لاحقاً فإنَّ معجماً تراجمياً عربياً لعله الأكثر أهميةً لم يذكر سوى أسماء أربعة من أعلام النساء واللواتي عملن أحياناً في سلك السفارات والسياسة..

انظر (على سبيل المثال لا الحصر):

- معجم الأدباء، ياقوت الحموي:

ج ١ ص ٢١٩ – ٢٢٠.

ج ١ ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – ٢٧٦.

ج ١٦ من ص ١٦٩ إلى ص ١٧٤.

آفاق المعرفة



الفن.. وفلسفة الخط العربي

معصوم محمد خلف ❃

إن مـــا جاءت به الحضـــارة الإنسانية من إبداعات خلاقة إلى يومنا هذا تعود إلى العمل الدائب والمستمر الذي مارسه الإنسان منذ وجوده على الكرة الأرضيـــة فكل ما أنتجه هـــو مطلب وكل ما حصل عليـــه من قيم حضارية ومكتشفـــات جاءت من خلال مواصلة العمل ولولا العمل لما استطاع أن يصل إلى هذا المستوى الحضاري الذي وصل إليه في عصرنا الحاضر.

❃ باحث وخطاط سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

فمنــذ أقــدم العصــور لعبــت الفنون التشكيلية على اختلاف حقولها دوراً حاسماً في المجتمعــات الإنسانية فهــي لم تكن المرآة التــي عكست ظــروف مجتمعاتهــا فحسب وإنما كانــت ومازالت كعامل تربوي مهم في تربية الإنسان والرفع مــن مستواه الفكري والثقافي.

والفن بالمعنى العام هو جملة من القواعد المتبعة لتحصيل غاية معينة، جمالا كانت أو خــيرا، أو منفعة، فإذا كانت هذه الغاية هي تحقيق الجمال سمي بالفــن الجميل، وإذا كانــت تحقيــق الخير سمي بفــن الأخلاق، وإذا كانــت تحقيق المنفعــة سمي الفن بفن الصناعة.

والتشكيل العربي للفنــون حالة ثقافية تتضمــن المــوروث الاجتماعــي والدينــي والقومي في إشارات رمزية ومضامين هائلة تستوعب جميع فئات المجتمع.

وهي على جانب كبير من الأهمية لأنها النواة التي منهــا تنطلق الفعاليات الثقافية والفنيــة في إعطاء زخم هائل للبناء الثقافي والحضاري للأمة.

فالفنون هي ذاكرة الأجيال وهي الحاملة لعبق الحياة من خلال ما تبوح به من الشعور بذواتنــا، والتعرف على حقيقــة مشاعرنا، فهي أشبه ما تكون بمــرآة حقيقية للنفس، تنعكس على صفحتها كل أهوائنا وعواطفنا وانفعالاتنا وأفكارنا.

وهي ترجمة حقيقية للمشاعر التي يتم سردها إلى الآخر بصورة يتداخل فيها الكم الهائل من الأبجديات التي تكوّن مادة هامة من مواد التخاطب والتفاعل والبناء.

ونجــد أن «جويو» يــرى أن الفن نشاط «جدي وثيق الصلة بالحيــاة، فلا يمكن أن تكون الأعمال الفنية مجرد مظاهر ترف أو موضوعات كمالية، بل هي ضرورات حيوية وأنشطة جادة وموضوعات نافعة، والموضوع النافــع يولد بعض المشاعــر الجمالية ليس لأنه نافع، بــل لأنه في الوقت نفسه موضوع جميل».

وهذا ما دفع «جون ديوي» إلى الربط بين النظر والتطبيق وبــين الفن الجميل والفن النافــع؛ إذ رأى أن أي فلسفــة أو فهم للفن محكوم عليها بالفشل إذا شيدّت على أساس من الثنائيات الزائفة بين الفن والطبيعة أو الفن والعلم، والفن الجميل والفن النافع.

ولكي يكشف هذه الثنائيات الزائفة رأى ضرورة المضي نحو فهم حقيقي للفن يدمج

هذه الثنائيات في وحـدة. وقد كان حرصه على ربط الفن بالخبرة هو الذي جعله يقيم هذه العلاقة (أو الوحدة) بين النافع والجميل على أساس أنهما يمثلان مظهرين من مظاهر النشاط الإنساني الواحد. فالفنون الجميلة ذات أهمية عملية، من وجهة نظر «ديوي» لا تقل عن بعض الصناعات التكنولوجية.

إذاً فالفـرق بين العمل الفنـي والعمل الصناعـي لا يرجـع إلى خصائص محددة في العمـل الفني أو العمـل الصناعي وإنما يرجع إلى نظرتنا نحن أو إلى موقفنا تجاهه، فقد يكون موقفـا عمليا تارة وموقفا تأمليا جماليا تـارة أخرى. وهـذا يفضي بالطبع إلى أنـه قد يمكن للآنية التـي نشرب فيها أو الحذاء الذي نلبسه أن يتحولا إلى عملين فنيَـين بمجـرد أن نجعل منهمـا موضوعا للنظرة التأملية الجمالية.

والفنـون تتنـوع وتتعـدد وفي النوعية تتأكد عمليات الإدراك الإبداعية لاكتشاف الجوهـر والمتميز والمبهر فـالإدراك يسوق للأعمق لإمكان الإحاطة والشمول واستنباط الدلالات الفلسفيـة والجمالية والتي تشكل رؤى الفنان الذي ينقش إبداعه المتجدد على مفردات الزمن ولذلـك انبجست أشكال لا حصر لها من الفنون التي تعدت الشكل إلى الجوهر،

ولم تهمل تلك الفنون أي مادة طبيعية أو صناعية أو تقنيـة إلا وتوسلت بها وتعاملت معها في تناغم مذهل تـبرز صورة أو شكلاً يظـل أبد الدهر فناً معبراً عن ذات الإنسان وحدسه وتطلعاته.

فالفن هو الذخيرة التي يقف عندها المرء مصطبغاً برداء الجمال، حيث تتكامل لديه الرؤيـة في الدخول إلى عـوالم خفية لم تكن في الحسبان، ونتيجـة للحبكة الفنيّة تندرج تلك العوالم لتشكل رافداً آخر يعطي للجوهر الثقافي الصورة الأكثر قرباً إلى الوجدان.

وهـي ترجمة حية للواقـع الذي يعيشه الإنسـان بتفاصيلها المختلفة، فالعمل الفني هو انعكاس للحياة الاجتماعية والاقتصادية وهو دعامة أساسية لأي حضارة كانت، وكلما تطور الفكر البشري وازدادت تطلعاته انعكس ذلـك إيجاباً علـى النتاج الفنـي، فتعددت صوره وتوضحت ملامحه، وتنوعت رؤاه.

وهي لغة عالمية تحاور وتتجاوز كل الحدود ولا تعـترف بالفوارق أيّاً كانت، وبالتالي فإن المعارضـ الفنية تجوب البـلاد كسفير يمد يد المحبـة والسلام من أجـل تفاهم أعمق



وصلات أقوى بين الشعوب.

فالفنون بطبيعتها التكوينية، تدعو للارتقاء والسمو الروحي وبناء جسور التواصل بين المبدعين والمجتمع من خلال الإشراقات والإيحاءات التي تكتنف جوهرها الأصيل، لتأخذ وزنها الاجتماعي بين الناس في صياغة هدفها واستيعاب مضامينها نحو تغيير الواقع الذي نعيشه نحو الأحسن والأجمل والأكمل.

كما يعيش الفن والفلسفة جنبا إلى جنب فى سباق محمود من أجل إيجاد الحلول للمشكلات البشرية التي تعانى منها المجتمعات على الأصعدة كافة وقد يوصف بعض الفلاسفة أو الفنانين أحيانا بأنهم «مهرجون» أو «مجانين» ويتعرضون للعديد من القلاقل والمتاعب في حياتهم ثم تظهر الحقائق بعد ذلك ليتضح أن هؤلاء قد ظلموا ظلما فاحشا وأن عبقريتهم ونبوغهم وصراعهم ضد أخطاء المجتمعات قد ساقتهم إلى هذا الاتهام. وتمتلئ حياة كل من الفنان والفيلسوف بالمواقف الصعبة نتيجة قناعة أي منهم بالتيار الذي يحاول دائما أن يقف به عند حدود واقع مر دون أن يحاول اختراق هذه الحدود أو يسعى لمجابهة الأفكار البائدة التي ترسخت في الأذهان وأدت إلى إذلال الشعوب وشعورها الدائم بالكبت والحرمان.

كذلــك فاللغــة نســق مــن الإشــارات والرّموز، يشكل أداة في المعرفة، وتعتبر اللغة أهم أدوات التفاهــم والاحتكاك بين أفراد المجتمــع في جميع ميادين الحيــاة. وبدون اللغة يتعذر نشــاط الناس المعرفي. وترتبط اللغــة بالتفكــير ارتباطــاً وثيقــاً. فأفكار الإنسان تصاغ دوماً في قالب لغوي، حتى في حال تفكيره الباطني. فقط في اللغة تحصل الفكرة علــى وجودها الواقعي. واللغة ترمز إلى الأشياء المنعكسة فيها.

الفن والجمال

لقد استُخــدم الفن دائمــا للتعبير عن «الجمال» في كل مجالاته ومظاهره، وخاصة في الحس والشعــور الإسلامي، وبالضرورة حــين يكون عنصر الجمــال عميقا في هذا الوجود ومقصودا لذاته يتبدى واضحا في كل كائناته «الجامدة» وغير الجامدة، والإنسان -وهو خليفة الله في الأرضــ- مُطالَب بأن يفتــح حسه لهذا الجمــال ليلتقي أجمل ما في نفسه -وهو حاســة الجمال- بأجمل ما في الكون، ويُنتج من هذا اللقاء تلك الألوان المتنوعــة من الفنون والإبــداع، فتصير تلك الفنون أنواعا من التعبير عن ذلك الجمال. ومن هنا كان التلازم بين الجمال والفن، فلا تصور للفن بلا جمال ولا تصور للجمال بلا فنّ.

وسواء أكان الفنان بإزاء لوحة تشكيلية، أم بإزاء مقطوعة موسيقية، أم بإزاء قصيدة غنائيــة فإنه في كل هذه الحالات إنما يقدم لنــا «موضوعا جماليــا»، مكتمــلا، متينا، متجددا. والفنان الحقيقي يقدم لنا إعجازًا فنيًا، يجعــل الفكرة تتجسّد في الطبيعة كي تستحيــل إلى فكرة باطنيــة تنبع من أعماق وجودنا. فــإذا بنا نستشعر نضــارة الرّبيع ونشوة الحيــاة، وكأن جسدنا نفسه قد أخذ يتراقص علــى سحر تلك الفكرة التي مسنا بها الفنان.

لذلك فالجمال هو الشعور بروعة الشيء مــن خلال نظرتنا الثاقبــة إليه مع انسجام تام مع الخيال لكي تظهر الصورة أو اللوحة التعبيرية التي نراها في أجمل مظهر.

هنا يحدث تناغم واضح وخاصة بتوفر عامــل الإحساس الذي يؤكد جمالية المنظر وروعتــه حيث يخلق نوعاً من التأثير المباشر على النفس ويجعلها أكثر توافقا مع ما تعبر عنــه اللوحــة أو المكان المنظــور، فللجمال علــم خاص به وكذلك للفــن علم خاص به أيضــا وعلم الجمال هــو علميهتم بدراسة

طبيعــة الشعور بالجمال ومــا ينتج عنه من تأثيرات إيجابية وإيحائية وخاصة في مجال الفن التعبيري حيــث تناولته نظريات أدبية وفلسفية طرحت الكثير من العبارات الدالة على معــاني الجمال مــن الناحيــة الفنية والفسيولوجية ولهذا تمَّ ربط الجمال بالفن لأن الجمال له علاقــة مباشرة بالأحاسيس والوجدان أما الفــن فهو تكوين وخلق شيء ملموس ومحسوس مثــل اللوحات الفنية أو الأبيــات الشعرية أو الموسيقــى، لقد أوجد الفلاسفــة عــدة تعاريف للجمــال والفن، (هيجــل) ذكر أن الجمال هــو ذلك الجني الأنيس الــذي نصادفه في كل مكان و(جون ديوي) الذي يعتبر من الفلاسفة الذين تركوا بصمة واضحة في تاريخ الفن والفلسفة قال إن الجمال هو فعل للإدراك والتذوق الفني، الفن لــه حقل واســع في مخيلــة المفكرين والفلاسفة نظرا لارتباطه الوثيق بالجمال، فاليونانيون القدماء هم أول من عرفوا الفن وأقاموا لــه أبراجاً في حياتهم الفكرية وقد عرفــوه بأنه نشاط عام ونافــع ومؤثر على الإنسان وجسدوه في حياتهم الأدبية وخاصة في مجال الشعــر والموسيقى كما جسدوه في نشاطاتهم الحياتية التــي تشكل لهم حركة الجسد والفكر مثل البناء والحدادة وبعض المهن الأخرى التي اجتمع في تكوينها الفكر والفــن والجمال ومن الفلاسفة الذين أثروا الفــن وأعطوه بعــداً إنسانياً نجــد أرسطو الذي رأى أن الفن هو محاكاة بين بني البشر والآلهة وهنــاك (ستيورت مل) الذي حاول تقريــب مفهوم الفن بعبارته القائلة أن الفن هو السعي وراء الكمال في الأداء ،

وعلم الجمال هو فرع من فروع الفلسفة وقــد ظهر هذا العلم في نهاية القرن الثامن عشر وتناوله عدّة كتاب وأدباء وأدلوا بدلوهم في هذا الموضوع واتضح أن أكثر الآراء جاءت تقــول بأن الفن والجمــال عاملان مفيدان لحياتنا حيث تسمح لنــا بحرية التعبير عن عواطفنــا ومشاعرنــا ويجعلاننــا في حالة ارتباط مباشر بين أنفسنا والآخرين ومعرفة تفاعل حواسنا مع خيالاتنــا باعتبارنا بشر لنا أحاسيســ ومشاعر تحرك فينا الإدراك بقيمة الفن والجمال.

إن الفن كفــن هو نشاط ذهني وروحي ينــم على وجود حالات مــن الإبداع الذاتي بداخلنا نعبر عنــه وفق مواهبنا واتجاهاتنا وميولنــا مما يخلق نــوع مــن التأثير على الآخريــن. والفن هو نتــاج لطاقات فكرية

وهو أحد وسائل الاتصال الثقافي ، والجمال جمال الروح والروح تسكن جسد الإنسان والفكر أيضا داخل الإنسان وبالتالي وجدت حلقة اتصال لنضوج ثقافة تثري حياة الإنسان والإنسان كائن جمالي يشعر ويتحسس طعم الجمال منذ صغره وتكبر تلك الأحاسيس مع كبر سنه وتتوسع مداركه العقلية والفكرية ، كما أنَّ التذوق الفني والإبداع عنصران أساسيان لتكوين الصورة الجمالية للفن بشكل عام .

ولقد مارس الفنان المسلم عمله بحرية مطلقة، كما يقول المستشرق «غرابار»، هذه الحرية المطلقة التي جعلت أي عنصر قابلا للتطور في أي اتجاه: «وهكذا كانت للفن العربي الإسلامي في بداية الإسلام إمكانيةُ نموّ جديدة لا توجد لها، وإمكانية تطور كبير، تشهد عليها واجهة «قصر المشتى» بوضوح، مما يعطي فكرة عن خاصة مميزة للفن الإسلامي في عهد تكونه، وهي «الحرية». فليس هناك نهاية وليست هناك حدود أخرى سوى إرادة الفنان».

وتجلت عبقرية الصانع المبدع في الفن الإسلامي المجرد في تزيينٍ أغنى بها القطع المستعملة والمصنوعة من الخزف أو من الخشب أو الزجاج أو السجاد. ولقد بدأ هذا التزيين الذي تجمعت فيه حصائل لا حد لها في متاحف العالم، والمقتنيات الخاصة، بأشكال وطرق تختلف باختلاف المادة التي صُنع منها.

فالفنون مظهراً من مظاهر حياة الإنسان ونشاطه، فهي إلى جانب حياته الفكرية وسلوكه الأخلاقي مقوّم من مقوّمات وجوده في العالم.

والفنون تعبير عن رؤى إبداعية ذات رسالة نبيلة قادرة على صياغة عالم يسوده الحب وتتسع فيه رقعة الحب و الحوار وتضيق فيه مساحات التوتر والكراهية.

ولكي نفهم الأثر الفني لا بد أن نتعرف على عناصره ونحللها بإرجاع كل عنصر إلى مصدره بجميع تياراتها المختلفة، رغماً أنها تبقى قاصرة عن البيان إلا من خلال معرفة ذات الفنان.

فبالأثر الفني يتم الدخول إلى محراب الإبداع من حيث العلاقة الوشيجة بين الفنان وأثره الفني، ليصبح الفنان من مجرد إنسان، إلى فنان بالمعنى الصحيح، ولكي ندرك الفن بمعناه الشمولي الذي هو الصورة الحقيقية لخبرات المجتمعات من

انبثاق اللحظة الإبداعية إلى النسيج الذي يشرف على الناس بحضور قوي وبراهين قاطعة.

كما ويسعى الفنان عبر القيم الجديدة والمفاهيم المتنوعة إلى تأسيس مفهوم خاص للجمالية كعالم مستقل يعارض سيادة مفهوم واحد للتلقي، فبقدر تعدد المتلقين يمكن أن تتعدد قراءات العمل الفني لأن العمل الفني أصبح يفسح مجالاً للاختلاف الإبداعي ولا يرد إلى وحدة ما، فالتغير الذي حدث في هذا العصر قد أدى إلى اختفاء الأشياء الراسخة والدائمة.

فالكتابة من أهم الانجازات الحضارية للإنسانيّة، فانتشار الكتابة قسّم الشعوب إلى قسمين: بين المالك للكتابة والفاقد لها، وهذه حقيقة تدل على أهمية الكتابة.

فقد كتب الإنسان لغاته الأولى على كل المواد التي تحيط به تقريباً، حيث كتب أهل سومر حروف لغتهم الأولى على ألواح الطين وحفر المصريون القدماء رسومهم على الحجر.

واستخدمت القبائل الأفريقية جلود الحيوانات، واستعان سكان المايا القدامى في أمريكا بلحاء الأشجار، وأوسع اليونانيون بالكتابة على الفخار، ولايزال أهل إيران حتى الآن يبثون أشواقهم في ثنايا خيوط السجاد وعلى جداريات مداخل المساجد.

وقد دافع الفنان الفرنسي المسلم الفونس إيتان دينييه عن الكتابة بالحروف العربية، مصورًا خطيئة الذين أرادوا إبدال خط آخر بها قائلاً: «الكتابة العربية هي أرقى نوع فني عرفه الإنسان، وأجمل خطّ يستطيع المرء أن يقول فيه من غير مبالغة: إن له روحًا ملائمة للصوت البشري، موافقة للألحان الموسيقية».

كما وصف الكتابة العربية بأنها: «عبارة عن مفتاح يكشف عن ألغاز الحركات القلبية الدقيقة، وكأنَّ حروفها خاضعة لقوة روح سارية، فتراها تارة تلتف مع بعضها على أشكال هندسية بديعة مع محافظتها على جميع الأسرار المودعة فيها، وطورًا تراها تنطلق وتقف بغتة كأنها معجبة بنفسها، وتارة تراها تنطلق جارية تتعانق، وتارة تتفرق».

ويضيف: «كلَّما تأملت في أشكالها الجذابة أخذت أفكاري إلى أحلام بعيدة، ولا يلزمني أن أكون مستعربًا ولا ساحرًا لأتمتع بجمالها الساحر الفريد، بل كل

إنسان توجد فيه روح الفن تأسر قلبه هذه الكتابة». ويؤكد أن الخط العربي يمتاز على سائر الخطوط بكتابته من اليمين إلى اليسار اتباعا لحركة اليد الطبيعية، فنجد الكتابة أسهل وأسرع من الكتابات التي تكتب من الشمال إلى اليمين؛ ولهذا كان الفنان الكبير (ليوناردو دافينشي) يرسم ويكتب من اليمين إلى اليسار اتباعا لقاعدة الخط العربي.

الروح والجسد في الخط :

لكي نتعامل مع الخط العربي علينا أن نتعلم التعامل مع اللغة العربية أن ندرك مدى أهميها ومدى روعتها وجمالها.. لا أعني أن نتخصص فيها ولكن أن نجعلها شيئًا يوميًا في حياتنا وفي تعاملاتنا لتبقى الوعاء الذي يحفظ الحوار الجاد والمؤثر.

ومن تلك المؤثرات والعوامل التي رأى فيها «مارتن لنجز» الاختصاصي في المخطوطات العربية، سبباً مهماً في ثراء الخط العربي، الإحساس بضرورة التماثل والمواءمة ما بين الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة، فإذا كانت الأولى روحاً فلتكن الثانية الجسم المجسد لجمال الروح، وهو ما نبه إليه ياقوت المستعصمي بقوله: «إن الخط هندسة روحانية وإن ظهرت بآلة جسمانية» ويكون للعين ما للأذن من وَلَه بها، وتماثل في الإبداع المتبادل بينهما، حتى صار المتعلمون من المسلمين يتفاضلون بجمال خطوطهم وحسن كتاباتهم، كما يتفاضلون بعلو مراتبهم في العلوم والفنون والآداب. وكان لمدارس الخط من العناية ما يوشك أن يكون لمثلها في الأدب واللغة، وكان على الخطاط أن يوسع من قراءته في الدين والحكمة والأدب والشعر ليختار من الكلام ما هو حقيقي للإبداع في خطه.

وإن هذه المواءمة ما بين الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة اللتين تقدستا بكونهما حملتا القرآن الكريم هدى للناس أفردت كل نوع من أنواع الخطوط للإيفاء بغرض من الأغراض، وخصته باستعمالات معينة راح يتطور من خلالها، ويسعى لإبراز محتواها ودلالتها المعنوية، فلكتابة المصاحف والشعر والحكم خطوطها، وللدواوين والمراسلات خطوطها أيضاً، وحسب الخط الكوفي دوره في إيضاح ذلك بما كان لكل نوع من أنواعه ما يخصه بتوجيه معين (فالكوفي التذكاري) استخدم في الغالب لكتابة الآيات القرآنية الكريمة أو الحكم، وتثبيت تواريخ الوفيات والولادات وما شابه ذلك (الكوفي المصحفي)

انتسب بصفته هذه إلى شيوع نسخ المصاحف الكبيرة وعلى الأخص في القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت الهجرة النبوية، و(الكوفي البسيط) خص بالمادة التحريرية التي تبرز المعنى بيسر قراءة حروفه، بينما تحول (الكوفي المورّق) الذي شاع على أيام الفاطميين فعرف بالتوريق الفاطمي، و(الكوفي المخمل) و(الكوفي المضفر) المنسوب إلى شكل الضفيرة و(الكوفي الهندسي)..إلخ. إلى تأكيد النوازع التزيينية تبعاً لتطور الواقع الاجتماعي وتعمق الحس الجمالي وقل مثل ذلك بالنسبة للخط (الديواني) و(الثلث) انطلاقاً من أبسط أشكالهما الانسيابية، وإلى أعقدها في طغرائية السلاطين العثمانيين، وما تفرع عنها من تشكيلات تجريدية على جانب كبير من الغنى الأدائي.

وفي أحيان في حرف أو جزء من حرف اتخذ له شكلاً، حيث وقف (الألف) كالسيف رهيف القامة وقد اعتلته قبضته، أو حيث تصير نهايات بعض الحروف مناقير معقوفة لصقور، وهكذا يصير للكلمة ما يطرحها بعداً في الرمز، كمفردة الشاعر حين تمد بنفسها إلى أكثر من غرض في الدلالات الإيحائية أو الإيمانية.

كما إن الخط العربي لم يعد ذلك الحرف الكلاسيكي الذي تخط به الكلمات لتأدية معنى كلام معين بل أصبح من أرقى وسائل التعبير التشكيلي في العالم، كونه يحتوي على رموز وأشكال في مدلولاتها العميقة، تتطور باستمرار حيث تمزج باللون فتفصح عن خبايا عدة يختزلها الواقع الفكري، المعرفي والثقافي العربي.

إن امتزاج اللون بالحرف لبناء فضاء منسجم متماسك ينجب الحركة حينا، والسكون والصمت أحيانا، إذ يتجاوز المساحة للتعبير عن المشاعر وتجسيد الأحاسيس. وهو ما ليس بالأمر الهين، وإنما يخضع لمراحل ويصنع بتجربة وحرفية وموهبة.

فالخطاطون من عشقهم للخط العربي مارسوه وجالوا في محتوياته فعلموا الحقيقة الناصعة في جوهرها.

وإن فلسفة الخط العربي قادت البشرية إلى حقب التاريخ الإسلامي وغاصت به في أعماق المعرفة، وبه قيس مدى مقدار التطور الذي عاشه المسلمون في حقب خلت من التاريخ. بل إنه عنصر رئيسي في صنع الحضارة الإسلامية.

الخط العربي وعبق الحضارة:

لقــد كان الخط العربــي وسيظل حلقة وصل وجســر تواصل بين الشــرق والغرب، إنــه لم يعدم الجواب حــين مساءلته من كلا الطرفين. إنه كما اعتبره البعض خط تلاق لتقريــب المفاهيم ونبضـــا للتحول من العالم المتناقض إلى عالم تستكين فيه الروح.

وفي محاضــرة قيمــة للشاعــر والفنان محمد سعيــد الصــكار ألقاهــا في مدينة انتوربن البلجيكية بدعوة من مؤسسة ثقافة ١١ أضــاء الفنان جانبــا أساسيا من الدور الحضاري للخط العربي في الثقافة العربية المعاصــرة، وتحــدث عــن دوره في التقنية الرقميــة والاتصالات الحديثــة. والصكار الشاعر والفنــان غني عن التعريف، خاصة في ميدان الخط والأبجدية العربية.

والذي بــدا لنا نحن المتتبعــين لنشاطه الفكري والفني أحد الرموز الثقافية العراقية المنتجة في ميادين أخرى كالتصميم إضافة إلى الشعــر والخط والرسم. ابتدأ محاضرته بالحديــث عــن فكــرة الفرق بــين الخط والكتابة فقدم تصورًا قيّمًا عن قدم الكتابة على الخــط، فالكتابة كما يرى فعل إنساني يرتبط بحياة الإنســان وأساليب تعبيره عن المحيط وما يراه ومــا يفعله ثم عن الكيفية التي يعبر بها عن الكون وعن القدر والمجهول فالكتابة طريقة فنيــة وفكرية للدخول إلى باطن الإنسان.

كمــا هي تعبير عن خارجــه. وقد وجد الإنسان في فهم الكتابة كطريقة تعبير واحدة من مقومات حياته ذاته. ولم نجد شعباً دون آخر لم يفكــر بالكتابــة وإن تأخرت شعوب عــن أخرى. لذلــك فالصوت الــذي نقرأه في الحــرف مثلا، هو الشــكل الذي يتخذه الحــرف أثناء الخط، فشــكل حرف السين مثــلاً هو صوت السين. ومن هنا بدأ الخط بمهمة التعبير عن الأصوات ومن ثم ليتحول لاحقــاً إلى تعبير بصري فني وجمالي امتاز به خطاطون دون بقية الكتّاب.

مــن هنا كانت الكتابــة أقدم من الخط بآلاف السنين فتاريــخ الكتابة تاريخ طويل يمتــد منذ خلــق الإنسان حتــى اليوم، وله بعــد ذلك تدرجات في المعرفــة فهي ليست خطوطا على جــدران الكهوف ولا هــي فعل اليــد على حائط أو قماش، إنما هــي جوهر العلاقــة بين الإنسان مفكــراً والحياة مادة للتعبير. ولن ننسى مــا لتنوع وتطور الحياة اليومية من قدرة على جعل الكتابة قرطاساً

لحيــاة الإنسان. في حين أن الخط هو تنويع فكري وثقافي وجمالي على الكتابة وعدَّ في زمن الإسلام جــزءاً من جوهر العلاقة بين الإنسان والله سبحانه.

إلا أن الظاهــر لا تقف عند الفرق بين الكتابــة والخط، بــل تعدتهــا إلى سياقات أخــرى، منها أن الخط جزء من فكر مجتمع فعندمــا ارتبط بالصوفيــة مثلا اقترب من الترميــز لظواهــر اجتماعيــة وحاجات لم تكن معروفــة، ثمة مناجاة بين حرف الألف والله، ومناجــات أخــرى بين حــرف الواو وفــن الالتفاف وثمة تناسق بين حرف النون وانحناءة السماء، ولهذا فقد أخذت الحروف أشــكالا تعبيرية عن السحر والتعبد والنطق ولم يكن عبثا أن تتحــول الحروف إلى رموز طقسيــة ودينية مبهمة كمفتتح بعض السور القرآنية مثل (كهيعص وألف لام ميم، ونون والقلم وما يسطرون) وغيرها، وهذا القسم بالحــرف الذي هــو ابتداء جــزء من قيمة الحــروف غير المعروفة حتى الآن في التعبير عن الإرادة الإلهية.

ثــم عــرج المحاضر علــى العلاقة بين الفلسفة العربية الإسلامية والخط فأوضح أن اللغــة العربيــة تحتفظ بميــزات بنائية مهمة وكبــيرة، الخط هو أحد هذه الميزات، ولذلك نجده تنوع واختلف وتعدد وأصبحت له مدارس وخطاطون ونماذج وأسماء وكلها تصــب في مهمــة توصيل الثقافــة العربية الإسلاميــة لشعــوب وأقــوام جديدة. وفي هذا الإطار الواسع تحدث الصكار عن دور الخطاطين العرب في تسويق وانتشار الدين والقــرآن والشعــر. ولما استــوت الخطوط العربيــة علــى نمــاذج، تنوعــت أشكالها وتعددت مهماتها فدخلت العمارة الإسلامية كجــزء مــن الزخرفة المعروفــة وكجزء من بناء للعلاقــة بين الله وأمكنــة العبادة كما دخلت الكتب والمؤلفــات خاصة ودورها في الاستنساخ القــديم وعند الوراقين، ودخلت الدواويــن لتصبــح واجهــة حضارية لكل المؤسســات العلمية والمدنية.وتجد دولا عدة جعلت مــن واجهات مطاراتها الكبيرة مكانا لعرض لوحات بالخطوط العربية كجزء من الارتبــاط بين القــديم والحداثة. وللصكار أكثر من لوحة في بلدان العالم.

ثم قدم في الأمسية تصورا جميلا باعتبار أن الحضور كلهم من البلجيكيين الذين يتكلم بعضهم اللغة العربية عن تطور العلاقة بين

الثقافات من خلال تعميــق الإحساس بفن الخط وأوضــح أن الثقافة الغربية لم تعرف قيمة وفنون الخطوط إلا في فترة قريبة جداً لا تتجاوز الخمسين سنة الأخيرة، ولكنها ما أن بــدأت حتى أخذت دورهــا في الثقافة الغربية وفي صناعة الكتاب واللوحات حتى دخلت ميادين تصنيع فنية وتشكيلية وتقنية حديثة وأصبح لها فنانوها المعروفين.

وفي السياق نفسه تحدث الفنان الصكار قائلاً: فالحرف في البنية التشكيلية العربية أصبح لــه تاريخ طويــل فالنساخون العرب الأوائل مثل عبد الحق البغدادي والبسطامي الذي جعل للحرف كتابا وتصورات فلسفية ودينية وعــد لكل نبي حرفا خاصا به الذي هو طريقتــه في التفكير. ولما انتشر الإسلام ودخلت شعوب عدة فيه تمكن عدد كبير من الفنانين الخطاطين، خاصة الفرس والأتراك من الخط وجودوا فيه وعدَّ الذين جودوا في الخطوط العربية من غير العرب ثروة كبيرة في الثقافــة الإسلامية المنتشرة. لذا فالخط ليس وليد التقنية الرقمية الحديثة، ولا هو رغبة يد في تجويــد الكلمات، بل هو فن له مقومــات اللوحة الحديثة، ولــه قدرة على إمكانية التنوع البصري على أشكال أخرى. لــذا يمكن أن تشكل بعض الكلمات خطوطا للوحة، ويمكن أن تدخل بفعل التنوع واتساع معرفة الفنــان وقدرتــه في تركيبة لوحات حديثة كمــا يفعل الصكار ونجــا المهداوي وضيــاء العزاوي وقاســم الساعدي ومحمد مهر الديــن وخالد الساعــي ومحمد غنوم وغيرهم.

كمــا إن التعامــل مع الخــط في الفن التشكيلــي العراقي في السنــوات العشرين الأخــيرة نقلة نوعية في بنيــة اللوحة الفنية خاصة عنــد الفنان شاكر حســن آل سعيد الذي درســ إمكانية الحروف فنيا وجماليا وعدهــا ضمــن تصــوره الفني عــن البعد الواحد في اللوحة.

وأخــيراً إن الخط العربــي كشكل، كان طوال رحلته عــبر القــرون الماضية ملتقى حوار مستمر بين العلــم والفن يعمق وعينا بهندسته، ويرهــف حسَّنا بجماليته، ويرغم العين علــى أن تتبع كل حــرف من حروفه وكيفية تداخل بعضها ببعض بما يغير مراكز اللوحة باستمرار، فيخيل إليك «أنه يتحرك وهو جامــدً» وفي ذلك خصيصته التشكيلية الرائعة.

مراجع البحث:

- فلاسفة وفنانون. رجاء النقاش.
- الجمال والفن. أحمد الهدار، شبكة الشمس الإلكترونية.
- مجلة سيسرا العدد الأول ٢٠٠٨ نادي الجوف الأدبي، المملكة العربية السعودية. الفنان التشكيلي المغربي (محمد البندوري) حاوره نور الدين بازين.
- الأدب الإسلامي. إنسانيته وعالميته، الدكتور عدنان علي رضا النحوي. دار النحوي، الرياض،
- الخط العربي، أصوله، نهضته، انتشاره، الدكتور عفيف البهنسي، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية.
- موسوعة الخطوط العربية وزخارفها، معروف زريق، دار المعرفة، دمشق.
- أطلس الخط والخطوط، حبيب الله فضائلي، ترجمة: محمد التونجي، دار طلاس، دمشق.

آفاق المعرفة



أطيــاف ذكــريات

جميل حسن[*]

هي أطياف ذكريات، وليست مذكرات. تلتقطها ذاكرة الثمانين من شريط العمــر المغتني بتجــارب الحياة. كل ذكرى تمثل واقعةً ومعنــى. أما الواقعة فمسؤوليــة الراوي الذي هو أنــا لأنها حصلت معي. وأمّــا المعنى فمتروك للقارئ يشرحه ويشكله كيف يشاء.

- الواقعــة الأولى حصلت في عــام ١٩٤٢ وكنت تلميذاً في الصف الرابع الابتدائي في مدرسة أبي العلاء في مدينة (جبلة) التي كان أبي -رحمه الله-

[*] أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

قد نقلنــي إليها لأن مدرســة القرية كانت بمعلــم وحيد لصفوفهــا الخمسة، فلم نكن نستفيد منها إلاّ القليل. ولأنّ المعلم نفسه لم يكن كثير العطاء.

أذكــر مــن تلــك الواقعة وقفــةً طالت للمرحوم أبي على طريــق المدرسة في أحد أيام الشتاء، مع معلم صفي المرحوم (إبراهيم شكري). أبي ذلك الفلاح البسيط ذو الثياب الرثــة يقف مع معلم مــن أبناء المدينة، كان ذلــك مبعث شعــور متعــدد الانفعالات في نفسي أنا ذلك الولد الذي كنته.

سمعــتُ- فيما بعــد- من أبــي يحكي لجيرانــه في القريــة أنه قــال للأستاذ: إنه ينــوي أن يعيــدني إلى مدرســة القرية لأن نفقات تعليمي في المدينة تكلفه فوق طاقته، فقال لــه المعلم: لن نسلمك إيــاه. فهو ولد ذكــي ومجتهد. إذا أعدتــه للقرية ستقضي عليــه. ضح لأجله. سيرد لــك نفقاتك عليه كلّها وأكثر بعد أن يكــبر. وتكون قد أنقذته من حياتكم وأعمالكم القاسية في الجبل.

وهكذا أنقذني معلمي -رحمه الله- من أن أكــون فلاّحاً فقيراً أعيد سيرة والدي، أو عاملاً زراعياً بائساً بسحنته الهزيلة.

❁ ❁ ❁

- الواقعــة الثانيــة جــرت في مدرسة (التجهيــز) في اللاذقيــة، في عام ١٩٤٤ في الصف السابــع، وكان مدرس اللغة العربية الأستاذ المرحوم أديب طيار الذي كنا نشرب كلماته في عقولنا كما يُشرب الماء الزلال.

كان ذلــك في أوائل فصــل الربيع حيث بدأ الأستاذ يعطينا درساً في (الإنشاء) فكتب على اللوح بيت البحتري المشهور:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقبل أن يباشــر محادثتنا حول الموضوع قُــرع علينا البــاب ودخل (الناظــر) وقال للأستاذ: «وزير المعارف الفرنسي في الإدارة- (ومديرنا نفسه كان فرنسياً)- وسوف يقوم بجولة على الصفوف).

وفور مغــادرة (الناظــر) التفــت إلينا الأستاذ بابتسامته التي لم تكن تفارق وجهه، وقال بلهجــة صافيتا التي تميل لفظ الألف بين الفتح والكسر:

«اختلــف الحيل (الحال) يــا شبيب (يا شباب)».

ثمَّ محا مــا كان كتب. وكتــب مكانه ما يلي:

«الاتحــاد يولد القوة» ثم كتــب قبالتها «Lunion fait LA Force».

وما هـي إلاّ دقائـق حتى قـرع الباب ثانيـة وفُتح ليبرز ذلـك الوزيـر الفرنسي بقامتـه الطويلـة وشعـره الأشيـب وبزته الزرقاء (المقلّمة). ووقفنا لتحيته بإيعاز من الأستاذ، فصافحه الوزير وقرأ ما على اللوح ثـمّ ودّعنا منحنياً قليلاً مـع ابتسامة، على صغرنا فهمناها.

فعقـب أستاذنـا قائلاً: «لقـد وصلت الرسالة».

ونقل المحاورة إلى الموضوع الجديد.

❁ ❁ ❁

- الواقعـة الثالثـة جـرت في الثانوية الأرثوذكسية في حمص عام ١٩٤٧م حيث كانت أحوال الوالد المادية قد تحسنت قليلاً، فنقلنـي -مـع أخ له غير شقيـق- رافقني ورافقته -سنـوات تعليمنـا- في الابتدائي والإعـدادي- ووضعنا في مدرسـة داخلية (أي تقدّم الإقامة والطعام والتعليم للطلاب لقاء أجرٍ معين) ليضمن نجاحنا في الشهادة المتوسطة. وكان يدرسنـا النصوص الأدبية المرحوم الأستاذ أحمـد نورس السواح (أبو فراس)، فـكان يعيد لنا سـيرة أديب طيار بظرفـه وفكاهته مضافـاً إليهمـا النكهة الحمصيـة المعروفـة بالبساطـة والعفوية والطيبة.

وأذكـر أنـه كان يأتينا بنصوصـ أدبية من خـارج الكتاب المدرسـي ضمن موضوع الدرسـ في المنهـاج، وكان يعتمـد الحوار وسيلة أساسية في تأدية الدّرس. وفي إحدى الحصصـ الدرسية قال: خذوا قلماً وورقة فأخذنـا. فقال: قارنـوا لي بين هذا النص لجميـل بثينة، ونصـ عمر بن أبـي ربيعة الذي درسنـاه فيما مضى، من حيث المعاني والألفـاظ وروح الشعـر!. ومعكـم الحصَّة الدرسية إلى آخرها.

وأذكر أنه رضي عمـا كتبته وقرأه على زملائي في الصف.

وهكذا وضع ذلك الأستاذ الرضي أيدينا على بدايات أساليب النقد الأدبي.

❁ ❁ ❁

- الواقعـة الرابعة جرت في مدرسة دار المعلمـين في حلـب، وكانت كذلـك مدرسةً داخليـة تقـدّم لطلابها الإقامـة والطعام والتعليـم، وكل مـا يحتاجونه مـن الكتب والقرطاسية مجاناً، مع معونة شهرية قيمتها خمس وعشرون ليرة سورية للطالب لمصروفه الشخصي لقاء تعهد مكفول يقدّمه الطالب بـأن يخـدم التعليم معلمـاً ابتدائيـاً بعد تخرجه ثلاثة أمثـال المدة التي يقضيها في



دار المعلمين حيث كان الطالب يقبل بعد حصوله على الشهادة المتوسطة ومثوله أمام لجنة قبول برئاسة مدير الدار تقدّر وتقرر أهلية المتقدم بلياقته البدنية، وقدراته العقلية ليكون معلماً حقيقياً. وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات، تنتهي بامتحان تخرّج.

وكان مدير دار المعلمين آنذاك المربي الكبير المرحوم عمر فوزي عيسى خريج جامعة السوريون في باريس -كما قيل لنا- بقامته الباسقة ووجهه الأبيض وشعره الأشهب المائل إلى الشقرة.

وكان يتمتع بأخلاق عالية، ودماثة كبيرة، وأناقة في المظهر، ولطف في المعشر، محصناً ذلك كلّه بصرامة تجعله إذا قال فعل.

أذكر أنه دخل علينا ذات مرّة إلى قاعة الطعام وقت الغداء. وبعد أن طاف على موائدنا مائدة مائدة استدعى المحاسب ومشرف الطعام، فحادثهما على انفراد، وقد بدت على وجهه علامات انفعال واضحة ثم التفت إلينا وقال بصوت هادئ لطيف ممزوج بشيء من الشدة: «يا طلاب!. أضربوا!. لماذا تأكلون هذا الطعام. إنه ليس طعامكم. هو أقل مما خُصّص لكم. أنتم طلاّب. لتكونوا غداً معلمين. ويجب أن تزودكم دار المعلمين إلى جانب العلم وأصول التربية والتعليم بكيف يُربى الإنسان على الحق والأمانة

واحـــترام الكرامة. أضربـــوا ضدي أنا عمر فـــوزي عيسى لعـــلَّ الـــوزارة تسمع بخبري فترســـل من يفتشـــ علـــيّ ويحاسبني على تقصيري معكم، وأكلي حقكم».

ومنـــذ اليوم الثاني تحســـن نوع طعامنا وزادت كمية الوجبة فيه.

❁ ❁ ❁

- الواقعـــة الخامســـة في دار المعلمـــين نفسهـــا حيـــث كان أستاذ مـــادة «التشريح والفيسيولوجيـــا» مصرياً، واسمـــه «توفيق عمار». وكان هادئ الطبع صارم المظهر، وفي الوقت نفسه. لطيف المعشـــر. كان حريصاً علـــى أن تكـــون دروســـه كلّهـــا في المختبر، ونـــادراً ما أعطانا درساً من مادته نظرياً في الصف.

مـــرّة، وقد شرح لنـــا الأرنـــب حياً بعد تخديـــره، وأعاد الدرس إيـــاه في الحصص التاليـــة وزعنا على فصائل وسلّم كلّ فصيل أرنبـــاً حياً فذاكرنا قليلاً فيما كنا قد رأيناه في المـــرة الماضية، ثم جعـــل كلّ فصيل يقوم بتشريـــح الأرنب الذي بين يديه بدءاً بتثبيته علـــى لوحـــة التشريـــح وتخديـــره وانتهاءً بالتعـــرّف علـــى أعضائـــه وأحشائه وعمل الفيسيولوجيا في أعضـــاء الأحشاء (حركة الأمعـــاء الدودية- حـــركات المعدة - اتساع الحجاب الحاجز وانكماشه- حركات القلب في انقباضـــه وانبساطه- حـــركات الرئتين وهما تحتضنان القلـــب بينهما- إلخ) وقال لنا: «مـــن يميت الحيوان في أثنـــاء العملية تحسم له علامات». ثـــمّ تركنا نعمل، وأخذ يجول علينا ينظر فيما نعمل دون أن يتدخل إلاّ عند الضرورة.

وهكذا فعـــل مع الدجاج، ومع الضفدع. وأذكـــر أني قمـــت بهذه التجـــارب جميعها لتلاميذي في المدارس الابتدائية التي عملت بها قبـــل أن أنتقل إلى التعليـــم الثانوي أي خلال عشر سنوات في التعليم الابتدائي.

❁ ❁ ❁

- الواقعـــة السادسة في «بشراغي» وهي القريـــة الجبلية التـــي عُينت فيهـــا معلماً وحيداً لمدرســـة ذات خمسة صفوف. بالعام الدراســـي ١٩٥٠-١٩٥١. وقـــد كان ذلـــك العام بداية «دراما» شبه مأساوية في حياتي أنتجت في إحدى مراحلها ملحمة «بشراغي» الشعرية الصادرة عـــن وزارة الثقافة ضمن الجزء الثاني مـــن «ملاحم على الورق» عام ٢٠٠٥م.

وسأكتفي هنا بمراحل ثلاث أذكر فصولها

الثلاثة فيما يلي- بكل صدق وأمانة: المرحلة الأولى: مرحلة تعييني في تلك المدرسة ولم أكن قد بلغت العشرين من العمر. لكنّ الإعداد الجيد الذي تلقيته وزملائي في دار المعلمين على يد «عمر فوزي عيسى» وزملائه ظهر أثره البالغ في تلك السنة الدراسية.

فقد أخذ تلامذة المدرسة الخمسون حظهم من التعليم والتربية ما جعل التلامذة التسعة الذين قدّمتهم لامتحان الشهادة الابتدائية ينجحون جميعاً. ولم يكن حظ الصفوف الأربعة الأدنى بأقل من حظ هؤلاء من العناية والتعليم.

أضيف إلى ذلك أني فتحت مدرسة ليلية لمكافحة الأمية في القرية أتى إليها شباب القرية ممن هم أقل من سن الخامسة والثلاثين حيث لم يكن قانون خدمة العلم قد صدر بعد.

القنديل كان من عندي حيث كنت أسكن الغرفة الثانية من بناء المدرسة. واللوح والمقاعد موجودة بطبيعة الحال. وما كان على الشباب إلاّ أن يجمعوا من بعضهم ثمن علبة طباشير أو أكثر في الشهر.

وهكذا لم ينقضِ ذلك العام الدراسي وفي القرية أميّ واحد من ذلك العمر. وأقلهم حظاً من التعلم الذي أتى أميّاً أميّة كاملة وصل إلى ما وصل إليه تلامذة الصف الأول النظاميون (أي خرج وهو يقرأ ويكتب ويحسب).

في مطلع العام الدراسي التالي فوجئت بنقلي إلى أنأى قرية في الجبل على تخوم الغابات. وعندما حزمت أمتعتي المتواضعة في بشراغي التي تولى نقلها بعض شباب القرية خرج أهلها معي يبكون ويندبون وكأنهم يودّعون جنازتي إلى المقبرة.

قضيت في مدرستي الجبلية الجديدة شهراً و (نزلت) إلى المدينة ماشياً أربع ساعات لقبض راتب كانون الأول عام ١٩٥١م سلمني المحاسب راتباً محسوماً منه ١٠٪ وقراراً بنقلي تأديبياً من محافظة اللاذقية إلى محافظة الجزيرة مع حسم١٠٪ لمدة ستة أشهر، جزاء قيامي بنشاط دعائي لحزب البعث العربي الذي لا أتبرأ من تهمة الانتماء إليه. لكنني أقسم صادقاً إني لم أقم بأي نشاط حزبي، مكرساً نشاطي كله للقضية التعليمية وإصلاح ذات البين بين أي متخاصمين من أهل القرية.

وللقارئ العزيز أن يتصور رحلة الضنى والعذاب لمعلم في العشرين من العمر عليه أن

يبيت ليلة في حلب وليلة في دير الزور قبل أن يصل إلى الحسكة. التي وصلتها وفراشي يقطر من ماء المطر على ظهر (البوسطة).

المرحلة الثانية في الحسكة. المدينة التي لم يكن فيها آنذاك مشروع ماء للشرب. وكان فيها معمل كهرباء على ضفة الخابور جرفته مياه الخابور في أول فيضان لها. فكنا نستضيء بزيت الكاز.

هناك تحضّنني ورعى غربتي مدير المعارف الأستاذ عبد الجبار عدي من (آل عدي) الحمويين النبلاء -رحمه الله- إن كان قد توفي وستر الله له بقية عمره إن كان ما زال حياً. وعينني في إحدى مدرستي الحسكة- نفسها.

بعد ثلاثة أشهر من عملي الشاق هناك، وبنفس الحماسة والاندفاع الذي كنته في بشراغي، تابعت في الحسكة. أوصى لي رئيس الديوان وكان شهماً هو الآخر اسمه (حسن بربندي) من دير الزور لآتيه فاطلع على إضبارتي التي وصلت للتو من اللاذقية. فقرأت فيها ما أذهلني. تقريراً تفتيشياً ملخصه ما يلي:

«نُمي إلينا أن معلم مدرسة بشراغي السيد جميل حسن يقوم بنشاط مخرّب لحزب البعث العربي، وقد شقّ أهل القرية حتى جعلهم يقتتلون فيما بينهم وهجرّ بعضهم من القرية. فشخصنا نحن المفتشين (إ. ج و م. غ) إلى قرية بشراغي (وأقسم على أنهما لم يدخلاها على مدى عمرهما) واتصلنا بعدد من الأهالي فأكدوا لنا ما كان قد نُمي إلينا. وقد شاهدنا في درج طاولة المعلم منشورات حزبية تؤكد ما قلناه «والمعلم لم يكن عنده لا في الصف ولا في بيته طاولة».

وكما ظلّ تلامذة بشراغي الذين تبوأ بعضهم مركز رفيعة في الدولة أوفياء رغم مرور أكثر من خمسين سنة، كذلك بقي تلامذة الحسكة وأهلوهم الذين رعوني واحترموا لي إخلاصي لأبنائهم رغم مرور تلك السنين الطوال أيضاً.

وهذا ما عزاني وعوّض علي مرارة الاغتراب وشظف العيش.

المرحلة الثالثة في «الفجيرة» بدولة الإمارات العربية المتحدة التي كنت فيها موجهاً اختصاصياً لمادة اللغة العربية معاراً من وزارة التربية في سورية ما بين العام الدراسي ١٩٧٨-١٩٧٩ والعام الدراسي ١٩٨١-١٩٨٢ وأمسك عن الدخول في هذه

المرحلة محيلاً القارئ المهتم إلى ملحمة «بشراغي» التي ذكرتها آنفاً، ليقرأ فصلها هناك.

❁ ❁ ❁

- الواقعة السابعة جرت معي عام ١٩٦٠ عندما حصلت على الإجازة الجامعية وتقدمت إلى مسابقة انتقاء المدرسين.

الواقعة ذات شقين. الشقّ الأوّل يتعلق بالأوراق المطلوب تقديمها إلى الوزارة لأقبل للدخول في المسابقة. والشق الثاني يتعلق بمثولي أمام لجنة القبول. فيما يتعلّق بالأوراق كان يُطلب من المعلم أن يحصل على موافقة مديرية التربية في محافظته فقط لأنه أصلاً من ملاك وزارة التربية. إلى جانب إخراج قيد من النفوس وطلب القبول.

وعندما قدّمت الأوراق إلى وزارة التربية في دمشق قال لي الموظف: «تحتاج إلى وثيقة من مديريتك تبين سنوات خدمتك» وعبثاً حاولت إقناعه بأن هذه الوثيقة ليست من الأوراق المطلوبة في إعلان المسابقة. راجعت مدير التعليم الثانوي فنهرني، وقال: «موظفنا لا يلعب». وأجبروني على العودة إلى اللاذقية فحصلت على وثيقتهم المطلوبة وعدت بها إلى دمشق متكلفاً ما يمكن أن يتصور من عناء السفر آنذاك بين دمشق واللاذقية ذهاباً وإياباً. وعندما قدّمت الأوراق إلى ديوان الوزارة تسلّمها مني موظف آخر، فانتزع الورقة التي أجبرتني على السفر بين دمشق واللاذقية، ثم مزّقها ورماها في سلة المهملات، وقال: «هذه لا لزوم لها». ولجنة المقابلة التي مثلت أمامها كانت مؤلفة من الأستاذ الدكتور «جودة الركابي» والأستاذ «بسام كرد علي». رحبا بي بكل لطف وقالا: «تفضل! اجلس». وأعطياني كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي مفتوحاً على نص شعري لم أعد أذكر اسم شاعره، وقالا: «انظر في هذا النص، واقرأه لنا كأنك تقرؤه على تلاميذك في الصف». أخذت الكتاب وقرأت النص دون تعثّر أو خطأ. فقال الدكتور جودة: «أيمكنك إعطاؤنا فكرة عن مجمل معاني النص؟» ففعلت. فسألاني إعراب بعض الكلمات فأعربتها. أخيراً قدّما لي ورقة بيضاء وقلماً قائلين: «قطع البيت الأوّل وسم لنا بحره» فقلت: «لا حاجة إلى التقطيع. هو على البحر المتقارب، وفيه الزّحاف الفلاني». عندها قال الأستاذ بسام: «بالتأكيد أنت شاعر» فأجبت على استحياء:

«أكتب الشعر أحياناً» فطلب بإلحاح أن أقرأ شيئاً مما أحفظه مــن شعري فقرأت ثلاثة أبيات من قصيدة في الغزل. فقالا: «شكراً. يكفي. مع السلامة يا أستاذ».

وهكــذا كنت الأوّل بين المقبولين وعيّنت في محافظة إدلــب لأن محافظتي لم يكن لها نصيب من تلك المسابقة.

❁ ❁ ❁

- الواقعــة الثامنة جــرت لي مع أستاذ الجيــل المفكــر الكبــير المرحــوم «أنطون مقدســي» الــذي كان وقتها مديــراً للجنة التأليــف والترجمة والنشر في وزارة الثقافة عام ١٩٩٨- على ما أذكر.

أرسلت إلى اللجنة مخطوطاً في الدراسة الأدبيــة بعنوان «نديم محمــد.. سيرة حياة وقراءة شعر» وأنا أتوجّس خيفة من رفضها فأنطــون مقدســي لا أعرفــه ولا يعرفني. وقد قال لي يومها الأستاذ أسعد صقر: «أنا أعرف أنطون جيداً. إنه لا يجامل أحداً، ولا يشرك برأيه أحداً».

وبعــد مضي ثلاثــة أشهر تقريبــاً وأنا أترقب إبلاغــي قراراً برفضــ المخطوط، أتاني من يقول لي: إن الأستاذ أنطون يطلب مني أن (أمرّ عليه) في الوزارة عندما أذهب إلى دمشق. وحيث كنت متقاعداً وليس لدي مــا يمنعني مــن السفر سافــرت من الغد يرافقني أحد أبنائي.

سألــت عن الأستاذ فقيــل لي: ذاك هو الجالســ وراء مكتبــه في الغرفــة المقابلة. قرعــت بابــه، وحييته فردّ التحيــة بتثاقل واضح ولهجة (ناشفة) فالأستاذ كان كالمومياء (جلداً وعظماً) لكن بحضور ذهني عجيب.

فقلت: أنا فلان مؤلف كتاب نديم محمد. فقال: «إي اقعد» فقعدت، وانتظرت صدور الحكم. وللقارئ أن يتصور دهشتي وفرحتي الباطنيــة عندما قال لي الأستــاذ: «كتابك جيد». ثم عقّب قائــلاً: «هذا هو النوع من الكتابة التي أريدها عن نديم محمد. فنديم كان صديقــي ورفيقي في الحــزب العربي الاشتراكي. وكم سهرنــا الليالي الطوال مع بعضنــا». وطلب تعديل منهــج الدراسة من الأسلوب النقــدي إلى الأسلــوب التاريخي التطــوري الــذي يماشــي تواريــخ دواوين الشاعر. فنفذّت ما طلب وأعدته للأستاذ في غضون شهر فتبناه، وتولّت الوزارة مشكورة طبعه ونشره.

حيث صدر عام ٢٠٠٠م.

❁ ❁ ❁

- الواقعة التاسعة جرت لي في صيف عام ١٩٥٤م في قرية جبلية، وكنت أشارك بقصيدة من ثلاثين بيتاً في حفل تأبين المرحوم الشيخ عبد اللطيف سعود كبير القضاة الشرعيين في المحافظة، وكان صديقاً لوالدي يزوره كلّ صيف مرّة أو مرّتين فيمكث عنده يوماً أو يومين، وكنت وعمي «أسعد صقر» (أخو الوالد غير الشقيق» نتقرّب من الشيخ وهو يحادث الوالد في الشعر والقرآن الكريم وبعض القضايا الدينية. وكنا نحبه لأنه كان يؤثرنا ببعض الحديث فيقرأ لنا من شعره، ويسألنا بعض أسئلة الإعراب وشرح أبيات الشعر.

في الحفل المذكور عندما جاء دوري، وصعدت إلى المنصة فوجئت بما لم أكن أتوقع، وقد أربكني، إلاّ أنني تماسكت. لقد كان الشاعر الكبير ذو الصيت العريض المرحوم «بدوي الجبل» يتصدّر الصف الأمامي بين الحاضرين. وهاتي يا أعصاب الشاعر الشاب الذي هو أنا، أسعفي وصاحبك أمام أكبر شاعر في البلاد.

بالطبع تركز توجهي إلى «البدوي» في القراءة وأصبحت كأني تلميذ أسمّع درساً في المحفوظات للأستاذ ولكنّ ما شجعني وساعدني على التماسك بعض إيماءات الشاعر برأسه استحساناً لبعض الأبيات.

وعندما نزلت عن المنصة وقف الشاعر الكبير -رحمه الله- فصافحني وشدّني فأجلسني إلى جانبه، ومال على أذني وقال قولته التي لا أنساها: «يا بني!. أنت مشروع شاعر جيد. انتبه لنفسك. اقرأ كثيراً: ونوّع قراءاتك !. وفقك الله». وكان والدي بين الحاضرين فامتلأ قلبه سروراً وغبطة. وفي طريق العودة سألني: ماذا قال لك الأستاذ؟ فأخبرته الخبر. فازداد غبطة وسروراً وحكى الواقعة أكثر من مرة لأبناء القرية.

- الواقعة العاشرة التي سأجعلها الخاتمة جرت لي في عام ١٩٦٨ في السفارة البريطانية في باريس.

كانت قيادة الحزب قد أوفدتني لزيارة بعض المنظمات الحزبية في أوروبة الغربية.

وكان لابدَّ أن أزور منظمة الحزب في انكلترا، والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بيننا. فقصدت سفارتهم في باريس وبرفقتي صديق تونسي يتقن اللغة الفرنسية. بقصد الحصول على تأشيرة دخول إلى انكلترا.

رحب بنا القنصل البريطاني بتهذيب، ثمّ تناول الجواز، ولما علم أني سوري سألني:

مـــاذا تبغي مـــن زيارتك «لنـــدن». قلت له: سياحـــة. قـــال: ولكنّ العلاقـــات مقطوعة بيننا. فقلت: العلاقات تقطع بين الحكومات اليـــوم لتوصل غداً حسب الطقس السياسي أما العلاقات بـــين الشعوب فلا تقطع لأنها تواصـــل حضـــاري. فظهـــر الإعجاب على وجهه، وهنا سألني:

أنت مـــاذا تعمل في سوريـــة؟ فقلت له: أستاذ أدب. هنا اعتذر وكرر اعتذاره، ومهر الجواز بالتأشيرة، ثم خـــرج من وراء مكتبه وودّعنا إلى الباب.

ولا أكتـــم قارئي أنّ دمعـــة راودتني وأنا أدخل مصعـــد المبنى، وســـؤالاً تلاها يقول بيني وبين نفسي:

أنا أستـــاذ أدب في بلاد تقطع العلاقات الدبلوماسيـــة مع بلاد هـــذا القنصل، وقد احترم عملي هذا الاحترام كله. يا ترى!. ماذا يساوي أستاذ الأدب في بلادنا العربية؟

❁ ❁ ❁

لقـــد حاولت جهدي ألاّ أوحي بأي معنى أو مغـــزى للقارئ الكريم فعسى أن تكون قد وصلته الرسائـــل المتوخاة من هذه الأطياف كلها. وله أطيب التحية والمحبة.



غوركي يتحدث عن تشيخوف

❀ نصر الدين البحرة

كان أنطـون بافلوفيتش تشيخوف على علاقة طيبة مع معظم الكتاب في زمانـه، ولكن الأقـرب إلى قلبه وعقله بينهـم كان مكسيم غوركي الذي كان يتردد عليه ويـزوره باستمرار. وهذا مامكنه من أن يسبر أغواره ويطلع على أحوالـه حتى الصحية، وأن يقدم شهادة كتابية عن تشيخوف عام ١٩١٤ أي بعد عشر سنوات من وفاته. وهي منشورة كاملة في المجلد الأول من المؤلفات المختارة الصادرة عن دار التقدم في موسكو عام ١٩٨١.

❀ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ذات يوم نشر تشيخوف قصة قصيرة عنوانها «مع سبق الإصرار» وفيها قدم الصياد «دينيس غريغورييف» الذي ضبطه حارس السكك الحديدية متلبساً عند الكيلو ١٤١ بفك برغي كبير من تلك التي تثبت بها القضبان الحديدية على القواعد. وقبض عليه ومعه البرغي المذكور.

محاكمة الصياد «دينيس»

ينقل تشيخوف بعض وقائع جلسة المحاكمة. يُسأل الصياد: لماذا فككت البرغي ؟فيقول لو لم أكن في حاجة إليه لما فككته.

- وماحاجتك إلى البرغي

- البرغي ؟نحن نصنع من البراغي ثقّالات لصنارات الصيد

- اسمع ياأخانا. لاتتظاهر بالغباء وتكلم بصراحة. كفاك كذباً بخصوص الثقالات..

- أنا عمري ماكذبت، فلماذا أكذب الآن!؟ وهل يمكن ياصاحب السعادة أن تصيد بدون ثقّالة !؟

في النهاية، يقاد الصياد إلى السجن، وهو يصيح: أيها القضاة، إذا حكمتم فلتحكموا بالعدل، بالأصول.. وليس هكذا بلا ذنب.. حتى لو حكمتم بالجلد فليكن.. المهم بالحق.. بالأمانة.

كان واضحاً من سياق القصة أن تشيخوف يقف إلى جانب هذا الصياد المسكين، ويتهم القاضي بعدم تفهم موقفه وتقدير ظروفه. وهذا ماجاء النائب العام يناقش فيه تشيخوف بعد أن قرأ القصة. وقد حضر غوركي وسمع الحوار، وقد جاء فيه أن الصياد متوحش ولم يدرك جريرة فعله كما يقول النائب العام: «ولو أني عاملته كشخص تصَّرف دون فهم، واستسلمت لمشاعر الشفقة، فكيف إذاً أضمن للجميع أن دينيس لن يعود إلى فك براغي القضبان ويتسبب في حوادث القطارات؟!»

لو كان تشيخوف قاضياً

واختصر تشيخوف رأيه بكلمات معدودة:

- لو كنتُ قاضياً لبرأت دينيس.

- على أي أساس؟

- كنت أقول له: أنت يادينيس لم تبلغ بعد مرتبة المجرم الواعي. اذهب ابلغ

وكما هو الحال في قصصه فإن تشيخوف غيّر مجرى الحوار، فسأل النائب العام فجأة: هل يعجبك الفونوغراف؟وإذ ردّ بالإيجاب، فإن تشيخوف أعطى رأيه في هذا النموذج من الناس أو الموظفين المسؤولين، قبل أن يعني الفونوغراف: أنا لاأطيق الفونوغرافات. إنها تتحدث وتغنّي دون أن تحّس بشيء.

بثور على مقعد العدالة!

وينقل غوركي عن تشيخوف قوله بعد انصراف النائب العام:

- أمثال هذه البثور، على مقعد العدالة، هم الذين يتصرفون بمصائر البشر ويقدم غوركي رأي تشيخوف في الثقافة، من خلال حديثه عن واقع المعلمين المزري: «بدون شعب مثقف ثقافة واسعة ستنهار الدولة كالبيت المشيد من آجّر لم يُشو جيداً. عندنا - المعلم -عامل يدوي. شخص قليل الثقافة. يمضي إلى تعليم الأولاد في الريف، بنفس الرغبة التي قد يمضي بها إلى المنفى»

كان تشيخوف متشائماً رغم حسه الفكاهي وظرفه ولكنه «التشاؤم المرهف لشخص يعرف قيمة الكلمة، قيمة الأحلام» يقول غوركي:

«مضينا إلى البيت على مهل وفي صمت. كان ذلك يوماً صافياً حاراً. وتعالى هدير الأمواج وتراقصت عليها أشعة الشمس. وتحت الجبل عوى كلب برقة وهو يشعر بالرضا لسبب ما. وضع تشيخوف ذراعي تحت ذراعه وقال ببطء وهو يسعل:

- إنه لشيء مخجل ومحزن، ولكنه صحيح: فكثير من الناس يحسدون الكلاب.»

المعلم الفقير والمعلم المتبرجز

بلى، لقد رثى تشيخوف للمعلم، البائس الفقير، لكنه في المقابل لم يوفر من تهكمه وسخريته، ذلك المعلم المتبرجز المتفذلك المتفاصح، وهو ينتقي الكلمات بعناء شديد يحاول أن يتحدث بصورة أسلس أو (أكثر ثقافة) أو يركز كل قواه بوقاحة الأشخاص مفرطي الحياء «على حد تعبير غوركي الذي يتابع ذاكراً ماقاله ذلك المعلم، وهو جالس قبالة تشيخوف، بصوت غليظ:

- من مثل انطباعات الوجود هذه على امتداد الموسم التربوي، يتشكل ذلك المركب السيكولوجي الذي يقضي تماماً على أية إمكانية للموقف الموضوعي من العالم المحيط. والعالم بالطبع ليس إلا تصوراتنا عنه.

تشيخوف والنساء المتحذلقات

- ومثلما يفعل الرسام الماهر، إذ يصور الملامح بضربات سريعة من ريشته ، فإن تشيخوف اختصر تعليقه على هذا الهراء كمايلي:

- قل لي من فضلك، من الذي يضرب الأولاد في ناحيتكم؟

على النحو ذاته سخر تشيخوف من النساء المتحذلقات. يقول غوركي: «ذات مرة زارته

ثلاث نساء متأنقــات في بذخ، وملأن غرفتــه بحفيف التنــورات الحريرية ورائحة العطور القوية، وجلسنَ بعظمة قبالــة مضيفهــن متظاهــرات بأنهن مهتمّات جداً بالسياسة:

- أنطــون بافلوفيتش، مارأيك بم ستنتهي الحرب؟

وتنحنح تشيخوف، وفكر قليلاً، ثم قال بصوت ناعم ونبرة جادة رقيقة:

- على الأرجح.. بالسلام

- نعــم طبعــاً. ولكــن مــن الذي سينتصر؟ اليونانيون أم الأتراك ؟

- أعتقد أنه سينتصر من هو أقوى.

- ومن هو الأقوى برأيك؟

- مــن يتغــذون أفضل، ومــن هم أكثر ثقافة.

- ومن تحب أكثر اليونانيين أم الأتراك؟

وحســم تشيخــوف، على عادتــه، هذه المهزلــة بسؤال السيدة التي طرحت السؤال الأخير، وهو يضحك ضحكة قصيرة مهذبة

- أنا أحب المرملاد. وأنت هل تحبينه؟

ودخلت النسوة الثــلاث، دون أن ينتبهن مطلقــاً إلى سخريــة تشيخــوف العميقة، في حديثــه عن المرمــلاد ورائحته الجميلة للغاية.. ثم وعدنــه وقد هممن بالانصراف بأنهن سيرسلن إليه المرملاد..



الابتذال والعيش دون هدف

كانــت هنــاك، كمــا يوضــح غوركي، مسألتــان تقلقان تشيخــوف: الابتذال وأن يعيشــ الإنسان دون هــدف أو رسالة: يأكل وينام ويعمــل مثل حصــان المطحنة. يقول غوركي:

«كان تشيخــوف يتمتــع بفــن اكتشاف الجوانب المبتذلة وإبرازها أينما كانت، هذا الفن الذي تخلقه فقــط الرغبة الحارة في رؤية النـاســ بسطاء جميلين متجانسين» ثم يتابع:

«منذ البداية استطاع أنطون تشيخوف في قصصه الأولى أن يكتشف في بحر الابتذال الكابي، مزحاته المأساوية الكئيبة: يكفي أن تقرأ بانتباه قصصــه القصيرة «الفكاهية»

حتى تقتنع بأنه ماأكثر ماكان – تشيخوف – يراه في حزن، ويخفيه في خجل، من أشياء قاسية ومنفِّرة وراء الكلمات والمواقف المضحكة.»

ويستدعي غوركي إلى الذهن النحات الفرنسي (رودان Auguste Rodin ١٨٤٠–١٩١٧) الذي استطاع أن يعبر.. حتى عن القبح تعبيراً جميلاً، فيقول: كان وهو يحقق كل ماهو مبتذل وقذر، يصف كل حقارات الحياة، بلغة نبيلة لشاعر.

في كل قصة آهة خافتة

ويستطرد مؤلف (الأم) قائلاً: «في كل قصة قصيرة من قصص انطون بافلوفيتش الفكاهية، أسمع آهة خافتة من قلب نقي إنساني حقاً، آهة إشفاق يائسة على الناس الذين لا يعرفون كيف يحترمون كرامتهم الإنسانية، ويعيشون كالعبيد مستسلمين دون مقاومة لقوة غاشمة، ولا يؤمنون بأي شي، اللهم إلاّ بضرورة أن يتناولوا كل يوم حساءً أكثر دسامة قدر المستطاع»

إنها إذاً مأساوية توافه الحياة التي لم يستطع أحد قبله أن يرسمها للناس بهذا الصدق

كتب تشيخوف في إحدى رسائله إلى الكاتب الروسي صديقه سوفورين:

«ليس هناك ماهو أكثر مللاً ولاشاعرية، كما يقال، من الصراع العادي في سبيل البقاء، والذي يحرمك من بهجة الحياة ويدفعك إلى الكآبة»

ولذلك فإن غوركي يبدي دهشته: «فكيف استطاع أن يحتفظ بروح الفكاهة ولم ير الحياة إلا سعياً مملاً للبشر من أجل الشبع والسكينة. وكانت المآسي العظيمة تختبئ عنده تحت طبقة سميكة من الواقع العادي؟»

فلاح يتحدث عن الطبيب تشيخوف

التقى الكاتب تيليشوف يوماً في عربة الدرجة الثالثة في القطار بفلاح مسافر إلى إحدى القرى، فدار بينهما حديث لم يلبث أن وصل إلى تشيخوف على نحو ما. روى هذا الفلاح أن الطبيب تشيخوف عالج زوجته العجوز وشفاها، وعالجه هو أيضاً وشفاه. ولمّا قدم له أجراً رفض قبوله رفضاً باتاً، فقال له: ياعزيزي أنطون بافلوفيتش، كيف ترفض الأجر، ومن أين ستعيش إن لم تتقاض مني ومن غيري أجراً؟! وعلق الفلاح قائلاً: إنه شخص غريب الأطوار مشوش الأفكار.

كان طرف من مأساة تشيخوف مع المرض الذي عايشه زمناً غير قصير، أنه طبيب ويعرف الحكاية، وهذا ماعبر عنه غوركي أخيراً:

«كان طبيبـاً ومرض الطبيب دائماً أشد وطـأة من مرض مرضاه، فالمرضى يشعرون فقط بتدمير الداء لأجسادهم، أما الطبيب فعلاوة على ذلك فإنه يعرف بعض المعلومات عن هذه العملية، وهذه إحدى الحالات التي يمكن فيها اعتبار المعرفة عاملاً على تقريب ساعة الموت.»

في أحد أيـام تشيخوف الأخـيرة، زاره تولستـوي وغوركـي حاضر. كانـت حرارة تشيخوف في ذلك اليوم مرتفعة، وقد جلس متورد الخدين، وقد أحنى رأسه وراح ينظف عويناتـه باهتمام. أبـدى تولستوي إعجابه بإحـدى قصص تشيخـوف، وكان يتحدث بتأثير عميق، والدموع تترقرق في عينيه.



سهرة فكرية مع أوراق العمر

سمية اليونس غانم ❁

أوراق العمر عنوان جميل لكتاب هو سيرة حياة في الإعلام والفن والدبلوماسية. يتضمن الكتاب أربعة عشر فصلاً في كل منها عرض ممتع، لموضوع متنوع من محطات فكرية هي حياة الدكتور (صباح قباني).

من الصعب التلخيص لهذه الأوراق، والبالغ عددها (٣٧٣) صفحة في عدة صفحات، وربما استطعت الإحاطة بهذه الأوراق بأربع مراحل هي كالتالي:

❁ كاتبة ومحامية سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

١- مراحلة الطفولة والدراسة.

٢- تأسيسه لمديرية التلفزيون السوري.

٣- العمل الدبلوماسي ومهامه.

٤- الموهبة الأدبية والفنية.

فالكاتب بقلمه المميز استعرض تاريخ مرحلة هامة من حياته، واكب فيها أحداثاً وطنية حدثت في القرن الماضي.

ما أن تبدأ بالقراءة في الصفحات الأولى حتى تبقى مستمراً من قراءتك حتى تنتهي منها دون أن تدرك أن ذلك استمر ساعات طويلة.

فالأسلوب السهل والعبارة الواضحة الناطقة بشفافية التطور الاجتماعي والمهني الذي حصل في سورية منذ ذلك الحين، من خلال العمل المهني لوالده في معمل الحلويات، وكيف تطور هذا العمل وانتقال من مصر إلى سورية، كأول معمل للحلويات بهذه المواصفات في دمشق.

أولاً - مرحلة الطفولة والدراسة:

أما عن الحياة اليومية لأسرته، فقد رسم بدقة منزله، وبركة الماء الرخامية، وأصص الزهور والورود والفل والياسمين، وشذا الأحجار العتيقة المضمخة بعبق الرائحة الزكية لهذه النباتات. إذ يقول:

«في رحاب هذه الجنة الصغيرة ترعرعنا، وكبرنا، أنا وأخوتي، ونما إحساسنا بالجمال والنظافة، والأناقة من هذا (البيت المظلة) كما وصفه الأخ[1] في شعره وفي نثره اللذين كان يعتد بأنهما مكتوبان بأبجدية ياسمين بيتنا الدمشقي..».

ويعود مرة أخرى بعد وصفه جمالية المكان وعطر أزهاره، إلى عبق الإرادة الجبارة لوالدته (أم معتز) في إدارة هذا البيت بمسؤولياته المتعددة، التي تعتمد بالدرجة الأولى على الجهد الشخصي لها. إذ يقول:

«ولا أزال أتساءل حتى اليوم كيف كانت تنهض صباح مساء دون كلل ولا تذمر.. فالأجهزة الكهربائية المتوفرة بين أيدي سيدات اليوم لتسهيل الأعمال المنزلية لم تكن تعرفها أمي ولا قريباتها من النساء، فلا آلات تغسل الثياب، أو تكنس الغبار، ولا طناجر بخارية، تطهو وتخلط، ولا مواقد كهربائية أو أفران إلكترونية تعمل بضغط زر»[2].

وبريشته الجميلة يرسم لك صورة أخرى لا تقل روعة عن المناظر والمشاهد التي تتخيلها من خلال ربة المنزل. وهي

«تنظيم المواعيد الاجتماعية، في وقت لم يكن هناك هاتف يسهل التواصل بين الأهل والأصدقاء».

ويصف لك العادات والتقاليد السائدة في تلك الفترة إذ يقول:

«إلى جانب ضيفات أمي في يوم استقبالها، كان يتقاطر إلى بيتنا زائرات من نوع مختلف تدخل علينا من وقت لآخر ولعدة أيام تهب علينا نسائم جديدة ومختلفة من حياتنا نحن أطفال البيت فمنهن من تسحرنا بطريقة سردها الممتع والمشوق لقصص من حكايات ألف ليلة وليلة. كنّا نتحلق حولها في أحد زوايا غرفة المعيشة وكنا نجلس مبهورين أو مشدودين إلى الحكايا التي تسردها واحدة بعد أخرى ونحن نتمنى ألا تنتهي لأنها سترجع إلى بيتها البعيد بعد أيام»[٣].

كما كان الكاتب أميناً في نقل صور أخرى عن زوار بيته أو بالأحرى زوار والده وهم من السياسيين الناشطين معه من (الكتلة الوطنية) ويشرح لنا تارة عن نشاط كتائب (القمصان الحديدية) الذي كان والده أحد مموليها الرئيسيين.

ويتابع قوله:

«بعد أن نجحت الكتلة الوطنية في منتصف ١٩٣٦ من تنظيم أطول إضراباتها، التي استمرت سبعين يوماً، اتجهت نحو إحداث منظمة شبابية أطلقت عليها اسم (القمصان الحديدية) وذلك إمعاناً في إظهار قوتها وقدرتها النضالية على سلطة الانتداب الفرنسية.

وكان زعماء الكتلة الوطنية حينذاك يتطلعون من وراء ذلك إلى خلق نواة لجيش وطني يكون لسورية عندما تنال استقلالها»[٤].

وتارة أخرى يصور لنا: «البيئة الوطنية والغنية والحافلة بالمحبة والجدية والأصالة وحب الجمال، وكيف انطلق ليبني مستقبله المشرق الزاخر بالنجاح، وينقل لك حوادث طريفة، وروايات صغيرة ولطيفة يعيش من خلالها في جو الحديث الممتع والعفوي الذي يتمتع به، مع أقرانه وأصدقائه أثناء زيارتهم لوالده من اجتماعاتهم الخاصة. فينسج وشاحاً أنيقاً للحدث الذي يرويه سواء تحدث عن (الدكتور أحمد السمان) وهو خريج السوربون من فرنسا وتشجيعه للعلم ومتابعة الدراسة الجامعية في فرنسا بعد نيله شهادة الحقوق لنيل درجة الدكتوراه في الحقوق».



«ولا يسعني إلا أن أذكر الأستاذ الدكتــور أحمد السمــان في عام ١٩٦٢. عندمــا كان عميداً لكلية الحقوق، وأستــاذاً لمادة الاقتصاد السياسي، وهــو يشرح لنا موضوع النقــد والسياســة النقدية، وكيف كنا نقف حوله أنا وزملائي طلاب السنــة الثانيــة -كليــة الحقوق- باحــترام وتقدير، ونحن ضجرون، خائفــون، من عدم النجــاح بهذه المادة الهامــة والجافة، إلى جانب صعوبة الأفكار الجديدة في نظرية النقد.

فيبسط لنا بطريقتــه الرائعة، وأسلوبه الشيق والممتــع، يشرح لنا ويطلب منا المزيد من الجديــة، والبحث في المراجــع العلمية لتــزداد معرفتنا بهذا الموضــوع أو سواه من المواضيع الهامة، وينهي حديثه معنا، بلطف: أنتــم مسؤولون عن عــدم نجاحكم في هذه المادة وغيرها من المواد.. أنتم شباب الوطن المستقبل الناجح (النجاح هو نتيجة الجدية والاجتهاد)..

وهنــا نقف مع الكاتب بين السطور وهو الطالــب المجتهد في مراحــل دراسته حتى يصل إلى الجامعة -كلية الحقوق- وتدرجه في دراستــه العلمية، وحرصــه على متابعة دراسته في فرنسا والمفاجآت التي تعرض لها أثناء وجوده خارج الوطن، وكان لوفاة أستاذه المفاجئ من فرنســا والمعاناة التي تضاعف من جــراء ذلك، والإصــرار والمتابعة لإتمام رسالته العلمية والوصول بجده واجتهاده إلى درجة الدكتــوراه بنجاح وتفوق، وعودته إلى الوطن للعمل من جديد في سورية.

فالمعانــاة المتنوعة أعطتــه القدرة على تذليــل الصعاب للنجــاح في كل عمل يكلف بــه سواء كانت هذه المهمــة داخل القطر أم خارجه.

ثانياً- تأسيسه مديرية التلفزيون السوري:

يروي الكاتب كيف أخبرته زوجته بأنه وقع عليه الاختيار لتأسيس مديرية التلفزيون إذ يقول: «قالت لي زوجتي لقد وقع عليك الاختيار لتكون مديراً للتلفزيون، أي تلفزيون الذي تتحدثون عنه؟.. وكيف سأتولى مرفقاً ليس موجوداً في بلدنا».

«وقلت في نفسي لا بد أن تكون هذه الإشاعة دارت في بلدنا أثناء غيابي»(٥).

وبعد أن تبلغ رسمياً تكليفه بذلك بدأ بكل جدية بمرحلة التأسيس لإحداث محطة تلفزيونية، وإن هذه المهمة ليست بالأمر السهل؟..

فالمنهجية التي وضعها لتنظيم المراحل التي يحتاج إليها هذا الصرح الهام والذي يتطلب العديد من التجهيزات المتنوعة لبناء محطة البث إلى جانب الأطر الفنية والإدارية للقيام بهذه الأعمال التي لم تكن معروفة من قبل الآن في سورية إذ يقول:

«هذه الشاشة الصغيرة، هذا الزائر الدائم في ردهات المنزل يتطلب منا حسن الانتقاء لكل برنامج ودقة الأداء له وهذا يتطلب التأهيل والتدريب الجيد»(٦).

وأمام هذه المهمة المليئة بالتحديات بدأ العمل المتواصل حق لا يخيب آمال الناس الذين يتطلعون بشوق إلى اليوم الذي سيرون فيه التلفزيون يضيء لأول مرة من بيوتهم وفي حياتهم يوم ١٩٦٠/٧/٢٣ وذلك مع التلفزيون المصري إبان عهد الوحدة. إذ يقول:

«اعتبرنا أن الشاشة الصغيرة التي ستدخل إلى بيوت الناس هي نافذة انفتحت أمامهم على العالم عالم الثقافة والحضارة والمعرفة لذلك كان الاهتمام الأول، المواطنات والمواطنون ممن لهم ظروفهم أن يزودوا بمختلف أنواع العلم والمعرفة وهو ما يتعين أن يتزود به الإنسان في هذا العصر.

كنا نفكر بالعديد من الجيل السابق ونسائه الذين لم يأخذوا من العلم شيئاً أو أخذوا منه نذراً يسيراً لا يكفيهم لمواكبة العصر. على الرغم من أنهم يعيشون في النصف الأخير من القرن العشرين»(٧).

واستعان بمجموعة من الخبراء الإداريين ومذيعين ومخرجين ومساعدي وإخراج وقسم التصوير السينمائي والفوتغرافي والتلفزيوني والديكور والهندسة حوالي (٥٦) شخصاً أذكر منهم أ.ناديا الغزي- دريد لحام- هيام طباع- سامي جانو- عبد الهادي البكار.

وأخيراً تمَّ الافتتاح في الموعد المحدد له ١٩٦٠/٧/٢٣ وأوضحت كلمته التي ألقاها بهذه المناسبة ما يلي:

«إن هذا الصديق الذي تحتفلون به اليوم هو كأصدقائكم له ميزات كثيرة وهنات كثيرة فاغفروا له ونحن في أول الطريق وستبذل خير ما عندنا حتى نصل إلى خير ما ترجونه إلى خير ما ندعم وحدتنا الوطنية ووحدتنا الكبرى»[٨].

وبعد مضي السنة الأولى للتجربة الناجحة طلب إنهاء تكليفه وهو صاحب مبدأ وموقف شريف، صادق مع نفسه في كل عمل يقوم به.

ثالثاً- المرحلة الدبلوماسية:

وعاد للعمل في وزارة الخارجية، وتدرج في المهام الموكلة إليه، وتميز بإدارته في كل مهمة يكلف بها وترك بصماته في الإدارة والتوجيه، والتدريب لإنجاز هذه المهمة أو تلك على أحسن وجه، في نيويورك أو واشنطن أو أندونسيا..

كما أعطى القارئ الفكرة الواضحة لماهية العمل الدبلوماسي، والعوامل التي أثرت فيه وتغيير المفهوم التقليدي له. مع شرح واضح عن تطور وسائل الاتصال بين الدول والنهضة العلمية، والاختراعات الباهرة الق أحدثت تغيرات في الأنشطة الإنسانية، والاجتماعية والسياسية.

وأضاف إلى ذلك الرأي السديد الذي يساهم في نجاح السفير والقيام بالمهمة السياسية، إذ يقول:

«إن نجاح العمل الدبلوماسي يتطلب دائماً المعرفة الواسعة والثقافة المتنوعة وتوسع آفاق قراءاته، فلا يظن أن مواضيع السياسة الدولية وحدها محور الاهتمامات بل عليه أن يلم بشيء من المعرفة الإنسانية ويتابع التطورات الثقافية والعلمية والفنية والتكنولوجية. فهو لا يدري متى سيسأل أن يدلي برأيه من أحد هذه الموضوعات خلال لقاءاته الدبلوماسية والسياسية»[٩].

ويعود ليؤكد ذلك يقول:

«نرى أن تمثيل الدولة الموفدة لا يعني تمثيلها فقط في الاحتفالات والمناسبات، بل هو بالأحرى تمثيل فكرها وروحها، وحضارتها، وحماية المصالح لا يعني فقط حرفية المصالح التجارية والاقتصادية والمالية لدولة الدبلوماسي. حمل المصالح تعني قبل كل شيء الحرص على عظمة هذا الدبلوماسي وكرامته وسمعته»[١٠].

«أما عن دور الإعلام من دعم العمل الدبلوماسي فعلى السفير أن يكون إعلامياً قبل كل شيء. والذي يعرف أن أجهزة الإعلام من البلد المضيف بأقصى طاقاتها، وإمكانياتها المفتوحة أمامه لأنها اليوم أجهزة تدفق المعلومات وتشكيل الآراء»(١١).

ومع العرض الشيق والدقيق والموجز ينتقل من فكرة إلى أخرى. فتارة يشرح عن «مدينة نيويورك وتاريخها وكيف كانت قبل ٣٠٠ سنة جزيرة صغيرة من أكواخ يقطنها عدد قليل من الهنود الحمر إلى مدينة جبارة يتحرك فيها ملايين البشر، وتضم أكبر المؤسسات المصرفية في العالم التي يتداول فيها بلايين الدولارات. في حين أن الهولنديين الحمر حين استردوها منهم عام (١٦٢٦) أكثر مما يعادل بعملة اليوم (٢٤ دولاراً) وهي مجموعة من الأطواق من الخرز الملون وأطلقوا عليها اسم (نيو امستردام) وبعد أن بقي الهولنديون فيها ٤٠ عاماً، انتقلت ملكيتها إلى مستعمرين آخرين البريطانيون الذين جعلوا اسمها (نيويورك) تكريماً لدوق (يورك) شقيق (شارل) ملك بريطانيا ».

ولا يخلو أسلوبه الشيق من سرد نكته أو طرفة تضحك وأنت تقرؤها إذ يقول:

«صوَّر رسام الكاريكاتور في إحدى المجلّات رجالاً آتين من القمر يقول أحدهما للآخر وهما يشاهدان رجل فضاء أميركياً يتقدم نحوهما حذار أن يضحك علينا هذا الرجل الأميركي، ويفعلها ثانية فيدفع لنا أربعة وعشرين دولاراً فقط ثمناً للقمر»(١٢).

ومع أوراق العمر المضمخة بأريج التجارب المتنوعة نسافر مع الدكتور (صباح قباني) إلى واشنطن الذي كان في مهمة فيها مرتين متباعدتين، وقد استطاع أن يترك بصماته في العمل الجاد والمنظم وأثناء مهمته الدبلوماسية في واشنطن وبعد قضية (ووتر غيت) استقال نيكسون من منصبه كرئيس جمهورية للولايات المتحدة الأميركية. وتمَّ تكليف الرئيس (فورد) نائبه رئيساً بدلاً عنه.

ونوه الكاتب على أن الخطوط العامة الاستراتيجية الأميركية ستبقى هي هي ومن منظورها يتصرف الرئيس في البيت الأبيض، سواء (نيكسون) أو (فورد)!

وإن على العرب ألا يربطوا مصير قضيتهم بأشخاص بل بقوتهم الذاتية وحدها ودون تأثير هذه القوة على الدول الكبرى ورؤسائها وحكوماتها كما شرح وبدقة

الأحـداث الجارية في تلك الفترة بعد حرب ٦تشرين الأول، عام١٩٧٣، ودور الإعلام في نشـر ذلك عالياً. كمـا أن علاقته الوشيجة مع الإعلاميين واهتمامهـم بمواقفنا نتائج جيـدة تمثلت في أن صحفهم تفرد صفحات بكاملها لردود السفير بمقالات مسيئة إلينا كعرب، وفلسطينيين أو سوريين كانت تظهر هـذه المقالات من وقـت لآخر في الصحف ونشاطه الدبلوماسي على الصعد كافة، وقد تميـزت بالطرح الجـريء الواضح مع وزير خارجية أميركا (كيسنجر).

ويؤكـد أن مصلحة الوطـن هي الأولى، وإنك وراء مبـادرات لا نوافق عليها، فقال تأكد أن لسورية نصيب من الأمر وأن دورها آت. فقلـت: تأكد أننا مهتمـون لأي مبادرة سلام.. وهنا أعاد كيسنجر كلماته المعروفة أنَّنا نقدر دور سورية ونحترمه[١٣].

وإن هـذا النشـاط السياسـي انعكس إيجابياً فقد لبى دعوة الإعلاميين الراغبين في زيارة سورية وطريقة التعامل معهم.

كمـا حرص السيّـد السفـير الدكتور (قبـاني) على استعادة العقار المبني من عام ١٩٠٨ والمسمـى (الكولونيـاي) المؤلف من ٣أدوار وطابق أرضي وحديقة واسعة. وكان لأسرة الرئيس الأمريكـي السابع والعشرين (تافـت) وقد اشتراه مـن ورثته عام ١٩٤٦ الأستـاذ ناظم القدسي عندمـا كان سفيراً لسوريـة في واشنطن وبقي مقـراً للسفارة السوريـة ثم لسفـارة الجمهوريـة العربية المتحدة حتى عام ١٩٦٢ حين وقع الانفصال بين مصر سورية.

احتفـظ المصريون بالعقـار وخرج منه الدبلوماسيون السوريـون. وتمَّ طلب العقار من قبل رئاسة الجمهورية السورية من رئاسة الجمهوريـة المصرية، وبالفعـل تم استلام العقار وهو بحاجـة إلى إصلاحات جذرية، وقد استمرت عمليات الإصلاح سبعة أشهر. وقال الدكتور قباني:

«لقد نشرت الصحـف تجديدنا للعقار وفـوز الشركـة هوليـاني (بجائـزة١٩٧٦) المخصصـة للمؤسسـات الهندسيـة التي تحافظ على المبـاني التاريخية. وتم الشكر أيضاً لسورية باسم أسرة تافت مع الإعجاب الشديد بما أنجزناه»[١٤].

ولم تقـف جهـوده علـى تجديـد مبنى السفـارة بل حرص أيضـاً على شراء عقار آخر كان يسكنه قريب من السفارة. ويقول: «وهكذا أصبح لسورية عنوانان ممتازان

لعقارين تملكهما في حي السفارات بواشنطن الشهير بالعراقة والأناقة. الأول السفارة والثاني سكن السفير».

وكم كانت سعادتي كبيرة عندما زرت هذين الموقعين الجميلين للسفارة السورية في واشنطن أثناء زيارتي لابنتي رفيف زوجة سفيرنا في واشنطن الدكتور عماد مصطفى، للتهنئة بولادة الحفيدين (سيدرا) و(سُرّى).

ولقد تحدث عن هذه الإنجازات أبناء الجالية السورية الذين مازالوا يتذكرون الروح الوطنية العالية التي يتمتع بها السفير الدكتور صباح وحرصه وحفاظه على الأموال العامة والإنجازات التي استطاع أن يحققها أثناء مهمامه الدبلوماسية ومازالوا يذكرونه بكل احترام وتقدير لمواقفه الوطنية الصادقة ومقدرته على معرفة حقيقة العمل الدبلوماسي..

كما سمحت لي الظروف أيضاً أن أزور (شقيقه الدكتور رشيد قباني) عميد الجالية السورية في واشنطن الذي تبوأ العديد من المناصب الدبلوماسية في أميركا اللاتينية، وأميركا الشمالية وهو صديق شخصي لوالدي، ويتميز بحسه الوطني والإنساني، تجاه أبناء الجالية السورية في واشنطن التي لا يزال يقيم فيها.

رابعاً- الموهبة الفنية والأدبية:

لقد أراد الكاتب أن يحترف الفن، فمنذ يفاعته، كانت أحلامه تنسج له هوايته بأن يصبح رساماً أو نحاتاً.

ولكن الحياة أخذته في دروب مختلفة، كان لبعضها صلة بالفن (كالإذاعة، التلفزيون، الدبلوماسية).

فلكل فن أصوله، ومبادؤه، أما الشبه الكبير بين الدبلوماسية، والتمثيل، إذ يقول: «الممثل يتقمص في المسرحية انفعالات ليست هي انفعالات لشخصيته الحقيقية، وكذلك الدبلوماسي يضطر أحياناً، أن يسبغ على وجهه مظاهر الفرح والسعادة في حين يكون من داخله يتمزق غيظاً ممّن يحادثه.

كما أن الممثل يردد على خشبة المسرح عبارات ليس هو كاتبها، وكذلك الدبلوماسي، فإنه كثيراً ما يدلي ببيانات وأقوال لم يكتبها هو بل هيئت له من وزارة الخارجية في بلده»[١٥].

مع نجاحه في مهمته الدبلوماسية إلا أن الميل للفن ظل يلازمه، ويسكنه كهواية وقد علم نفسه بنفسه، كلاً من فن (الرسم الكاريكاتوري، التصوير الضوئي)، ثم صقل هذه الموهبة حين عمل في نيويورك، فانتسب

في وقت فراغه إلى مدارس خاصة بهذا الفن الأصيل.

وأقام معرضاً للتصوير الضوئي، وكتب له شقيقه (الشاعر نزار قباني) ما يلي:

«عندما نشر (صباح قباني) مئات الصور التي رسمها لبلادي أمامي لأكتب عناوينها شعرت أن جميع أشجار التوت، والحور، والصفصاف، والزيتون، والورد البلدي تنبت في راحة يدي.. وأن الخراف الربيعية تترك بعضاً من صوفها الأبيض على أصابعي.

صارت يدي وهي تقلب الصور، يداً أخرى عليها يسقط المطر، وتكبر سنابل القمح، ويسرح الرعيان ويدبك الراقصون، ويغني الحصادون، وتملأ القرويات من ينابيعها الجرار، وتتناثر عليها مضارب البدو، وإيقاعات المهباج، وعبق القهوة العربية الأصيلة صارت يدي مسرحاً تمتزج فوقه الألوان والأصوات والأهازيج كأنها نشيد واحد هو (نشيد الأرض). صور (صباح) الجميلة أهدتنا وطننا الجميل مرة ثانية»[١٦].

ورسم بريشته الشفافة مجموعة من (الصور الكاريكاتورية) لبعض أصدقائه، توج فيها مقالاته الأدبية اختار منها: د.أحمد السمان، سعيد الجزائري، فؤاد الشايب، شاكر مصطفى، عبد السلام العجيلي، نزار قباني، كما كتب عن مذكراته (أوراق العمر).

قالت عنه الأديبة غادة السمان:

تكتشف في مذكرات، صباح قباني، أديباً بنثر مرهف، ومشرق، وسلس، جذا، ولغة شعرية راقية مسكونة بالحنين، من دون الحزن بل يحاول إبهاج قارئه بكثير من حسن الظل في زمن ثقيل الظل.

إن علاقة (قباني) مع الوطن هي قصة حب كبيرة، فهو يجد أن عمره صار جميلاً بالآخرين.

وقال عنه الإعلامي (سعيد لبيب) صباح قباني يجيد فن الحكاية التي يسردها لنا بعبارة رشيقة نابعة من قلب ينبض بالحب والحياة.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن هذه الأوراق أهداها لزوجته (مها) اعترافاً لها بدورها الهام في حياته. وكانت –ولاتزال– سنده في كل ما عمل وأنجز، فهي مثال للزوجة المثالية والأم النموذجية، والغلاف بريشة ابنته (كرمى).

وأنهي ما كتبت عن هذه المذكرات الشيقة والممتعة بما قالته الأديبة غادة السمان:

«مذكرات صباح قباني، تستعصي على التلخيص لأن صاحبها قام بذلك وهو يخطها كمن يقطر حقلاً من الياسمين الشامي في زجاجة عطر».

الهوامش:

١- نزار هو الشاعر نزار قباني شقيق المؤلف.

٢- ص٤٨.

٣- ص٥٥.

٤- ص٥٥.

٥- ص١٤٣.

٦- ص١٥٣.

٧- ص١٧٣.

٨- ص٢٠٠.

٩- ص٢٢٢.

١٠- ص٢٢٦.

١١- ص٢٢٦.

١٢- ص٢٣٤.

١٣- ص٢٨٤.

١٤- ص٣٠٤.

١٥- ص٢٣٢.

١٦- ص٣٣٧.



جورج تراكل GEORG TREKL
١٨٨٧-١٩١٤
رائد الشعر التعبيري الألماني

محمد جدّوع *

خلال عمــره القصير الــذي لم يتجــاوز السابعة والعشريــن عاماً، وفي تجربــة شعرية لا تتعــدى السنوات الخمســ تصدّر (جورج تــراكل) ريادة التعبيريـــة الشعرية الألمانية بجدارة واقتدار، وذلك من خلال جمالية التعبير بالصـــور والرموز ودلالاتهــا من جهة، وعبر استخـــدام الموسيقى اللغوية في بنيـــة القصيدة بدل الشـــكل القواعدي للجملة في النظــم السابق من جهة أخرى، كما استعاض في تجريبيته الشعرية عن التسلسل المنطقي في مضمون القصيـــدة بالقوة التأثيريـــة والإيحائية السحرية للصـــور المجازية والرموز

* باحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

التي زودها بقـدرة إغواء واستدراج تدهش القارئ/ المتلقي وتولّد لديه انطباعاً سحرياً يدرك من خلاله القوة الجاذبة الآسرة التي تحلت بها أشعار (تراكل) وقصائده على الرغم من كآبته الدائمة، وألوانه السوداء الحالكة، وتآويله الملغّزة المحيّرة وتشاؤميته (الشوبنهاورية)، وشططه النيتشوي، وصولاً لموته الهيدجري.

ولّدت هذه الفرادة الشعرية -التراكلية- جيلاً من الشعراء الألمان الذين تصدروا الساحة الشعرية الألمانية بدءاً من: (غوتفريد بن) مروراً بـ (انغبورغ باخمان) و(باول تسيلان) وانتهاءً بـ (سارة كيرش) كما تأثر به العديد من الشعراء الأجانب على امتداد المعمورة، مثلما جذبت أشعار (هولدرن) فلاسفة الوجودية. حظيت أشعار (تراكل) هي الأخرى بإعجابهم نتيجة للنجاح الذي حققته قدرتها التصويرية للمكابدات الوجودية مما دفع بالفيلسوف الألماني (مارتن هيدجر) لتأليف كتاب (إنشاد المنادى) درس فيه أشعار كل من هولدرن وتراكل.

وجيزة سيرته الذاتية:

ولد جورج تراكل[1] في مدينة (سالزبورغ) النمساوية لأبوين ألمانيين، كان والده يعمل بتجارة الحديد، وعلى الرغم من اهتماماته التجارية، إلا أنه أحاطه بكل الرعاية والاهتمام على عكس والدته التي عاملته بالقسوة المشوبة بالكراهية حيناً وبالحب الأمومي حيناً آخر. مما ولّد لدى (تراكل) نفوراً من أمه وتعلقاً جنونياً بأخته كتعويض عن الحنان الأمومي، كما انعكست علاقته السيئة بوالدته على تحصيله الدراسي- الابتدائي، وعلى الرغم من تودد والده وأخته له إلا أنه حاول الانتحار وهو في سن الخامسة من عمره محاولاً الغرق في بركة عميقة بالقرب من منزل الأسرة، وزيادة في الرعاية والاهتمام أدخله والده في مدرسة خاصة لتعليم اللغة الفرنسية التي كانت لغة المخاطبة في الأوساط الأرستقراطية - الروسية والألمانية- وقتذاك وبعد الانتهاء من مرحلة التعليم الثانوي أرسله والده إلى (فيينا) لدراسة الصيدلة التي أتمها بنجاح عام /١٩١٠م/ إلا أن وفاة والده في العام ذاته نغّصت عليه نشوة التفوق كما ساهم عوزه المادي في سوداويته وغربته عن محيطه الاجتماعي، ومع علاقته الجيدة مع مجموعة (اتحاد الأكاديميين للفن والأدب) والدعم الذي تلقاه من الكاتب الكبير (كارل كراوس) والفيلسوف الشهير (لودفيغ فيتجنشتاين) إلا أن ذلك لم يمنع (تراكل) من الانعزال والتوقع مدمناً على تناول المخدرات والخمور، وعلى الرغم من حياته المضطربة وغير المستقرة

إلا أنه بدأ حياته الشعرية عام ١٩٠٩م حسب الأسلوب الشعري المتداول –آنذاك– في بنية القصيـــدة الشعرية من حيث تحقيق الشكل النحـــوي من وزن وقافيـــة مبتدئاً في نظمه الشعـــري ترانيم ومقطوعات شعرية قصيرة ملحنة، وذات نفحـــات وإشارات دلالية من الكتاب المقدس[٢] ومنها مقطوعة (سونيا).

الأجراس السوداء مسموعات:

سونيا، خُطاها، هدّوها الحنون

.. ..

شمس الأيام الخوالي تلمع

فوق سونيا، فوق جفونها البيضاء

الثلج الذي يندي خديها

واجمة رموشها.. ص١٥٩

وكمـــا أسلفنا فـــإن وفاة والـــده هيَّجت مشاعره المتوجسة وأعصابه المتوترة فازدادت دنياه اســـوداداً، وأصبح اللـــون الأسود لونه المفضل عما عداه مـــن الألوان وهو ما عبّر عنه في قصيدة[٣](وحي وفقد):

غَريباتٌ هنَّ طُرقاتُ الخدين المظلمات

.. ..

وفاة أبي جعلت مني

الابن الأبيض، وبإرعاشٍ أزرق

هبط من الأُكم هبوب الليالي

تأسي أمي القاتم والمقضي

ورأيت إلى الجحيم، الأسود في قلبي.. ص١٦٣

وممـــا زاد في ليله الطويل، وحوّل صمته وأســـاه إلى صراخٍ وعويـــل، نشوب الحرب العالميـــة الأولى التـــي رأى فيهـــا أن الألمان يساقون إلى مصـــير فاجع لا دليل لهم حتى إلى ليلهـــم الطويل. هذا الواقع جعله يسخر لماذا أُصبح ألمانياً ؟ (أتألّمن) وهو ما عبر عنه في[٤] مقطوعته الشعرية (لقاء):

في طريق الغرباء كلانا ينظر في الآخر

وعينانا المتعبتان تتساءلان: ماذا فعلت بحياتك؟

اهدأ! اهدأ !.. واترك الآخرين يشكون

البرد أصبح يحيط بنا من كل جانب

الغيوم تنهمر في الأبعاد

هذا ما جعلني أتألمن

نحن لم نعد نتساءل طويلاً

ولم يعد هناك أحدٌ يرشدنا إلى طريق الليل.. ص١٧٨

أمـــا عـــن مرضـــ الكآبـــة الســـوداء[٥] (المالنخوليـــا) الذي ألمّ به فقد خصه بنشيد يحمل اسم المرض ذاته –المالنخوليا– يصف فيـــه الآخرين وكأنهم وحوشـــ تود افتراسه بوحشية:

ظلال مزرقة

أُوه، عيونهم السوداء التي تنظر إليَّ طويلاً

مرافقةٌ لي في طريقي

.. ..

تتأهب للموت الرزين المكفهر

أيادٍ شبقية، تمتص من نهودٍ حمراء

شفاهٌ متهالكة، وفي الظلام تغتسل

منزلقةً في غواية الطفل الشمس

الرطيب.. ص١٧٩

وتـراكل لا يكتفـي باللـون الأسود أو يود الاستغناء عنه بل يلجأ لتسويد الأبيض حتى الثلج، والماء سوّدَهُمـا في أنشودتيه[٦] (هذيـان) و(علـى حافـة بئر قديمـة) حتى رائحـة الظلال علـى المـرآة تستدعـي الإقياء لأنها مقرفـة برائحتها السوداء المنتنة:

الثلج الأسود الذي من السقوف

يتساقط

.. ..

الرأس يتكسر إلى قطع ضخمة

ويتأمل

للظلال التي في المرآة رائحةٌ مقرفةٌ

لابتسامةٍ باردةٍ لعاهرةٍ ميتة.. ص١٨١

هـذا في (هذيـان) أمـا (علـى حافة بئر قديمـة) فللماء تأويل أوحـد هو اللون الأسود:

(تأويلٌ أسود للماء:

حياة متكسرة في فم الليل

متلهفاً في وسائد سوداء

الغلام ذو الظلال الزرقاء



.. ..

ربما قمر، يصعد درجات بخفة وهدوء

أصوات الراهبات اللطيفة في كنيسة متهدمةٍ

لوحة بكاء السماء الزرقاء

تذوبُ شيئاً فشيئاً..) ص١٨١

أما قصيدتـا (أصوات المـوت السبعة) و(غرودك) فهما نواحيتان على قتلى وجرحى معركة[٦] (غرودك) التي ذهب ضحيتها مئات القتلـى والجرحى الذين استطـاع أن ينقذ منهم حوالي تسعـين جريحاً بما توفر لديه

من عتاد طبي ودوائي في قصيدة (غرودك) ينوح على قتلاها وجرحاها:

المساء الغابات الخريفيات
يدوين بأذرعة موت
والسهول المذهبات والبحيرات الزرقاء
والشمس التي تسوّدُ في العلو:
الليل يقفل على المحاربين
المائتين، تأسي جنون أفواههم المطحونات
في لجب الحقول الهادئات
.. ..
الأخت الكبرى تعبر كالشبح صمت الغابة
مقبلةً لتحيي أرواح الأبطال
الهامات المضرجات:
وتقرع تحت الحشائش نايات الخريف الداكنات
.. ..
شعلة الروح المتوقدة، شرٌ عظيم يغذيها اليوم
الأبناء الذين سيولدون.. ص٦٦

- لكن هل يكتفي؟.. (تراكل) بالحزن الصامت والنواح الصارخ على قتلى وجرحى (غرودك)

- بالتأكيد لا، لقد كانت معركة (غرودك) قاصمة الظهر ونهاية العمر بعد ما هاله منظر القتلى والجرحى، وحينما رأى أحدهم يجهز على نفسه بسلاحه منهياً عذابات جراحه اتخذ قراره النهائي ووضع حداً لروحه المعذبة بتناول جرعة كبيرة ومميتة من الكوكائين في ١٩١٤/١١/٣م، منطلقاً من اعتقاده الراسخ بأن درجة (التعالي) لا تتأتى وتتم إلا بالموت وهو الموت الذي يتعالى فيه الإنسان على واقعه الوجودي -حسب رؤية (هيدجر)- وهو الموت الهيدجري وهو الموقف الذي اتخذه الشاعر اللبناني (خليل حاوي) الذي انتحر بعيد دخول القوات الإسرائيليّة بيروت عام ١٩٨٢م.

تجربته الشعرية:

تعتبر تجربته الإبداعية أنموذجاً فريداً في تاريخ الشعر العالمي عامةً والألماني خاصة، فحياته القصيرة، أبدعت إنتاجاً شعرياً فريداً ووفيراً، فعلى الرغم من تأثره بالشعر الألماني المعاصر -آنذاك- الذي استمده من تجربة الشاعر المبدع والمتميز (هولدرين) ومن قراءته لشعر كل من (هاينريش هاينة- نوفاليس- بودلير- رامبو وفيرلين) إضافة لتأثره الشديد بفلسفة (نيتشه) الذي يرى في الفناء إعادة للحياة من جديد، وإذا قارنا حياة (تراكل) الشعرية وقوتها التأثيرية ضمن فترة عمرية قصيرة نجد ما يشابهها في× شعرنا الجاهلي (طرفة بن العبد) وفي شعرنا المعاصر (السياب وأبو القاسم الشابي) آخذين بعين الاعتبار اختلاف موضوعاتهم -ثيماتهم- الشعرية وظروف حياتهم المعيشية، لكن غزارة التجربة التأثيرية في

الأجيال اللاحقة تبقى القاسم المشترك بين الشعــراء الأربعة (تراكل- طرفة- السياب- الشابي).

خصائص تجربة تراكل الشعرية:

اكتسبــت هويتها الإبداعيــة من خلال المراحل التالية:

١- **مرحلــة التجريــب:** تعتــبر تجريبية (تــراكل) الشعريــة فيمــا يخصــ الشعر التعبــيري سابقة لكل المحــاولات الشعرية- التعبيريــة التــي تركّز على همــوم الإنسان المعاصــر ومكابداتــه الحياتيــة والنفسية وهواجسه وآماله وطموحاته في تحققها، وفي انكساراتها وهــو ما عاناه (تراكل) شخصياً لهذا لا يمكن فهــم مقطوعاته الشعرية إلا في ضــوء الإلمام بمسيرته الشخصية وهو ما منحها هويتها (التراكلية).

٢- **مرحلــة التطويــر:** وتتمثل في ترانيم ومقطوعــات وقصائد تميــز تطور تجربته الشعريــة إلى الأدوار التي تأثر فيها قبل أن يتسنم ريادة المذهب التعبيري.

٣- **دور الكتــاب المقدس:** فمــن حيــث الأسلــوب / الشكل نظم (تــراكل) بداياته الشعرية على شاكلة سفــر (نشيد الإنشاد) التوراتي مبتدأً بمقطوعات وأناشيد شعرية قصيرة- ترانيم- تعتمــد التسلسل المنطقي من حيث العرض، والوزن والقافية من حيث الجرســ الموسيقي كما لا تتعــدى أسطرها أصابع اليد الواحــدة في أغلب المقطوعات وتكاد تخلو من الصور المجازية والاستعارية والرموز ذات الدلالات المتشعبة.

فترنيمــة[٧] (ليــل) تقــارب في أسلوبها الإصحاح الثالث[٨] من (نشيد الإنشاد):

أزرقُ عينيّ انطفأ هذه الليلة
وذهب قلبي الأحمر ! أواه ! كانت
الشمس تحترق بهدّو
ومعطفكِ الأزرق أُسدل على الصديق
الذي كان يدلجُ أحمرَ ثغركِ ختمَ
وُلوجَهُ في الظلمات
في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته
إني أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع..
أطلب من تحبه نفسي فما وجدته

.. ..

من هذه الضائعة في البرية كأعمدة دخانٍ معطرة
بالمر واللبان وبكل أذرّةِ التاجر.

ومثلما تأثر[٩] (تراكل) في التوراة لا يخفى تأثره الشديد بالعهد الجديد (الإنجيل).

وهــو ما تجلى في قصيــدة (تجلّ) التي نقتطف منها:

حين الماء يغدو خفياً يغادركِ وجهٌ أزرق، في
شجر التّمور يرنم عصفورٌ صغير
راهبُ يضمُ
بعذوبة.. يديه المائتتين
ملاكٌ أبيض يحل على مريم لرؤيتها

٤- دور المناظرة والمماثلة:

وسنورد مقاربتين شعريتين لكل من (بودلير) الذي سبقه عمراً وإبداعاً و(هولدرن) الذي عاصره تجربةً، أما مشابهات (تراكل) في موضوعاته في ما يخص الطبيعة وفصولها فتتماثل مع موضوعات (بودلير) في ديوانه (أزهار الشر) حيث وردَ فيه مقطوعات شعرية تتناول الطبيعة وتجلياتها الفصلية والمناخية مثل (إيقاع المساء) و(أغنية خريفية) و(ضباب ومطر) و(غسق الصباح) و(غروب الشمس الرومانسية) نجد المواضيع ذاتها عند (تراكل) مثل (قلبي عند المساء) و(مساء شتاء) و(ليل) و(في الربيع) و(الخريف المتّجلي) و(الصيف الذي ولّى) و(ليل الشتاء) و(الشمس) وفيما يلي مقاربة (غروب الشمس) لبودلير مع مقطوعة (الشمس) لتراكل:

غروب[١١] الشمس الرومانسية

كم الشمس جميلة عندما تشرق طازجة
مثل انفجار يطرح علينا تحيته الصباحية!..

.. ..

أتذكر !.. رأيت كل شيء، زهرة، نبعاً، ثلماً
يغمى عليها تحت عينيها مثل قلبٍ يختلج..
فلنركض نحو الأفق، تأخرنا، فلنركض سريعاً
لنلتقط على الأقل شعاعاً منحنياً !..

لكنني ألاحق عبثاً الإله الذي ينسحب، الليل
الذي لا يقاوم يؤسس مملكته
أسود، رطب، منحوساً، وممتلئاً رجفات،
تسبح في الظلمات رائحة قبر.

أما مقطوفة (تراكل) من قصيدة (الشمس)[١٢] ففيها يقول:

كل يوم تطلع الشمس من وراء الأُكم،
هاهو الجمال، الغاب، الجنون المغبَرّ
الإنسان، صياد أو راعٍ.
محموم يشرئب في البحيرات الخضراء السمك
تحت السماء المستديرة.. وحين يدنو المساء،
يدنو بصمت
نكون على بيّنةٍ من خيرٍ، بعضه، والشر، حين
يحلّ المساء،
المسافر يرفع بسكون هدبه المثقلات.
الشمس سُكُّ الوادي إلى أفول.

أما المقاربة الثانية فهي بين (هولدرن) في قصيدته (إلى ربات المقادير)[١٣] وبين قصيدة (أصوات الموت السبعة) لـ (تراكل) وفي ما يلي نقتطف منهما بعض المقاطع:

إلى ربات المقادير

أيها المقتدرات، امنحنني صيفاً واحداً
وخريفاً واحداً لينضج نشيدي، وحتى
يستطيع قلبي المتخم من اللهو الألذّ
وحتى
إقتبال أن أموت..

.. ..

آه! مرحباً، إذاً، صُمات الظّلال !

سأكون رضياً، وحتى لو قيثارتي خانتني في

وصلي برفقتها إلى هناك

مرةً إذن أكون كالآلهة حييت، بدون ازدياد..

ص١٢٧

أما (أصوات المـوت السبعة)(١٤) فيظهر فيها تراكل على الرغم من تأثره بـ(هولدرن) الذي تتسلـح قصيدته مع وجوديته بتتابعية الصورة ومنطقيـة المعـاني وتسلسلها، أما (تراكل) فتتفـرد قصائده عما سواها- كما أسلفنـا- بالتفـكك وتعتمد علـى إيحائية الصـورة أكثر مـن تسلسليتها المنطقية وهو ما تؤكـده لنـا مقبوسات (أصـوات الموت السبعة):

يحدّر الليل ويزّرقّ الربيع، ويمضي كائنُ طيفٍ بالمساء..

.. ..

النّسم النّديُ يهدهد غصن التفاح وأزاهره

وعمّا كان ضمّة ينحلُ في الفضة ويذوي مائتـاً في أعمـاق الأعين المظلمـات، تغور الأنجم وتضيء أغنية الطفولة الناعمة:

في النور، كان يتحدر النائم إلى الغابة السوداء

وترتل في البعيد أنبع زرقاء

.. ..

والقمر كان يُطردُ من عرينه حيواناً أحمر،

والتأسّي المسوَّدِ بالزّفرات ما عاد يفيض عن

شفاه النساء،

أكثر إشراقاً، الغريب الشاحب

رفع اليدين نحو نجمه

ومن منزله المحطم مضى

بعضٌ من موتٍ بصمات،

واَها للرَجل، كل شخصه أنتن في شكله؛

فهناك تتجمع معادن باردة.. ص١٦٤ - ١٦٥

٥- دور الريادة:

وفيما تتضـاءل تأثيرات الكتاب المقدس من جهة، ومؤثرات الشعراء الذين عاصرهم أو الذين تأثر بهم مـن جهة أخرى. ويتميز هذا الطور المرحلي بالخلـط بين التسلسل المنطقـي في قصائـده من جهـة، والرموز والصـور ذات الاستعارات المجازية من جهة أخـرى، وتتمثل هـذه المرحلـة في قصيدة (ثلاثة أحـلام) نكتفي ببعض المقبوسات(١٥) التالية من كل حلم:

حلم -١-

يؤلمني أنني حلمت بتساقط الأوراق

وبغاباتٍ بعيدة وبحيراتٍ سوداء

بكلمات حزينة لها صدىً غريب

غير أنّي لم أستطع فهم معانيها

مثل تساقط الأوراق وتساقط النجوم.

هكذا رأيتني ذاهباً آتياً

إنه حلمُ وصدىً خالد لا يموت

غير أني لم أستطع فهم معانيها.. ص١٧٦

حلم -٢-

في روحي مرآةٌ سوداء

صور وبحارٌ لم أرها

مهجوراً، كمثل بلادٍ رائعةٍ حزينة

ذائباً في الأزرق بشكل تقريبي

روحي ولدت سماء أرجوانية، تقطر دماً

ملتهبة حتى القاع لشمسٍ متهاويةٍ جبارة.

ونادراً ما كانت تدبّ الحياة فيها من خلال

حدائق متلألئة.. ص١٧٧

حلم -٣-

ابتهاجات مميتة

وروحي منابعٌ سوداء

انتجت صور ليالٍ هائلة

متأثرة بأغانٍ مجهولة

وأنفاس مؤلمة لقدرات أبدية

روحي ارتعشت ذكريات سوداء

.. ..

في البحار العميقة وفي الليالي

وفي أغانٍ سحيقة وبدون بدايةٍ أو نهايةٍ.. ص١٧٧

٦- دور الفرادة والتميّز:

وتبدأ من عام ١٩١٢م حتى وفاته ١٩١٤م وفيها يُطلِّق (تراكل) جميع المؤثرات التي ساهمت في إغناء تجربته الشعرية ويبتدع من خلالها تجريبيته الشعرية - التعبيريّة وذلك من خلال صياغة أسلوب خاص به يعتمد على لا منطقية القصيدة، بحيث تظهر بلا ترابط أو انسجام في بنيتها النصية، لكن ما يمنحها ديمومة التقبل واستمرار الصلاحية والتأثير الصور الإيحائية ذات الدلالات المفتوحة التي تبدو وكأنها طلاسم سحرية لا ترابط بينها ولا انسجام، بحيث يتطلب فك رموزها الطلسمية التي تبقي تأولاتها مفتوحة وذات دلالات اخطبوطية متشعبة.

ومع أن قصائده في هذه المرحلة -التفرد- تبدو كلوحة ملصقات مجمعة -(كولاج)- إلا أن طريقة تركيبتها النسجية تجعلها متشابكة لا انفصام بين لحمتها وسداها، وذلك بفضل بانورامية الصورة الرمزية والمجازية مما يمنحها جمالية ذات مضامين دلالية مشرعة على كل الاحتمالات، إضافة إلى حليتها الأسلوبية المعبرة التي سنورد بعضاً من صورها: (**السواد في الأجْبه.. والأنجم تهوي.. طفلُ طيفٍ أسود.. هزيع في غرفة الحجر.. صبر المنتهى القاتم.. الشر حين يحل المساء.. في المساء تظهر هدأة الشكل على النافذة.. العذوبة السوداء.. آه من احتراق النور بصمت**).

ومن قصائده في هذه المرحلة التي تتضمن التشابك والتفكك من ناحية، والاعتماد على الصورة المجازية من جهة أخرى وتمثله المقطوعة التالية من قصيدة(١٦) (تأسٍ):

موت، سبات، نسورٌ عابسات
ليالٍ يخفقن فوق هامي
صورة الرّجل المذهبة
في موجها المجمد ستلجُبُه
الأبديّة، وفوق صخور الأبحر الراعبات، يُهشم،
مضرّجاً الجسد، والصوت الراكن ينتحب
فوق البحر
أختٌ وفؤادُها المثقل بالعواصف
ليتكِ ترين، القارب وغصيصه
الهالك تحت الكواكب
وجه الليل الكالح.. ص١٦٧

وختاماً لا بد من التأكيد على أن (تراكل) شاعر مُشكِل لا يُقـرأ ولا يُستوعب، إلا من خـلال قراءته قراءة كلية التي ضمها ديوانه المسمى (من كأس ألمٍ ذهبي) الذي نشره أحد أصدقائه ولكن بعدٍ مماته بما يقارب الربع قرن حيث نشر عام ١٩٣٩م. ومع هذا العمر القصـير إلا أن عطـاءه الوفـير أهله ريادة التعبيريّة الألمانية بكل جدارة واقتدار.

الهوامش:

١- إنشاد المنادى: مارتن هيدجر، ت. بسام حجار، ط١ المركز الثقافي العربي، الرباط، بيروت ١٩٩٤.
٢- المصدر السابق، صـ ١٦٣.
٣- المصدر السابق، صـ ١١٦.
٤- مجلة نزوى الفصلية العدد /٣٤/، مؤسسة عمان للصحافة والأنباء والنشر والإعلام، نيسان ٢٠٠٢.
٥- النقد والمجتمع، حوارات وتحرير وترجمة فخري صالح، دار كنعان، ط١، دمشق ٢٠٠٤.
٦- المصدر الرابع، صـ ١٩٦ وما بعد.
٧- المصدر السابق.
٨- الكتاب المقدس، إصدار جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، بلا تاريخ للطبعة والمكان.
٩- المصدر الأول نفسه.
١٠- بودلير، سلسلة أعلام الفكر العالمي، لوك ديكون، ت. كميل داغر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١١- المصدر السابق، صـ ١١٢.
١٢- المصدر الأول، صـ ١١٧.
١٣- المصدر السابق، صـ ١٦٦ وما بعد.
١٤- المصدر السابق، صـ ١٥٥.
١٥- المصدر الرابع، ١٧٨ فما بعد.
١٦- المصدر الأول، صـ ١٦٨.
(*) مجلة الحياة التشكيليّة، العدد الأول، السنة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٠م.

آفاق المعرفة



الأصول السورية للموسيقى الكنسّية

مار أفرام السوري- رومانوس الحمصي- يوحنا الدمشقي

فايز مقدسي*

يتبوأ أفرام في عالم الشعر والموسيقى مكانة عالية. ولقد كتب مؤلف كتاب اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية (السورية) مار اغناطيوس أفرام الأول برصوم عن الشعر السرياني في القرون الأولى للمسيحية فقال ما مفاده أنه ينصب عموماً حول الزهد في الدنيا والعودة إلى التوبة. وهي مواضيع شعراء كبار أمثال أفرام ومار اسحق ويعقوب السروجي وابن قيقي. غير أن المؤلف يضيف أنه لكل جزء منهم جواهره المكنونة ويتيماته المصونة. ويقول إن هناك قصيدة للشاعر ابن قيقي يرثي بها نفسه تعد من أروع ما نظمه الشعراء.

* شاعر وباحث سوري- باريس.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

من أغراض الشعر السرياني شرح الكتاب المقدس والأبحاث اللاهوتية. وهناك أيضاً وصف الطبيعة وشعراء هــذا النوع كثيرون نذكر منهــم داوود بن بولس وله قصيدة في وصف الأشجار وثمارها. وقصيدة لأنطوان التكريتي يصــف فيها جمــال مدينة رأس العــين. وكذلك قصيدة لــداوود الحمصي السوري يصف فيها صعوبة الغربة. وقصيدة لابن العــبري يصف فيها الربيــع والورود. إضافــة إلى المدائــح الدينية ولأفــرام باع طويل فيها فقد جمع بين دقة الرسم وروعة الوصــف وحســن الصنعة وجمــال المعنى. وهناك أيضاً قصائد الصداقة والشوقيات ولابن العبري في هذا النــوع قصائد تذوب عذوبة وسلاســة. ثم يأتي شعــراء الطبقة الوسطى ومنهم، والكلام دائماً لمؤلف اللؤلؤ المنثور، أنطــوان التكريتي وحزقيال الملطي واللبناني شمعون من طور عابدين وعندهم حلاوة الديباجة والجزالة والفخامة وإحكام التأليــف باستثنــاء اللبنــاني الــذي تكلف الصنعة والقافية فأفسدت جمال قصائده. أما الشعراء الذين سبقوا الجميع وفقد أكثر شعرهم فمنهم وفا الآرامــي[١] وبارديصان منتصف القرن الثالث[٢]. فقد قيل في شعر أفرام الكثير. جاء في كتاب طاقات سريانية لمار سويريوس اسحــق ساكا أن مار أفرام لم يبتكر لغة، ولكنه استقل بلغة حتى نعتت بلغة مار أفرام. لغــة لا مثيل لها ولانظير حيرت الألبــاب وملأت النفوســ بالعجب العجاب وإلى اليوم لم يستطع أحد أن يكتب مثل هذه اللغــة التي تدنو من مرتبــة الاعجاز. وقال فيه الشاعر السوري الكبير يعقوب السروجي والذي جاء بعده إنه كان نبعاً غزيراً وينبوعاً فياضاً. وكتب فــؤاد البستاني حول قصيدة الفردوس لأفــرام فقال في مجلة المشرق من لنا بصوفي مصطفى وشاعر إلهي سوى مار أفرام ينقلنا على أجنحة الشعر ورؤى النبوة بأناشيــده إلى مرابع الفردوســ ليرينا قبل (دانتي) بألف سنة، وقبل الشاعر الإنجليزي (ملتون) بـ١٥٠٠ سنة مالا عين رأت ويسمعنا ما لا أذن سمعت.

نماذج من قصائد أفرام
من أناشيد الميلاد

- مقتطف:

«كيف أدعوك أيها الغريب عنا والذي صار منا.
هل أدعوك ابناً،
هل أدعوك أخاً،
هل أدعوك خطيباً،
هل أدعوك رباً؟
أنتَ يا من ولد أمه ولادة ثانية من الماء.
أنا أم لأنني حبلتُ بك.
أنا خطيبة من أجل قدسك.

وأنا أم وابنة يا ابن العلي الذي أتى وحلّ فيَّ وصرتُ أمه.
وكما ولدته مولوداً آخر ولدني هو أيضاً ولادة ثانية.
هو ارتدى جسدَ أُمه وهي ارتدتْ جسده.

أُمك يا ربنا لا يعرف أحدُ كيف يدعوها.
أيدعوها بتولاً؟
ها أن ابنها حاضر.
أيدعوها متزوجة؟
لم يعرفها رجل.
وإذا كنا لا ندرك أسرار أُمك فكيف ندركك أنتْ؟»

❁ ❁ ❁

- أنموذج آخر
«لقد أعطتنا مريم خبز الهناء بدلاً من خبز الشقاء الذي أعطته حواء.
أكل حمل الحق حمل الفصح، فسارع الرمز ودخل بطن الحق.
في خبزك تخبأ الروح الذي لايؤكل.
في خمرك يسكن النار الذي لا يُشرب.
الروح في خبزك والنار في خمرك
أعجوبة مذهلة قبلتهما شفاهنا.
في خوف ومحبة لنقترب من دواء الحياة كأناس فهموا أن قلبنا اهتز بموته، وأنفسنا تشتهي سره.

❁ ❁ ❁

إن البتول دعتني كي أرنّم سر بتوليتها العجيب.
فأعطني يا ابن الله منك عجيبة بها أغني على كنارتي وأرسم صورة بهية لأمك.
البتول مريم ولدت ابنها بالقداسة، وأرضعت حليبها مُرضع البرايا.
وحملت ركبتاها حامل الكون. وهي بتول وهي أم.

❁ ❁ ❁

عن كتاب أفرام والكنيسة السريانية.
المطران يوسف المنير.
- ابتهال.
اللهم اخلق فيَّ قلباً نقياً عفيفاً طاهراً بسيطاً لايفكر بالشر ولاتأوي إليه الشهوات.
قلباً نقياً لايعرف الضغينة ولايغتاب قريبه.
قلباً نقياً يملأه الحب دائماً، وفي كل حين يبغي الآمان والسلام لكل إنسان.
قلباً نقياً يحب الصوم والسهر وإذلال الجسد والعمل والتعب دائماً.
قلباً نقياً يحب التواضع ويلزم السكينة والبشاشة مع الجميع.
قلباً نقياً يحب الصدقات ويوزعها ويشفق على ذوي الحاجة ويرأف ببني جلدته؟
يامحب البشر ضع فيَّ مثل هذا القلب، واغرس فيه مهابتك كالغرس النامي.

❁ ❁ ❁

- في الفردوس (مقاطع)
بعين الفكر شاهدت الفردوس وإذا بقمم الجبال جميعها لا تطال علوه الشاهق.

إنه يتلألأ بنوره الوّهاج ويجذب المرتقين إليه ببهاء جماله. تعبق جوانبه بالروائح الطيبة.

وغيومه المجيدة تظلل الذين يستحقون الدخول إليه. يمتطي الأبرار سحباً ويطيرون في الجو صاعدين إلى الفردوس ليرثوه كلٌ حسب جهاده. قاعه للتائبين. وسطه للأبرار. وقمته للكاملين. والعرش لرئيسه.

❁ ❁ ❁

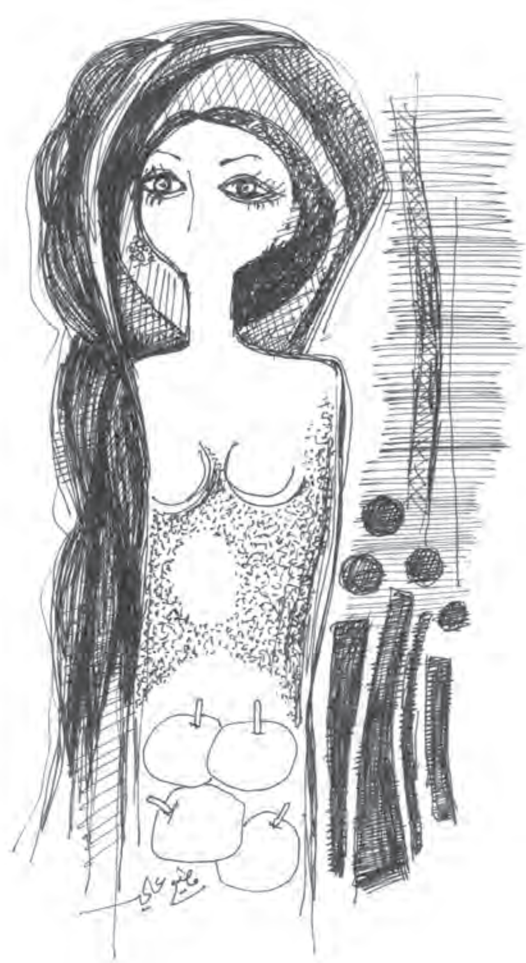
- مختارات:

اللهم امنح علماً من يحب العلم، واجعل الأستاذ الذي يحسن التعليم عظيماً في ملكوتك.

إن الذي يحب العلم يكون دائم النشاط، ومن يحب الكسل لا يستطيع النجاح.

فاقتن لنفسك أيها الإنسان الاجتهاد فإنه كنز العلم العظيم، وتجنب الكسل لأنه حافل بالخسائر.

اقتن الذهب بمقدار أما العلم فاكتسبه بلا حد لأن الذهب يكثر الآفات وأما العلم فيورث الراحة والنعيم. إن الحكمة أفضل من الزينة، والعلم خير الأمور وأن شاباً حكيماً خير من ملك شيخ جاهل. لتكن لك الكتب بمنزلة



موائدك فتشبع لذة. ولتكن بمثابة فراشك فترقد في راحة.

❁ ❁ ❁

الحسد سهم نافذ يقضي على راميه.

إذا دس الحارث الزوّان بالزرع حصد منه شوكاً.

من يمتلك ذهباً خالصاً لا يخشى امتحانه بالنار.

لايفارق المرجانة جمالها أينما كانت.

إذا شاء رب البرايا قام الولد الواحد مقام الكثيرين.

❁ ❁ ❁

النماذج عن كتاب سيرة مار أفرام السرياني. مار اغناطيوس زكا عيواص الأول.

وذلك نقلاً عن المجلة البطريركية السريانية ١٩٣٧. إضافة إلى ترجمة أسقف بولس السمعاني.. لبنان ١٩٤١.

❁ ❁ ❁

مقاطع من قصيدة (مدراش) لأفرام السوري في شهر قيامة المسيح نيسان/ إبريل تبين مدى التشابه مع قصائد رأس السنة السومري البابلي (اكيتو) الذي كانوا يحتفلون به في نيسان أيضاً من كل سنة.

«جد علينا أيها الرب المبارك بقليل من فيضك.

في هذا الشهر الذي أغنت هباته جميع البرايا.

لقد انبسطت آلاؤك عليهم قاطبة.

فازدانت الجبال بأعشابها، والحقول بزروعها.

وزخر البحر بأصدافه، والبر بحيوانه.

وازدانت السماء بنيريها، والبسيطة بزهورها.

فنيسان زينة الأرض. وعيده جمال البيعة المقدسة.

هذا هو شهر نيسان الذي يمنح الشبع.

ينتهي بالصائمين إلى حيث الأشياء الثمينة.

ويلقي نير الصيام عن رقاب المجاهدين الساهرين.

ويقود الناس والحيوان إلى القوت.

(..)

إن نيسان يحيك للأرض لباساً موشى بشتى الألوان.

فتظهر الخليقة متشحة بحلة من الزهور،

وطيلسان من الورد.

إن الأرض (أم آدم) ترفل في نيسان وعليها ثوب لم تنسجه الأيدي.

وهي تبتهج لأن مولاها قد هبط إليها فيه.

وفيهُ رفع ابنها.

فالأرض في حفلين حفل سيدها وحفل ابنها.

(..) هنيئاً لك نيسان فقد شهدت حمل الرب وموته وقيامته.

(..) في نيسان تنشد أناشيد الحمد للحي الذي نزل وحل بين الأموات.

(..) اللهم فليأتنا نيسان بزهره يارب السلام،

وأيار بزنبقه

وحزيران بحزمه وتموز بحنطته وآب وأيلول بالعناقيد في سلالها

وتشرين وتشرين الثاني بالمعاصر وكانون وكانون الثاني بالراحة

وشباط وآذار بالصوم.

(..) هذا مطلع العام في ترتيب الشهور.

نيسان رأس شهور السنة ورأس أعيادها.[(٣)]

❁ ❁ ❁

في قصائد الزواج المقدس السومري وفي قصائد البعل وعنات الكنعانية (أوغاريت) يقرأ المرء أناشيد تشبه قصيدة أفرام إلى حد بعيد خاصة فيما يتعلق بموت البعل ونزوله بين الأموات ثم قيامته من الموت في نيسان وتجدد دورة الطبيعة بعودته إلى الحياة. وهناك مقطع يدل على قيامة البعل من الموت وعودة الخصوبة إلى الأرض ويقول النص الكنعاني «إن السموات تمطر سمناً والسواقي تسيل عسلاً».

من خلال المختارات الشعرية السابقة نرى أن الشعر كان يتدفق من قلب أفرام بسهولة وسلاسة دونما تكلف أو صنعة معقدة باستثناء ما هو لازم لصنع القصيدة لتكون منغمة صالحة للترتيل، ولكي تكون، على الرغم مما انطوت عليه من دلالات عميقة وصوفية، سهلة في انسيابها سهلة على الحفظ وينشدها الجميع. لذلك لانستغرب ما قاله تيودوريطس «الأسلوب الذي استعمله أفرام في الطقوس زادها ازدهاراً ورونقاً وبهاء». وكتب عنه يعقوب السروجي قائلاً إنه حصر في عبارات قليلة الكثير من المعاني الكبيرة.[٤] والحقيقة أن أفرام خلف تراثاً أدبياً موسيقياً وصل في بعضه إلى قمم صوفية وروحانية عالية وإلى حبّ إنساني-إلهي عز نظيره على الرغم من أن أكثر ما كتبه ووضع موسيقاه كان حول تعاليم الكنيسة وأسرار الإيمان وطقوس البيعة. وزد إلى ذلك حربه المستمرة على من كانوا أصحاب بدع أو هراطقة بالنسبة إلى تعاليم الكنسية الرسمية أمثال الشاعر والموسيقي والفيلسوف السوري الكبير (بارديصان) والغنوصي السوري الكبير (مارقيان) الذي دعا إلى تخليص العقيدة المسيحية من الآثار اليهودية رافضاً الكتب التوراتية. ولقد اقتبس أفرام عن بارديصان الكثير من ألحانه وأشعاره بعد أن غير معاني كلماتها لتوافق العقيدة الرسمية.

غير أن هذا لا يمنع كون أفرام واحداً من عظماء الشعراء والموسيقيين السوريين في القرن الرابع الميلادي حيث أن شعره وكتاباته حافلة بالرموز والصور التي تتنقل بين المحسوس والمجرد وبين الواقع والاستعارة التاريخية. هناك أيضاً صور جريئة وأسلوب سلس وخيال مذهل في بعض الأحيان. ولقد لاحظ البحاثة باهتمام التشابه الكبير بين أسلوب أفرام وبين الشعر السومري القديم (أسلوب الحوار) وقد تُرجم أكثر شعره وأناشيده من السريانية إلى اليونانية منذ عهد بعيد فأضحت جزء من اللتيورجية الكنسية الشرقية والغربية خاصة بعد أن نقلها القديس السوري الكبير والعلامة الشهير

يوحنا الذهبي الفم إلى مدينة القسطنطينية ثـم منها إلى روما. لعـلَّ يعقوب السروجي، وهو بدوره واحـد من شعراء سورية الكبار، لم يبالـغ حين قال عن أفـرام إنه تاج الأمة السريانية وبتسمية أصح، السورية. أما أفرام الموسيقي فهو على نمط أفرام الشاعر ولقد كتب العديـد من الأناشيد والتراتيل (ميامر ومداريشـن) أو أناشيـد وعـبَر. ناهض في أكثرها قصائد وألحان بارديصان كما سبق حتى إنه استعمل الوزن الشعري نفسه الذي نظم عليه بارديصان وكان همه الأكبر دائماً محاربة ما سماه ضلال بارديصان الغنوصي ومـد الكنيسة بالموسيقـى الترتيلة حتى إنه ألـف جوقة مـن الفتيات علمهـن أناشيده فصرن من المرتلات البارعـات اللواتي كن يرافقـن الطقس الكنسـي بالإنشاد. وكان، كما يروى عنـه، يقول لهن إن العذراء مريم أختكن قد فتحـت أفواهكن بعد أن سدتها جدتكن حواء وأطلقت مريم لكن الحرية في أن تنشدن وتسبحن الله.(٥)

فيمـا يخـص الموسيقـى السريانية أو السورية المسيحية يقول مؤلف اللؤلؤ المنثور أن أئمـة الديـن (المسيحي) رضـوا إدخال الألحـان إلى بيعة الله (القداس) لأسباب أولهـا مناهضة ألحان الوثنيين (سكان بلاد الشام والرافدين غير المسيحيين) وأصحاب البدع والهرطقـة الذين قاومهـم الشعراء المسيحيـون السوريـون وعارضوهم بأشعار جزلـة دينيـة أدبيـة قضت علـى الأشعار والألحان الفاسـدة. (قصائد أفرام من ٤٣ إلى ٥١ ومـن ٧١ إلى ٧٧ تشتمل على جدل ضـد بارديصان وارقيـون الغنوصي والنبي البابلي ماني».

كلام مؤلـف اللؤلؤ المنثـور يبين لنا إلى أي حـد حفظت تلك الأشعار والألحان التي صيغت علـى نمط الشعر الوثني والموسيقى الوثنية أشعار وموسيقـى أسلافنا القدماء من سومريـين وبابليين وحثيـين وكنعانيين وآراميين. وطقوس أسبوع الآلام (آلام المسيح) يشبه دراما مسرحية موسيقية شعرية حافلة بالطقوس. وتبدو إلى حد بعيد مستعارة من الطقوس الوثنيـة الكنعانية والرافدية التي كانت ترافق مراحل موت البعل أو دموزي أو أدونيس وقيامتـه أو بعثه من الموت ومآثره. يقول طـه باقر حول هذا الموضوع إن أوزان الشعر البابلي (وقبلـه السومري) وأساليب تأليفه ونظمه قد أثرت كثيراً في أشعار الأمم القديمة التـي كان اتصالها مباشرة أو غير مباشرة بحضارة الرافدين القديمة.(٦)

ولقد اتخـذ السريان كما فعـل اليونان ثمانيـة ألحان سموهـا (أكاديا) فيها الحار والبارد والرطب واليابس وفيها أيضاً اللحن

المطرب والمحزن والمنبه والمنشط. ونقلاً عن يعقــوب الماردينى فالألحان الأول والخامس همــا للأفــراح والثالث والسابــع للأحزان والرابــع والثامن للجهــاد الروحي والثاني والسادســ للتذلــل والتواضــع. كل ألحان السريان جُمعــت في كتاب كبير يدعى (بيث كاز) أي مخزن الألحان أو دار الموسيقى. وهو يحتوي على كل الصلوات والقالات السهرية التي يعود أكثرها لأفرام وجزء منها للشاعر شمعــون الفخاري وغــيره. ويحتوي الكتاب أيضاً على ما تبقى من الأناشيد أو المداريش الأفراميــة. وهناك أيضــاً التخشيفات أيّ الابتهالات والتي تنســب إلى رابولا مطران الرهــا والمعبرانات (الموسيقــى الجنائزية) وأنواع أخرى منوعة كلها دينية الطابع.(٧)

إن احتفاظ الكنيسة السريانية بالألحان والأناشيد القديمة أمر عــالي الأهمية لأن الكثير من هــذه القصائد المغناة هي تراتيل طقسيــة دينية وأغاني حــب عاطفية كانت معروفــة في كل أرجــاء المشــرق قبل ظهور المسيحية بزمن بعيــد. وهو أمر لفت انتباه أحــد العاملين في هذا المجال نوري اسكندر فكتــب يقــول إن الوجــه الآخــر للألحان الكنسية السريانية هو الألحان المعروفة من قدود وموشحات. ولما درس وقارن الموسيقى الإسلامية والريفية والشعبية وجد أن كثيراً من الألحان المشتركة بين التراتيل السريانية والألحــان الشعبيــة من قــدود وموشحات (ينبغــي أن نضيف أغــاني الميجانا والعتابا والروزانــا) كلهــا تنتمي إلى جــذور سورية قديمة(٨) ولما عكف البحاثة المختصون على دراسة المقامات الموسيقية المعروفة في الشرق وجدوا أن أسماءها القديمة (الآرامية) أدل علــى طبيعة كل مقام مــن الأسماء الشائعة اليوم. وعلى هذا النحو فــإن مقام البياتي لا يدل اسمه على مادته أو على الأحاسيس التي ينبغي أن يتركها في النفس حيث أن اسم بياتي ليس له دلالة معينة وينجلي الغموض إذا علمنــا أن الاسم مشتق مــن اسم المقام الأول في الموسيقــى السوريــة القديمة وهو (بيا) ويدل الاسم السرياني على معنى عزى وفرج الهم وادخل السلوى إلى النفس فيصير له معنى. وكذلــك المقام الثاني الذي يُدعى الحسيني، والاسم لامعنى له في هذه الحال، ويتضح معنــاه موسيقياً عندمــا نعرف أنه محرّف عن اسمه القديم (حوسنا- حوسونو) والكلمة تعني بالسريانية العطف والإحسان. لذلك يُستعمل هذا المقام في التضرع وطلب الرحمــة. المقام الثالــث (العراق) تصحيف عن اسم العــراق القــديم (اوروك). المقام الرابــع الرست لا معنى لــه في اسمه هذا. ولكنه يكتسب معناه في اسمه القديم الآرامي

والــذي يعني ثبّــت ومكّن الأســاس. المقام الخامس (الأوج) ليس معناه العلو والارتفاع بل الزهور والنباتات العطرة. المقام السادس (عجــم) معناه الغريب أو الأعجمي فهو في هذه الحال لا يدل على شيء. أما بالآرامية فهــو يعني الرجوع أو النزول. وهو موسيقياً يبتدئ من مركزه الأعلى ثم يهبط موسيقياً وبالتدريــج. إلى قراره. وهــذا الأمر يوضح معنى اسمــه القديم. المقام السابع (الصبا) فهو بالعربية النسيم ولا معنى له موسيقياً. أما الاســم بالآرامية فهو الفــرح والصفاء والانشراح. المقــام الثامــن (الحجاز) يدل جغرافياً اليوم على الحجاز. أما أصل الكلمة في الآرامية فهو (حجو) أي اسم مكان الحج الديني وأضيفت الزاي في وقت متأخر وصار بعد الإسلام حجــاز. وقد اقتبسه المسلمون عن السوريين القدماء وجعلوا تلاوة القرآن قائمة عليه في كثير من الأحيان.

تحدثنا عــن أفرام الشاعــر والموسيقي ويبقــى أن نقــول كلمة في أفــرام الناسك. لقــد احتــذى في نسكه بقــول المسيح «**من كان عطشانــاً فليقبــل إليّ ويشرب. ومن آمن بــي تجري مــن بطنه أنهار من مــاء الحياة**» إنجيــل يوحنا ٧/٣٧. وهذا مــا فعله أفرام الناسك في تجربته النسكيــة. فهذا الرجل الذي ولــد في نصبين قــرب القامشلي في سورية في مطلع القرن الرابع. وكانت حياته موزعــة بين الجانــب الروحــي. أيّ التأمل والصلاة والانقطاع عن ملذات الحياة، وبين الجانب العملي التعليمي من مدرسة الرها/ اليــوم تسمى أورفا/ حيث ازدهرت المدرسة على أيام أفــرام وقصده العديد من الطلبة ليلتقوا العلــم اللاهوتي على يديه. ويحكى أنه كان، وبعد انتهاء الدروس، يختلي بنفسه في صومعته ويعكف علــى الصلاة والكتابة والتأمــل. وظل كذلك حتى وفاته سنة ٣٧٣. وســوف نختتم الحديــث عن أفــرام بهذه القصيدة التي، في رأينا الشخصي، تلخص كل جماليات شعر أفرام وتجربته النسكية- الصوفية.

«كــم من مرة جعتُ وكان جسدي بحاجة إلى الطعام ولكنني عزفــتُ عن تناوله لكي أستحق الطوبى التي سينالها الصائمون.

لقــد عطش جسدي الذي جُبل من طين الأرضــ ورغــب في الماء ليرتــوي. فأهمتله لكي يستحق أن يمضي ويتلذذ بندى فردوس النعيم.

وإذا كان الجسد يراودني في شبابي، فإني كنتُ أروضه يوماً بعد يوم حتى النهاية.

أقمتُ نفســي للمسيح وبهــا قدمتُ له أتعاب أعضاء جسمي بخوراً وعطوراً.

اعتــبرتُ العطش وكأنه لم يكــن إذ رأيتُ سيدي بسبب خطيئتي يشرب الخل.

لم أعر الأطعمة أهميــة ونبذتُ الخمور

إذ وضعتُ نصب عيني وليمة ملكوتك أيها السماوي.

رومانوس الحمصي

بين الأشخاص الذين قاموا بدور عظيم الشأن في مجال الموسيقى والأناشيد الشعرية الكنسية بعد بارديصان (القرن الثاني) مار أفرام السوري (القرن الرابع) هناك شخصية ندر الحديث عنها هي شخصية الشاعر والمؤلف الموسيقي والمرتل المعروف باسم (رومانوس الحمصي) نسبة إلى مسقط رأسه مدينة حمص في سورية. والذي عرف في التاريخ باسم رومانوس المرنم أو المرتل. وهو يُعتبر من أباء الكنيسة. أيّ المؤسسين الأوائل للعقيدة الكنسية المسيحية. كما يعتبر من كبار اللاهوتيين والشعراء والمنشدين الذين تحدثوا عن اللاهوت. ومن سوء الحظ أن المعلومات المتوافرة عنه تاريخياً شبه نادرة. جلَّ ما نعرفه عنه أنه ولد في مدينة حمص في منتهى القرن الخامس. تعلم ودرس الثقافة اليونانية والسريانية في مسقط رأسه ثم انتقل إلى بيروت حيث تابع الدراسة ووصل إلى مرحلة عليا فيها. وكانت له عظات دينية شهيرة. حوالي العام ٥١٨ ترك رومانوس بيروت إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية حيث أقام في دير قريب من إحدى الكنائس التي كانت تُسمى كنيسة أم الله أو، وباليونانية Theotokos. وفي هذه الكنيسة تمَّ الحدث الكبير في حياته حيث ظهرت له العذراء مريم في العلم وأعطته ورقة ملفوفة (وفي رواية أخرى طير) وطلبت منه أن يأكلها. فلما فعل شعر بحلاوة فائقة في فمه. ولما استيقظ في صباح اليوم التالي راح ينشد بصوت حلو أناشيد موسيقية وشعرية على نحو أخاذ مترنماً بهذه الكلمات (اليوم وضعت العذراء المتسامي). ومن ثم فقد تحولت عظاته في المصلين في الكنيسة إلى قصائد موقعة وموزونة ومغناة وبقى على ذلك حتى وفاته سنة ٥٥٥ أو سنة ٥٣٠ حسب مصادر أخرى بعد أن ترك أكثر من ألف نشيد لم يبق منها إلى اليوم سوى مئة. وعلى هذا النحو يُعتبر رومانوس ابن حمص اليوم واحداً من كبار مؤلفي الأناشيد الليتورجية الكنسية وهو في ذلك يماثل بارديصان وأفرام السوري.

وكان رومانوس، كما كان بارديصان وأفرام من قبله، يستعمل في عظاته الشعرية المغناة أسلوب الحوار. ومن الملفت للانتباه أن أسلوب الحوار في القصائد كان معروفاً منذ أيام السومريين في الألف الثالث قبل الميلاد. ويطلق على أناشيد رومانوس باليونانية اسم كونتاكيا. Kontakia أو (قنداق) أي الوتد الخشبي الصغير الذي تلف عليه ورقة مدون عليها نص مقدس ما أو سفر من الأسفار. وتعتبر أناشيد رومانوس

مــن الأســس الأساسية التــي قامت عليها الموسيقــى الكنسيــة في الشــرق ومن ثم في الغرب.

مــن الأمــور الملفتــة للانتبــاه أن رومانوس، وتماماً كما فعل أسلافه القدماء من سومريين وبابليين وكنعانيين فإن الأحرف الأولى من كل مقطع من قصائده يجتمع منها اسم المؤلف أو الشاعر. وكل نشيد من أناشيد رومانوس يتألــف من مقاطع يتراوح عددها مــن ١٨ إلى ٢٤ مقطعــاً علــى وزن شعري واحــد. وكل مقطع ينتهــي بلازمة لا تتغير تتكــرر باستمرار وحتــى ينتهي النشيد مما يذكرنا بقوة بأغاني وأناشيد الميجانا والعتابا والروزنا القديمة، والتي هي تراث موسيقي شعــري غنائي مشترك بــين كل أقاليم بلاد الشــام والرافدين والتــي بُنيت على النمط نفسه والتي كانــت في أكثرها أناشيد دينية قديمة تحولت مع الزمن وتبدلت كلماتها مع الزمن وأضحت أغــاني حب دنيوية لا تزال شائعة إلى يومنا هذا.

وإلى القارئ أنموذجاً من أناشيد رومانوس التــي بقيــت وهو يحمــل عنــوان الجمعة العظيمة ويأتي على شــكل حوار فاجع بين مريم العذراء وابنها يسوع على الطريق نحو الصلب «مريم: إلى أين تمضي يا ولدي لماذا تمضي إلى الموت على عجل؟ ويلي عليك يا ولدي ما كنت لأصدق أنني سأراك على حال كهذه(...)

يســوع: لم تبكي يا أمي. ألا يلزم أن أتألم، ألا يلزم أن أموت حتى أخلص البشر؟

دعي عنــك الآلام يا أمــي ولا تتنهدي. أنت التي نلت اسم الممتلئة نعمة».

لقد انتشرت أناشيد رومانوس بين عامة الشعــب على أيامــه لأنه لم يلجــأ إلى اللغة اليونانيــة الرسمية الفصحــى وإنما عمد إلى استخــدام لغة يونانية بسيطة قريبة من أفهام العامة لذلك جاءت مفردات وتراكيب أناشيده بسيطة كقوله عــن يسوع إنه النور الذي يحارب الظــلام. أو «أنا أحترق شوقاً لكي أحملك كمصباح بين يديّ. فمن يحمل مصباحــاً بين البشر يستنير دون أن يحترق. أنرني إذن أنت المصباح الذي لا ينطفئ».

لقد جاء كلامــه بسيطاً وواضحاً منغماً تماماً كما طلب في إحدى صلواته

«اجعل كلامي واضحاً يا مخلصي وافتح فمي».

أو كمــا جــاء في قنــداق العنصرة حول أعمال الرسل الذين «بنعمة إلهية اصطادوا (هــدوا) العــالم بأســره. استعملــوا الكلمة (المسيح) كــيراع وجعلوا الكلمــة شباكاً بها اصطــادوا العالم. كأن الكلمــة لهم مصيدة وصار جسد سيد الكون طعماً لهم».

ولمــا أن العذراء مــريم كانت قد منحته

في الحلم موهبة الشعر والموسيقى فقد كرس لها أجمل أناشيده وأطلق عليها اسم حواء الجديدة. ينبغي أن نضيف إن ألحان رومانوس تركت أثرها الكبير في الموسيقى الكنسية الغريغورية التي نقلها البابا غريغوار من بيزنطة إلى روما فشاعت ودامت إلى اليوم.

يوحنا الدمشقي

لا يمكن البحث في الموسيقى والشعر في القرون الأولى للمسيحية دون التعرض ولو بسرعة لما قام به في هذا المجال سرجون بن منصور. الشاعر والموسيقى واللاهوتي السوري الذي عُرف في التاريخ باسم (يوحنا الدمشقي). وهو واحد من كبار الذين أسسوا الموسيقى الكنسية وأضافوا عليها. ولد في دمشق سنة ٦٧٦ وتوفي سنة ٧٤٩ وكان لفترة من عمره وزيراً في العهد الأموي ثم ترك السياسة وتنسك في دير مار سابا وكان في الثلاثين من عمره آنذاك ولما كان أستاذه في اللاهوت يدعى يوحنا فقد اتخذ اسمه تيمناً به. كان الدمشقي يتكلم السريانية لغة سورية آنذاك وأتقن اليونانية والعربية في آن واحد.

كثيرون كتبوا عنه وذكروا دفاعه عن تكريم الأيقونات. وكثيرون أشاروا إلى أناشيده المنغمة التي كتبها مع أخيه بالتبني قزما الذي تنسك معه، والتي كانت تُدعى بالقوانين. قال ابن العبري ما مفاده إنه في زمن يعقوب الرهاوي وجرجس العربي ابتدأت هذه الأناشيد التي دُعيت القوانين اليونانية. وهي من وضع رجل عالم من دمشق يدعى الخوري منصور (يوحنا الدمشقي) وراهب عندهم يدعى قزما. إنه مبتدع القوانين أو نمطاً منها ألطف من الأول.. ولقد أخذت قوانين يوحنا الموسيقية تدخل كنائسنا في الشرق والغرب. والمعروف أن يوحنا الدمشقي كتب ولحن أناشيده بالوزن اليوناني (إيانبي) وهي أناشيد على نمط القوانين الموسيقية دخلت إلى الطقس الكنسي وصارت جزءاً منه. والنشيد القانوني يكتبه ويلحنه الشخص نفسه ويقال له باليونانية Hymnographes. ويعتبر الدمشقي من المبدعين في تاريخ الموسيقى الليتورجية الكنسية وأطلق عليه لقب مجرى الذهب.[٩]

الهوامش:

١- في كتاب معرفة الفصاحة يذكر أنطون التكريتي أن البحر الخامس في الشعر السرياني والمؤلف من أوزان سداسية وسباعية تزيد أحياناً وتنقص هو لرجل يقال له (وفا) من فلاسفة وشعراء الآراميين القدماء.

٢- انظر بحثاً مفصلاً حول برديصان لفايز مقدسي في مجلة المعرفة، العدد٥١٧، ٢٠٠٦م.

٣- نص قصيدة أفرام عن كتاب /تاريخ الأدب السرياني. كامل مراد- محمد حمدي البكري.

٤- كتاب مار أفرام والكنيسة السريانية. يوسف المنير.

٥- لم يعتمد الشعر السرياني- السوري القديم القافية. وهي لم تدخل الشعر السرياني حتى القرن التاسع تأثراً بالشعر العربي.

٦- انظر قصائد بابلية قديمة، ف.مقدسي، المعرفة، عدد ٥٢٣، ٢٠٠٧.

٧- هناك تقارب ما بين أناشيد أفرام وبين كتاب المزامير التوراتي. وبعد المقارنة وجد المختصون أن أصل العديد من تلك المزامير هو بابلي قديم. وقسم لا بأس به آرامي الصبغة. إضافة إلى بعض الأناشيد المصرية القديمة. والمؤكد اليوم أن المزامير التي تنسب التوراة أكثرها إلى داود (القرن الحادي عشر ق.م) قد تمَّ تدوينها حوالي القرن السادس ق.م لذلك لا يمكن أن تعود إلى داود. ويبدو اسمه وكأنه أقحم إقحاماً في مطلع أكثر المزامير. كما أن بعض الإشارات تدل على أنها كتبت في بابل بعد السبي. حيث أن المزمور ١٣٧ يذكر الأنهار التي تسقي بابل. وتبين للمختصين أن المزامير التوراتية ليست صيغة شعرية- موسيقية مبتكرة حيث أنه تمَّ العثور على الكثير من النصوص المسمارية الرافدية والكنعانية القديمة مكتوبة في صيغة الأناشيد والمراثي والابتهالات. وكذلك الأمر فيما يخص نشيد الإنشاد فهو يعود في أصوله إلى المدونات السومرية، وإلى أغاني وأهازيج الأعراس الكنعانية القديمة. للتوسع انظر كتاب المزامير. Les Psaumes تأليف وترجمة (من العبرية القديمة إلى الفرنسية) F.Lalou & P.Calame.

٨- الموسيقى السريانية، المطران ي.إبراهيم ون.اسكندر.

٩- للاطلاع على الفكر اللاهوتي عند يوحنا الدمشقي انظر كتاب «المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي». تعريب ادريانوس شكور.



الحب في بعض القصص القصيرة في سورية

سلوم درغام سلوم ❋

كيف رصد كاتب القصة القصيرة مشاهد الغزل والحب بين العاشقين؟ وهل صوَّر حالة الفتاة العاشقة؟ وكيف كانت النهايات الغرامية؟ هذا ما سوف نرصده في عدة مجموعات قصصية.

في مجموعة (حين يأتي زمن الربيع)[1] قصصية للأديبة سوزان إبراهيم- وفي قصة (دقائق أنطقت صمتي) قصة وجدانية أشبه بالخاطرة الطويلة تتحدّث عن دور كلام الحبيب في كسر حاجز الصمت عبر دقائق اللقاء وهنا راحت تحاور ذاتها حول حب ذلك الشخص تقول ص١٧ : (كرقعة من المكعبات

❋ كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

حياتي.. يـا لتلك الدقائق كيف نمت مدناً؟ كيـف تحوّلت فندقاً أزهرت براعم الصمت وأورقت بساتين البوح؟).

أمّـا في قصة (حـين تنعـدم المساحة) ترصد الذات القلقـة وما يمرّ في خاطرها وتستنجد بالطبيعـة في استحضار التشبيه (شرفات الضوء، رائحة الفجر، الدماء بركة ألم متخثر، الظلام أفعى، اختلج مثل سمكة، الدمـع طيـور تتأهب للتحليـق، يحاصرني المـكان كقبر، رشف الذهـول كلماتي، رحت أقطف ندى حروفها..).

أمّـا قصـة (حـين يأتي زمـن الربيع) فترسم الكاتبة حلمـاً وهمياً جرى في بيتها مـع حبيبها ودائماً القصـص بضمير (أنا) المتكلم، وتبني السيناريو والإشارات كما دار الأمر في الذاكـرة من البيان الشعري قولها (الروزنامـة مشنوقة بمسمار مثبت، عربات المعاني، سراديب الذاكرة).

أمـا في المجموعـة القصصيـة «خارج الحلم»(٢) للكاتب رياض محناية تلك المجموعة ضمت سبـع قصص قصيرة، جاءت عناوين القصص كالتالي: المفكرة، الصورة الأخرى، البطاقة البيضـاء، بوابات الغربـة، اللقاء الأخير، خارج الحلم، عاشق عزة.

وطالمـا لا يمكـن أن تكـون ثمـة بنية قصصيـة إلا حيـث تكون ثمـة لغة محملة بالبيـان والبديع والرمز وهـذا له دور عند المتلقي بوصفه المصدر الأول للتفسير، واللغة لها أهمية في صياغة الأسلوب المنهجي وعبر التكثيف والتأكيـد على جوهر الفكرة بهذه الوسيلة التي يصـل القارئ من خلالها إلى فهم المادة القصصية ومن خلال اللغة أيضاً يعبر الكاتب والفرد عن أفكاره.

في القصـة الأولى «المفكرة» يتحدث عن امرأة أحبت بصدق شخصاً وهذا الشخص نسي عندها مفكرتـه، فراحت تتلمس هذه المفكرة وترسـم أحلاماً وردية تحاور ذاتها، تصف حالها بلغة شاعرية جاءت على لسان الفتـاة، نقتطف بعض الجمل، تقول: أقمت في جداول الدماء مهرجاناً للفرح /يستفيق الحلم فوق شفـاه حروفك/ تتوغل أصابعي بين خصلات كلماتـك حيناً وبين خصلات شعري حيناً آخـر/ تحترق مدائن جسدي/ الفنجان يرتعش/ الزمن يتجمد ركضت في سمائي سحب/ زغرد جرس الباب..

أشـارت هذه النبرة البيانيـة للمرأة إلى الجانب النفسـي والروحي وجسدت العشق الحقيقـي في صـوره السمعيـة والبصرية وكانت الدلالـة والعلاقة واضحة بين الدال والمدلول.

أما قصة «الصـورة الأخرى» فتتحدث عـن حالة امرأة انشق عنهـا الليل وصارت

وجهاً لوجه أمام عاشقها، وجرى تبادل أدوار العشق، كان العاشق يلتزم الجانب السكوني أحياناً وهي التـي تتحدث بلغة فيها رمزية لغوية عاليـة، قالـت: «كل الأخريات نساء وأنا المـرأة». وقالت: «يرعبني صمتك.. إنه يفضح أفكاري».

ونجد أن المونولوج الداخلي للعاشق، قد وصف الحالة الخارجية لهـذه المرأة وكأنه يريـد أن يقـدم لها قصيدة غـزل بقوله:- انبثقـت قامتها تملأ مساحة الحلم دهشة/ كأنها هبطت من شرفة الذاكرة/ غنى الشوق قصيدته/ غاص في عباءة الليل خرج كشعاع من ذهب/ انفرجـت أصابعها عن ابتسامة والتقت شفاه اليدين/ هدأ شلال الشوق..

وعندمـا يصف دخـول حبـات العقد الموجـودة في سلسـال عنقهـا بـين نهديها قـدم القاص لغة بلاغية مـن التورية قال: «تدحرجـت حبـات الفضـة والعقيق وكل الأحجار الكريمـة متسابقة لتختبئ في نهر مسحور بين حمامتين من عبير..»

لهذا خلق القاصـ وسيلة مادية صوتية وحـدث مشهدي عبر عن الحالة التي جرت أمامه وأسقـط الفعل على الأشياء، فحبات العقـد التي تتسابق - هـي العاشقة- ولعل هنـاك الاتحـاد والمقابلة لتوضيـح الذات والمكونات المغرية.

وفي القصة «اللقاء الأخير» يرصد الكاتب حالة الحبيبة التـي تتذكر اللقاء الأخير مع حبيبهـا، تتذكـر كلماته تستنجـد بصورته تحاور طيفه القـادم إليها في وحدتها، هذا الشريط الـذي تعيده في ذاكراتها «الخطف خلفاً» كما في الدراما، بدأ مع بداية تعرفها عليـه إلى اللقاء الأخير نسمع إلى مناجاتها: صباحاتك لا تغسل وجـه النهار إلا برائحة القهوة /تناديـه بأعلى صوتهـا لترى كيف يذوب الفرح في نهر عينيه/.

أما في مجموعـة «عسلها مّر»[٣] للقاصة أميـة الجاسـم العبيـد فقـد تحدّثت عن قضايا المرأة المختلفة في الحياة وفي القصص القصـيرة رصـدت الحب المقتـول وخيانة العاشقـة. وفي قصة «رداء المحبين» تتحدث عـن موقف غرامـي والتوريـة بكلمة رداء رداء التواصل تقول «أمسك رأسها بين يديه وصبّ أنفاسه في ثغرها المرتجف شوقاً إليه وقـال «حبيبتي أنا من لبسـ ذاك الرداء». وفي قصة «اللقاء» ترصد ظاهرة كثرة الكلام على الهاتف ويضيع.

وفي قصة «الدمية» تتحدّث عن ياسمين فهـي جامعية سافـرت إلى فرنسـا ونالت شهادتها، أحبت أحمـد الذي تركها وحنث بالوعـد بعد سفرهـا إلى فرنسـا وعدها بأنـه سيلحق بها، وبعد شهـر أبلغها أن أمه

رفضت أن يسافر قبل أن يتزوج من ابنة عمه فهي صغيرة وجميلة، وبهذا فضّل أحمد المرأة الجاهلة على حبيبته المتعلمة، اختار الفتاة الدمية على المرأة التي تنبض بالإحساس، فاطمة التي اختارها كانت محبوسة في البيت وأفكارها تقليدية.

وأما في قصة «الجماجم تبكي» فتتحدّث عن فتاة حبيسة البيت تعرفت على حبيب عبر الهاتف وتمَّ اللقاء أكثر من مرة، أمها مشغولة عنها في الخياطة للنساء الراقيات ووالدها مشغول بتجارته وصفقاته الدائمة الربح وبعد علاقة ثلاث سنوات يطلبها في منتصف الليل لتقرير مصير حبه بحجة أن أهله أجبروه على الزواج من فتاة أخرى، وفعلاً تذهب لإنقاذ حبها، وتسمع الحوار بين الحبيب وصديقه، وهما يشربان كأس الحبيبة الخاسرة، وترجع الحبيبة حاملة جنازة الحب المقتول بعد أن سمعت أصوات الفرح في دار حبيبها.

وفي مجموعة (نداء النصف الآخر)(٤) للقاصة توفيقة خضور تكشف خفايا النفس البشرية، وصدى الصوت الإنساني. لقد أعلنت من قصة (الحب تاج على رؤوس



الأصحاء) أنّ الحب الحقيقي لا يستطيع أي إنسان أن يكون مَلِكاً فيه، وترى أنه لا يُمنح إلا لمن يقدّره ويستحقه. قالت عن صاحب الحب المزيّف: (وها قد احترقت أمامي عُرياً، بان غثك من السمين، رجولتك المؤجلة هُزمت أمامي)ص٦.

وتؤكد الكاتبة مقولة: الحب أعمى في قصة (أعمى بن أعمى)، وما يراه الحبيب في عيون حبيبه، يختلف عمّا يراه الناس، تلك الفتاة التي تعتبر عيون حبيبها ساحرة، وفيها جاذبية، بينما صديقتها تقول عن عينيه: (عيناه عقيمتان، لا تشعلان ناراً، ولا تطفئان لهيباً ولا تنبتان زرعاً ولا أعنابا ولا

تعتصران خمــراً ولا شراباً، بليدتان باردتان زجاجيتان)ص١٧.

وقصة أخرى تبيّن معجزة الحب، وقدرته على تغيير طبع الإنسان، عندما دخل الحب عالمهــا تساءلت في قصة (أهذا أنا؟): (كيف انهــارت كلّ الســدود التي حجبــتُ خلفها نفسي كل هذه السنوات؟ هل صعقها بوميض عينيه فتصدّعت؟) وبعد أن قلب كيانها كانت النهاية كما تقول: (انهارت الجدران، وامّحت المسافات، وأينع اللحم والدم فينا)ص٢١.

في مجموعــة (القبلة الأخيرة)[٥] للقاصة حسنة محمود وفي قصــة (الحبيبة ورسالة القمــر) تعقــد القاصــة مناجــاة ورسائل بين الحبيبة وحبيبهــا والمراسل هو القمر، فالحبيب في الغربة وهي تنتظره على طرف الشرفة وحدها شاردة مضطربة ومن خلال ذلك تصل رسائل الحبيب وتتجسد الإنسانية في القمــر والقمر في الأجواء الريفية يحمل المعــاني ويلعــب الــدور الكبــير في الخيال والجمال والأنس.

وفي قصــة (الزهــرة البريــة) تتحدث الكاتبــة عــن الفتــاة الريفية الأبيــة التي رفضت أن تتزوّج ماجد باشا واختارت ذلك الفلاح النشيط المحب للأرض، وعلى الرغم مــن تدبير قتله على يد ماجد ورجاله بقيت تربي أولادهــا شامخة كالسنديــان، وقصة (أمــل) تتحدث عن خيبة الشاب الذي أحب فتــاة من قرية مجاورة لقريته وعندما صمم على طلب يدها بعد تفكير طويل وجدها قد تزوجت وأصبح عندها أولاد.

في مجموعــة (البحــث عــن الضياء)[٦] للكاتــب سامر أنــور الشمــالي قدّمت هذه المجموعــة بعض الصــور التي تتحدث عن حــال الصحفــي وصحيفته، وحــال كاتب القصة والمقالــة، وقد اختار الكاتب الموقف الطريــف الذي حمل الإدهاشــ والطرافة، وحمل النقد، وقد تضمّنت المجموعة /١٥/ قصة قصــيرة، ففي قصة (جرائد ورفوف) ترصــد ذلــك الصحفي الــذي أخبرته أمه أن فتــاة سألت عنه بشــأن الجرائد، وأنها ســوف تعــود، وراح الصحفــي يفكر، وقد ترك الطعــام، ولم يرتد منامته، وبقي بلباس الخــروج، لكي يبقى مستعــداً للقاء الفتاة، وهو يظن أنها معجبة بكتاباته، قال الكاتب سامر في وصفها بلسان الصحفي ص٤٨(ولا شك أنها حفظت اسمي لإعجابها بكتاباتي، فسألــت عن الكاتب، فدلوهــا على منزلي. طبعاً فتاة مثقفــة، وذكية، ومرهفة الحس، ورقيقة المشاعر، فــإذا أحبّت تحبّ أديباً). وأخذ الصحفي إجازة حتى إذا جاءت تجده، ويمرّ الوقت بطيئاً عليه، وتأتي أخيراً ويفتح لهــا الباب وتقــول ص ٥١(نحــن جيرانكم

الجـــدد رأيتك أكثر من مـــرة وبيدك جرائد فـــإذا لم يكن لديك مانع أريد بعض الجرائد التـــي لا تحتاجهـــا كي أضعهـــا على رفوف المطبخ).

وفي مجموعـــة (مطر وأحـــزان وفراش ملـــون)(٧) للقاصـــ حسن حميـــد وفي قصة «معهـــا في مساء ماطر» يرصد الكاتب حالة التشرد عند هذا الجيل، من خلال شخصية «خميســ الشايـــب» سارت به فتـــاة المدينة طوال الليل تحت المطر، وهو يرسم الأحلام لهذا الصيد الثمـــين، هو جائع ومتعب نزل من الريف إلى المدينـــة، ووجد خيبة الأمل، تصـــل به الفتاة إلى باب بيتها تودعه، وعليه أن يرجع إلى غرفته على السطوح، بعد مسير طويل، وتبددت أحلامه وتلخص هذا عبارة قالها في سره ص٥٨ «وهل ينقصني؟!»

الخاتمـــة: هكذا كان الحـــب في القصة القصيرة، جاء في حالة واقعية وحالة خيالية، منه ما كان صادقـــاً ومنه ما ابتعد أصحابه عن الصدق، ومنه مـــا كان ضياعاً ومنه ما كان استقراراً، كانت النهايات بعضها سعيدة وبعضها مؤلمة، وكانت لغة القصص تميل إلى الرومانسية والسهولة في النسج القصصي.

المراجع:

١- مجموعة (حين يأتي زمن الربيع) للأديبة سوزان إبراهيم- إصدار دار التوحيدي- حمص-٢٠٠٣م.
٢- مجموعة «خارج الحلم» للكاتب رياض محناية.
٣- مجموعة «عسلها مّر» للقاصة أمية الجاسم العبيد –دمشق- مركز الحمزاوي عام٢٠٠٠م.
٤- مجموعة (نداء النصف الآخر) للقاصة توفيقة خضور-دار النمير،دمشق عام٢٠٠٤م.
٥- مجموعة (القبلة الأخيرة) –للقاصة حسنة محمود حمص عن مكتب الشعار للطباعة عام ٢٠٠٤م.
٦- مجموعة (البحث عن الضياء)- للكاتب سامر أنور الشمالي- دار التوحيدي- حمص ٢٠٠١م.
٧- مجموعة (مطر وأحزان وفراش ملون)- للقاص حسن حميد- اتحاد الكتاب-دمشق١٩٩٢م.

أثر الحكايات العربية الشعبية على أدب القصّ الغربي

ميخائيل باري *

ترجمة: رافع شاهين **

كان للثقافة العربية الإسلامية توهج كبير، ساطع على أطراف العالم القديم. وكنتيجة للاحتكاك المباشر بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الأوروبية عن طريق الحروب، وإقامة الإمارات، نشأ نوع من التلاقح الضدي الذي استفاد منه الأوروبيون وبنوا عليه نهضتهم الحديثة، وهذا المقال المترجم يسعى لإبراز أثر الحكايات العربية الشعبية على أدب القص الغربي.

في العام ١٠٨٥ أنهى المغامرون النورمانديون (التابعون للكونت روبير جيسكار R. Giscard من منطقة Hauteville، وهو من صغار فرسان المنطقة النورماندية Cotentui، الذي أضحى مرتزقا في خدمة البابا)،

* المترجم (* *) أديب ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان عبد المعطي أبو زيد.

نزع صقلية من الولاية العربية. وهكذا أسس النورمانديـون Normands في الجزيرة وفي جنوب إيطاليـا إمارتهم الخاصة. وفي العـام نفسـه، أي ١٨٠٥ استـولى فرسـان الفونسـ السادس الكاستيلـي على الإمارة العربية في طليطلـة وقاموا بطرد المسلمين إلى الجنـوب مـن الجزيـرة الأيبرية، وفى نهايـة القرن الحادي عشـر وقعت مدينتان أساسيتـان للإسـلام، باليرمو وطليطلة بين أيدي رجال الشمال، بكامل سكانهما الذين أضحوا سجناء مع ثرواتهم التي كانت موقع طمع كما مكتباتهم العامرة. وفي عام ١٠٩٩ سقطـت القدس بدورها، فأقـام الفلامند Flamands الفرنسيـون والنورمانديـون إمارات على مقاسهـم في الأرض المقدسة. لكن على الصعيد الفكري، وفي اللحظة التي ظفـرت فيها الحضارة العربيـة الإسلامية بقـوة السلاح، ستمارسـ عقبها، كما فعلت اليونان سابقاً مع رومـا، تأثيراً عميقاً على مغلوبيها.

الصهر الحضاري

الصهـر الحضاري (بمعنـى فعل تأثير الحضارة العربية الإسلامية) سيكون مركزاً ومثمـراً أكثر في جنـوب أوروبة، مدعومين بالعديد من البارونات المهاجرين من الشمال ويحكمـون بـكل طمأنينة علـى مقاطعات واسعـة، مشبعة بالثقافـة الإسلامية -منه فلسطـين، التي هي مجرد شريـط ساحلي وجبهـة حربيـة مهـددة دائمـاً، بحيث لا تستطيع أن تخصب ثقافياً. فالغزو المزدوج لباليرمو ولطليطلة طبع -كما نعلم- التحول الرئيسي لتاريخ الفكـر الغربي الوسيط أو اللاتينـي. ففي القرن الحـادي عشر، كان التقديـر وبنظـر كل المشاطئـين (بالمعنى الواسـع) للفضـاء المتوسطـي، مسلمين أو مسيحيـين أو يهود، أن العلـم الوحيد كان علم الأقدمين، الموجود في المؤلفات المكتوبة باليونانية لأفلاطون، ولأرسطو ولبطليموس أو لغاليـان. الرجال العالمـين من الديانات الثلاث وعلى الرغم من نفورهم من بعض، توقفوا على بذل جهد فكـري مشابه، وهو مواءمـة علـوم الأقدمين مع وحـي الكتب المنزلة أي القرآن والتلمود والإنجيل. كتابات مختلفة، لكن الإرث الفلسفي والعلمي الذي يدعيـه الأطراف الثلاثة هـو نفسه. ولكن هنـا، كان الرهبان اللاتين بشمـال أوروبة هـم الأكثر حرمانـاً، فممنـوع عليهم ولوج بيزنطة، ولم يعودوا يعلمون كيفية فك الخط اليوناني وفهم النصوصـ الأساسية للعهود الهيلينيـة القديمة. فالترجمـات اللاتينية كانت نـادرة وتعود كلها إلى حـوالي القرن الرابع والخامس والسادس من عصرنا، وفي الوقت ذاته بـدأت تخبو معرفـة اليونانية في الغرب الرومـاني، والحال كذلك، ابتداء من العام ١٠٨٥، استطـاع الرهبان اللاتين وبظـل حماية الملـوك والرجـال المسلحين

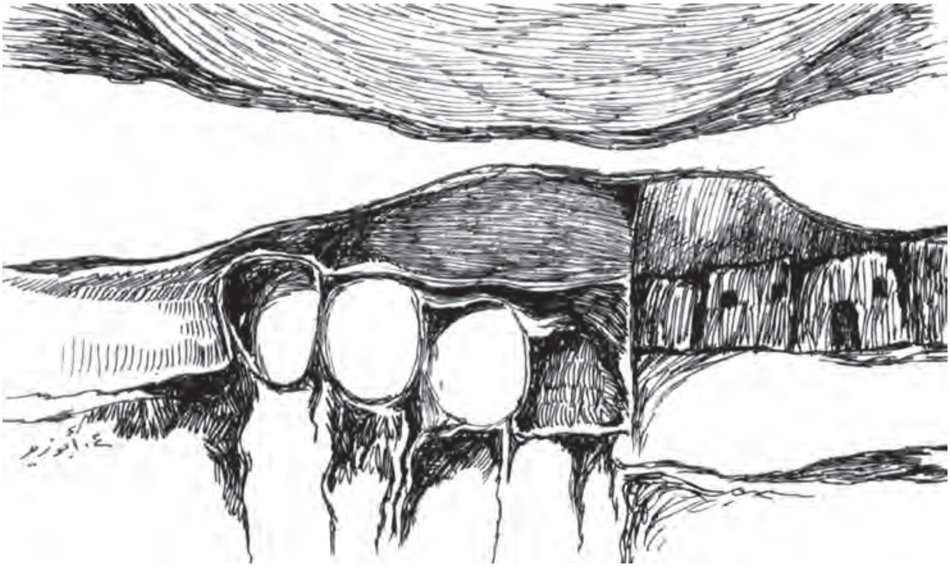
النورمانديين والكاستيليين، الدخول بحرية إلى العاصمتين المسلمتين المفتوحتين، حيث تحتوي المكتبات الفنية على النسخ العربية للنصوص الفلسفية والعلمية اليونانية، التي كانت تعتبر منذ قرون من جانب رجال الشمال. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فهناك المتبحرون بالعلوم من بين السكان المحليين -مسلمين، يهود وأحيانا مسيحيين «مستعربين» Mozarabes- الذين كانوا قادرين على قراءة (فك النصوص) وإعادة تشكيل المعنى باللغة الصقلية أو الكاستيلية حيث كان بإمكان الرهبان إعادة النقل مجدداً إلى اللغة اللاتينية العالمة بهذه الوسيلة المعروفة استطاع شمال أوروبة إعادة اكتشاف مؤلفات أرسطو التي ترجمت إلى اللاتينية لا انطلاقاً من اليونانية ولكن من العربية (حيث لم تفرض النصوص المباشرة من اليونانية نفسها إلا مع عصر النهضة).

الفكر اليوناني العربي

ونكاد لا نجد أحداً يعترض على واقعة انتشار ما اصطلح الأفذاذ من العلماء على تسميته الفكر «اليوناني العربي» في أوروبة بعد العام ١٠٨٥. ولكن الاحتكاك لم يقف حد الفلسفة فقط، فنحن كثيرا ما ننسى، بداية أن اللغة اليومية لمسلمي جنوب أوروبة لم تكن العربية الكلاسيكية -لغة البلاط والعلماء الأفذاذ- ولكن خليط من الباتوا (لهجة إقليمية محلية) الروماني وفي أسبانيا، كانت اللغة الكاستيلانية الدارجة للمسلمين تدعى Aljamiado- وقد وجدت نصوص منقولة بالحرف العربي وتعود إلى القرن السادس عشر- هذا بينما حافظ اليهود ذوو الأصول الأيبرية وحتى اليوم على لغة كاستيلانية معبرنة اسمها le ladino. إذاً، لم يكن هناك عائق لغوي للاتصال (والتواصل). فالرعايا المسيحيون واليهود والمسلمون الخاضعون للملوك في باليرمو وطليطلة لم يكونوا على وفاق إطلاقاً. في الليل يعتزل كل منهم الحيّ المنفصل الخاص به، ولكن في النهار يستطيعون الكلام فيما بينهم سواء في بلاط الأمير أو في الأسواق.

ظل القرن الثاني عشر في طليطلة وباليرمو، فترة تسامح استثنائية من جانب الحكام المسيحيين، ولا ينطبق الأمر على القرون اللاحقة، حين بدأ الترحيل أو التنصير بالقوة يقضي على المجموعات المسلمة واليهودية في أسبانيا وصقلية. لكن بين الأعوام ١١٢٦م و ١١٥٢م، وضع رئيس الأساقفة في طليطلة ريموند تحت حمايته مدرسة الترجمة التي كانت تعمل على النقل من العربية والعبرية إلى اللاتينية. منذ لحظة الاستيلاء على طليطلة انتحل ملوك كاستيلا لأنفسهم لقب «عاهل الأديان الثلاثة».

أما عملية المثاقفة فإنها تبدو شديدة أكثر لدى حكام صقلية النورمانديين، صقلية



التي هي على ملتقى الحضارات المتوسطية. وإمارة باليرمو كانت الوحيدة في أوروبة وفي العالم التي جعلت رسمياً الاستخدام المتوازي للغات العالمية الثلاث: اللاتينية والعربية واليونانية البيزنطية. والإشعاع الفكري لمدرستي باليرمو وطليطلة في القرن الثاني عشر كان من الشدة بحيث جذب باكرا الرهبان من كل شمال أوروبة وحتى العلماء الأفذاذ القادمين من الإمبراطورية الأنكلو - رومانية لم يكونوا أقل عدداً. ففي باليرمو كان هناك أديلارد دوباث Adelard debath في بداية القرن الثاني عشر وميشال سكوت Michel Scot في بداية القرن الثالث عشر.. فكل العلوم كان يعتبر مصدرها باليرمو أو طليطلة. فالسحر في القرن الثاني عشر كان يسمى «الفن الطليطلي» Ars Toletana. ولكن رهبان الشمال لم يكتفوا بنقل الكتابات الفلسفية الجافة أو الطبية فقط، ولكنهم نقلوا أيضا اعتقادات وخرافات الجنوب.

نقل العلوم والتراث الشعبي العربي

هناك أمثلة ووقائع موثقة على نقل تلك الشعوب لعلوم العرب وفنونهم وتراثهم الشعبي (الفولكلور)، فقد قدم الراهب الإنكليزي روبرت كاتون R. de Ketton أو روبرت دو شاستر المعروف باسمه اللاتيني Roberrtus Anglicus إلى أسبانيا عام١١٣٦ لتعلم اللغة العربية لكي يتمكن من ترجمة نصوص علمية عملية. وحين أصبح رئيس الشماسين في منطقة Pampelune، نقل إلى اللاتينية كتابات خيميائية (الكيمياء السحرية Al-chimie) إسلامية

وخصوصاً رسالة الخوارزمي الأساسية في الرياضيات، ونستطيع أن نتساءل إذا لم يكن روبرت كاتون هو أول من أدخل إلى المسيحية الغربية معرفة الجبر، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فنتيجة الطلب الملح من جانب بيار الموقر Pierre le venerable أب منطقة Cluny، قام روبرت بترجمة القرآن أيضاً إلى جانب مجموعة «خرافات عربية» Fables Sarrasimes (الاسم الذي كان يطلق على العرب المسلمين والسراسنة) Les Fabulae Saracenarum (أو التراثات العائدة إلى الخلفاء الأربعة الأوائل)، لكي يتيح للأوروبيين امتلاك أفضل لمحاربة ثقافة وإيمان خصومهم.

ولقد بقيت ترجمة روبرت اللاتينية للقرآن الأولى في أوروبة ولزمن طويل، ثم طبعه عام ١٥٤٣ مع مقدمة كتبها لوثر. وفي عام ١١٥٠ عاد روبرت إلى انكلترا حيث قام بإجراء حسابات بحسب الطرائق العربية لتحديد خط الزوال (الهاجرة) لمدينة لندن، وهذا النقل المزدوج الذي أنجزه روبرت كيتون -علوم وتراث ثقافي عربي- بين منطقة Pamplune والعاصمة لندن جعلنا نقارب نقطة أساسية مجهولة كلياً من طرف الجمهور المثقف، وهي أن الفولكلور العربي في جنوب أوروبة، يقدّر العلوم والفلسفة، قد لوّن عميقاً أدب نصارى الشمال منذ القرن الثاني عشر.

تلاقي أساطير العرب والغرب

نادرون أيضا هم المختصون في العصر الوسيط الذين أشاروا مثل نيكل Nykl إلى التقارب في الموضوعات المعالجة بين الشعر العربي الأندلسي والشعر البروفنسالي وإلى الإثبات -كم فعل آسين بلاثيوس Acin Palacios وتسرولى Cerulli، وعلى التلاقي العظيم لأساطير ما وراء البحار بين دانتي Dante والإسلام، لكن وغالبا في المجال الأكثر تواضعا وألفة للحكاية الـ Fabliau أي الحكايات الشعبية نجد أن الأثر العربي قد ترك أكثر طابعه، لدينا كمثل أولي تقنية السرد ذات الأصل الهندوسي Hindone التي تقوم على تشبيك سلسلة من الحكايا الواحدة ضمن الأخرى مع حكاية- تمهيد تلعب دور الإطار فعن طريق الفرس والشرق الأوسط العربي وصلت هذه التقنية الأدبية في العصر الوسيط حتى أسبانيا.

فألف ليلة وليلة لا تمثل سوى عيّنة شعبية من هذا الجنس من الأدب، حيث نجد نموذجاً قدّره الإعلام المسلمون أنفسهم حق قدره وهو منظومة الحكايا الشعبية حول الحيوانات أي كليلة ودمنة ذات الأصل الهندوسي البعيد والتي ترجمت إلى العربية منقحة في القرن السابع من جانب الإيراني ابن المقفع ثم نقلت في القرن الثامن إلى اللاتينية ومن ثم إلى الكاستيلانية بوساطة

ترجمة أسبانية عبرية قبل أن تصل إلي ممارسة التأثير في الفرنسي لافونتين La Fontaine.

المرجعية العربية

فلننظر هنا في المسار المدهش لأحد العلماء الأفذاذ من القرن الثاني عشر على مفترق كل حضارات، زمنه، بين منطقة Laragon (في إيطاليا) وانكلترا، بين اليهودية والمسيحية والإسلام بين علم الفلك والحكايا الشعبية، حيث يمكن اعتباره أهم من نشر التاريخ الأدبي لأوروبة. يتعلق الأمر بأحد المتعلمين اليهود المنتمي إلى منطقة Aragon والذي اعتنق المسيحية عام١١٠٦ وأطلق على نفسه اسم العماد Petrus Alphonsus. هذا الكاهن، ذو الثقافات الثلاث: العبرية، اللاتيني، والعربية، كان من المفترض أن يذهب إلى انكلترا عام ١١١٥ بدعوة من الملك هنري الأول حتى يدرس علم الفلك العربي. لكن قبل ذلك وفي الأرض الايبرية، استطاع بدرو الفونسو أن يكيف في اللغة اللاتينية التقنية السردية للشرق مع كتاب desciplina clericalis، هذا النص عبارة عن مجموعة قصص أخلاقية ورمزية موجهة كما يدل العنوان على ذلك، لتثقيف وتربية الرهبان، لكن المهم بالنسبة إلينا هو أن الفونسو تبنى ولأول مرة في اللغة الأوروبية، طريقة الحكاية -الإطار مع القصص المتشابكة المعروفة عند العرب، والقصص نفسها سردها عجوز عربي لتأنيب ابنه اللامبالي. واسم الأثر الأدبي Arabus castigavit filium وخاصة كان باهرا، واعتبر أوروبياً بحتاً، وانتشرت تقنية الحكاية -الإطار والقصص المتشابكة عبر الغرب خلال العقود الأربعة الأخيرة للعصر الوسيط، وصل عدد القصص التي استقرت (تداخلت) تراوح بين ١٠٠ و١٠١ و١٠٠٠ و١٠٠١، وتلاشت غالباً في مؤلفات مثل Dom juan Manuel في أسبانيا وفي القصص المجهولة الكاتب مثل Cento novelle وفي Novelliono في صقلية وفى تسكانة وفي Deecameron العائد لبوكاتشيه Boccace الذي غدا نموذجاً بدوره chaucer في انكلترا ولـ nouuvelles duxve sieclecent (مئة قصة جديدة للقرن الخامس عشر) الفرنسي، وأخيراً لمارغريت دو نافار M. de Navarre. هذا من أجل القول إن ولادة نوع أساسي من الأدب الوسيط يبقى خارج إطار الفهم دون مرجعيته العربية.

❁ ❁ ❁

- هذا النص مأخوذ من منشورة autrement، وهى دورية شهرية بصفة كتاب دوري يعالج موضوعات محددة، وهذا النص من عدد كان قد خصص لمدينة طليطلة (القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر).

الهوامش:

(❁) كاتب وباحث من IHESS.

آفاق المعرفة



الوقاحة الفكريّة

أحمد مثقال القشعم ❁

ليس غريباً على مجتمعٍ يموج بالتّطرّف والإرهاب والعنصريّة أن يكون محتكراً للوقاحة، فمن ضروريّات من يحمل هذه الصّفات والمورّثات أن يكون وقحاً، هذا الكلام لا أقوله لمجرّد وصف ذلك المجتمع الإسرائيليّ الغارق بالعدوانيّة حتّى أذنيه، بل أقول ذلك بعد أن قرأت كتاباً بعنوان: (ما يفوق الوقاحة- حول إساءة استخدام اللاساميّة وتشويه التّاريخ)، مؤلّف الكتاب هو الباحث المعروف: (نورمان فنكلستين)، وقام بترجمته الأستاذ:

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

(أيمن حدّاد)، والنّاشر هو: (شركة العبيكان للأبحاث والتّطوير)، سنة /٢٠٠٨م/.

فمن هو (نورمان فنكلستين)؟..

هو الباحث والكاتب المعروف في جامعة (ديبوول) مدرّساً للعلوم السّياسيّة، ومن كتبه المشهورة (صناعة الهولوكست ٢٠٠٠م)، و(أمّةٌ تحت المحاكمة ١٩٩٨م مع الباحثة روث بيتا بيرن)، و(صعود وأفول فلسطين ١٩٦٦م)، و(الصّورة والخيال في صراع إسرائيل- فلسطين ١٩٩٥م).

هذه المؤلّفات التي لاقت الكثير من الرّواج بسبب كشفها للدّجل والتّزوير الذي يحصل في المنظّمات الدّوليّة، وكيف تختفي الحقائق، وكيف تسوّق الأمور كما يريد أصحاب القرار، وكيف يتمّ الكذب على الشّعوب.. ويعتمد كتاب (ما يفوق الوقاحة- حول إساءة استخدام اللاساميّة وتشويه التّاريخ) على المقارنة والأبحاث والتّقارير والوقائع لدحض مقولات إسرائيل، وفي فصلٍ معنونٍ بـ: (أكبر كذبة انطلت على النّاس)، وهو الفصل الذي يبدأ من الصّفحة /١٦٥حتّى ١٧٣/، يتناول الباحث بالنّقد العلميّ كتاب: (مرافعة لإسرائيل) للكاتب: (آلان ديرشويتس)، الذي يريق ماء وجهه وحبر دواته في الدّفاع عن إسرائيل، وتقديم هذه المرافعة القانونيّة للعالم كلّه عن براءة إسرائيل من كلّ ما وصمت به من خروقاتٍ للقيم والأديان والحقوق، ولذلك يقول (نورمان فنكلستين) عن هذا الكتاب:

((في عام /٢٠٠٣م/ نشر (آلان ديرشويتس)، وهو بروفيسور في القانون في جامعة (هارفرد) كتابه: (مرافعة لإسرائيل)، وأصبح الكتاب فور صدوره كتاباً مؤثّراً، ومن أكثر الكتب مبيعاً في البلاد، وحسب التّقارير خصّصت المنظّمات اليهوديّة الأمريكيّة نسخةً من الكتاب لجميع خرّيجي المدارس الثّانويّة اليهود، وقامت بتوزيعه بكثافةٍ على الجامعات، في حين قامت وزارة الخارجيّة الإسرائيليّة بشراء آلاف النّسخ لتوزيعها في العالم.. وقامت بعثة إسرائيل إلى الأمم المتّحدة بتوزيع مئات النّسخ إلى رؤساء بعثات الدّول في الأمم المتّحدة والمسؤولين العاملين فيها..)).[1]

والمثير في الكتاب هو العنوان: (ما يفوق الوقاحة- حول إساءة استخدام اللاساميّة وتشويه التّاريخ) المنطبق انطباقاً تامّاً على الحالة التي يتناولها بالبحث، فهو لم يجد أصدق من هذا العنوان ليردّ به على ذلك

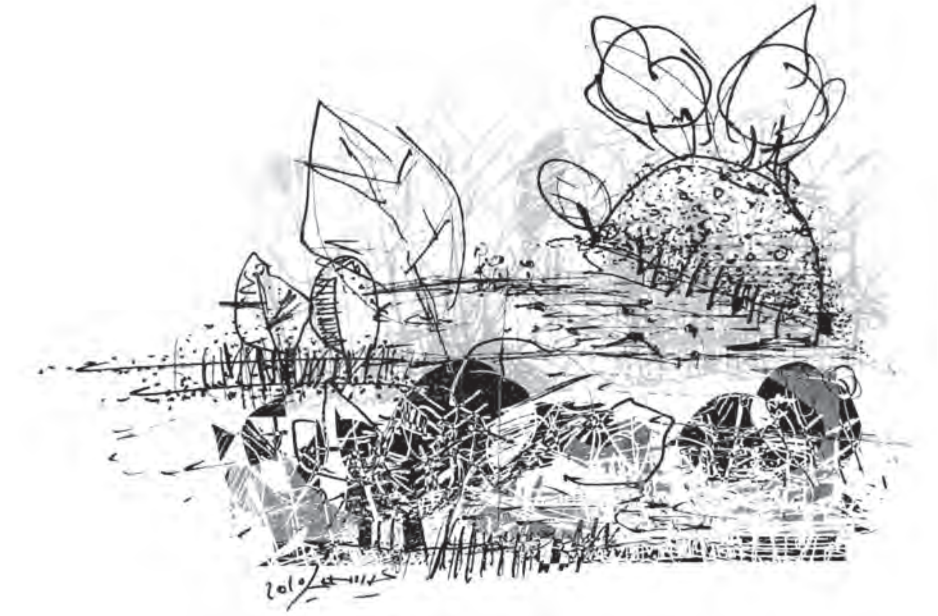
الكاتب الــذي يدوس علــى النّواميس كلّها ليبيّض سجلاّت إسرائيل السّوداء، ويبيّن لنا هذا الباحث (نورمان) سبب ذلك قائلاً:

((أنّ كلمــة (Chutzpah)، وتلفــظ: (خوتزبــاه)، المستخدمــة في عنــوان هــذا الكتــاب ليست كلمــةً إنكليزيّــةً، وإنّما هي مــن لغة اليديشــ.. فهي تعنــي مزيجاً من الوقاحة والجــرأة وقلّة الحياء.. وبناءً عليه فــإنّ استخدام عنوان: (مــا يفوق الوقاحة) هو إشــارةٌ إلى ذلــك الكتاب، ومــا قام به مؤلّفه..)).(٢)

ويمكنني من خلال مــا ورد في الكتاب، وخاصّــةً في فصل الأكذوبــة: (أكبر أكذوبةٍ انطلــت على النّاس) أن أحدّد الغرض الذي قصــده (آلان ديرشويتس) مــن تأليف هذا الكتاب، ومــن تقديم هذه المرافعة إلى العالم كلّه بكلّ وقاحةٍ ليدافع عن إسرائيل، ويبيّض كلّ صفحاتهــا السّــوداء وسجلّهــا الدّمويّ الرّهيــب، ولذلــك نختصر تلــك الأهداف المتوخّــاة من الكتاب بالنّقــاط التّالية التي أوردها (نورمان):

- المساعدة على تنقية أجواء العالم حول إسرائيل من خلال تقديم دفاعٍ حقيقيٍّ مباشرٍ ضدّ الاتّهامات -كما يرى- في حقّها.
- سلبيّــة مؤيّدي إسرائيــل الشّديدة في وجه الهجمات غير المبرّرة على إسرائيل.
- الدّفاع عن إسرائيل أمام محكمة الرّأي العامّ.
- التّذرّع بمكافحة (اللاساميّة الجديدة) لتجنيب إسرائيل أيّ انتقادٍ.
- الكشــف عن الأكاذيــب التي ينشرها أعداء إسرائيل كما يرى.
- فضح الأكاذيب التي يظهرها مناصرو السّلام الإسرائيليّون.
- رفع معنويّات الجمهور الصّهيونيّ أمام الحقائــق، وتبرير الجريمــة بمنطق الدّفاع عن النّفس.
- التّلاعب بالوثائق الأساسيّة والدّوليّة، وتغيير الوقائع والأحداث.
- استشهــاد (ديرشويتــس) بالوثائــق والمصادر السّخيفة والكاذبة.
- الخروج بنتائج ومزاعم معدّةٍ مسبقاً، ومقولبــةٍ بالقالــب الذي يناســب الجسد الإسرائيليّ.
- الاعتمــاد على مؤهّلاتــه الأكاديميّة للتّأثير على طلاّبه والقرّاء.

ومؤلّف الكتاب لا يكتفي بهذه الأكاذيب، بــل يــرى أنّ إسرائيــل مــن أعظــم الأمم



المتحضّرة التي تعرّضت لـكلّ هذا الانتقاد من العالم، وهي تعيش في عالمٍ يكرهها، ويرى أنّ العالم كلّه يتآمـر عليها، ويسوّد صورتها، لهـذه الدّرجـة من الوقاحـة التي لا يمكن أن توصـف بالكلمات أبـداً يصل عقل هذا الأكاديميّ من السّخف، ويستهتر بكلّ عقول العالم التي تعرف كلّ هذه الأساليب الملتوية، والارتباطـات الذّيليّـة لمثـل هـذه الفئات المأجورة، فالأمّـة الإسرائيليّة في نظره هي نسيج وحدهـا، وهي الأمّة التـي تعرّضت لكلّ الكوارث والنّكبات، ولكنّها -كما يرى- خرجت كالمارد المنطلق من قمقمه، أو كالتّنّين النّاهض من رماده:

((هـي أنّـه لا يوجد أيّة أمّـةٍ في تاريخ العـالم واجهت تهديـداتٍ مشابهة لوجودها -خارجيّـةً وداخليّـةً- قد أظهـرت جهوداً أكبر، أو حتّى مقاربة من حجم تلك الجهود، لم يحدث لأيّ أمّـةٍ متحضّرةٍ في تاريخ العالم أن تعرّضت بصفةٍ متكرّرةٍ -ربّما تتنافى مع العدل- للشّجب المنافـق والانتقاد من قبل المجتمـع الدّوليّ، كما تعرّضت إسرائيل على مرّ السّنين..)).[٣]

وبهذا يسيل مداد قلمه المسموم متباكياً على إسرائيـل، لأنّها في اعتقاده هي البراءة ذاتها، وكلّ قيـم الإنسانيّة والعدل متجسّدةٌ فيها، فـأيّ عقلٍ هـذا الـذي يحمله هذا

الجســد؟!! وأيّ أكاديمــيٍّ هــذا الــذي لا يعرف مــن العلم وأسســه إلاّ قول ما يروق له ولأسياده، وما يؤمن بــه ويسعى إليه؟!!، فهــو بعد البحــث والتّمحيصــ في كلّ أمم الأرض يجد أنّ إسرائيل جنّة الله في أرضه، هكذا يتنزّل الوحي عليه فجأةً في كلّ فصلٍ مــن فصول كتابه، وهكــذا يتحفنا بنفحاته الإيمانيّة، وبتبريكاته الإشراقيّة، فهي الدّولة التي يسود فيها القانون، ويسرح ويمرح فيها كما يشاء، وعلى العــالم أن يستفيد من هذه الدّولــة القانونيّة السّمحاء التي لا يوجد في أمم الأرضــ أمّةٌ تشابهها أبــداً، فهي الأمّة المختارة:

((الحصيلــة النّهائيّــة هــي أنّ الفجوة بين السّجــلّ الحقيقيّ لإسرائيل في الالتزام بسيادة القانون، والسّجلّ المتصوّر لالتزامها بسيــادة القانون هي أعظم من أيّ فجوةٍ في حالــة أيّ أمّةٍ على مــرّ التّاريخ... إنّ سجلّ إسرائيــل في مجــال حقوق الإنســان... هو سجلٌّ ممتازٌ عموماً...)).[٤]

إن عمــل الأكاديميّ الــذي يدّعي العلم والمنطــق (ديرشويتس) هو أشبه بنافخ الكير على نفسه وغيره، أو بمن يقوم بتبييض الثّياب والمعــادن، فهو يبيّض سجــلّ إسرائيل أمام العالم كلّه، ولكنّ الحقائق تتكشّف وتنفضح، وها هــو العالم كلّه يــرى ويسمع ما يحصل على أرضــ الواقع بعد أن تطــوّرت وسائل الاتّصــالات والبثّ، ولم يعد بمقدور إسرائيل أن تتخفّى وراء تلك الأقنعة الكاذبة.

هكذا يبيّن لنا الباحث المنصف (نورمان فنكلستين) مــن كلّ ما تقــدّم أساليبَ ذلك المؤلّــف (ديرشويتســ) الــذي يحتال على الوقائــع، ويتلاعب بها، ويلوي عنق التّاريخ، ويحرق كلّ حيثيّــات التّاريخ ليجعلها مداداً يكتب به أمجــاد إسرائيل وعدالتها ونصاعة سجلّهــا في مجال حقــوق الإنســان، مفنّداً مزاعمــه، ومضيفاً إليهــا حقائق الاحتلال التي لم يعد بمقدور العالم كلّه أن يتجاهلها:

- ((منذ بدايات الانتفاضة التي حدثت بين عامــي /١٩٨٧- ١٩٩٣م/، ما عاد من الممكن تجاهل الأمر..)).[٥]

لقد أخذ العالم كلّــه ينتبه إلى ما يجري في فلسطين مــن خرقٍ وانتهــاكاتٍ لحقوق الإنســان، فما يحــدث هو أشبــه بالمجزرة الحقيقيّة، ولكنّ عشّاق إسرائيل لا يبصرون ولا يسمعون، ويسكتون ولا ينطقون، فالحبّ القاتل يجعل العاشــق الولهان يتغاضى عن كلّ مــا يبدر مــن المحبوب كرامــةً لعينيه،

وفـــداءً لـــه، ولذلك لم يعد مـــن الممكن ستر جرائـــم الاحتلال، وذلك بسبـــب المنظّمات التي تعمل داخـــل فلسطين وخارجها، وهي منظّماتٌ إنسانيّةٌ لا تخضع لأحدٍ، وهذا ما يجعل عملها مستقلاًّ ونزيهاً:

((مراقبة سجلّ إسرائيل في مجال حقوق الإنسان في المناطق المحتلّة من قبل عددٍ كبيرٍ من منظّمات حقـــوق الإنسان، بعضها يعمل في إسرائيل ذاتها.. مثـــل منظّمة (بتسيلم= مركز المعلومات الإسرائيليّ لحقوق الإنسان في المناطق المحتلّة)، واللجنة العامّة لمناهضة التّعذيب في إسرائيل، ومنظّمة أطبّاء لحقوق الإنســـان، ومنظّمـــاتٍ أخـــرى تعمـــل على مستـــوى العالم، مثل منظّمـــة العفو الدّوليّة، ومنظّمـــة (هيومان رايتـــس ووتش)، كما أنّ إسرائيـــل خاضعةٌ للمراقبة مـــن قبل الأمم المتّحدة ووكالاتٍ أخرى مسؤولةٍ بصفةٍ عامّةٍ عن مراقبة الالتزام بقانون الإنسان..)).(٦)

ونجد أنّ المنظّمات التّابعة للأمم المتّحدة قد زادت وتيرة ملاحظاتها وشجبها للسّلوك الإسرائيلـــيّ، وما يجري مـــن أحداثٍ داميةٍ للفلسطينيّين:

((أشـــارت منظّمة العفـــو الدّوليّة حول انتهاكات حقوق الإنسان في أثناء الانتفاضة الثّانية.. أنّه جرى عددٌ كبيرٌ من التّحقيقات بخصوصـــ الوضـــع في إسرائيـــل والمناطق المحتلّة..)).(٧)

هذه المنظّمـــات المعروفة تشـــكّل عقبةً في وجه أكاذيب إسرائيـــل، ومن ينافح عنها كأمثـــال (ديرشويتـــس) الذي يصـــمّ أذنيه، ويغمض عينيه عن كلّ شيءٍ يصدر من هذه المنظّمات والهيئات، وإذا تحدّث عنها، فإنّه يتحـــدّث بلســـان النّاقد والمهاجـــم لها، لأنّ ما تقوله لا يروق لـــه ولأمثاله، ونرى هؤلاء يهاجمون هذه المنظّمات، ويتّهمون أعضاءها بتهـــمٍ ملفّقةٍ، ولعـــلّ منهـــا أنّ كلّ من يمسّ قداسة إسرائيل يكون معادياً للسّاميّة:

((لم يستشهـــد (ديرشويتـــس) –ولو مرّةً واحـــدةً– بأيٍّ من منظّمـــات حقوق الإنسان الرّئيسة لدعم مزاعمه، وليس السّبب أنّه لا يرغب في الاستشهاد بها، بل لأنّه لا يستطيع ذلـــك.. أو أنّـــه –وبـــازدراءٍ جلـــيٍّ للقواعد الأكاديميّة– يقوم ببساطةٍ باختلاق الدّلائل، ولو قام بالاستشهـــاد باستنتاجات منظّمات حقوق الإنسان الرّئيسة لكان عليه أن يجعل عنوان كتابـــه: (مرافعة ضـــدّ إسرائيل.. لا يكتفـــي (ديرشويتس) بتجاهـــل استنتاجاتٍ من منظّمات حقوق الإنسان بصفةٍ منتظمةٍ،

بـــل يعمـــل إلى القدح بها من أجـــل أن يبرّر تجاهله لعملهـــا.. ولكنّه وكمناصرٍ لإسرائيل مناصرةً عمياء، ليســـ أمامه سوى معارضة تلك المبادىء..)).(٨)

إنّ (ديرشويتس) يتقنّع بجلد الحمل ليقدّم نفسه للآخرين على أنّه مناصرٌ ومدافعٌ عن حقوق الإنسان، ولكنّ قلبه وأحاسيسه تشبه قلوب الذّئاب والتّماسيـــح، ذلك أنّه عندما تقـــوم إسرائيل بجرائمها، فإنّه يبدأ بالدّفاع عنها بأنيابه وأظافره، وتزداد لهجته ضراوةً وشراســـةً على المنظّمـــات الدّوليّة، ويتّهمها بالكذب والتّزوير، وهذا هو أسلوب العاجز، فـــلا يجد إلاّ الهجوم قبـــل أن تبدأ محاكمة أحبابه على ما اقترفت أيديهم الآثمة:

((فكون الاحتلال الإسرائيليّ يعتمد على القوّة الوحشيّة، لا يمكن الدّفاع عنه في حال الإقـــرار بانطباق القانون الـــدّوليّ.. فبينما يقدّم (ديرشويتس) نفسه في الولايات المتّحدة علـــى أنّه منافحٌ عن الحقوق المدنيّة.. نجده يدافع بصفةٍ متواصلةٍ عن أشنع الانتهاكات الإسرائيليّـــة لحقـــوق الإنســـان.. ويدّعـــي (ديرشويتســـ) أنّ منظّمـــة العفـــو الدّوليّة كذبت بشدّةٍ بخصوصـــ السّجلّ الإسرائيليّ في ممارسة التّعذيب.. وجّه (ديرشويتس) في كتابه الثّاني: (جرأة) اتّهاماتٍ شبيهة لمنظّمة (الحـــقّ)، وهي منظّمـــةٌ فلسطينيّةٌ معروفةٌ معنيّةٌ بحقوق الإنسان..)).(٩)

والعجـــب كلّ العجـــب هـــو موقـــف (ديرشويتس) تجاه منظّمة (هيومان رايتس ووتشـــ) المعروفة، وهـــذا الموقف يعلّق عليه (نورمان فنكلستين) من خلال بعض الأسباب المتعلّقـــة بطبيعة هذه المنظّمـــة ذات الوزن الدّوليّ، وكون مقرّهـــا في أمريكا، وبأكذوبة معاداة السّاميّة، وغير ذلك من مبرّراتٍ غير منطقيّةٍ:

((ومن الأمور الكاشفة أنّ (ديرشويتس) يصمت صمتـــاً مطبقاً عن منظّمة (هيومان رايتس ووتش) علـــى الرّغم من أنّها منظّمةٌ مهمّـــةٌ، ووزنها أكبر مـــن وزن منظّمة العفو الدّوليّـــة.. وليس من الصّعب معرفة السّبب الكامـــن وراء هذا الصّمـــت، إذ أن منظّمة (هيومان رايتس ووتش) هي منظّمةٌ مقرّها في الولايات المتّحـــدة الأمريكيّة، وبناءً عليه فـــإنّ شجبهم –بوصفهـــم لاساميّين عمليّاً– يتطلّب وقاحةً..)).(١٠)

أمـــام هـــذه الحالـــة المحرجـــة لـــ (ديرشويتســـ)، ما هـــو موقفه اليـــوم أمام تقارير ومشاهدات منظّمة: (هيومان رايتس

ووتشــ) وتقريــر القاضــي (جولدستــون) بملاحقــة قــادة إسرائيــل بجرائم الحرب أمــام المحكمة الجنائيّة الدّوليّة، وذلك أثناء العــدوان الوحشــيّ الذي جــرى على غزّة أخيراً، هل سيكون مصير هذه التّقارير مثل مصير التّقارير السّابقة، والتي يصف حالها (نورمان) في أدراج الهيئات الدّوليّة، ويرثيها قائلاً:

((إنّ التّقاريــر التي تصدرها منظّمات حقوق الإنســان، والتي تتميّــز بمصداقيّةٍ عاليــةٍ، تظلّ علــى الرّفوف تجمــع الغبار، ولــو تمّ نشــر استنتاجــات هــذه التّقارير نشراً واسعاً، فمــن الواضح أنّه سيجعل من الاحتلال الإسرائيليّ أمــراً لا يمكن الدّفاع عنه أخلاقيّاً..)).(١١)

ولا يكتفــي (ديرشويتس) بتزوير الوقائع وتبرير الجرائم، بل يعود أدراجه إلى التّاريخ، فيسترجــع أحداثاً تاريخيّةً باليــةً، ويستند علــى خرافاتٍ وأوهــامٍ توراتيّــةٍ ونصوصٍ أسطوريّــةٍ لا علاقة لها بالواقع، ويحاول أن يربط بــين الماضي والحاضر، مستفيداً ممّا ورد في الكتــب القديمة من بعض الإشارات التــي يوظّفهــا لصالح الفكــرة التي يسعى إليها، وإذا أعيته النّصوص، فمجال الخيال الخصب عنــده يفتح له ذراعيــه ليهيم في أوديتــه وشعابه كما يحلو له، وليبتدع صوراً وقصصــاً وخرافــاتٍ ما أنــزل اللّه بها من سلطانٍ، فشهادته الأكاديميّة -كما يرى- قد أباحت له خــرق كلّ قواعد البحث، ولذلك وصــل إلى درجــة العصمــة في تحليلاتــه وأبحاثــه، وهذه هــي الهيستريــا الفكريّة والخلل العقليّ:

((يعمد (ديرشويتســ) في فصول كتابه المكرّســة للجانــب التّاريخــيّ إلى إعــادة استخدام خرافاتٍ باليةٍ حول صراع إسرائيل-فلسطين، ويبتدع خرافاتٍ جديدةً..)).(١٢)

وفي تعليــق (نورمــان فنكلستــين) على (ديرشويتســ) وكتابه يذكر كثيراً من المثالب والمآخــذ الدّالّة على دفاعــه المستميت عن إسرائيل، وينتقد المنهج الذي يدّعي أنّه منهجٌ علمــيٌّ وأكاديميٌّ، ويرى أنّ الكاتب يجهل ما ورد في كتابه، وهذا يعني أنّ الكاتب قد سرق هــذه المعلومات المعلّبة مسبقــاً، أو أعطيت له، فوضعها في كتابــه دونما تحليلٍ وتفكيرٍ أبداً، وعلــى الرّغم من كلّ هــذه الأكاذيب والخرافــات الواردة في الكتــاب، فما تزال الجهــات الدّاعمــة لإسرائيل تتنــاول هذا الكتاب بالمــدح، وتثني على مؤلّفــه، وكأنّه

بطلٌ مـن أبطـال العهود القديمـة، وتلجأ تلك المؤسّسـات والمعاهد المرتبطة بإسرائيل إلى تلميـع الكتّـاب والمثقّفـين الموالين لها، والمؤمنـين بما تقول إيمانـاً أعمى، وتعطي الأمـوال الطّائلة لوسائـل الإعلام والكتّاب والصّحفيّـين لكي يمدحوا الكتـب المؤيّدة لإسرائيل ويثنوا عليها ويشجعوا النّاس على شرائها وترويجها وقراءتها:

((إنّ هذا الأستاذ يجهل ما ورد في كتابه.. يكون الكتـاب مليئاً بالأخطـاء المكشوفة.. وعلـى الرّغم من كلّ ما سلف، فإنّه يتواصل كيل المديح للمؤلّف والكتاب؟!!!..)).[١٣]

هـذا الأكاديمـيّ الحاصل علـى هذه الشّهـادات التي تملأ جـدران عقله وبيته، قد أصابتـه حالةٌ من الهستيريـا الفكريّة، وتضخّمت عنده الأنانيّة حتّى أصبح مقتنعاً أنّ كلّ ما يقوله هو الحقّ، لأنّ حالته الفوقيّة سيطرت عليـه، وجعلته يندفع بـلا اتّزانٍ، ففقد زمام عقله، وأخذ يسابق لجامه الفكريّ والعاطفيّ، فضـلّ وزاغ، وتاه في مستنقعات التّبعيّة والانقياد الأعمى، وهذه الحالة تعود إلى التّماهـي في الآخر، والإيمـان بكلّ ما يقوله دون تفكيرٍ أبـداً، فكيف بعد كلّ هذا نستطيع أن نأخذ شيئاً من هذا الكاتب؟!! إنّ صفة الكاتـب والأكاديميّ لا يمكن أن تطلق علـى من كان على هذه الشّاكلة من السّفالة الفكريّة أبداً:

((لقد وقـع (ديرشويتـس) في الإهمال الأكاديميّ المتعمّـد، وإن كانت جوانب هذا الإهمـال تبدو قليلـة الشّأن أمـام تزويره الفاضـح لسجلّ إسرائيـل في مجال حقوق الإنسـان والمعانـاة التي يتسبّـب فيها هذا التّزوير..)).[١٤]

إنّ (ديرشويتس) لصٌّ مثقّفٌ، فهو يسرق جهد الآخرين وتعبهم، ويعتمد على الآخرين في تجميـع مادّة كتابه، وهذا مـا أشار إليه (نورمـان) في أكثر من موضعٍ، وهذه السّرقة وحدها كافيةٌ لنسف كلّ ما ورد في كتابه من أباطيل، والغريب أنّـه يسرق جهد الآخرين دون أن يشـير إلى ذلك، فأيّـة أمانةٍ علميّةٍ تلك، وأيّة أكاديميّةٍ تلك التي يتفاخر بها؟!!! لو كانت هذه الجامعات والأكاديميّات تحترم نفسها لأسرعت إلى سحـب هذه الشّهادات من أمثال (ديرشويتـس)، هؤلاء الذي لوّثوا العلم والبحث بما يحملونه من فكرٍ ملوّثٍ:

((وإذا مـا عدنـا إلى كتـاب (مرافعـة لإسرائيـل) نجـد أن (ديرشويتـس) يعتمد اعتمـاداً مكثّفاً على دراسـةٍ واحدةٍ علميّةٍ

للمـؤرّخ (بيتـي موريسـ)، أو علـى مواقع إنترنـت ومطبوعاتٍ مؤيّـدةٍ لإسرائيل، لولا أنّ الفصلـين الأوّل والثّاني من كتابه يشذّان شذوذاً عن هذه القاعدة.. في كلٍّ من الفصلين الأوّل والثّـاني مـن كتـاب (ديرشويتسـ- مرافعة لإسرائيل) وكتاب (جون بيترز- منذ زمانٍ سحيـقٍ)، حيث يبيّن الجدول أنّ اثنين وعشريـن اقتباساً وهامشاً مـن أصل اثنين وخمسـين وردت في الفصلين الأوّل والثّاني من (مرافعة لإسرائيل) تتطابق تطابقاً تامّاً تقريباً مع تلك الواردة في كتاب (بيترز)، بما في ذلك التّطابق في مواضع حذف الكلمات في الاقتباسات الطّويلة..)).(١٥)

إلى هـذا الحدّ السّافر مـن قلّة الأمانة يصل الانحطاط الفكريّ، فلا يكتفي الكاتب بسرقة الأفكار، بل يسرق الفصول بالكامل، بفواصلها وإشاراتهـا وهوامشها، وحتّى في مواضـع حـذف الكلمات، أيّـة عقليّةٍ هذه العقليّة، أظنّ أنّ عقل هذا الكاتب فيه شيءٌ مـن الهوس والتّصدّع الفكـريّ، والتّشويش والفصـام المنهجيّ، فهو يظنّ أنّ كلّ ما قرأه قد صار ملكاً لـه، وأنّ كلّ ما كتبه الآخرون هو أحقّ به، لأنّه الأكاديميّ الملمّع كثيراً.

ومـن أكـثر الوقاحات غلاظـةً وتفاهةً واستفزازاً لكلّ إنسانٍ على وجه البسيطة ما قاله في شأن الاحتلال الإسرائيليّ، فهو يعتبره نعمةً مهداةً من إسرائيـل إلى الفلسطينيّن، فقد نعموا في ظلال الاحتلال بكلّ ما كانوا يحلمون به -هذا ما يقوله- بل يقول أكثر من ذلك وأمـرّ، فلنتصوّر هذا الهراء السّخيف، ولنتصوّر هذا الإمعـان في الكذب وتضليل الرّأي واحتقار كلّ مشاعـر الإنسانيّة، وكلّ مبادىء الأديان السّماويّة السّمحاء، كما يرى أنّ الاحتـلال الإسرائيليّ هو أفضل احتلالٍ على وجه الأرض، فمتى كان الاحتلال نعمةً وعدالةً أيّها الأفّاك؟!!!:

((في كتـاب (مرافعةٌ لإسرائيـل) يؤكّد (ديرشويتس) أن الفلسطينيّين حصلوا على منافع ملموسةٍ من الاحتـلال الإسرائيليّ.. على عكـس أيّ احتلالٍ حـاليٍّ آخر، فوائد كبيرة للفلسطينيّين، كما أدّى إلى تقليصٍ في معدّلات وفيات الأطفال..)).(١٦)

ولكنّ أصوات الحقّ المبدئيّة أخذت تتعالى في كلّ بقاع العالم، وصارت الشّهادات الحيّة خير وسيلـةٍ لإثبات أباطيـل المحتلّ، فهذه الباحثـة: (سارة روي) من جامعة (هارفرد) تقـول شهادتها حول الاحتـلال الإسرائيليّ الغاشم:

((بـأنّ الدّمـار الذي لحـق بالاقتصاد الفلسطينـيّ في ظلّ الاحتـلال الإسرائيليّ يتجـاوز الدّمار المعتـاد الـذي عانت منه الشّعوب التي تعرّضت للاستعمار..)).(١٧)

عندما يفقد الإنسان سيطرته على عقله وعواطفه، ويخرج من دائـرة الإنسانيّة إلى الوحشيّة، فإنّه لا يتورّع عن أمر ما، ولا يقف عند حدٍّ معـيّنٍ، تخيّل أكاديميّاً يرى جرائم الاحتلال في فلسطين، ثمّ يلقي بتبعاتها على الفلسطينيين، ويحمّل ذلك للأطفال والنّساء والشّيوخ، فتمعّن معي بتلك العبارات التّافهة السّخيفـة في قضيّة قتل الأطفـال، وتأمّل وقاحة المنطق المرتفعة إلى أعلى مستوياتها، ذلك حـين يقارن بـين القتـل الفلسطينيّ وبـين القتل الإسرائيلـيّ!!! فهل هنالك من عهرٍ أخلاقيّ وإنسـانيٍّ أكثر من هذا العهر الفاضح والدّنيء؟!! وأيّ عقلٍ وضميرٍ وقلبٍ متحجّراتٌ عند هـذا المشوّش المستهتر بكلّ القيم والأديان والأعراف والمواثيق؟!!:

((لإظهـار مسؤوليّة الفلسطينيّ الكاملة عـن مقتل أطفالهـم يصـرّح (ديرشويتس) قائـلاً: كلّما كسر القادة الفلسطينيّون الأمر المحرّم باستخـدام الشّباب كإرهابيّين، كلّما زاد عدد الشّباب الذين يقتلون ويصابون... ويقع الذّنب بها بصفـةٍ كاملةٍ على مرتكب الإساءة، وليس على هـؤلاء الذين يدافعون عن أنفسهـم دفاعاً مشروعـاً ضدّ مطلقي القنابـل والمهاجمـين الانتحاريّـين الذين يتصادف أنّهم من الشّباب.. لا يمكن المقارنة بين القتل الذي يقوم به الفلسطينيّون والقتل الذي يقوم به الإسرائيليّون..)).(١٨)

في هذه العجالة أتمنّى أن أكون قد أوصلت فكـرةً عن هذا الكتاب الذي يموج بالدّعارة الفكريّة، ويتيه في مهـاوي الضّلال والعمى والتّعصّـب، ولا أرى -حسب اعتقادي- أنّ عباراتـي بقادرةٍ على أنّ تصف هذا الكتاب والمؤلّف، فالعبارات تقصر، والألفاظ البذيئة تستحي وتلـوذ بالفرار، لأنّ بـذاءة المؤلّف والكتاب أكبر حجماً، وأشدّ شراسةً ووحشيّةً، ولكنّني هنا أستودعكم بتعليق المفكّر العالميّ الكبير: (نعوم تشومسكي) على كتاب (نورمان فنكلستـين) قائلاً، علـى الغلاف الخارجيّ الخلفيّ للكتاب:

((كتابٌ موثوقٌ ومهمٌّ وحافلٌ بالمعلومات، يقـدّم (نورمان فنكلستـين) تفاصيل وافيةً وتحليلاً شاملاً يتميّز بعمـقٍ تاريخيٍّ كبيرٍ، وبحـثٍ حصيفٍ لنطاقٍ واسـعٍ من القضايا المتعلّقة بإسرائيـل والفلسطينيّين والولايات المتّحدة..)).(١٩)

الهوامش:

١- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٢- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٣- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٤- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٥- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٦- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٧- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٨- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
٩- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
١٠- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
١١- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
١٢- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
١٣- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.
١٤- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٣٢٧/.

١٥- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٣٢٨/.
١٦- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٢٨١/.
١٧- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٢٨٢/.
١٨- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٩٢و١٧٧/.
١٩- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- /الغلاف الأخير/.



حوار العدد

مع حسين حموي:

شاعر و٢١ كتاباً

حــوار: عادل أبو شنب

حوار العدد



حسين حموي: شاعر و٢١ كتاباً

إعداد: عادل أبو شنب ❁

من السلمية بلد الشعراء، جاء فكان شاعراً وثائراً وعضواً في مجلس اتحاد الكتاب العرب ومكتبه التنفيذي، ولأنه أمضى ١٦ سنة فيهما عرف من هم الأدباء الحقيقيون، ومن هم المزيفون الذين يحبون ركوب الموجة من أجل مصالحهم الشخصية. حسبه أنه كشفهم، وهو ماض في مشروعه الثقافي الذي أخلص له، وأعطاه حياته. له ٢١ كتاباً بين نثر وشعر، وهو يعتبرها كأولاده. إنه الشاعر حسين حموي المقيم في دمشق والسلمية بالتناوب. وقد وجهت إليه سؤالي الأول، عن مولده ونشأته ودراسته فأجاب:

❁ أديب وقاص سوري.

• ولـدت عام ١٩٤٣م في بلـدة ريفية، تتكئ على زند العاصـي، وتنام في أحضان جبـل البلعاس علـى تخوم صحـراء بادية الشام، بلدة اشتهرت بحب الشعر والشعراء تدعى (سلمية) التي قصدها (المتنبي) حين ضاقـت به الأرض واشتدت عليه المطاردات ردحاً من الزمن، وتنقل بين بساتينها واستقر فيها (ديك الجن)، وترعرع في كنفها شعراء وأدباء وفلاسفة كان لهم آثار بصمات واضحة في الإبداع الشعـري والفكري أمثال عارف تامر، ومصطفى غالـب، وإبراهيم فاضل، ومحمد الماغوط، وعلي الجندي، وإسماعيل عامـود، وأحمد الجنـدي، وسليمان عواد، وسامـي الجندي، وفايز خضـور والقائمة تطول. نشـأت في كنف هذه البلدة، ودرست في مدارسهـا جميع المراحـل الدراسية ما قبل التعليـم الجامعي، ثم انتقلت إلى حماة للدراسـة في دار المعلمـين، وبعـد التخرج، تابعـت تحصيلـي العلمي في كليـة الآداب بجامعة دمشق، فحصلت على إجازة باللغة العربية، ودبلوم تربية مـن كلية التربية، ثم تابعت تحصيلي العلمي في الجامعة اللبنانية ببيروت، ونلـت شهادة الماجستير في الآداب، وكان عنـوان رسالتي (الاتجـاه القومي في مسـرح عدنان مـردم الشعـري) وقد كان كتابكم (بواكير التأليف المسرحي في سورية) من أهـم المراجع التي ساعدتني على إنجاز تلـك الرسالـة. بعـد ذلك منحـت شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة العلوم العربية الإسلامية في كراتشي بالباكستان.

بـدأت حياتي المهنية معلمـاً وحيداً في قريـة السيحة في الجزيـرة السورية العليا (الحسكة) ثم انتقلـت إلى القامشلي مديراً لمدرسة المنصور وبعد إنهاء خدمتي الإلزامية انتقلت إلى دمشق مدرساً لمادة اللغة العربية في ثانويـة يوسف العظمة، ثـم انتقلت إلى الاتحـاد العام لطلبة سوريـة أميناً للسر في مكتب الثقافة والإعلام، وأمينا لتحرير جيل الثـورة بعد ذلك انتقلـت إلى جريدة البعث رئيساً للقسم الثقافي فيها ثم أمينا للتحرير فيهـا، وبعد انتخابي عضـواً لمجلس اتحاد الكتـاب العرب بدمشـق، أسندت لي مهمة إدارة النشـاط الثقافي، ثـم أعيد انتخابي دورتين متتاليتين عضـواً للمكتب التنفيذي أسندت لي فيهمـا إدارة الجمعيات الأدبية ورئاسة تحرير الأسبوع الأدبي.

ثـم انتقلـت إلى وزارة الثقافـة مديراً للتأليـف والترجمة، ورئيسـاً لتحرير مجلة المعرفة، وبعـد أن أحلت علـى التقاعد ما زلت أمارس نشاطي عضواً في مجلس اتحاد الكتّاب العرب، ومقرراً للجنة الأدب العربي في المجلس الأعلى لرعايـة الآداب والفنون

والعلـوم الاجتماعية، حتى تاريـخ إدماجه في مجلـس البحث العلمي. كما أنني ما زلت عضواً لهيئـة تحرير الأسبوع الأدبي، وعدد من الدوريات المحلية والعربية.

كتبت المقالة والدراسة الأدبية في العديد من الصحف والدوريـات المحلية والعربية، وشاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات والمهرجانـات الشعرية والأدبيـة في سورية ولبنان والأردن واليمن وتونس وليبيا ومصر والاتحـاد السوفياتـي (سابقـاً) وبلغاريا، وإيطاليا.

- مـا هـو جديـدك الـذي صـدر حديثـاً، أو الـذي سيصدر هـذا العام: وما هو مضمونه؟

• بين يدي الآن مخطـوط للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي بعنوان (عنقاء مغرب) أقوم بمراجعته، وتحقيقه بشكل مختلف عما حاول بعض المحققين أمثال الدكتور سليمان المدني تناول هذا المخطوط، كما أنني أشتغل منـذ سنتين علـى كتاب حـول موضوعات الإبداع والابتكار وحمايـة الملكية الفكرية، وقطعت شوطاً لا بأس به في الوصول إلى أهم المراجع والمصادر المتعلقة بهذه الموضوعات يضـاف إليهما كتاب نقدي حول (القصيدة التشكيليـة) وموقعها من الحداثة الشعرية، مستفيداً من أهم النتاجات الشعرية المدللة على هذا النوع من الكتابة وهو مشروع قديم جديد كنت قد أشرت إليه في مقدمة ديواني (بياتريسـ والبحر) لا سيمـا بعد أن توافر لـدي العديد من الشواهد الحية المعبرة عن هذا النوع مـن الكتابة الـذي تتداخل فيه الأشكال الشعرية بمـا يشبه تداخل الألوان والمساحات في اللوحة التشكيلية، ولعل هذه المقارنة بين القصيدة واللوحة، تكون فاتحة البحت والتمحيص في العلاقة التكاملية بين الألفاظ والألوان عند النقاد المعاصرين.

- حبـذا لو تحدثنا عـن مؤلفاتك الشعريـة والنثريـة، وأيهـا يعـبر عنك إبداعياً وفكرياً؟

• قـد صدر لي مـن المؤلفـات الشعرية والنثريـة واحـد وعشـرون كتابـاً، ثـلاث مسرحيـات، (منسية، ليلة القتل، التاريخ في قفص الاتهام).

ثمان مجموعات شعريـة: (أمطار لوجه العاشق، قابيـل وسفر البحـر، الصعاليك وإرهاصات فوق الرصيف الضيق، إيقاعات من ذاكرة الأيام، بياترس والبحر، مكاشفات عروة بـن الورد الدمشقـي، فاطمة وطيور الفجر المهاجرة، وردة المجرات).

عشـرة كتـب في الدراسـة والتحقيـق والنقد: (الخطاب الثقافي والمشهد السياسي في مواجهـة الغـزو الصهيـوني، خطرات

من دفتر الصحافة، منافع الأغذية ودفع مضارها، تحقيق وشرح ديوان بشار بن برد، من وحي أفكارهم، شاعران معاصران من اليمن (البردوني والمقالح)، الاتجاه القومي في مسرح عدنان مردم الشعري، مقاربات نقدية ج ١، مقاربات نقدية ج ٢، مئة كتاب وكتاب).

لا أستطيع بهذه العجالة أن أعطي مضامين هذه الكتب واحداً واحداً بل أستطيع الإلماح إلى أن المجموعات الشعرية الثمانية تتنوع فيها الأشكال الحداثوية بما فيها القصيدة التشكيلية التي أشتغل على عناصرها الفنية هذه الأيام كقصيدة تؤالف بين الأصول التقليدية للقصيدة التي تقوم على نظام البيت العربي المقفى الموزون وعلى التنويعات العروضية التي تقوم عليها قصيدة التفعيلة، وفي الوقت ذاته على الجزر النثرية، والموسيقا الداخلية لقصيدة النثر، والنص المفتوح.

أما الكتب المتعلقة بالتراث والنقد والتحقيق والمسرح فهي تقوم على أساسيات المنهج العلمي الأكاديمي المعتمد في الرسالات الجامعية باستثناء المسرحيات المستوحاة من إرهاصات الواقع العربي وقضاياه المصيرية (ولا سيما قضية فلسطين) فمسرحية (منسية) وهي مسرحية شعرية، تصور مأساة



فلسطين منذ العام ١٩٤٨م إلى محادثات الكيلومتر ١٠١ عام ١٩٧٣م، وكيف أصبحت قضية فلسطين الأم التي قامت من أجلها حرب الإنقاذ عام ١٩٤٨م من القضايا المنسية وحل محلها الحديث عن الحدود ما قبل الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م. وكذلك مسرحية (ليلة القتل) التي تصور المقاومة الباسلة في قلعة الشقيف عام ١٩٨٢م، وكيف تمكن المقاتلون وعددهم ٣٤ مقاتلاً فقط من الصمود خمسة أيام في هذه القلعة وتمكنوا من إيقاف جحافل العدو الصهيوني، ومنعها من الدخول إلى بيروت بسبب مقاومتهم العنيدة، واستشهادهم حتى آخر مقاتل في تلك القلعة وعندما دخل شارون إلى القلعة لم يجد إنساناً حياً فيها، بل وجد ٣٤ جثة

شهيد مسجاة عند كل سلاح كان يقاتل به ذلك الشهيد أما المسرحية الثالثة وهي بعنوان (التاريخ في قفص الاتهام) فهي تدعو إلى عدم اليأس من المقاومة، وتمجد البطولة والشهادة، وتحث على وحدة الصف العربي في مقاومة العدو الصهيوني الذي لا يفهم إلا لغة القوة، ولن ينسحب من أرض عربية احتلها إلا بفعل المقاومة.

وسألته هذا السؤال المحرج:

- أنت من الجيل الثاني في اتحاد الكتّاب العرب، جيل ما بعد المؤسسين لأن الاتحاد تأسس عام ١٩٧٠ وأنت انتسبت إليه عام ١٩٧٨م فهل أفادك انتماؤك إلى اتحاد الكتّاب العرب؟ وكيف؟

• يفترض أن يكون اتحاد الكتّاب العرب في سورية بيتنا الثقافي الذي يجمعنا تحت سقفه كأسرة إبداعية واحدة، ويفترض بهذه الهيئة الثقافية التي تضم الطليعة والنخبة المبدعة والمثقفة في وطننا أن تكون القدوة والمثال لجميع الهيئات والمنظمات والمؤسسات الثقافية والإعلامية بكل المعايير الديمقراطية، والأخلاقية والاجتماعية. وأنا حين انتسبت إلى هذا الاتحاد، كان همي الأول والأخير أن أستطيع الانتقال بمشروعي الثقافي الذي حلمت به من أيام يفاعتي وشبابي كمشروع ذاتي إلى مشروع جماعي أنفذه مع إخوتي وزملائي حملة راية الحرف والكلمة. ولم يكن موضوع الربح أو الخسارة أو الفائدة الشخصية من دوافعي، وحين تسنى لي أن أشارك في صنع وصياغة بعض القرارات، كنت دائماً صوتاً معترضاً لا بل أقف في وجه من يحاول أن يجير الاتحاد لمصالحه الخاصة، وأن يوظفه كبقرة حلوب لاكتساب المال والشهرة وما إلى ذلك. ولا أقول إنني نجحت في جميع المواقف والآراء التي حاولت إيصالها، ولا أقول فشلت. ففي أي مؤسسة توجد عثرات وإخفاقات يكون سببها أولئك الذين لا يفكرون إلا بمصالحهم الخاصة، ويعملون بعقلية فردية متسلطة، وكأنهم أصحاب تلك المؤسسة، ورثوها عن آبائهم، ويورثوها من بعدهم لمن يشاؤون، ويخيل إلي أنني من خلال عملي في الاتحاد قرابة سبعة عشر عاماً كعضو مكتب تنفيذي وعضو مجلس اتحاد استطعت أن أميز بين المبدع الحقيقي المسكون بالهم الوطني والقومي والإنساني، وبين المبدع الآخر الذي لا يبحث إلا عن خلاصه الفردي، ومكاسبه الخاصة ولا أعطي لنفسي صفة النزاهة المطلقة والأخلاق الصوفية الرفيعة فأنا إنسان أخطئ وأصيب، وقد تكون أخطائي أكثر من حسناتي لكنها على كثرتها أو قلتها

لا يمكــن أن تنازعني إيمــاني أنني حاولت قدر المستطاع في أي مــكان عملت فيه، أن أكون مواطنــاً صالحاً، وخادماً أميناً للأدب والثقافة والقيم التي أحملها، ولم أكن مختالاً جباناً أسكت عن الحق، أو أسمح لأحد ممن أعمل معهم أن يغتــال الحقيقة أو يزورها، وهــذا خلف لي عدداً غير قليل من الأعداء، بعضهم مكشوفون في العلن وبعضهم يكيدون لي بالخفاء حتى الآن.

وسألته:

- مــا رأيــك بنتــاج زملائــك بــكل صراحــة؟ ومــا هو وجــه النقــد الذي توجهه لهم؟

• ليس هناك مستوى واحد للإبداع، حتى لدى المبدع ذاته، فهناك مستويات مختلفة في نتــاج هذا المبدع أو ذاك، والأغلب الأعم في كل ما ينتج علــى الساحة الثقافية من أدب على اختلاف أجناســه ومن فيه على تباين أشكالــه لا يوازي حجــم التحديات الكبيرة التــي تواجهها أمتنــا، حتــى الدراما التي (يطنطن) بها بعض الفنانين ومنتجو الدراما ما زالــت بالقياس إلى المهــام الكبيرة التي يجب أن تقوم بهــا في هذه المرحلة الصعبة التــي تمر بها الأمة، أقل بكثير مما يجب أن تكون والحال هو نفسه في السينما، والمسرح، والفن التشكيلــي والغناء والموسيقا، أما عن الأدب، والنقــد، والشعر والكتابة من خلال مطالعاتي أبعد مــا تكون عن أداء واجباتها في الارتقاء بالذوق الفنــي، وفي مضامينها في البحــث عــن القضايــا الجوهرية التي تعيد بناء الإنســان العربي من جديد، وفق المعــادلات الكونية، والمخاطــر الصهيونية التي تحيق بهذه الأمة، حتى الآن بكل أسف مــا زال عدد كبير من الأدمغــة المبدعة إما مهاجــراً في مواكب العقــول المهاجرة خارج القطر، وإمــا غائباً أو مغيباً ليس فاعلاً في الحركة الثقافية والإبداعية والذين يحاولون أن يبرزوا عضلاتهم على أنهم القادرون على الفعل والحركة، وأنهم الأجدر والأكفأ في تبوء الصفوف الأولى والظهور على الشاشات أو على صفحات الجرائد والملاحق ليسوا أكثر من شلل وكانتونــات ثقافية مخربة للثقافة، ومعيقــة لأي عملية حراك ثقافي مستقبلي، وأناهــا المتورمــة، والتسابــق للوصول إلى الكعكــة، وقضم ما تستطع قضمه منها، هو من الأمراض التي تكاد تكون مزمنة في وطننا وبدلاً من أن يكون هناك جيش من المثقفين والمبدعين، العاملين النشطين كل في ميدان إبداعــه، للارتقاء بالوعي المعرفي لمجتمعنا، يقتصر الأمر على عدد ضئيل، يريد أن يؤكد حضوره من خــلال ثقافة الإلغاء والإقصاء والتشفــي من المبدعين الآخريــن. متناسياً

أو متجاهــلاً أو جاهلاً وجــه النقيض بين ثقافة الإيثار والتعاون والمشاركة في الخندق الثقافي الواحد وبــين الثقافة القائمة على الكراهية والإقصاء والاستئثار.

- ما رأيك بالحركة الأدبية في سورية وفي مراحل تطورها أو تراجعها؟

• كما ذكرت آنفاً البنى والأدوات والعناصر والمؤسسات التي تتشكل منها الثقافة، وتقوم على سواعدها أية نهضة أدبية أو فكرية أو فنية ليست كما ينبغي، ولكي لا تكون أحكامنا عامة وجزافاً نشــير إلى أهم المعوقات التي تحــول دون صعود الحركــة الأدبية بموازاة الحركات الأدبية والثقافية في بعض الأقطار العربيــة التي كانــت بلاد الشــام برقعتها الجغرافية والتاريخيــة الواحدة منهل تلك الحركات الأدبيــة والفكرية، وأهم روافدها عبر التاريخ.

فــإذا مــا نظرنــا إلى واقــع المؤسسات والهيئات المعنية بالعلــوم والآداب والفنون، نجد أنها في الأغلــب الأعم منها تشكو من جهــل القيمين عليهــا، أو تقاعس العاملين فيهــا. أشــير على، سبيل المثــال لا الحصر (الجامعــات، المراكز الثقافيــة، الدوريات المتخصصة، الترجمــات، دور النشر العامة والخاصــة، المجلس الأعلــى لرعاية الفنون والآداب والعلــوم الاجتماعيــة الذي تبخر وأصبــح في خبر كان المحذوف بعد أن ألحق بمجلس البحث العلمي، مع أن مهمة المجلس أكثر اتساعاً وشمــولاً في اختصاصاته، ولو تمَّ تفعيله بالشــكل الصحيح، لكان المجلس الوحيــد الذي يستوعب جميــع الإبداعات والابتــكارات والاكتشافــات والإضافــات العلمية والأدبية والفنية التي تنتجها الأدمغة الفاعلة لا بل الفعالة في المجتمع. وقس على ذلك، فكيف تنهض حركــة أدبية أو ثقافية أو فكريــة أو فنية على أيدي من لا يدركون أهمية الأماكن التي يعملون فيها.

باختصــار شديــد هنــاك تراجع على المستويات كافة التعليمية والإبداعية، ولا بد مــن مراجعة شاملة، وتقويم موضوعي بعيد عن أي غرض آخر للواقع الثقافي بكل أدواته وبناه وعناصره ثــم وضع الخطط والبرامج الاستراتيجية لكل هيئــة ومؤسسة، ومتابعة دقيقــة وصادقــة في تنفيذ تلــك الخطط والبرامج على الوجه الأكمل.

- هــل ترى أزمــة في انتشــار وسائل حديثــة على مسألة النشر، بعد انتشار الإنترنت؟

• لا شــك أن الكتــاب الالكــتروني أخذ أبعاده بعد ظهور الإنترنت، ولكن ذلك لايعني أن حركة الكتــاب، وانتشــاره، والاستمرار في وجــوده، أصبــح لا مبرر لــه. إن اختيار

الموضوعات الهامة، والمضامين ذات السمات الحيوية الخاصة، الحاملة لأنسام التجديد، والتحديث في المجالات العلمية والأدبية والفنية كافة، ومناقشة تلك الموضوعات بأسلوب أدبي رفيع، والوقوف عند أهم الإضافات. أو الآراء النقدية أو العلمية الجديدة، يجعل من الكتاب مرجعاً لا غنى عنه لأي باحث وأي طالب علم ومعرفة، أما إذا اقتصر الأمر على اجترار ما هو متداول، وتكرار ما جاء به الأقدمون، ففي هذه الحالة يفقد الكتاب مبرر وجوده، ويتراجع للخلف أمام وسائل الاتصال الحديثة التي بدأت تقدم خلاصة تلك الكتب مجتزئة منها ما يناسبها ويناسب خططها الإعلامية والثقافية. الأزمة قائمة وأسبابها ليس فقط الإنترنت بل دور النشر اللاهثة وراء الربح، والكتب الرائجة وبعض الأسماء التي لا تحمل مشروعاً ثقافياً بل تسعى لتحويل الكتاب إلى سلعة رابحة مهما كانت الدواعي والأسباب، يضاف إلى ذلك العوائق السياسية والاقتصادية بين هذه الأقطار.

وكان هذه السؤال:

- ماذا توجه للأدباء الجدد على صفحات المعرفة؟

• لا أحب أن أكون في الموقع الذي يقف فيه المعلم قبالة السبورة، فأنا كأي أديب وشاعر من هذا القطر، أستطيع أن أتحدث عن تجربتي الشعرية وعن المشروع الثقافي الذي حملته منذ أمسكت بالريشة وقررت الكتابة والتعبير عن الجوّاني في صدري، وعن المخزون الفكري الذي أحمله في دماغي، أستطيع القول باطمئنان، إن أي مبدع أو مثقف أو حتى أي إنسان لا بد له أن يحدد خياراته في الحياة، وهذه الخيارات تُعرف بشخصية صاحبها، فالذي اختار أن يكون رجل أعمال أو معلماً أو طبيباً أو مزارعاً أو حرفياً عليه أن ينجز مشروعه بمنتهى الأمانة والإخلاص، فما بالك عندما يكون صاحب الاختيار شاعراً أو فناناً أو كاتباً أو مثقفاً؟ لا بد أن يكون مشروعه عظيماً، بحجم الهموم الوطنية والقومية والإنسانية التي يحملها كدليل، وإنسان فعال في محيطه، والدليل لا يكذب أهله، والإنسان الفعال لا يقبل أن يكون هامشياً، وعلى قدر الهمم والطموحات يكون الجهد والسعي الجاد لتحقيق ذلك المشروع الثقافي الذي اختاره وأعد له لوازمه وعدته التي تشبه إلى حد كبير عدة المحارب التي تبدأ من مطرة الماء، ثم التزود بالصبر والإيمان، والإرادة والشجاعة في الدفاع عن الحق والحقيقة ضد أعداء الحق والعدالة والحرية في أي مكان من هذا العالم، وليس مطالباً أكثر من

ذلك بعد أن يقــول كلمته الجريئة الصادقة الخالصة لوجه الحق والحقيقة، ويجسدها سلــوكاً ووقفاً حياتياً حتى آخر شهيق وزفير من عمره.

ويخيل إليّ أن التاريخ العام وتاريخ الأدب والإبداع بشــكل خاص قدم لنا نماذج كثيرة وعظيمــة من هــذه القامــات العالية التي أخلصــت لإبداعها، وكانــت الأنموذج الذي يحتذى بــه للراغبين بالانضمــام إلى هذه الشريحة المثقفة من المجتمع، وخير ما أختم به وصية أحــد الشعراء لولده الذي أراد أن يسلك الدرب التــي سلكها والده عن طريق الإبداع قائلاً له:

يا بنيّ
يا أيها الصوت الأبيّ
مهلاً رويدك
لا تكن وجهاً بلا لون،
ولا ضوءٍ، ولا عينين
كن أنت أنت،
ولا تكن أحداً سواكْ.
ستكون أنت بما جنته يداكْ،
فعلام تشكو من جراحكْ،
والمدى رحب،
وهذي الأرض لم تنبت سوى العشب الندي
فأنت من طينٍ جُبلتَ
وأنت من طهرٍ عجنتَ
وعلى يمينك قلعة شمّاء تطبع فوق خدّ الشمس،
صورة أمةٍ كتبت بسفر المجد أوّل أحرف البيت العتيق.
وعلى يسارك شامخٌ،
تتنفس الصحراء من أنسام سارية له عند العشيّ
ما من لغات غير صوتك والصدى
والحرف في يدك الصديق
والسيف حرفك يا بنيّ



متابعات

متابعات



صفحات من النشاط الثقافي

❊
أحمد الحسين

تريم عاصمة للثقافة الإسلامية:

احتفلت اليمن بتتويج مدينة «تريم» عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠ وفقا لإعلان المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم «الايسيسكو» تقديرا لدورها العلمي ومكانتها التاريخية والثقافية والفكرية.

ويتضمن برنامج الاحتفالية السنوية بهذه المناسبة تقديم /١١١/ فعالية ثقافية وفنية وفكرية، منها ١٢ معرضاً تتنوع ما بين الحرف اليدوية والصور

❊ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

الفوتوغرافيــة والأزياء والمــوروث الشعبي، إضافــة إلى ١٥ ملتقــى ومهرجاناً ومؤتمراً كمؤتمر دور «تريم» العلمي

في التاريــخ الإسلامي، وملتقى الطفولة العربــي والإسلامي، وملتقى دمون الشعري للشعــراء الشباب العــرب وآخر عن الفنون التشكيلية في العالم الإسلامي، إضافة لمهرجان باكثير، وليالي تريم ومهرجان الشعر الشعبي، كما يتناول البرنامج ٢٤ ندوة احتفائية بـ٢٤ علماً من أعــلام اليمن، وتنظيم أيام ثقافية لكل محافظة من محافظات اليمن، وأسابيع ثقافيــة ماليزيــة واندونيسيــة وتركية، إلى جانب المحاضرات والفعاليات الأخرى.

وكانــت المنظمــة الإسلاميــة للتربيــة والثقافة والعلوم الايسيسكو اختارت مدينة تريم لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠ تنفيــذاً لقــرارات المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة الذي عقد بالجمهورية الجزائرية في شهــر ديسمبر من عام ٢٠٠٤ إذ تمَّ فيــه إقرار إقامــة العواصم الثقافية الإسلامية، حيث تمَّ ترشيح عدة مدن إسلامية تمثل المنطقة العربية والآسيوية والإفريقية لتختار منها الايسيسكــو ثلاث مدن في كل عام كعاصمة للثقافة الإسلامية.

وجــاء اختيــار مدينــة تــريم كعاصمة للثقافــة الإسلامية لعام ٢٠١٠ لما تمثله من مرجعية دينيــة وعلمية وفكرية وفنية مهمة للتاريخ الإسلامي منذ تأسيسها، وما تحتويه من منارات علمية وأربطــة فكرية كان وما زال لهــا الــدور الريــادي والبــارز في نشر العلوم الدينية والفكرية على امتداد خارطة المعمورة.

وأكد وزير الثقافة اليمني الدكتور محمد ابوبكــر المفلحي بهذه المناسبــة: أن اختيار تريم عاصمة للثقافة الإسلامية يعد خطوة مهمــة في طريق سعــي اليمــن إلى ضمها لقائمــة اليونسكو للتراث العالمي لتنضم إلى جانب مدينة زبيد إحــدى أهم مستودعات التراث اليمنــي الإسلامــي، والتي أدرجت ضمــن ثلاث مدن يمنية في قائمة اليونسكو للــتراث العالمــي عــام ١٩٩٣م، وإلى جانب مدينتي صنعاء القديمــة وشبام حضرموت التاريخيتــين، وذلــك إضافــة إلى جزيــرة سقطرى التــي انضمــت إلى قائمة التراث العالمي الطبيعي في يوليو تموز الماضي.

مــن جانبــه أوضح مدير عــام المنظمة الإسلاميــة للتربيــة والثقافــة والعلــوم «الايسيسكو» الدكتور عبد العزيز التويجري، أن الاحتفال بتريم عاصمة للثقافة الإسلامية يأتي لما تتميز به المدينة التاريخية من تراث إنســاني وحضاري كبير، كمــا يأتي عرفاناً

للـــدور الكبير الذي قدمته المدينة في خدمة الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.

واشتهرت تريم بكـثرة مساجدها حيث وصل عددها إلى ثلاثمئــة وستون مسجداً، لكن العدد تقلص ليصل في الوقت الحاضر إلى مئة مسجــد تقريبــاً، أشهرها المسجد الجامع المقام في قلــب المدينة والذي يرجع تاريــخ بنائه إلى ما قبــل ألف عام، إذ يروى أنـــه بني في عهد الحســين بن سلامة الذي ولي الحكم في اليمن عام ٣٧٥هـ وإلى جانب المسجــد «الجامع» في تــريم توجد مساجد أخــرى لا تقل عنــه جمالاً وسعــة وحسن تصميم مثل مسجد بن علوي وهو من أشهر مساجد تــريم وأكثرها زواراً بالمصليين وهو مسجد قديم أسسه الإمام علي بن علوي في حوالي عام ٥٣٠هـ، بنـــي من الطين والنورة على أجمل صورة.

ومـــن مساجد تــريم الشهــيرة مسجد المحضار الذي بنـــاه عمر المحضار بن عبد الرحمـــن السقـــاف، وهـــو مقصـــد الزوار والسيـــاح لما يمتاز به من فن هندسي جميل في عمارتـــه، خاصة منارتـــه الشامخة التي يبلغ ارتفاعها حوالي ١٥٠ قدماً وكان بناؤها في حوالي ١٣٣٣هـــ وهي مبنية من اللبن – الطين– وجذوع النخيل، كما اشتهرت المدينة بانتشار أشجار النخيل في مزارعها وحدائق بيوتهـــا ومنتزهاتها وبأصنـــاف شتى ونظراً لانتشار المزارع والحدائق والمنتزهات سميت بتريم الغناء.

وقـــد اشتهر عمال وبنّاؤو تريم بالأخص من بين أهالي حضرموت في مهنة البناء حيث طوعوا مادة الطين لتعطي أشكالاً وزخارف معمارية لا يصدق المرء أنها من مادة الطين، ولذلك أصبحت تريم اليوم تزهو بقصورها الساحرة الباهرة التي من أجملها وأعظمها قصر عشـــه لآل الكاف وقصر المنصورة لآل بن يحيى وكذلك بمآذن مساجدها المتنوعة والمختلفة المنتشرة في كل مكان، ولعلَّ أشهرها على الإطـــلاق مئذنة مسجد عمر المحضار التي تعتبر آية في الإبداع المعماري والتصميم والتنفيذ الهندسي حيــث نفذت من الطين والتبل وبأيادي تريميـــة، وتعد أطول مئذنة مبنية من الطين في العالم.

ولا يقتصر جمال مدينة تريم على ذلك فقط، بل إن المدينة توصف أيضاً بأنها تعد كنـــزاً للمخطوطات الثمينـــة والنادرة، التي تمَّ تجميعها مـــن المكتبات الخاصة ووضعها في مكتبـــة الأحقاف للمخطوطـــات، والتي افتتحت عـــام ١٩٧٢م، وتحوي ما يزيد عن خمسة آلاف مخطوطة، كل ذلك هيأ المدينة لتتبوأ مكانة سياحية عظيمة يتهافت السياح لزيارتها من مختلف بقاع الأرض.

وتقع «تريم» المشهورة أيضا باسم «الغناء» والمعروفة بأنها لؤلؤة مدن حضرموت وفاتنة الصحراء وعروس الوادي، في الجزء الشرقي لمحافظة حضرموت، وقد اختلف العلماء والمؤرخون حول مرد اسم هذه المدينة التاريخية فحسب ما جاء في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي فإن تاريخ بنائها يعود إلى القرن الرابع الميلادي، وأنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها «تريم» وهو أحد أبناء ملك حضرموت بن سبأ، في حين تقول روايات أخرى إن تسمية مدينة تريم جاءت نسبة إلى «تريم بن السكون بن الأشرس بن كندة» أحد ملوك «حضرموت»، بينما يرى الزبيدي صاحب تاج العروس إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى بانيها «تريم بن حضرموت».. واختطت مدينة تريم كما يؤكد المؤرخون العرب في القرن الرابع قبل الميلاد، بحسب ما جاء في «معالم تاريخ الجزيرة العربية»، أن تريم أسست في عهد الحكم السبئي لحضرموت وسميت باسم أحد أولاد سبأ الأصغر، وهناك رأي آخر يقول: إن تريم اختطت في زمن «أسعد الكامل» من التبابعة الحميريين في القرن الرابع الميلادي وتتوافق هذه الرواية مع ما جاء في كتاب «شرح الصدور» للسيد علي بن عبد الرحمن المشهور من أن حصن الَرناد بني قبل البعثة النبوية بأربعمئة عام.

وقد ذكرها ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب: إن «تريم بلدة من حضرموت أعدل أرض الله هواء وأصحها تربة وأعذبها ماء وهي قديمة معشش الأولياء ومعدنهم ومنشأ العلماء وموطنهم وهي مسكن الأشراف آل باعلوي، ويذكر أنها تنبت الصالحين كما تنبت الأرض البقل واجتمع بها في عصر واحد من العلماء الذين بلغوا رتبة الإفتاء ثلاثمئة رجل وإن بتربتها ممن شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم من الصحابة سبعين نفرا.

ولأن مدينة تريم كانت عامرة بالروحانية فقد احتفظت بمكانتها كعاصمة دينية لوادي حضرموت، حيث ما تزال مركز تنوير وإشعاع للدراسات الإسلامية يقصدها طالبو العلم من كل حدب وصوب لينهلوا من علمها الغزير وما تزال على حالها منذ ظهور الإسلام وحتى عصرنا الراهن.

أما أشهر علماء الدين الذين أنجبتهم تريم فهو العلامة عبد الله بن علوي الحداد وأبو بكر بن شهاب والشاطري وفي العصر الحالي أنجبت المدينة مجموعة من خيرة العلماء منهم السيد سالم الشاطري وعلي مشهور بن حفيظ وأخوه عمر بن محمد بن

حفيظ والداعي الإسلامي الحبيب علي زين العابدين الجفري والشيخ علي سالم بكير والكثير من العلماء الأجلاء.(١)

إطلاق موسوعة الشعر الإلكترونية:

أصدرت دار الكتب الوطنية في هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث الموسوعة الشعرية التي تعتبر نافذة الجمهور إلى جواهر الشعر ولآلئ النثر.

ويأتي إطلاق الموقع الإلكتروني لهذه الموسوعة الضخمة بعد أكثر من ١٢ عاماً على الإصدار الأول من الموسوعة الشعرية (١٩٩٧)، وانسجاماً مع سياسة هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث، صاحبة المشروع والمبادرة إلى إطلاقه، ومالكة حقوق نشر مواده، في دعم الثقافة العربية، بقديمها وحديثها، والترويج لها وجعلها متاحة لأكبر عدد ممكن من القراء والمهتمين، كما يشكل خطوة إضافية على طريق تكريس العاصمة (أبوظبي) دورها كمركز ثقافي في المنطقة العربية والعالم.

ويطمح موقع الموسوعة في هذا السياق إلى أن يكون مرجعاً ومصدراً رئيسيين لكل مهتم، ليس فقط بالشعر العربي، بل بالتراث العربي بمختلف أشكاله، حيث يتضمن المئات من أمهات الكتب التراثية التي بعضها لا يتوافر حتى في صيغة ورقية، حيث تمَّ تصميم الموقع وفقاً لأحدث المعايير التقنية التي من شأنها جعل عملية التصفح عملية ممتعة ومفيدة في آن معاً، وكان الحرص خلال الإعداد لموقع الموسوعة على ألاّ يكون مجرد حيز أرشيفي، على أهمية ذلك، بل أن يكون أكثر حيوية من خلال الخدمات التفاعلية التي يتيحها، والتي تسبغ على عملية التصفح صبغة شخصية، حيث في وسع كل متصفح إيجاد حيزه الخاص ضمن الموقع، والتفاعل مع القيمين عليه، وتدوين انطباعاته وسوى ذلك من خدمات تفاعلية.

ويتضمن موقع الموسوعة الإلكتروني، على شكل أسطوانة مدمجة، ٢٦٩٣ ديواناً، يبلغ عدد أبياتها ٢٨٩٠٣٠١ بيتاً في ١٣٨٦٤١ قصيدة، كما يتضمن ١٠٨١ كتاباً من أمهات كتب التراث العربي العلمية والأدبية والتاريخية، إضافة إلى عشرة معاجم لغوية، وبذلك يكون أكبر موقع إلكتروني عربي يعنى بالأدب والثقافة حتى الآن.(٢)

المدونات في ندوة مجلة العربي:

افتتح وزير الإعلام الكويتي الشيخ أحمد العبد الله الأحمد الصباح فعاليات ندوة مجلة العربي السنوية التي اتخذت من «الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة» عنوانا لها، وسط حضور بارز لعدد كبير من

الشخصيات الفكرية والأدبية والدبلوماسية العربيــة، فضــلاً عن أبرز الوجــوه الأدبية والثقافية في المجتمع الكويتي.

وأكــد الوزير الصبــاح في افتتاح أعمال الندوة أن الدور الذي قامت به مجلة العربي خلال السنوات التي مضت في نشر إبداعات العقل العربــي تحقق دون تفرقة أو انحياز، وأن إصدارات مجلــة العربي أغنت الثقافة العربيــة على مــدى أكثر مــن نصف قرن، موضحــاً أن ثمة دوراً آخــر تلعبه «العربي» فهي تقوم مرة كل عــام بجمع نخبة مختارة مــن الكتاب والإعلاميــين العرب كي يحلوا ضيوفاً على البلاد ويناقشوا قضايا الثقافة المعاصرة، مشيراً في الوقت ذاته إلى أن الثورة التــي أحدثها تطور هذه الوسائط تتمثل في أنهــا بعد أن كانت وقفــا خاصا للحكومات والأنظمــة أصبح جزء منهــا تحت سيطرة الأفراد، موضحاً أن الإنترنت فتحت المجال حراً لكل إنسان ليعــبر عن نفسه بطريقة لم تتوافر مــن قبل، مضيفاً أننــا كأمة عربية نعيشــ في مأزق حضــاري يهــدد وجودنا وكياننا القومي.

مــن جهتــه قــال رئيس تحريــر مجلة «العربي» الدكتور سليمان إبراهيم العسكري: إن أهميــة هذه الندوة تنبــع من أنها تجمع نخبة من العقول العربية المبدعة التي تقيم الثقافة العربية من ناحية والوسائط الحديثة مــن ناحية أخرى، وأشــار إلى أن الحوارات المثمرة التــي ستشهدها الجلسات ستنطوي على أهمية عنصــر الفكر والثقافة وتعميق الإنجاز الفكري في الساحــة العربية، وألمح إلى تخصيص بعض جلسات الندوة لمناقشة موضــوع (المدونات الإلكترونيــة) والتطرق لإبداعات القائمين عليها وحدودها ورقابتها بعد أن أصبحت خــارج الحدود الجغرافية المتعارف عليها.

وفي كلمته باسم المشاركين العرب تحدث المفكر المصــري السيد ياســين عن ضرورة الاستفادة من الطاقات الشابة التي وجدت في التدويــن نافذة تطل منهــا علينا بعد أن أغلقــت الكثير مــن الأبــواب والنوافذ في وجهها، وطلب مــن المجتمع الثقافي العربي ضرورة إعــادة هذه الطاقات مــن الفضاء الافتراضــي إلى أرض الواقع، مشيراً إلى أن المجتمــع الصناعي تحكمه وحــدة السوق، وأنــه لا بد من إعادة صياغــة العلاقة بين حريــة السوق وواجبات الدولة، موضحا أنه ليس هناك مجتمع معلومات بغير ديمقراطية وشفافية وحرية تداول المعلومات.

وتضمــن حفــل افتتاح نــدوة «العربي» فيلماً توثيقياً يحكي تاريخ المجلة ومسيرتها الثقافيــة والأدبية وخدمتهــا في إثراء اللغة

العربية على مــدى ٥٠ عاماً، وتخلل الحفل تكريم عدة جهات مختــارة لهذا العام وهي مؤسســة الإنتاج البرامجــي المشترك لدول الخليج العربية، ومركز البحوث والدراسات الكويتيــة، وموقع جهة الشعــر، وقناة النيل الثقافية المصرية، وموقع الوراق الإلكتروني، كمــا شمل حفــل الافتتاح أيضــاً معرضا لـ «رســوم فناني العربي» وشــارك فيه كل من الفنانــين التشكيليين: حلمــي التوني وأمين الباشا ومحمد حجي ومحمد أبو طالب.[٣]

مؤتمر حول دور المرأة في التراث:

أقــام المجلس الأعلــى للثقافة المصري مؤتمراً ناقش فيه دور المرأة في التراث الفني المعاصر، حيث تنــاول المشاركون في المؤتمر العديد مــن المحاور التي تكشــف عن دور المرأة ومكانتها في التراث الفرعوني، والتراث القبطــي، والتراث الإسلامــي، وفي العصر الحديث، وتناولت أولى جلسات المؤتمر عدة موضوعات تمحــورت حول الحب في مصر القديمة، والمرأة في العصر البطلمي، ووضع المــرأة في العصر الروماني، إلى جانب بعض الموضوعات المتنوعــة ومنها: فيرنا القبطية وتأثيرها على المجتمع السويسري وورقة حول أفراح سيوة، ونماذج لمصريات معاصرات.

وجــرى في فعاليــات المؤتمــر تقــديم مجموعة مــن الأبحاث المتصلــة بالمرأة في الفن القبطــي والمنسوجات، وبملابس المرأة في العصــر القبطي، والمــرأة في النصوص القبطية والمرأة في الأمثال الشعبية، وظاهرة العنف مع المرأة.

كما شملــت فعاليات المؤتمر موضوعات متنوعة تمحورت حول المــرأة والفن ومنها: المرأة كعنصر تشكيلي في التصوير الجداري الإسلامي، والــدور التنموي للمرأة، ومكانة المرأة في الإسلام، وسيكولوجية المرأة.

ما يجدر ذكــره أن المؤتمر أتى بمناسبة احتفــالات اليوم العالمي للمــرأة وقد أقامه المجلس الأعلى للثقافة بمتحف الفنانة عفت ناجــي إحدى رائــدات الحركــة التشكيلية المعاصــرة، ويقــع المتحــف في حــي سراي القبــة، حيث سكن الفنان سعد الخادم رائد الدراسات والفنون الشعبية، وزوجته الفنانة عفت ناجي التــي تبنت في أعمالها استلهام عالم الأساطير الشعبية.[٤]

عبده خال يفوز بجائزة بوكر العربية:

فــاز الروائــي السعــودي عبــده خال بالجائــزة العالميــة للرواية العربيــة «بوكر العربيــة» لعــام ٢٠١٠ عن روايتــه «ترمي بشرر»، وتمَّ الإعلان عن اسم الفائز بالجائزة في العاصمة الإماراتية (أبو ظبي)، بحضور

حشد من المفكرين والنقاد والناشرين والكتاب والصحفيين العرب والأجانب.

وقال رئيس هيئة التحكيم، الكاتب الكويتي طالب الرفاعي: لقد مارست لجنة التحكيم عملها خلال المراحل المختلفة للجائزة محتفظة باستقلالية قراراها ونزاهة تعاملها مع جميع الأعمال الروائية المتقدمة للجائزة، مع التأكيد على وجود روايات جيدة وممتعة لم يكتب لها الوصول إلى القائمتين الطويلة أو القصيرة، موضحاً أن الرواية تصور برمزية فائقة عوالم السلطة المطلقة بقدرتها على تدمير الأشخاص والنفوس والأمكنة.

وقد اعتبر الناقد جابر عصفور رواية ترمي بشرر، مواصلة في مسيرة عبده خال الخلاقة، حيث نعثر فيها على شخصيات ملعونة ومعطوبة بالكامل، بلا هوية واضحة أو ملامح تميزها. شخصيات في تضاد مع شروط المكان، مؤكداً أن الكتابة الروائية عند صاحب «مدن تأكل العشب» هي فعل فضائحي بامتياز، لأن التاريخ الرسمي الذي لا يكتب الفضيحة (في مستوياتها المتعددة) يغدو تاريخاً مزوّراً أو مشكوكاً في صحة أجزاء منه.

على صعيد ردود الفعل حول فوز هذا الكاتب المثابر، اعتبر وزير الثقافة السعودي عبد العزيز خوجة أن عبده خال سفير المملكة في الإبداع، وقال: إن فوزه بهذه الجائزة يعكس حيوية الحراك الثقافي السعودي، فيما قال الروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل إن عبده خال يستحق الجائزة، وفقاً للأعمال التي كتبها وتعتبر، من وجهة نظره، هادفة وفيها مواقف انتقاديه للواقع الاجتماعي، في شكل جريء، مشيراً إلى أن عبده خال، كان منذ بداياته يبشر بهذه الطاقة الروائية.

وأكد الناقد سعد البازعي أن صاحب (الأيام لا تخبئ أحداً) من الأسماء التي ينبغي أن نفتخر بها، فهو من القلة التي تحترف الكتابة السردية، وبجدية يقل نظيرها في السعودية. وأعماله منذ البدء جديرة بالاهتمام والتقدير النقديين، على رغم ضآلة الاهتمام النقدي الذي حصل عليه وتوجّه ذلك الاهتمام في كثير من الحالات إلى أعمال مثيرة، إما لأسباب سياسية أو لأسباب اجتماعية ضعيفة الصلة بالكتابة السردية. وأشار البازعي إلى أن عبده خال ظل الأكثر وفاءً للكتابة الروائية وممن كتبوا الرواية في وقت لم تكن بدأت فيه طفرة الكتابة الروائية التي نراها اليوم، والتي جعلتها أقرب إلى الموضة منها إلى الانشغال الإنساني والإبداعي الكبير، وقد بلغت في هذا السياق حداً غير مسبوق.

ويعبّر الناقد صالح زياد عن ابتهاجه بهذا الفوز، لافتاً أنه سيلفت النقاد والقراء إلى قراءة عبده خال، وسيفتح للرواية الفائزة – وربما- لغيرها من أعماله باب الترجمة إلى لغات أجنبية، مشيراً إلى أن هذا ليس مكسباً لعبده خال فقط إنما هو مكسب للثقافة والإبداع السردي تحديداً في المملكة.

أما الناقد مبارك الخالدي فقد أكد استحقاق عبده خال الجائزة، موضحاً أنه لا يطلب من أي نص سردي سوى أن يكون ممتعاً وشائقاً في المقام الأول، ويمنح المتلقي فرصة لتحليق المخيلة وتيقظ الذهن، وفي رأيه أن رواية (ترمي بشرر) خذلته لأنها لم تقدم له المتعة التي كان ينشدها.

وتدار الجائزة بالتشاركية مع مؤسسة جائزة بوكر البريطانية، وبدعم من مؤسسة الإمارات للنفع الاجتماعي، ويشار إلى أن ١١٣ رواية عربية من ١٧ دولة تنافست على الجائزة هذا العام، ويحصل المرشحون الستة، في القائمة المختصرة، على ١٠ آلاف دولار، أما الرابح فيفوز بـ ١٥ ألف دولار، وفاز بالجائزة من قبل بهاء طاهر عن «واحة الغروب»، ويوسف زيدان عن رائعته «عزازيل». (٥)

جوزيف حرب يفوز بجائزة الأدب اللبناني ٢٠١٠:

فاز الشاعر اللبناني جوزيف حرب بالجائزة الأولى التي منحها مجلس العمل اللبناني في (أبو ظبي) لعام ٢٠١٠ وذلك بمناسبة احتفالات بيروت عاصمة عالمية للكتاب.

ونال الشاعر الكبير (حرب) جائزة الأدب اللبناني التي أعلنها في بيروت رئيس المجلس ألبير متى عن كتابه الشعري «زرتك قصب فليت ناي» المكتوب بالمحكية اللبنانية ويعتبر هذا الكتاب الصادر عام ٢٠٠٩ عن دار رياض نجيب الريس الرابع للشاعر حرب بالمحكية اللبنانية بعد «مقص الحبر» عام ١٩٩٥ و«سنونو تحت شمسية بنفسج» عام ٢٠٠٤ و«طالع عبالي فل» عام ٢٠٠٧، ويعد الكتاب الفائز بالجائزة الأولى هو الكتاب الشعري الثالث عشر للكاتب حرب بعد أن صدرت له مجموعات شعرية كرست مكانته الرفيعة في الشعر العربي عموماً واللبناني خصوصاً منذ بداية نشره «شجرة الأكاسيا» عام ١٩٨٦ تلته «مملكة الخبز والورد» عام ١٩٩١، «الحضر والمزمار» عام ١٩٩٤، «السيدة البيضاء في شهوتها الكحلية» عام ٢٠٠٠، «المحبرة» عام ٢٠٠٦، «رخام الماء» ٢٠٠٨، «كلك عندي إلا

أنت» عام ٢٠٠٨ و«أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها» عام ٢٠٠٩.

يذكر أن جائزة مجلس العمل اللبناني وقدرها خمسون ألف دولار منحت لستة فائزين يقدم نصفها للفائز الأول ونصفها الأخير يوزع على خمسة فائزين هم فؤاد الحاج عن «حماري والكومبيوتر» وحسن عبد الله عن «فرح» والهام منصور عن «تركت الهاتف يرن» ومحمد علي شمس الدين عن «اليائس من الوردة» وحسن داوود عن «مئة وثمانون غروباً». (٦)

معرض الرياض الدولي للكتاب:

افتتح وزير الثقافة والإعلام الدكتور عبد العزيز خوجة، معرض الرياض الدولي للكتاب الذي تطلقه العاصمة السعودية بشكل منتظم كل أول ثلاثاء من شهر مارس سنوياً.

وأكد الخوجة خلال تفقده أجنحة المعرض أن السوق السعودي والأجواء المهيأة للناشرين في المعرض أتاحا مشاركة عدد كبير من دور النشر هذا العام إضافة إلى سقف الحرية الحالي آملاً أن يتيح معرض العام القادم (٢٠١١) مساحة للناشر الإلكتروني وسط هذا الكم الكبير من دور النشر.

شاركت في المعرض هذا العام ٦٥٠ دار نشر من داخل المملكة وخارجها، منها دور نشر هي وكيل لأكثر من ٢٠ دار نشر أجنبية، بصنوف العلم والمعرفة والآداب والثقافات، إضافة إلى حلول دولة السنغال «ضيف الشرف»، تلك الدولة التي قال عنها مدير معرض الرياض الدولي للكتاب الدكتور عبد العزيز صالح العقيل: إن السنغال حاضرة في الثقافة بقوة بثراء حراكها الثقافي في القارة الأفريقية بسماتها العربية الإسلامية المتميزة، فهي ذات تأثير كبير في نشر الثقافة العربية والإسلامية في أفريقيا.

ويرى المعنيون بالشأن الثقافي أنه منذ انتقال مسؤولية تنظيم المعرض من وزارة التعليم العالي إلى وزارة الثقافة والإعلام عام ٢٠٠٧ بات معرض الرياض الدولي للكتاب يكتسب زخماً، واهتماماً واسعين محلياً وعربياً، وتسلط عليه الأضواء بكثافة، إضافة إلى ما يحدثه من ضجيج في ظل مواقف بعض المتشددين حياله، وهو ما يحدث جدلاً مفرغاً من الموضوعية والمعرفة طبقا لآراء كثير من المراقبين الذين يتطلعون هذا العام إلى تجاوز ما اعتبروه فتوراً في البرنامج الثقافي المصاحب للمعرض في الدورة الماضية، حيث شهد معرض هذا العام حضوراً كبيراً لكتّاب الطفل ومشاركة المرأة عبر الإعداد والحضور والندوات، حيث تمَّ تخصيص الجناح (٣٧) للطفل، ويتميز

بتقــديم أنواع من المحتوى الفكري التعليمي والإرشادي والترفيهي بأسلوب متعدد مشوق وجميل سمته الألوان والوضوح تحت عناوين وإصــدارات عديدة تشمل اللغة الإنجليزية، مشيراً إلى حرص المعرض على إقامة أنشطة موجهة كمكتبة مفتوحة للقراءة الحرة، وركن للأعمــال الفنية، ولقاء مــع كتّاب وكاتبات متخصصــين ومتخصصــات في الكتابــة للطفــل، إلى جانــب أنشطة عــن الأساليب الحديثة في الكتابة للطفل. (٧)

تونس تكرم الطاهر الحداد:

كرمــت السفــارة التونسيــة ببريطانيا الطاهر الحــداد بعد ترجمة كتابه /امرأتنا في الشريعة والمجتمع/ إلى اللغة الإنجليزية، وذلــك بحضور عــدد من السفــراء العرب ببريطانيــا ومجموعــة مــن الدبلوماسيين وممثلين عن منظمــات، وإعلاميين، وعدد من الأكاديميين.

وقد افتتحت السفــيرة التونسية حميدة مرابط العبيــدي النــدوة التكريمية بكلمة شكــرت فيهــا بشــكل خاصــ المحاضرين الدكتــور دانيــال نيومان والدكتــورة رونق حسني اللذين حصلا علــى تكريم الرئيس التونسي زيــن العابدين بن علي سنة ٢٠٠٨ بمناسبة عملهما الممتاز في مجال الدراسات الإسلاميــة، ولاشتراكهمــا في تأليف كتاب «النســاء المسلمــات في القانــون والمجتمع» الذي هو ترجمة لكتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» للطاهر الحداد.

و أشــارت السفــيرة التونسية في كلمتها إلى أن احــترام حقــوق الإنســان له جذور وتاريــخ عميق في تونس حيــث القناعة بأن حقوق الإنســان تشمل الرجال والنساء على حــد سواء، وهذا ما جعل حقوق المرأة جزءا من التقاليد، مشيرة إلى دور الطاهر الحداد في انطــلاق مسيرة تحرير المرأة،ثم القوانين التي أصدرت منــذ ١٩٥٦ والتغييرات التي عرفتها مجلة الأحوال الشخصية.

وفي مداخلتــه استعرض الدكتور دانييل نيومــان الذي يترأس القسم العربي بجامعة دارم مســيرة الحــركات الفكريــة الداعية لتحريــر المرأة في العــالم العربي من رفاعة الطهطــاوي إلى قاســم أمــين ورأي بــيرم التونسي في المرأة الغربية في عصره، مؤكداً أنه بعد دراسته لكل هؤلاء استخلص أن أول مــن دعا فعليا لتحرير المــرأة والمساواة بما للمفهــوم المعاصر مــن مقاييس هو الطاهر الحداد، وهكذا تكون مســيرة تحرير المرأة في العــالم العربي قد بدأت فعلياً من تونس، وأضاف الدكتور أن كتــاب الطاهر الحداد يعتبر إلى جانب أنه عمل روائي قيم إضافية علمية.

أما الدكتورة رونق حسني وهي أكاديمية بريطانيــة من جـذور عراقية فقـد بدأت مداخلتهــا بمقولة طه حســين الشهيرة عن الطاهــر الحداد وهي «لقد سبق هذا الفتى زمنه بقرنين» ثم استعرضت محتوى الكتاب والأفــكار الراديكالية التــي يحملها، وآراء الكاتــب المعتدلة في مجال الديــن والقانون والطلاق والزواج وحقوق المرأة في عصره.

يذكــر أن الطاهــر الحــداد مــن روّاد عصر النهضة، ولد عــام ١٨٩٩، ودرس في كتاتيب تونس العاصمة، وتخرج من جامعتها «الزيتونــة»، وعمــل ماسك دفاتــر في أحد دكاكين سوق العطّارين ثــم كاتبا بالجمعيّة الخيريّــة، وقد نشــر العديد مــن المقالات الجريئــة في الصحــف التونسيــة كجريدة «الأمة» و«مرشد الأمة» و«إفريقيا»، كان من الــروّاد المبكرين للحركــة النقابية، وأصدر كتــاب «العمّال التونسيــون وظهور الحركة النقابيــة» عام ١٩٢٧، الــذي صادرته إدارة الأمن فور صدوره.

وقد أثــار كتابه المشار إليه حين صدوره عام ١٩٣٠ ردود أفعال شديدة، حيث كفرته بعض الجهات الرجعية والأصولية، واتهمته بالإلحــاد والزندقــة وجرَّدته مــن شهادته العلميــة وطالبــت بمنعه من حــق الزواج وبإخراجه من الملة، وتمَّ منعه من العمل.

مــات الحــداد في ريعان شبابــه يوم ٧ ديسمــبر /كانــون الأول سنــة ١٩٣٥، لكن الشعــب التونسي ونخبته المثقفــة والمتنورة فكرياً قدرت عاليــاً الدور الريادي، فقامت بتكريمــه على أكثر من صعيــد، كان أهمها تضمــين مجلة الأحــوال الشخصيــة، التي صــدرت عــام ١٩٥٦، الكثــير مــن أفكار واقتراحات الطاهر الحداد، الذي قال عنه آنذاك وطه حسين: «لقــد سبق هذا الفتى زمنه بقرنين». (٨)

الكوني والترجمة:

في ندوة نقدية جمعت بين الروائي الليبي إبراهيم الكــوني، واليوت كولا مترجم رواية الكــوني «التــبر» إلى اللغــة الإنكليزية، قال الكــوني: إن روح المؤلــف تبقى في الترجمة، بقدر مــا تكون هذه الترجمة جيدة، ليصبح الكتاب من وجهــة نظره خاصاً بالمترجم في النهائية.

وأشــار الكوني إلى أنــه من هذا المنطلق كانت الجوائز في رواياته تمنح للمترجم، إلاّ في سويسرا كانوا يصــرون أن يمنحوها له، وهو ما يجعل المترجــم يحزن لذلك، وبهذا كان يتنــازل، كنت أتنازل لهــم عن القضايا المالية فالجوائز ليست مالية، كما يقول.

ويضيف الكــوني: إن ترجمة النص إلى الأجنبية تعتبر احتفاء بهذا النص، فإصدار

الكتاب في الغرب يعني حدثاً يواكب ولا ينسى، في كتابتك التي تتزايد كل عام، وكل هذا ناتج عن حضور النقد في أوروبة الذي يجعلك تضاعف قدراتك التخيلية.

وعن رأيه بترجمة أعماله إلى ٤٠ لغة أكد الكوني أن الهدف من الترجمة هو التواصل مع الآخر، قائلاً: يجب أن نتعلم في حياتنا كل يوم، وأنا أعيش في أوروبة منذ ٤٠ عاماً، وكنت هناك منذ كان عمري ٢٠ عاماً، فأنا إنسان متلق أعطتني الحياة أكثر مما أعطيتها، لأنني قرأت كل الثقافات.

وأكد الكوني على أن الحضور في الثقافات الأخرى شرط ملازم لأي مثقف، وحول الصحراء قال: نحن لا نرى في الأشياء إلا ظلال الأشياء المفقودة، وأنا لا أكتب عن الصحراء كمكان، بل هي رديف وجودنا الإنساني، والمدى هو الوجود، والمغامرة وأضاف: للأسف انتشرت أعمالي في أوروبة واليابان، لأنهم يشعرون بهذا، لأنهم أسرى البحث عن الحقيقة، هناك روايات سهلة وأخرى صعبة وفي أوروبة تجد الأخيرة الرواج الأكبر فالنص الذي يحكم وليس الانطباع.

وتحدث كولا عن تجربته في ترجمة الكوني مشيراً إلى أن الصحراء التي كثيراً ما يكتب عنها الكوني تعتبر في الغرب رمز للخلاء، لكنها عند الكوني أبعد من أن تكون بيئة، بأنها تشبه فكرة البحر، مثلما فعل همنغواي في روايته العجوز والبحر، ولذلك عندما ترجمت الكوني كان علي أن أبحر في آداب أخرى، ومن هذا المبدأ قال كولا: ترجمت الكوني لأجل أن أطرح الأبعاد العميقة، والرموز، الموجودة في الرواية، وأبعادها. (٩)

كافكا بلغة الضاد:

صدرت عن دار الشروق في القاهرة ترجمة عربية لرواية مصورة مأخوذة عن رواية المحاكمة لفرانتس كافكا الذي يعد من أكثر الكتاب تأثيرا في الأدب الغربي ويرى كثيرون أن غموض أعماله منحها أهمية مستحقة.

والرواية التي رسمتها الفرنسية شانتال مونتلييه وأعدها ديفيد زين ميروفيتز هي معالجة أخاذة لرواية كافكا على حد تعبير دار الشروق التي نشرت الرواية بترجمة فادي عوض ومراجعة أحمد محمود.

وتدور الأحداث الغامضة للرواية حول «جوزيف ك» الذي يلقى القبض عليه ذات يوم بسبب جريمة لا يعرف عنها شيئا ولا يشرحون له تفاصيلها ويظل باحثا عن أسباب اعتقاله ثم يجد نفسه ضحية لسلسلة من الإجراءات الغامضة الباعثة

علـى التشوش والأقـرب إلى عبث خال من المنطق كأنه كابوس.

وقـال الناشر: إن الروايـة التي تقع في ١٢٧ صفحـة كبيرة القطـع متاهة قضائية تبتلع مواطنـاً بريئاً.. لوحة شديدة الوضوح للبيروقراطيـة المتسلطة التـي تدهس حياة مواطنيهـا المغربـين. ولهذا فـإن المحاكمة مناسبة لمقتضـى الحـال الآن مثلما كانت دائما.

ويعد كافكا -١٨٨٣-١٩٢٤- رائداً لتيار عبر عن الاغتراب النفسـي والاضطهاد في أعماله ومنها: المسخ والقلعة، ويقول الناشر: إن كافـكا رفضـ نشـر معظـم أعماله في حياته، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك حينما أوصى صديقه المحرر ماكس برود أن يحرق كل أوراقه بعد موته. لكن برود آثر ألا ينفذ وصية صديقه، ونشر برود المحاكمة في العام التالي لوفاة كافكا. (١٠)

سو تونغ يفوز ببوكر الآسيوية:

فاز الكاتـب الصيني سـو تونغ بجائزة مـان لهذا العـام، وهي النسخـة الآسيوية من جائزة بوكـر، متفوقاً على مجموعة من الكتاب الهنود.

وتتمحـور الرواية التي حملـت عنوان قارب الخلاص حول محاولات موظف منبوذ من الحـزب الشيوعي لإعـادة بناء حياته، حيث تـدور أحداثهـا حول حيـاة مسؤول حزبـي يغـازل النساء ويخصـي نفسه بعد نفيه على مـتن زورق نهري مع ابنه الصغير إثر الأحداث الصاخبـة للثورة الثقافية في أواسط ستينيات القرن الماضي.

واعتبر سـو في أول تعليق لـه بعد نيله الجائزة إنه يشعر أن الحكم بمنحه الجائزة اتصف بالاستقلالية، موضحاً أن الأمر مهم بالنسبـة لـه لأنه لا يعد نفسـه من الكتاب المشاهير.

وتتصف كتابات سو بالسوداوية وتستمد شعبيتهـا مـن استفزازيتها، لكنهـا تعرّضه بالمقابل للمتاعب مع السلطات في بلاده.

ووصفت لجنة التحكيم المكونة من ثلاثة أعضاء بينهم الكاتبان الهندي بانكاج ميشرا والإيرلنـدي كـولم توبين، رواية سـو بأنها أسطـورة سياسية متعلقة بالمتشردين، علاوة علـى أنها «حكاية رمزية عن الرحلات التي نقـوم بهـا في حياتنا، والمسافـة بين قارب رغباتنا والأرض الجافة لإنجازنا».

ولسـو العديـد من الروايـات الأخرى، وتعد روايـة زوجات وخليـلات التي كتبها عام ١٩٨٩ الرواية الأكثر شهرة بين أعماله، وقد تحولت إلى فيلم بعنوان «ارفع الفانوس الأحمر» للمخـرج الصينـي تشانغ ييموو، وكتب سو سـت روايات منهـا رواية «الأرز

وحياتي كإمبراطور» التي صدرت عام ٢٠٠٦، وتهدف جائزة مان الآسيوية الأدبية إلى التعريف بكبار كتّاب المنطقة ومنحهم منبراً للوصول إلى جمهور دولي أوسع. (١١)

إحالات

١- وكالة الأنباء اليمنية «سبأ» WWW.SABANEWS.GOV.YA.

٢- وكالة أنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٣- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM.

٤- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG.

٥- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

٦- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.

٧- وكالة الأنباء السعودية WWW.SPA.GOV.SA.

٨- وكالة الأنباء التونسية WWW.AKHBAR.TN.

٩- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM.

١٠- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

١١- موقع قناة الجزيرة WWW.ALJAZEERA.NET.

كتاب الشهر



بلاد الرافدين وعيلام

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن ❋

منذ البـــدء في الكتابة التاريخية، والعمل على الحفر الأثري، بدأت ملامح تشـــكل أولي لتاريخ المنطقة السورية وبـــلاد الرافدين، وبدأت الدراسات تظهر الواحدة تلو الأخرى، سواء أكانت بالعربية أم باللغات الأجنبية.

قرأنـــا بعض الدراسات عن الحضـــارات: السومرية والبابليـــة والآشورية والكنعانية والفينيقية والآرامية.

لكن قلة هـــي الدراسات التي قدمت عن المحيـــط الجغرافي لهذه المنطقة عـــن العلاقات بين الحضـــارات السابقة الذكر ودول الجـــوار.. كان الأمر وما

❋ باحث سوري.

يزال يحتاج للعديد من الدراسات المقارنة. لكن ذلك لم يمنع من ظهور دراسات مقاربة معرفية أولى عن حضارات الجوار: بلاد عيلام، وبلاد الحثيين، والميتانيين وغيرهم من الأمم والشعوب.

وبدأت هذه الدراسات بمقاربة خجولة لمجمل هذه العلاقات على الصعد كافة: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية.

كتابنا لهذا الشهر، يبحث في وجه من أوجه هذه العلاقة، بين حضارتين متجاورتين. عنوان الكتاب: بلاد الرافدين وعيلام -العلاقات الحضارية في التاريخ القديم. المؤلف الدكتور نصار سليمان السعدون، باحث وأكاديمي عراقي، متخصص بالتاريخ القديم لمنطقة بلاد الرافدين. يقع الكتاب في /٣٤٥/ صفحة من القطع الكبير، وصدر عن دار إنانا للطباعة والنشر بدمشق للعام /٢٠١٠/.

نحاول في هذه العجالة تقديم لمحة موجزة عن الكتاب، بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

❀ ❀ ❀

١- تاريخ العلاقات بين بلاد الرافدين وعيلام في الألف الثالث قبل الميلاد

تقع بلاد عيلام إلى الشرق من جنوب العراق، وكانت على اتصال به منذ العصور المبكرة. أطلق السومريون على هذه المنطقة اسم (NIM-KI) والذي يعني الأرض المرتفعة. أما التسمية الأكادية فهي (إيلامتو Elamtu) وهي مشتقة من العلو والصعود، أي الارتفاع. وفي العيلامية فإن التسمية تعني «أرض الإله». كما ورد اسم عيلام في التوراة والإنجيل.

أما الموقع الجغرافي، فإنه خضع لمد وجزر من كرمنشاه في الشمال الغزبي إلى طريق خراسان الكبير القادم من بغداد في الشمال. ومن وجهة جغرافية كانت عيلام امتداداً طبيعياً لسهول الرافدين.

الطرق التي كانت تربط بلاد عيلام مع العالم الخارجي وبلاد الرافدين تمّر عبر منفذين: من مدينة سوسة نحو محافظة ميسان ثم مدينة بابل. ومن سوسة وبابل إلى الوسط العراقي.

المناخ قريب من مناخ بلاد الرافدين من حيث درجات الحرارة العالية باستثناء المناطق الجبلية. وتروي أراضي عيلام مجموعة من الأنهار: الكرخة وويز والكارون والمارون وزهرة.

تكوينها البشري كان مفتوحاً لمجيء موجات عدة من السكان الجوابة للشرق الأدنى القديم. ولكن ما تؤكده الأبحاث أنهم كانوا أقواماً متقدمة على الأقوام الإيرانية من الفرس.

المراكـز العيلامية الأهــم في الجغرافية هـي: سوسة وأنشان وشيماشكي.

تؤكـد الكشـوف الأثرية وجـود علاقة مبكـرة بين العيلاميين وبـلاد الرافدين منذ العصر الحجري الحديث في العراق وفي بلاد عيــلام في مدينــة (برسيبوليس). وفي خلال عصر فجر السلالات نلاحظ بروز الأحداث الحربيــة الموثقــة والــدلالات علــى النفوذ السومري في بلاد عيــلام. علاقة برزت بين الاقتصاد والصراع العسكري.

في العصر الأكادي حققت بلاد الرافدين نفوذاً قويــاً في بلاد عيــلام إلى الحد الذي جعل اللغة الأكادية تحل محل اللغة العيلامية، بدءاً من سرجون الأكادي (٢٣٧١- ٢٣١٦ق.م) مروراً بريموش بن سرجون وما نشتوسو أخيه، ثم نارام -سين، وشار -كالي -شاري.

في العصــر السومــري الحديــث تسببت هجمــات الكوتيــين في إنهاء حكــم السلالة الأكدية، وقد سقطت بلاد عيلام مع الأكاديين. مع سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ق.م) طرد الغزاة الكوتيــين في أول حرب تحرير عرفها التاريخ ووحد ملوك بــلاد الرافدين وعيلام ومن ملوك تلك الفترة: أور-نمو، شكلي، أمار -سين، شو-سين، أبي - سين.

❁ ❁ ❁



٢- تاريخ العلاقات بين بلاد الرافدين وعيلام في الألف الثاني قبل الميلاد

تمتــد هذه المرحلــة من العصــر البابلي القــديم (٢٠٠٠-٥٩٥ق.م). شهــدت هــذه الفــترة قيام عدة دويلات متعاصرة حتى قيام حمورابــي. وفي بلاد عيلام كان نظام الحكم عبارة عن اتحاد وإمــارات أو دويلات بإدارة أحد الأمراء المعينين من قبل البابليين.

في سلالة بابل الأولى التي بدأت (١٨٩٤-١٥٩٥ق.م) وكانــت مرحلــة أمورية أسست دولــة لها في بابل. أما بلاد عيلام فقد قامت فيهــا سلالة جديــدة عرفت باســم السلالة (الإيبارتيــة=١٨٥٠ق.م). وقــد تمتعت بلاد عيلام في هذه الفــترة بالاستقلال السياسي عن بلاد الرافدين.

في العصر الآشوري القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠ق.م) أسس الآشوريون مملكتهم في شمال بلاد الرافدين. تولّى الحكم عدد من الملوك منهم (شمشي أدد الأول) الذي تمكن من السيطرة على بلاد آشور مؤسساً إمبراطورية امتدت من جبال زاغروس حتى المدن السورية شرقاً إلى الأراضي الشمالية من بلاد عيلام مقاوماً الانفصال عن مملكته. وقد كانت العلاقة بين العيلاميين والآشوريين عدائية.

بدأ العصر البابلي الوسيط (١٥٠٠ق.م) في بلاد بابل على أثر انسحاب الحثيين. كان عصراً طويلاً ومستقراً. وعرف باسم السلالة (الكاشية) طوال أربعة قرون. وكان يقابله في بلاد عيلام الملك (تاتا TaTa) من السلالة الإيبارتية. وفي هذه الفترة فتحت بلاد عيلام وعاصمتها (سوسة) بعد صراع عسكري طويل.

ما حدث في الفترة البابلية حدث في الحقبة الآشورية إذ وصل الجيش الآشوري إلى العاصمة (سوسة) والأقاليم المجاورة لها.

❁ ❁ ❁

٣- تاريخ العلاقة بين بلاد الرافدين وعيلام في الألف الأول قبل الميلاد.

شهد العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ق.م) تعاظم الدولة الآشورية. إذا امتد نفوذهم إلى معظم بلدان الشرق الأدنى القديم. كما كانت الدولة الآشورية في حالة صراع مع العيلاميين، حالات صراع امتازت بتدخل عيلامي في الشؤون الداخلية من خلال التحالف مع حركات انفصالية، والتي انتهت بتدمير عاصمة عيلام القديمة (سوسة). وبقيام الدولة البابلية الحديثة (٦٢٦-٥٣٩ق.م) تواصلت هذه الدولة مع من سبقها (الدولة الآشورية) في حكم البلاد بمنجزاتها السياسية وتراثها الحضاري. من أهم ملوك هذه الدولة الآشورية: شلمنصر الثالث.

في الإمبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٤-٦١٢ق.م) اعتلا (تغلات بلاصر الثالث) الحكم، والذي سمّي أبو الإصلاحات، وخاصة الجيش. وقامت السياسة الخارجية على أساس أربع مراحل: المرحلة الأولى (الانتهاك)، والثانية (الهجوم)، والثالثة (الهدنة القصيرة)، والرابعة (التدمير) وفيها حطمت الإمبراطورية الأرمنية والعيلامية. ومن أشهر قادة هذه الفترة (سرجون الثاني) وسنحاريب وأسرحدون، وآشور بانيبال.

٤- الجوانب الحضارية لعلاقات بلاد الرافدين مع بلاد عيلام

شهدت أرض بلاد الرافدين قيام حضارة عريقة امتد أثرها إلى دول الجوار عبر عصور حضارية مختلفة. اتسمت بالمبتكرات والعطاءات الفنية والحضارية، والتي كثيراً ما أثارت حقد الأقوام المجاورة.

لقد عُدت بابل مهداً لحضارة الشرق الأدنى القديم. فهنا اخترعت الكتابة، وأصبحت الآداب والعمارة والفنون العراقية القديمة أمثلة تحتذى.

كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في العاصمة العيلامية وأماكن أخرى، عن عمق الصلات الحضارية مع بلاد الرافدين.

لقد وجدت في عيلام العديد من الفنون المقلدة للنماذج الرافدية القديمة، فالتجارة حملت معها معالم الفن. وقد برز ذلك في: الفخار والأختام الأسطوانية، والنحت والعمارة.

أما التأثيرات الثقافية فقد برزت في أوجه عدة منها: اللغة، إذ تميزت حضارة بلاد الرافدين أنها مهد اللغات العالمية من سومرية وبابلية وآشورية. وقد تأثر العيلاميون بالكتابة السائدة في بلاد الرافدين وظهر الخط العيلامي القديم الذي هو تصوير للخط السومري (المسماري)، وحلّت اللغة الأكادية محل اللغة العيلامية واستخدمت الأسماء الرافدية.

في الجانب الديني تميز بالتداخل بين الدين العيلامي والرافدي مع خصوصية عيلامية. برزت في التبجيل والاحترام غير العاديين للأنوثة النسوية الخالدة وفي عبادة الأفاعي.

في الجانب القانوني اكتسحت الحضارة الرافدية العالم كله من خلال التشريعات القانونية (أورنمو) لبت عشتار، أشنونا، حمورابي). وقد أثر ذلك على بلاد عيلام. فقد اعتمد القادة (العيلاميون) على القانون الرافدي المكتوب، على الرغم من وجود قانون عيلامي شفوي.

العلاقات الاقتصادية كانت أساساً في مجمل العلاقات الأخرى، وقد ظهرت بشكل جلي في التجارة. فقد ارتبطت بلاد الرافدين بطرق تجارية عدة مع الدول المجاورة. وخاصة بلاد عيلام من جهة الشرق. وبرزت التجارة بقوة في مجال المواد الأولية كالأخشاب والأحجار الكريمة والمعادن من بلاد عيلام.

❁ ❁ ❁

ما قدمناه قراءة أولية للكتاب في خطوطه العامة. نعتقد أن ما يحتويه الكتاب يثير مادة قرائية هامة في تاريخ العلاقات الدولية. ومادة خصبة لدراسة التطورات التاريخية للجغرافيا السياسية للدول. من خلال صراع يتخذ سمة (صراع الحضارات).



سباق الفئران؟!

رئيس التحرير

قال محدثي: لقد أصبح في وقتنا الراهن، الحديث عن الأخلاق ومكارمها نوعاً من التخلّف والتجمّد في سلفية فكرية غافلة وفاشلة.

قلت: صحيح أن العصر متماد في المنطق المادي الذي لا يحسب حساباً لحدود الأخلاق، فالحق مع الأقوى وله، والقوة مع الغني وله، والنجاح يسرح ويمرح في ملاعب المال ورأسه، وذنب الغني مغفور لأن في

الغنى وبه إبداعاً محصّناً لا تتوصل إليه بلادة الفقر، فالفقر بليد على الأرض المتخلفة.. ومع كل هذا وذاك، ما زالت أصوات الخير كثيرة والدنيا مذ كانت لها شرورها، وتبقى الأخلاق أساس التوازن وبها حرمة الوجدان والفكر السليم.

قال محدثي: ولكن الوعي الإنساني والفكري مازال عاجزاً عن فرض القيم الأخلاقية في حياة الناس، كأن الحق لا يلتقي بالحقيقة، وكأن الخير جزء من وعي طوباوي.. أي خلل هذا الذي يضرب عمق أعماق وجودنا..

قلت: إن منطق الحساب المادي يعمّ العالم، والتردي الاجتماعي والاقتصادي يؤدي بالضرورة إلى التردي الأخلاقي، وقراءة التاريخ الحديث والمعاصر هي أسوأ ما يمكن للإنسان أن يفعله، لذلك دعنا نعود إلى التاريخ القديم الذي يخبرنا أن التاريخ لا يمكن أن يقف ثابتاً عند وضع واحد، بل لا بد من أن يتحرك، إلى الأمام أو إلى الخلف، ونحن في عالم اليوم نتحرك إلى الخلف. والظروف العامة السائدة هي التي تقرر المخرج من هذه الظروف ومن الحقائق المعروفة أن مفكري عصر النهضة في أوروبة هم الذين حركوا عجلة التاريخ في الطريق السليم بعد طول تعثر وركود، وكانت نهضة الفكر العلمي والأخلاقي هي التي حرّكت الناس إلى ذلك أي إنها هي التي حركت التاريخ والحضارة ودفعتهما إلى السير في طريق مستقيم يتجه إلى الأمام بدلاً من الدوران في الدائرة المفرغة العقيمة.. لقد عكف الفلاسفة على التاريخ يدرسونه ويستخرجون الأحكام والنظريات من تجارب الأمم، ومن خلالها استطاعوا أن يبدعوا فكراً جديداً واسع المدى.. البحث هو الذي قصّر الطريق وساعد على قيام نهضة فكرية علمية شاملة.

قال محدثي: أحدثك عن التردي الأخلاقي، فتقودني إلى التاريخ القديم وعوامل النهضة الأوروبية؟!

قلت: ولكن النهضة الأوروبية اعتمدت على أفكار «مونتسكيو» و«فيكو» و«دالامبير» وغيرهم الأخلاقية.. هذه الأفكار التي انتقدت بشدة منطق «سباق الفئران للوصول إلى ثراء أكثر» وكانت ترى أن السعي لكسب العيش عن طريق

العمل المثمر مثل فلاحة الأرض وزراعتها، وممارسة الصناعات اليدوية، وتوفير حاجات الجماعة من البضائع عن طريق المتاجرة في غير إسراف.. تؤدي إلى سعادة أكبر مما تؤدي إليه الثروات الكبيرة المتجمّعة في أيدٍ قليلة..

فساد الأخلاق أوصلنا إلى الطريق المسدود وإلى الحالة التي نحن عليها، عندما ندرس التاريخ ندرك جيداً حجم العمل الكبير الذي قام به أجدادنا في العصرين الأموي والعباسي، وندهش من عظمة الإنجاز والإبداع الذي تمَّ بفضل الأخلاق، وأقول واثقاً أن الأخلاق الحميدة، كانت وراء جميع المنجزات الحضارية التي قام بها العرب خلال التاريخ فجميع الحضارات التي قامت لديهم من سومرية وآكادية وبابلية وكنعانية وعمورية وآرامية وتدمرية ويمنية وإسلامية هي حضارات أخلاقية، الكلمة فيها كان لها فعل السحر..